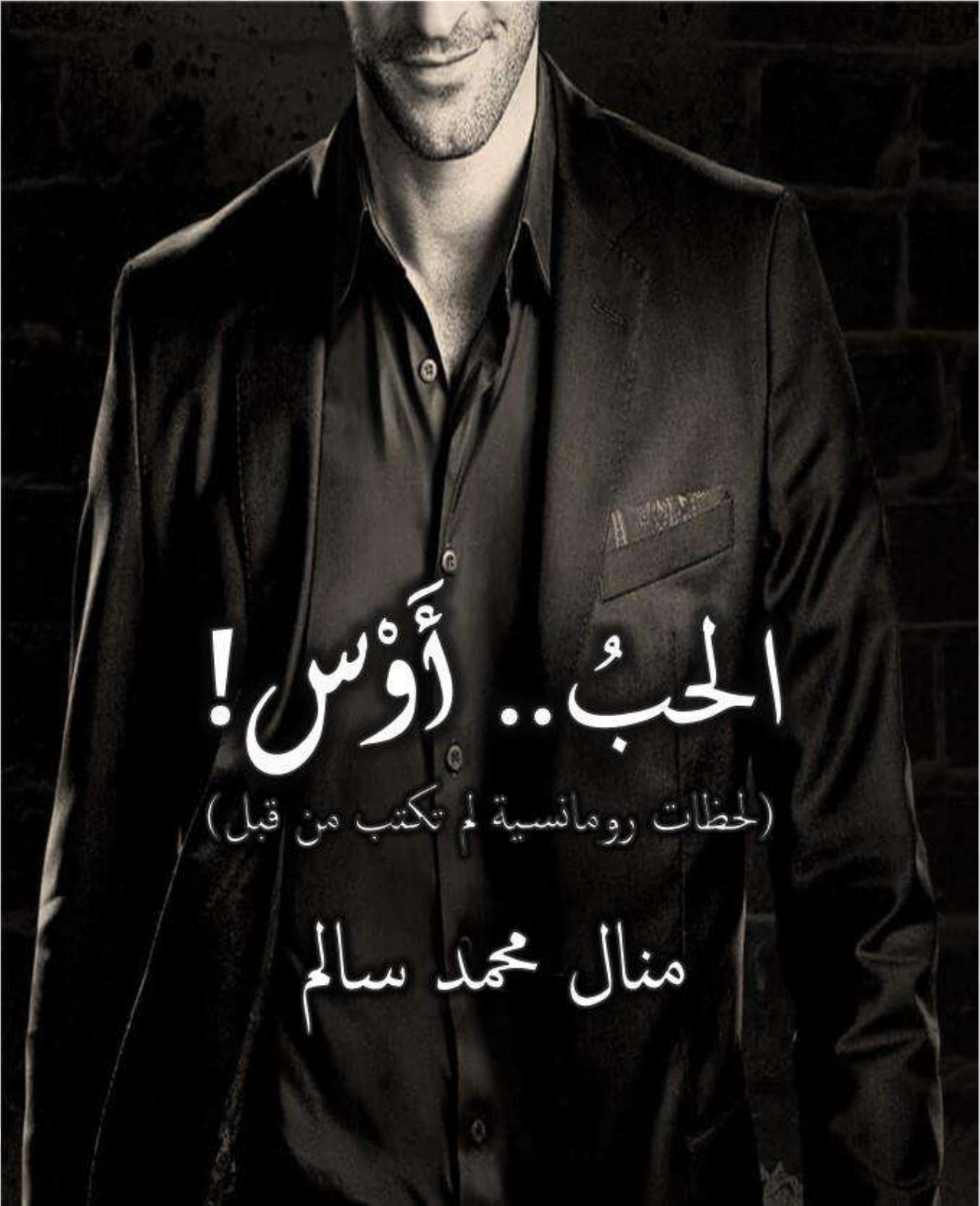




الحب.. أَوْس!

(لحظات رومانسية لم تكتب من قبل)

منال محمد سالم

الحب أوس .. منال سالم

الحب أوس .. منال سالم

رواية

(الحُبُّ .. أَوْس!)

بقلم / منال محمد سالم

2019

جميع حقوق النشر محفوظة

لموقع

<https://www.facebook.com/LoveStories.by./ManalSalem>

قصص وروايات بقلم منال سالم



نوع العمل : رواية

اسم العمل : الحب أوس

اسم المؤلف : منال محمد سالم

الطبعة الأولى (إلكترونية) 2019

الناشر : موقع قصص وروايات بقلم منال سالم

التدقيق اللغوي : منال محمد سالم

تصميم الغلاف : منال محمد سالم

التصميم الداخلي : منال محمد سالم

جميع حقوق النشر الإلكترونية محفوظة لموقع قصص وروايات بقلم منال سالم

<https://www.facebook.com/LoveStories.by.ManalSale/m>

الحب أوس .. منال سالم

الإهداء

"إلى عائلتي بأكملها، إلى القراء الأفاضل، والمتابعين الشغوفين لما يسطره قلبي في كل مكان .. "

منال سالم

كلمات المقدمة

وظَلَّ دَرِي مُوحِشًا بِلا رَفِيقٍ يُؤْنِسُهُ،
وَبَقِيَ قَلْبِي وَحِيدًا بِلا حَبِيبٍ يَعِشِقُهُ،
حَتَّى أَتَتْ هِيَ وَلَامَسَتْ أَوْتَارَ الْفُؤَادِ،
ذَآكَ الَّذِي لَمْ يَكُن سِوَى بَضْعَةٍ مِنْ رَمَادٍ،
فَذَابَ فِي عِشْقِهَا وَبَدَدَ كُلَّ ظِلْمَةٍ وَسَوَادٍ..
فَأَذْهَبَتْ ثِقَاةَ عَشَقِ الْأَوْسِ،
وَأَسْكَرَتْهُ بِنَسَمَاتٍ مِنْ قَبَسِ
لِتَتَحَدَّى بِهِ أَشْوَاكَ الْبَاسِ
فَغَدَا جُرْحًا يَتَعَاثَى مِنْ يَأْسٍ...

-المقدمة-

خرج من مدخل البناية القديمة وهو يلقي سباباً يندى له الجبين لاعتناً بمنح الظروف التي تمنعه من الموافقة على خطبتها، أليس من حقه الزواج حينما ينتوي الإقدام على تلك الخطوة الشرعية السليمة؟ أم هو مجبر فقط على السقوط في بئر المحرمات ليشبع نزواته، ركل "منسي" بغيظ الحجارة الصغيرة التي صادفته في طريقه ثم اتجه إلى المقهى الشعبي وصدره منتفخ بغضب جم، لم ينتبه للمراهقة التي لكزها بقسوة في كتفها لتصبح فيه بحدة:

ما تفتح يا سيدي

ضاقت عيناه الملتهبان بشدة وهو يتطلع إلى وجهها الذي لم يلاحظه من قبل، أو ربما رآها ولكنه لم يعرها الانتباه، سألها بخشونة وهو يشعل سيجارته ليبدو أكثر همجية وعدائية:
-ولو ما فتحتش هاتعملي إيه؟

أدركت "هالة" أنها بصدد مواجهة غير محسوبة العواقب مع واحد ممن عرف عنه بوضاعته وخسته بين نطاق منطقتها، نظرت له باحتقار قبل أن توليه ظهره مغممة بكلمات متبرمة، حك "منسي" رأسه الحليق بطريقة مقرزة وهو يتابع تفاصيل جسدها الخبأ تحت ثيابها المدرسية بنظرات جريئة، أخفض يده ليفرك ذقنه النابتة محدثاً نفسه بابتسامة لا تبشر بخير:
طب وليه لأ؟ ما الأقربون الأولى!

أسرعت "هالة" في خطواتها لتختفي بداخل بنايتها قبل أن يلحق بها ذلك الفظ السمج ليزعجها عن عمد، هي تعلم مسبقاً بما فعله مع "تقى" من مضايقات لا تنتهي حينما كانت علاقتها غير مفهومة مع زوجها "أوس"، ربما لم تلقِ بالاً بمشكلاتها لاهتمام والدتها بمشاكل أختها الكبرى "بطة"، الآن هي بلغت السادسة عشر، وصارت عبئاً عليها، كانت تخشى كثيراً من تكرار نفس تجربتها المأساوية ويزج بها في عائلة تزدريها وتعاملها بشراسة، نفضت عن عقلها مخاوفها مؤقتاً لتكمل صعودها على الدرج، فهي بحاجة للتركيز في دراستها حالياً.

.....

شبت على قدميها محاولة بلوغ تلك الحلقة لتنزع الستارة منها، حتى وهي تقف على السلم الخشبي لم تبلغها بعد، تهدل كتفي "تقي" بيأس واضح عليها ملقية نظرة مزعوجة على وضع ستارتها المائل، أرادت تنظيفها مما علق فيها من أتربة، لكنها فشلت في إكمال مهمتها البسيطة، ضغطت على شفيتها محدثة نفسها بعبوس:

حتى دي مش هاعرف أعملها

وضعت يدها أعلى خصرها وهي تنظر إلى النافذة بشروء، كان المشهد منمقًا بالأسفل وكأن فنائًا معماريًا قد برع في رسمها، فالطرق مخططة بحرفية والحدائق الغناء تمر بينها لتضفي مظهرًا جماليًا يمتع الأعين، سنة مرت عليها منذ انتقالها للعيش في ذلك المجمع السكني بمنزلها الذي اختاره زوجها لتبدأ حياتها فيه بعيدًا عن رواسب الماضي وآلامه، مضى الوقت سريعًا رغم كونه مشحونًا بالكثير من الأحداث والقضايا، أخرجت تهيدة متمهلة من صدرها وهي تبتسم لنفسها برضا، فمن سيظن أنها تعيش الآن أحلى أوقاتها مع جلادها بعد أن قاست ما لا يتحمله بشر.

- "تقي"

قالها "أوس" بصوته الثابت الذي اخترق أذنيها لتلتفت نحوه ووجهها يكاد يتورد من حمرة الخجل، كانت لا تزال تعاني من حالة الارتباك حينما يياغتها بحضوره المفاجئ، اختلست النظرات نحوه لتجده كالعادة مستندًا ببذلة السوداء على باب غرفة نومها يتأملها بعينين شغوفتين تعكسان حبًا حقيقيًا لها وهو يدس يديه في جيبي بنطاله كانعكاس لهيبته وحضوره الطاعني، اعتدل في وقفته ليدنو منها بتؤدة وهو يسألها:

ليه مطلبتيش مساعدة من "عفاف" أو "ماريا"؟

تجمدت أناملها على طرف الستارة الذي تمسكه، شدت من قبضتها عليه محاولة التغلب على توترها الذي سرى في كل خيالها وهي تكافح للسيطرة على اضطرابها، أجابته ببسمة ناعمة:

مش أنا قولتك إني مسئولة عن تنضيف أوضتنا

وكان في كلماتها تلميحا خفيا لكون غرفتها محظورة على غيرها، برقت عيناه بوميض لامع عكس رغبة شبه مقروءة، وقف قبالتها رافعا حدقاته نحوها ليتأملها بعشيق، مد يده ليمسك بكفها وداعبه بأصابعه هامسا لها:

-بس أنا مش عاوزك تتعبي

ارتجفت من لمساته الخبيرة التي باتت تؤثر فيها بشكل كبير، حاولت سحب يدها من بين أصابعه القابضة عليها برفق وهي ترد برقة:

-هو أنا بأعمل حاجة مهمة؟ أغلب وقتي مقضياه مع "حياة" وبس

انقرجت شفتها بقلبي حينما رأيته يصعد على درجات السلم الخشبي القصير ليبدو أكثر طولاً منها، رفع ذراعه للأعلى ليبلغ الحلقة الناقصة ثم انتزعها بكل سهولة تاركا الستارة تهار على الأرضية، تعلقت عينها به غير مصدقة ما فعله تَوّا، "أوس" يساعدها في عمل منزلي بسيط، حتما هي تحلم، رددت مذهولة:

-إنت بتعمل إيه؟

أكنفى بالابتسام من زاوية فمه، ثم هبط بجذري من على السلم دون أن يفلت يدها التي باتت أسيرته، تحرك "أوس" نحوها ونظراته مركزة عليها هي فقط، انعدمت المسافات بينهما مع فارق أنها لا تزال واقفة على السلم، شهقت بتوتر حينما رفعها من خصرها لينزلها من عليه دون أن يحرر ذراعه جسدها، ألصقها ب صدره ممعنا النظر في حدقتها الزرقاوتين، تلمس بيده بشرتها ببطء فاقشعرت وأغمضت جفניה مستسلمة لتأثير ما يحدث عليها، شعرت بأنفاسه الحارة تعصف بوجتها وتزيد من سخوتها مع همسه المتيقن:

-بأحبك!

جف حلقها من فرط التوتر المتحمس، خرج صوتها مسموعا بالكاد وهي ترد:

-وأنا كمان

عاودت "تقي" فتح عينيها لتنظر إليه بحبٍ لم تكن تتخيله، كل ذرة فيها أصبحت تتوق إليه، أحنى "أوس" رأسه على شفتيها لينهل من عسلها ما يروي ظمأ مشاعره المتأججة، لحظة وكانت محمولة بين ذراعيه يسير بها الهوينى نحو فراشها ليدون بحرفية في كتاب غرامها دليلاً مدموفاً على عشقه اللا محدود لها.

.....

- "يامن الجندي"

نطق أحدهم بذلك الاسم وهو يحمل في يده اللوح الورقي المطبوع عليه اسمه حينما رأى شاباً فتياً مقبلاً عليه، كانت به سمة مميزة لعائلة "الجندي" الحضور المميز، والمهابة الواضحة من تعابير الوجه، طالعه الأخير بنظرات حائرة تظهر غضباً مزوجاً بالكراهية وهو يرد بجمود:

- أيوه

أشار له الرجل بيده متابفاً بلهجة رسمية وكأنه إنسان آلي:

-تفضل يا فندم، "أوس" باشا مدي تعليمات نستقبل حضرتك أول ما توصل

نظر له شزراً من عينيهِ الشرستين ذات اللون العسلي، ثم وضع نظارته القائمة ليخفي حرمتها الغاضبة قبل أن يستقل السيارة التي كانت تنتظره خارج المطار.

الفصل الأول

لهثت وهي تركض صعودًا على الدرج لتصل إلى الطابق المتواجد به منزلها، لم تحبذ مطلقًا الاختلاط بأمثاله من العاطلين عن العمل ومحدثي الشغب، كانت لها أحلامها، أطعمها البسيطة، وأمانها، دقت "هالة" الباب بدقات ثابتة منتظرة فتح والدتها لها، تفاجأت بوجود أختها الكبرى "بطة" بالمنزل، ارتسم على شفتيها ابتسامة عريضة مرحبة بها:

-إتي هنا، وحشاني يا "بطة" أوي

احتضنتها أختها عند عتبة المنزل قبل أن تفسح لها المجال لتلج إلى الداخل، سألتها "هالة" بفضول متحمس:

-أومال "سمسم" حبيبي فين؟

أجابتها بتعب:

-نايم جوا على السرير، أنا مصدقت أرتاح شوية من دوشته

ردت بنفس الابتسامة الهادئة:

-ربنا يحفظهولك، ده جه بعد غلب

أخرجت "بطة" زفيرًا طويلًا حمل معه الكثير من التأوهات المؤلمة، للحظة تذكرت ما خاضته من معاناة شنيعة مع حمايتها ونهاية كادت تقضي على أنوثتها، ردت بوجه متجهم للغاية:

-ماتفكرنيش، هو اللي حصل فيا كان قليل، منها لله "إحسان"، ربنا يخلص منها و...

قاطعتها "هالة" بأسف:

-مايجوزش عليها دلوقتي إلا الرحمة

اضطرت "بطة" أن تبتلع باقي كلماتها الحارقة في جوفها، فلو ترك لها العنان لصالت وجالت في مساوئها، سألتها أختها باهتمام:

-وفين "عبده"؟

أجابتها بعدم أكثراث:

عنده كام شغلانة بيخلصها، أهو كل يوم بحال

سألتها مهتمة:

-يعني إتي أعدة معانا ؟

ردت مبتسمة:

لحد آخر النهار

ريت على كتفها مرددة بسعادة ظهرت في تعبيراتها:

-كويس والله

وقبل أن تثثر بالمزيد خرجت "أم بطة" من داخل المطبخ وهي تحمل فيها قطعة قماشية بالية،

جفت بها يديها المبتلة وهي تهتف بامتعاض:

-ما بتصدقوا تتلموا إنتو الجوز على بعض وهاتك يا رغي

ردت عليها "بطة" بضيق:

-في إيه يامه، مش بأطمن على البت "هالة"؟!

لوحث بذراعها صائحة بتهكم:

-ما هي زي القردة قصادك

أخفت "هالة" ضيقها من أسلوب والدتها التهمي الدائم على شخصها، فهي دومًا تثبط من أقل

شيء تفعله، وكأنها تتمنى لها الفشل لتثبت صحة وجهة نظرها، على عكس ابنتها التي تسعى

للخروج من القالب الفكري المتدني والسائد في عائلتها وأغلب قاطني منطققتها الشعبية لتثبت

أنها أكثر نضجًا وعقلانية وتستحق الأفضل والأرقى، أخرجت من حقيبتها المدرسية ورقة

فاخرة، برقت نظراتها وهي ترفعها في وجه والدتها قائلة بتفاخر:

على فكرة أنا خدت شهادة تقدير النهاردة من المديرية عشان

قاطعتها بعبوس محبطٍ لها:

وهما الي فلحوا في العلام خدوا إيه، شيلي القرف ده
اختفت تلك الإشراقة السعيدة من على ملامحها لتنظر بيأس حزين إلى أختها التي استشعرت
حالة الضيق التي تمكنت منها، صاحت "بطة" محتجة بقوة:
-ماتسبها يامه تفرح بنجاحها، ولا عاوزها تخيب خييتي
ردت عليها والدتها ببرود قاس:

-انتو كوم لحم في رقبتى، هأخذ إيه أنا من حته ورقة زي ده، هاتدفع مصاريف إخوانك؟
لطمت على صدرها متابعة عويلها:

-ما أنا لوحدي في الهم ده كله، محدش فيكوا حاسس بيا، أنا اللي بأشقى وبأطفح الكوتة وانتو
ولا هنا

ترقرقت العبرات بقوة في حدقتي "هالة"، لم تعرف بماذا تجيب أمها، أرادت فقط أن تشعرها
بالفخر وبقدرتها على تحقيق النجاح دون أن تحملها أعباء إضافية، لكنها بكلماتها الموجهة قتلت
فرحتها ونغصت عليها سعادتها المؤقتة، انسحبت من المكان مانعة نفسها بصعوبة من البكاء
أمامها لتختفي بالداخل، شعرت "بطة" بما اختلج صدر أختها وخنقها على الأخير، صاحت
بتذمرٍ وقد احتدت نظراتها:

خلاص يامه، مكانتش كلمة قولتلها، كده تكسري بخاطرها

ردت غير مبالية:

-هو أنا ناقصة

ثم تركتها وانصرفت لتكمل باقي عملها بالمطبخ، لحقت "بطة" بأختها لتطيب خاطرها، وجدتها
منزوية على الفراش تضم ركبتيها إلى صدرها وتبكي في صمتٍ، جلست إلى جوارها ثم مسحت
بودٍ على كتفها قائلة بها بتشجيع:

متزعزعلش نفسك، أمك وده طبعها، هنعمل فيها إيه

ردت بنحيب:

بس أنا مغلطتش، أنا كان غرضي أفرحها

دلكت "بطة" ذراعها لتقول بجدية قاصدة الشد من أزرها:

- "هالة" ركزي في دراستك وملكيش دعوة باللي أمك تقوله

ثم مدت يدها لتمسح دمعاتها متابعة بتأكيد وبحسم:

خليكي أحسن مني، إتي مخك نضيف، ومستقبلك قدامك، متدفينش نفسك في الوحل

عشان أي راجل، بصي لنفسك ويس، سمعاني

وكان في كلماتها المحفزة لها البلسم الذي أطرب صدرها وأثلجته، ردت وهي تهز رأسها بالإيجاب:

حاضر

احتضنتها "بطة" من الجديد ماسحة على ظهرها برفق وكأنها ترى في نفسها تجربة أخرى كارثية

على وشك أن تتكرر إن لم تكافح بشراسة للحول دون حدوثها.

.....

نظراته الحائرة ملأت حدقتيه وتشعب غضبه في عروقه فجلس في المقعد الخلفي بالسيارة

مشدودًا متأهبًا للتشابك مع من قد يتفوه بكلمة قد تنزع فتيل غضبته، فوالده "سامي الجندي"

قد زج به في السجن بعد إيقاع ابن عمه به، وانتزعت أملاكه منه في الوقت الذي تعذر عليه

العودة إلى القاهرة حتى حكم عليه وفقد الأمل كليًا في خروجه، ركز "يامن" عينيه على الطريق

الذي اختلف إلى حد ما عن آخر مرة تواجد بها هنا، حلق أمامه ليطالع السائق بنظرات

صارمة قبل أن يسأله بتشنج ظاهر في نبرته:

إنت رايح فين؟ ده مش طريق الفيلا

أجابه السائق برسمية حذرة:

معايًا أوامر من "أوس" باشا إني أودي سيادتك فندق 7 نجوم
رد متسائلًا بحدة أكبر:

-وليه مش الفيلا؟

حافظ السائق على هدوئه معلقًا:

-معنديش معلومات يا فندم

ضغط "يامن" على أصابع يده المتكورة بغیظٍ، استدار ليحرق في الطريق من جديد محدثًا
نفسه:

-ماشى يا "أوس"، أنا رجعت خلاص ولازم كل واحد ياخذ حقه!

فرك طرف ذقنه بيده المضغوطة عاقدًا العزم على استعادة ما يخصه، فرغم سنه الذي لا يتجاوز
الثالثة والعشرون إلا أنه يحظى بالسمة الرئيسية لعائلة "الجندي" القسوة والصرامة لتحقيق ما
يريد مع امتزاج عناده الخفيف بالهبة والتمرد، لوح له "يامن" بيده أمرًا:

-اطلع على شركة "الجندي"

اعترض السائق بلباقة:

-بس يا فندم آ.....

صاح به بصرامة:

-الى قولته يتنفذ، مش واحد زيك هايقولى أعمل إيه

رد معتذرًا:

-أسف يا فندم، الى تؤمر به

.....

حركت رأسها بصورة فجائية لتمنعه من تقبيلها وكأنها تتدلل عليه لتزيد من لهيب اشتياقه، ابتسم
لها قبل أن يكرر المحاولة وينحني على شفيتها فأدارت رأسها للجانب الآخر وهي تكتم ضحكة

متسلية عابثة، أغاظه الأمر فعمد إلى تثبيت ذراعها أعلى رأسها، رفع "أوس" حاجبه للأعلى ليرمقها بنظرة ذات مغزى، تراجع برأسه مسافة قصيرة لتمكن "تقى" من التطلع إلى عينيه بجذقيها الزرقاوتين، نهج صدرها علواً وهبوطاً من التوتر الخجل، كانت مدركة أن نظراته لا تحمل المزاح ولن تقبل به، همست له بوجه متوردٍ من حمرة الحب:

- "عفاف" موجودة، تقول علينا إيه؟ المفروض ...

قاطعها "أوس" بصرامة لا تليق إلا به:

-وايه يعني؟ في لحظة يكون كل اللي في البيت برا، أنا مبهزرش!

عضت على شفتها السفلى هامسة بتردد مرتبك:

- "أوس"، بلاش

سألها بوجه جامد الملامح:

قولتي إيه؟

توجست خيفة أن يكون تمنعها الخجل في ذلك الوقت تحديداً قد أغضبه بشكل أو بآخر، ردت عليه بحذرٍ وقد ظهر الارتباك في نبرتها:

-أقصد .. ما فيش داعي

بدا صوته عميقاً وهو يسألها بنفس الجدية:

-اللي قبلها!

ابتلعت ريقها قائلة بنظرات متوترة ووجه قد شحبت حمرة قليلاً:

- "أوس"

اعتلت ملامحه ابتسامة عذباء تذيب القلوب متودداً لها:

قوليها كمان مرة

بادلته ابتسامة ارتياح، للحظة ظنت أنها أحزنته، لكنها كانت مخطئة، فهو يعيشها حد الجنون،
تسرب حبها في خلاياه حتى باتت أنفاسه تنطق باسمها، سألتها بوجهها الذي عاد لتورده:

-للدرجادي بتحب تسمع اسمك؟

أجابها بثباتٍ قبل أن يحني رأسه على شفيتها لينهل منها قبلة عميقة:

-منك إتي وبس

زاد من تعميق قبلته لتشعر بعضلة قلبها تتراقص، وبحواسها تنتفض، وباستجابتها وجدانيا
بتلهف ورغبة لما يمنحه لها من مشاعره الصادقة، استسلمت للحظات لتيار حبه الجارف حتى
تأهبت حواسها واستيقظت مع شيء ما التقطته أذنيها، قالت بصوتٍ يكاد يكون مسموعاً:

-باين "حياة" بتعيط

رد بهدوء:

-أنا مش سامع حاجة

دفعته "تقي" من صدره بكفي يدها لتمكن من الهروب من تأثيره المحفز لجوارحها، انسلت من
بين أحضانها لتراجع على الفراش مرددة بتأكيد وعينيها تشعان بريقاً مثيراً لتقول له بدلال:

-بس أنا سامعها

رمقها "أوس" بنظرة متوعدة وهو يعتدل في نومته موسداً ساعديه خلف رأسه:

-تمام، أنا سايبك بمزاجي دلوقتي، عشان "حياة" نقطة ضعفي

كتمت ضحكها العابثة بصعوبة فتابع بتأكيد وبلهجة تعرفها جيداً:

-بعد كده مش هاتعرفني تهري مني، وإتي فهاني كويس

أومأت برأسها في خنوع:

-ماشى يا "أوس" باشا

ضبطت من هنداها قبل أن تخرج من الغرفة ليلتفت بعدها أوس إلى الجانب حيث هاتفه الموضوع على الكومود، تفحصه سريعاً ثم ضغط على أحد الأزرار ليهاذف أحدهم متسائلاً:

-ألو، إيه الأخبار؟

بدا وجهه غير مقروء التعبيرات لدقيقة وهو يصغي بانتباه لكل كلمة يسمعه من الطرف الآخر قبل أن يرد بجدية:

-أنا جاي الشركة

نهض عن الفراش متجهاً إلى الحمام ليغتسل قبل أن يبدل ثيابه، ففي مقر مؤسسته ينتظره من توقع مجيئه منذ وقت طويل.

.....

حك ذقنه النابتة بغير تهذيب وهو يجوب أروقة المنزل متفقدًا كل غرفة فيها على حدا، ورغم كون الأثاث قديماً به ولم يباع مثل أي شيء آخر إلا أنه لم يبد اعتراضه عليه، التفت "منسي" نحو مالك البناية واضعاً قناع التأفف على تعابيره ليخفي عن عمد إعجابه بمنزل "حكمت"، فقد دار في خله فكرة تأجير المنزل بعد انتقال والدته عشيقته القتيلة للسكن في منزل آخر، بقي المكان مهجوراً، وصاحبه لم يهتم بتأجيره طوال الفترة الماضية حتى أشعل "منسي" الفكرة في رأسه، مدح مالكة المنزل مردداً:

-أديك شايف أهو، البيت حالته كويسة و....

قاطعه "منسي" محتجاً:

حالة إيه دي يا عمنا، إنت مش شايف الشقوق اللي ناطة من العماويد ولا الرطوبة اللي كلت الحيطان

رد عليه ببساطة:

فرشة معجون وكل ده يتحل

اعترض بازدراء:

وهو أنا معايا أكلف وأوضب في حاجة بايظة، دي ماتنفعش خالص، أنا هاروح أشوف غيرها
أولاه "منسي" ظهره ليتجه نحو باب المنزل لكن استوقفه مالك البناية يرجوه بشدة عله يتمكن
من إقناعه بتأجير ذلك المكان الخرب:

-الكلام أخذ وعطا

أزاح قبضته من على ذراعه مرددًا بنبرة جافة:

-مايكلش معايا

سأله المالك مستسلمًا:

طيب إنت عاوز إيه يا "منسي"؟ قولي على اللي في دماغك

أجابه بعد تفكير متأن ليضمن وقوعه في مصيدته:

لو هاخدها يبقى على قديمه

ضاقت نظراته متسائلًا:

-قصداك إيه؟

أجابه موضحًا:

-زي ما كانت "حكمت" بتدفعلك يا حاج

اعترض عليه بحذر:

-بس الإيجارات علت و....

قاطعه بجدية وهو يسرع في خطواته:

-بين البايع والشاري يفتح الله، سلام

لحق به المالك متوسلاً برجاء أكبر كي لا تفسد البيعة:

-استنى بس، احنا لسه بنتكلم

التفت نحوه ليضيف ببرود:

ده آخر ما عندي، بس مش هتلاقي زبون للمخروبة دي، وخليها في عبك!
نكس الأخير رأسه ليحسم أمره سريعاً، فقد مرت أشهر على رحيل ساكنة المنزل دون أن
يتقدم أحد لتأجيره بسبب حالة البناية المتهاكة، وقدم المنطقة الشعبية وتدني الخدمات بها،
تهدد قائلاً بتخاذل:

-اللي تشوفوه يا "منسي"

تقوس فمه بابتسامة انتصار صغيرة، شعر بالانتشاء لكونه قد ظفر بالمنزل دون مجهود يذكر،
عليه فقط أن يعيد توضيب ما فيه ليغدو منزلاً ملائماً للزوجة، خاصة أنه قد وجد ضالته بين
فتيات المنطقة ممن لن يستطيع أهلها رفضه.

.....

تأمل بنظرات متهمكة ما تم إضافته من تعديلات بداخل مكتبه الفاخر ليتحول إلى ما يشبه
روضة الأطفال، تلمس "يامن" بيده الألعاب الطفولية التي تغطي مساحة معينة من زاوية
غرفة اجتماعات ابن عمه وهو يفكر في كيفية تحوله بتلك الطريقة ليصبح أكثر سخافة وأكثر
تراخيًا عن ذي قبل، "أوس الجندي" الذي عرف عنه بهيبته المرعبة، وطلته التي تلبد الأبدان
وتوقف القلوب لمجرد سماع اسمه، ببساطة تبدل هكذا ليكون ما عليه الآن، يمكنه تصديق أي
شيء إلا هذا، زفر "يامن" مطولاً وهو يستدير بجسده ليعود إلى مقعده ليجلس عليه منتظراً
قدومه، أخرج من جيبه علبة سجائره ليشعل واحدة، بحث عن منفضة للسجائر فلم يجد،
وتعجب لذلك، فابن عمه معروف عنه بشراسته للتدخين، اهتز هاتفه الموضوع على سطح
المكتب، أمسكه بأطراف أصابعه ليحدث بوجه ممتعض في اسم المتصلة، تهدد بزفير ثقيل قبل
أن يضغط على زر الإيجاب ليقول بنبرة مزعوجة:

-أيوه يا "رغد"!

أناه صوتها الحاد مخترقاً أذنه وهي تصرخ به:

-عملت إيه مع ابن عمك؟

رد باقتضاب:

لسه ماقبلتوش

صرخت به منفعة متعمدة الإشارة لاقتراضه منها:

-أومال بتعمل إيه كل ده؟ أنا مدفعتلكش تمن تذاكر الطيران وسددت ديونك عشان اسمع منك الكلام ده، لازم تشوف حل معاه، مش هاتسيه يقلت باللي عمله في بابا

لم تكن أخته الكبرى في مزاج قابل للتراخي أو التريث فيما أرادت فعله، كانت بحاجة لحسم جميع الأمور العالقة، فكلأهما انتقل للعيش في الخارج قبل فترة طويلة ليعودا في العطلات إلى فيلا والدهما "سامي"، لم يدخر الأخير وسعه وأنفق أغلب ما بحوزته على رفاهية الاثنين، بغض النظر عن تبعات جرائره الخارجة عن القانون في كثير من الأحيان مما لا يعرفها أحدهما، رد بعبوس كبير بعد أن نغصه حديثها اللاذع:

-حاضر يا "رغد"، مش لازم تفكريني، وقولتلك هاسددلك كل ديونك صاحت به بنفس الحدة:

-إنت بتاع كلام وبس، مش سائل في حاجة و...

مل من صراخها غير المنتهي فتحجج ببرود:

-مش سامعك يا "رغد"، الصوت يقطع، هاخلص وهاكلمك، سلام

أغلق هاتفه ليلقيه بعصية على المكتب وهو يتمتم بتبرم:

-أنا ناقصك إتي كمان!

ظل يحرك ساقه بعصية متلفتًا حوله بنظرات متوترة ومرددًا لنفسه:

-أما نشوف هترسى معاك على إيه يا "أوس"!

.....

في تلك الأثناء، توقفت سيارته الفارهة أمام مدخل مقر مؤسسته ليترجل منها أحد حراسه متولياً فتح الباب لرب عمله، ترجل "أوس" أولاً متابعاً بنظراته "تقى" التي أتت معه وبصحبتها رضيعتهما "حياة"، أرادت زوجته الاطمئنان على صحة ابنتهما والقيام بالكشف الشهري عند طبيب الأطفال المتخصص، لم يرغب زوجها في ذهابها بمفردها، كان حريصاً على الاهتمام بتفاصيل قطعة غالية من قلبه، لذا أصر على إحصار الاثنتين معه لتجلسا بانتظاره في مكتب السكرتارية ريثما ينتهي من أعماله العالقة، اصطحب أيضاً الخادمة "ماريا" والتي أتت في سيارة الحراسة لتعاون زوجته في رعاية الصغيرة، سار الجميع باتجاه الاستقبال تأهب الموظفون للقاء صاحب المؤسسة الذي لا يسمح أبداً بالمزاح أو يتهاون فيما يخصه، وطأت "تقى" بقدميها المكان، مازالت تشعر بنفس الرهبة تعتمها وهي تمر عبر بواباته وأروقته، ظلت ذكرياتها هنا تراودها بين الفنية والأخرى، استجمعت جأشها لتتغلب على رجفتها الطفيفة وضمت طفلتها إلى صدرها مستجمعة قوتها منها، هبت السكرتيرة واقفة من مكانها لترحب به قائلة برسمية حذرة:

-تفضل يا فندم، كل حاجة جاهزة زي ما أمرت، وال ...

قاطعها مشيراً بكف يده وبنظرته الصارمة فابتلعت باقي جملتها في جوفها، التفت "أوس" نحو "تقى" ليقول لها بصيغة أمرة:

-استني هنا، هاخلص شغلي وأجيلك

أومأت برأسها إيجاباً ثم مررت نظراتها سريعاً على المقاعد الشاغرة لتنتقي الأبعد والأكثر عزلة لتجلس عليه، اندفع "أوس" نحو غرفة مكتبه ليقابل ابن عمه الذي ينتظره قبل برهة بالداخل، اشتمت أنفه تلك الرائحة التي حرمها على نفسه قبل أشهر حينما كاد دخان سجائره أن يصيب زوجته بالاختناق في أشهر حملها الأخيرة، تحفز للغاية ومع ذلك حافظ على جمود تعابيرهِ وثباته، رمق ذلك الشاب الحائق بنظرة مطولة شملته من رأسه لأخمص قدميه قبل أن يسأله بنبرة شبه ساخرة:

-والمرادي جاي بأوامر مين يا "يامن" بيه؟ متقولش من نفسك!

رد عليه ابن عمه بغيط:

ماستقلش بيا يا "أوس"

رمقه بنظرة باردة خالية من العطف، استدار نحو مكتبه ليجلس عليه متسائلاً بجمود وكأن مشاعره الإنسانية تم إزالتها مؤقتاً:

-مقولتش جاي ليه؟

صاح به صارخاً بافعال وقد استشاطت نظراته وبرزت عروقه الملتهبة:

فين حقي؟

رد متسائلاً بهدوء مستفز يشعل الأجساد حنقاً:

-في إيه بالضبط؟

أجابه هادراً:

-في كل حاجة تخص بابا

جلس "أوس" باسترخاء على مقعده دون يرفع نظراته التي عادت لقسوتها من جديد عن "يامن"، رد بهدوء يستثير الأعصاب:

-اللي أعرفه إن عمي "سامي الجندي" مايملكش حاجة

ضرب "يامن" بكفيه بعصبية على السطح الزجاجي لمكتبه صائحاً بتشنج وقد تطاير الشرر من حدقتيه:

-إنت هتورثه بالحيا؟!!

هنا اعتدل "أوس" في جلسته ليبدو أكثر صلابة وهيبة حتى في جلوسه، تجمدت عيناه الصارمتين على وجهه ليقول بلهجته القوية:

عندك، أبوك مكانش أكثر من مجرد شريك فاشل سرقي، ده غير طبعا نيته إنه يقتلني

ورغم الصدمة التي حلت على رأسه من كلماته الأخيرة -والتي تضمن حقائق لم يعرف عنها شيئاً- إلا أنه رد بانفعالٍ كمحاولةٍ بائسة لحفظ ماء وجهه:

-كل ده مايدكش الحق تستولى على حاجاتنا، يعني إيه معرفش أروح بيتي، ولا إنت نسيت نفسك يا "أوس"؟ إنت ولا حاجة من غيرنا!

هب الأخير واقعاً من مكانه راکلاً مقعده للخلف ليتبدل إلى الشخص الذي كان عليه منذ زمنٍ، فهناك خط فاصل بين الهدوء والصرامة، بين اللين والشدّة، بين المسامحة والانتقام، التوى ثغر "أوس" للجانب ليتحدث بخشونة تدب الرعب في القلوب:

-ما تخلّش لسه اللي يقول كده عني !!!

.....

الفصل الثاني

احتدمت النظرات، وغلّت الدماء، وتبدلت الأجواء الحذرة إلى تهديدات منذرة بانفجارات وشيكة بين قطب عائلة "الجندي" وابن عمه الصغير، انتصب "أوس" في وقفته ليدو أكثر مهابة وطولاً، ضيق عينيه الصارمتين نحوه رامقاً إياه بنظرات لا تبشر بخير، كور "يامن" قبضة يده ضارباً بعنف على السطح الزجاجي من جديد ليهدر بعدها بتشنج:

-إنت مفكر نفسك مين؟

رمقه بنظرة احتقارية مليئة بالنقم والسخط وهو يتابع بصوته المحتقن:

-إله محدش يقدر عليه؟!

تحرك "أوس" من خلف مكتبه ليغدو قبالة بخطاه المترتبة وكأنه حيواناً ضارياً يتأنى في خطواته ليوقع بطريدته، كان يعلم في قرارة نفسه أن ابن عمه الصغير مرفه لا يعي من مصائب الحياة شيئاً سوى أن تكون طلباته مجابة حتى لو تكلفت الكثير، نفسه أولاً هكذا وصف الأمر باختصار، ناهيك عن كونه دائم الوقوع في المشاكل المادية التي تحتاج لحل فوري قبل أن يزج به في السجن، رد بابتسامته التي عكست عنجهيته المتغترسة رافعاً حاجبه للأعلى:

-لأ.. "أوس الجندي"

ثم دس كلتا يديه في جيبي بنطاله ليزيد من حنق ابن عمه الذي اشتعل واحترق مائة مرة ولم تهتز شعرة واحدة لـ "أوس"، أضاف الأخير ببرود قاس:

-وقبل ما تبعب بكلام إنت مش أده، اعرف اللي ليك واللي عليك

تحرك بؤبؤاه بعصبية متوترة، في حين استأنف ابن عمه معلقاً:

-سامي" ييه "الجندي" عمي المحترم.. نصاب

استشاط "يامن" غضباً، وجد صعوبة في كبح مشاعره من الثورة في وجهه والهجوم عليه، ربما لأن تلك الحقائق كانت مخفية عنه فأبطأت من ردة فعله، بذل مجهوداً مضاعفاً ليضبط نفسه، لاحظ "أوس" التحول الرهيب في تعابيرهِ التي أعلنت بصراحة عن قرب انفجاره، أخرج يده

من جيبه ليحك طرف ذقنه بإصبعيه وقد أطرق رأسه قليلاً للأسفل، عاد ليرفعها مضيئاً بنظرات ذات مغزى:

أو تقول حرامي، كان يسرقني وأنا سبته بمزاجي، ولما كشفته قال يخلص مني وأهوو إدارة كل حاجة تبقى تحت إيده، وناسي إن اللي يجي على حاجة تخصني ما برحموش! قست نظراته أكثر قائلاً:

إنت وأختك "رغد" كنتوا عايشين من خيري أنا، يعني ماسورة الفلوس اللي كانت مغرقو من جيب!

انحرف برأسه للجانب قليلاً ليسأله بغموض:

مسألتش نفسك ليه كل مصيبة والتانية بتطلع منها زي الشعرة من العجينة، من قبل حتى ما تتحاسب؟ أكيد مش بسبب أبوك!

كان محققاً في ذلك، فـ "يامن" كغيره من الشباب الأهوج الطائش كان يتصرف برعونة غير مبالٍ لتبعات ما يقوم به لتأكده من وجود من يسانده دوماً ومن سيخرجه من المصائب إن حلت على رأسه، ارتخت تعايره بدرجة ملحوظة وزاد توتر نظراته، في حين اشتدت نبرة "أوس" قوة وتهديداً وهو يحذره:

فقبل ما تقول حاجة أندمك عليها راجع نفسك، ودي فرصة ما بديهاش لحد!

جف حلقه تماماً، كان "يامن" بحاجة لإفراغ الشحنة المكبوتة بداخله، عفويًا أخرج سيجارة من علبة سجايره الملقاة بإهمال على المكتب ليشعلها دون تفكير، نظر له "أوس" بجدة وهو ينفث دخانها في الهواء، فقد كان محظوراً على من يؤسسته التدخين تحت أي ظرف وخاصة في حضوره، وها هو ابن عمه اليوم يكسر قاعدته الصارمة، حذره أمراً باقتضابٍ ومشيراً بمقلتيه اللاتين تحولتا للإظلام:

أطفئها

نظر له "يامن" ببلاهة، بدا كمن لم يستوعب أمره الواضح حقاً، ردد باستغراب كبير:

-افندم؟

رد عليه بغموض يحمل الشراسة:

-ما بعدش كلامي مرتين!

وضع "يامن" السيجارة في فمه ليستنشق دخانها معلناً بذلك عن تحديه له، وقبل أن يكمل سحب دخانها الذي يلهب صدره المتأجج مسبقاً، كانت قبضة "أوس" في طريقها إلى عنقه لتضربه بقوة وبصورة مباغتة وفجائية، اختنق الأخير وسعل بتحشرج محاولاً التقاط أنفاسه التي انحبست في صدره من شدة الضربة، ترنح جسده بالكامل وتحولت بشرته لكتلة مكتومة من الدماء المحترقة، لم يكن "يامن" قد أفاق من صدمته بعد حتى طرحه "أوس" أرضاً ليرتطم ظهره بعنف بالأرضية الصلبة، ثم التفت الأخير نحو المقعد لممسك به بيديه قبل أن يرفعه ويضعه فوقه ليشل حركته كلياً في ثوانٍ معدودة ومحاصراً لرأسه بين أرجل المقعد، تفاجأ ابن عمه الصغير من تقييده له بتلك الصورة المهيمنة، عجز عن التحرك أو التنفس، حدجه "أوس" بنظراته النارية قائلاً له بخشونة:

-أنا مبهزرش

رد عليه "يامن" بصوته المتحشرج وهو يتنفس بالكاد:

-إنت اتجننت!

رفع "أوس" ساقه ليضعها على المقعد ثم استند بقبضتيه على مسنديه ليلقي بثقل جسده عليه، بدا "يامن" كالفار المذعور وهو يحاول التحرر من بطشته المهلكة، هو يعرف طباعه جيداً، ولا يخفى عليه نزاعه الانتقامية الشرسة، هتف بتحدٍ رغم ضعف موقفه:

-مش هاسكت على المهزلة دي يا "أوس"

حرك ابن عمه شفتيه لينطق لكن ألجم لسانه دخول "تقى" غير المتوقع لغرفة مكتبه، بالطبع لن تفهم أبداً طبيعة الشجار بينهما، فغرت شفتيها مصدومة حيناً وقعت عيناها على ذلك الشاب المحتجز من قبل زوجها، نظرت بذعر إلى "أوس" وتحول وجهها للشحوب، خشيت

من عودته لطباعه العنيفة التي وضعت حياتها على المحك قبل أشهر معدودة، وبلا وعي منها ركضت نحوه لتدفعه من صدره هاتفة بهلج:

-سيبه يا "أوس"

رد عليها بغلظة رافضاً اهتزاز صورته أمام من يحاول تلقيه درساً في اتباع أوامره دون نقاش:
-ما يخصك كيش

صدمت من رده القاسي الذي أوقف فيها إحساسها الغريزي بالخوف منه، ومع ذلك تسلمت بشجاعتها التي اكتسبتها من مواجهتها له لترد بإصرار:

-وأنا مش هاسيبك تأذي حد

حاولت "تقي" إزاحته وتحريكه بعيداً عن المقعد لتمنح ذلك الشاب الغريب عنها الفرصة للنجاة ببدنه، لكنزته بيديها بكل ما أوتيت من قوة في كتفيه وصدره عليها ترحزحه من مكانه، لكن سبقها ذراع "أوس" الذي التف حول كتفها وأدارها في الاتجاه العكسي ليتمكن من إلصاق ظهرها بصدره، قبض على رسغها وقيد حركتها كلياً، تلوت بفزع مبرر من طريقته التي أنعشت ذاكرتها بما حاولت التغلب عليه من ذكريات لا تزال قريبة منها، همس لها من بين أسنانه المضغوطة:

-اخرجي من هنا حالا!

ردت "تقي" رافضة بعناد:

-لا

أدرك "أوس" أنه أخطأ بإحضارها إلى مؤسسته وهو على علم مسبق بوجود ابن عمه الأرعن فيها، لم يكن عليها رؤية ما سيحدث بينهما من مشاحنات وتهديدات، وربما أمور أسوأ بكثير، وقبل أن يمنحها الفرصة للرد أو حتى الاعتراض، شدد من قبضته عليها، أجبرها على السير معه وهو يدفعها برفق نحو باب الغرفة ليخرجها قسراً منها، غلبها بقوته الذكورية المعروفة لها، وتركها في حالة ما بين الصدمة وعدم التصديق، أضاف "أوس" بجمود:

-المرادي مش هاينفع يا تقى!

ثم أوصد الباب عليها ليعود إلى "يامن" الذي استغل الفرصة ليهب على قدميه واقفًا، نظر إلى "أوس" بعينين كالجمرتين صائحًا به:

-مش هاسكت عن البهدة دي

ضبط ابن عمه الكبير من هيئته ليبادل نظرات عدائية مخيفة معلقًا عليه:

-أنا حذرتك

لوح "يامن" بسبابته مهددًا:

-هنتحاسب يا "أوس"

رد عليه ببسمة متهمكة وهو يشير بيده:

-وماله، بس اتعلم تقف رجلك الأول قبل ما تفكر تناطح الكبار

.....

في تلك الأثناء، اندفعت "تقى" ووجهها محتقن بغضبها المفهوم من عنف "أوس" الذي طفا على السطح من جديد لتتحني نحو الخادمة "ماريا" متناولة رضيعتها منها، ضمتها إليها وهرولت خارجة من مكتب السكرتارية وهي تكافح انهمار عبارتها التي احتلت حدقتها بصعوبة، وقبل أن تصل إلى المصعد قابلها "عدي" في الرواق، اعتلته دهشة بسيطة لرؤيتها، فقد كان من النادر حضورها، حتمًا هي أتت بصحبة "أوس" لأمر يخص الرضيعة، نظر لها مبتسمًا ومرحبًا بها:

-مش معقول، إنتي بنفسك هنا، إيه الشرف العظيم ده

ردت باقتضاب وقد بدا صوتها مختنقًا:

-شكرا، عن إذنك!

تجاهلته مضطرة وأكملت سيرها المتعجل نحو المصعد، قطب "عدي" جبينه متعجبًا من حالتها فعادةً كانت تقابله بودٍ ولطفٍ رقيق تسأله عن "ليان" وأحوالهما سويًا، لكن تلك المرة بدت مزعوجة من شيء ما، لم يكن بحاجة للبحث عن تفسير مقنع لحالتها، أسرع في خطاه متجهًا نحو مكتب رفيقه ليتفاجأ بوجود ابن عمه الصغير به، تساءل مدهوشًا:

- "يامن"، إنت رجعت امتي؟

التفت الأخير نحو "عدي" الذي كان يعرفه لصداقته المقربة من "أوس"، تتم بحني وهو يضغط على شفتيه:

عقل صاحبك!

ثم لكزه بقسوة ليندفع مبتعدًا عنهما وهو يوشك على الانفجار غضبًا وغيظًا، سيطرت الحيرة على "عدي" الذي التفت برأسه للخلف ليحقق فيه متسائلًا:

ماله ابن عمك؟

رد بعدم اهتمام:

سيبك منه، وخلينا في شغلنا

أوما برأسه معلقًا:

-أوكي، بس "تقي" ماشية زعلانة ليه؟

تحول وجهه للضيق الشديد بعد جملة تلك، ردد مصدومًا:

هي مشيت؟

أكد له دون تفكير:

-أيوه

اتجه "أوس" سريعًا إلى مكتب السكرتارية ليجده خاليًا منها، استنشأت نظراته واندفعت دماؤه الحارقة في عروقه بقوة، هبت السكرتيرة واقفة من مكانها تطالعه بنظرات متوترة، تنحت

للجانب حينما رأيته يمسك بساعة الهاتف الأرضي ليتصل بأحدهم، هدر "أوس" صائحاً بلهجة الأمر الناهي:

خلي الأمن يمنع "تقي" هانم تخرج من الشركة فوراً!

وضع الساعة في مكانها ولم يضيف المزيد ثم خطأ بتعجل في اتجاه الرواق المؤدي للمصعد، لحق به "عدي" متسائلاً بجديّة:

إنت رايح فين؟

لوح له بيده دون أن يستدير نحوه مكلاً سيره المتعصب، توقف "عدي" في مكانه ليحك مؤخرة عنقه باستغراب كبير، تساءل مع نفسه بحيرة:

ماحد يفهمني في إيه بالضبط؟!

.....

تنفست بعمق لأكثر من مرة لتمنع دمعاتها من الانسياب فتشير فضول من يتطلع إليها، أحنت "تقي" رأسها لتقبل رضيعتها بحنان كبير ثم عادت لتحدق في باب المصعد بنظرات قلقة، وما إن انفتح على مصراعيه حتى خرجت منه متجهة إلى هو الاستقبال، توقفت فجأة عن السير حينما اعترض طريقها ثلاثة من ذوي الأجساد الرياضية الضخمة، كتمت شهقة عفوية كادت تخرج من بين شفيتها لرؤيتهم يتحركون في اتجاهها بتلك الطريقة المريبة، رمقهم بعينين غاضبتين وهي تصيح بهم بصوت شبه مختنق:

إنتو مين؟ وسعوا من سكتي!

رد أحدهم برسمية وكأنه إنسان آلي:

مش هالينفع يافندم

صرخت به بعصبية:

عاوزة أمشي من هنا، ابعد من قدامي

أضاف بنفس النبرة الخالية من أي تعاطف:

عندنا أوامر يا فندم

حاولت "تقى" تجاهل تحذيراته والتقدم للأمام لتجاوزه لكنه سد عليها الطريق بجسده فأجبرها على التراجع تلقائياً للخلف، اشتعلت بشرتها بدموية غاضبة مزعوجة من حصارها، تلفتت حولها باحثة عن مخرج آخر لها، فسدت خطتها قبل أن تكتمل في رأسها بظهور "أوس" على الساحة، رفع إصبعيه مشيراً في صمت لأفراد حراسته بالابتعاد، تحركوا بانصياع كامل لأمره غير المنطوق لتستدير "تقى" ببطء نحو زوجها، رمقته بنظرة مستاءة حزينة، ثم أشاحت بوجهها مستعدة للسير، استوقفتها على الفور بالإمساك بذراعها، شعرت بقبضته تؤلمها، رمقته بنظرة حادة من طرف عيناها، ثم كرت على أسنانها هامسة تحذره:

سيب دراعي!

أرخی قبضته دون أن يفلتها قائلًا بصوت عميق وصارم:

مش هاتشي يا "تقى"

ردت منفعة رغم خفوت صوتها:

-بلاش تستقوى عليا زي زمان

أزاح يده كلياً عنها لينظر لها بعتابٍ، ثم هتف مدافعاً عن نفسه:

إنتي فاهمة الموضوع غلط

اختنق صوتها نسيلاً وهي ترجوه:

خليني أمشي لو سمحت

رد بصرامته المعهودة:

ماشى، بس مش لوحذك

أيقنت "تقى" في قرارة نفسها أنه لن يسمح لها بالذهاب تحت أي ظرف حتى لو صرخت وبكت وفعلت ما تجيده النساء، استسلمت لرغبته الآمرة وسارت يتمهل إلى جواره، حاول محاوطتها من كتفها لكنها نأت بنفسها بعيداً عنه، ألمه بشدة جفائها الظالم معه ورمقها بنظرة مستنكرة، سارا كالغرباء في اتجاه سيارته المصفوفة أمام مدخل مؤسسته، ترجل السائق منها مستقبلاً إياه بخنوع، هتف فيه بلهجته الخشنة:

-أنا اللي هاسوق

تنحى على الفور بعيداً عن باب السيارة ليترك له مكانه ليشغله، ولحق بطاقم الحراسة المرابط له في أي مكان يتوجه إليه، ركب "تقى" إلى جواره بالمقعد الأمامي مضطرة، وضعت رضيعتها في حجرها وأحاطتها بذراعيها، تعمدت عدم النظر إلى "أوس" الذي لم يتوقف عن التحديق بها طوال قيادته للسيارة، زفر مطولاً قبل أن يقطع حاجز الصمت المفروض عليه قائلاً باقتضاب عابس:

-أسف

قاومت رغبته الملحة في التطلع إلى قسماي وجهه والتفرس فيه وهو يعتذر لها رغم جبروته وهيمته المعروفة للجميع، أزججه عدم ردها عليها والتزامها للصمت، سألها بنرفزة شبة واضحة:

-عاوزاني أعمل إيه يا "تقى" عشان ترضي عني؟

أجابته بخفوت حذرٍ دون التطلع إليه:

-ولا حاجة

استعطفها بصعوبةٍ بدت واضحة عليه:

طب بصيلي

ضغطت على شفيتها رافضة التعليق عليه بالقبول أو الرفض مما استفزه على الأخير، ضغط "أوس" على المكابح فجأة لتتوقف السيارة فارتدت "تقى" للأمام ومعها الرضيعة، التفتت نحوه تعنفه بجدّة:

خذ بالك وانت سابق، إنت مش لوحذك!

بكت الرضيعة "حياة" لصراخها المرتفع، فاولت هدهدتها برفق لكنها لم تتمكن من ضبط انفعالاتها، تهدد بعمق ثم مد يده ليداعب وجنة وحيدته الغالية برفق، عاتبته "تقي" بضيق: -مبسوط دلوقتي؟

سألها بجمود حاول إخفاء ضيقه خلفه:

-إنتي متعصبة ليه؟ ده شغلي يا "تقي"، واللي شوفتيه عندي ابن عمي "يامن" صاحت مستنكرة بجدّة طفيفة:

-وعشان ابن عمك تبهله كده؟!

رد مبتسمًا:

هو أنا عملت فيه حاجة أصلاً، أنا بس بأعرفه أصول الأدب على طريقي اغتاضت من رده الذي تضمن إيجاء صريحًا بالتسلط والقوة، وعلقت بنظرات متممة:

يا سلام

تابع مضيقًا:

- "يامن" ده ممكن تقولي عليه لسه عيل طايش، ولو موقفقلوش من الأول وعرفته مقامه هايفرعن زي أبوه، وطبعًا "رغد" مستنية اللحظة دي عشان تركب الليلة كلها!

لم يتمكن عقلها من استيعاب طبيعة ما يقول، أو ربط أسماء التي تفوه بها بصلتهم به، ومع ذلك ردت بإصرار رافضة لجوئه للعنف كحل أساسي لجميع مشاكله:

هو أو غيره مايفرقش معايا، إنت عاوز ترجع زي زمان

تجمدت نظراته عليها فأكملت بنفس اللهجة الحادة:

-أنا مايجبش أفكر الفترة دي من حياتنا، واللي عملته النهاردة خلاني....

قاطعها فجأة متلمسًا بيده بشرتها:

حقك عليا

ارتجفت من لمسته الحنون على وجهها، شعرت به كالبلسم المسكن لألمها المعنوي، تماكنت نفسها كي لا تنهار، تراجعت بوجهها بعيدًا عنه لتتابع بجمود مزعوم:
مش كل مرة هاتقول كده

زفر بضيق كبير لم يخفه، نظرت له بقلقي، ثم لانت نبرتها وهي تتوسله باستعطافٍ رقيق:
عشان خاطري بلاش عنف

لم يكن مقتنعًا على الإطلاق بالتساهل فيما يخص عمله أو أسلوب تعامله مع الأقرباء قبل الغرباء، سكت "أوس" كي لا يعدها بما لا يستطيع تنفيذه، سأله بجدية:
قولت إيه؟

رد على مضض:

طيب

أعاد تشغيل محرك السيارة ليعاود القيادة بحذر، شعرت بالانتشاء لانتصارها في مسعاها الجاد لكبح جماح غضبه، ضمت رضيعتها إليها مانحة إياها حبها الأمومي وهي تضيف قائلة:
أنا عاوزة أروح لبابا أشوفه وأطمئن عليه

بدا مزعوجًا من طلبها البسيط بسبب ذهابها لتلك المنطقة الشعبية بما فيها من مظاهر لا يحب أبدًا أن تراها رضيعته، ناهيك عن العاطلين ومعتادي الإجرام المتسكعين في المقاهي القريبة من منزلها، ركزت نظراتها عليه مترقبة إجابته عليها، طال صمته فسألته بضيق:

إنت مش موافق؟

نفخ معقبًا:

-لا بس هارتب جدولي وأجي معاكي

رد بتبرم:

مش لازم على فكرة

نظر لها من طرف عينه قبل أن يعاود التحديق في الطريق أمامه ليقول بصرامة:

خلاص روعي يا "تقى"، بس الحراسة هاتكون معاك!

رفعت حاجبها للأعلى مستنكرة ما قاله لترد بسخطٍ مقروءٍ في وجهها:

إنت تهزر صح؟

رد ببرود:

ده الطبيعي

اغتاظت من كونه يلاحقها في كل خطوة بسيطة تقوم بها، وكأنها لا تستطيع التصرف بمفردها، كما زاد الطين بلة هو إصراره على إحضار طاقم حراسته الخاصة عند زيارتها لأهلها ليشعرها بالإهانة وعدم الثقة، رفضت تلك المرة بشدة فعل هذا وهتفت معترضة:

هو كل مرة تتخاطق على الموضوع ده؟

التفت نحوها ليرد بنبرة شبه حادة:

-يعني عاوزاني أسبك تروحي لوحذك هناك وإنتي عارفة كويس المكان ده مليون بمين؟

دافعت مستنكرة تلميح الضمني بكون المنطقة وكرا للشغب والأعمال المنافية للقانون:

-والله اللي عايشين فيه أعرفهم كلهم، ناس في حالهم، ده غير إنهم أهلي، واستحالة حد يأذيني تقوس فمه بابتسامة باهتة شبه متهمكة من كلماتها الأخيرة تحديداً، ألم تقم والدتها بتدبير خطة مأكرة لاستدراجها وإجهاضها في إحدى الوحدات الصحية الوضيعة والبعيدة عن أعين الرقابة والمسؤولين، تتم من بين شفثيه قائلاً:

-شكلك نسييتي

فهمت مقصده على الفور وسألته بوجهٍ ممتنع:

وضع كلامك يا "أوس"

رد بحذر تجنباً لغضبها:

-بنتي معاك، وأنا لازم أحميها

سألته بعدم اقتناع:

من مين بالظبط؟ من أبويا ولا أي؟

استدار ليرمقها بنظرة تحمل الكثير مما يمنع حلقه من البوح به ليقول باقتضاب ذي مغزى:

-إنتي أدري!

علقت عليه محذرة:

-بلاش تتكلم في حاجات هتضايقنا احنا الاتنين، لأن الكل طرف فيها، حتى أبوك

قست نظراته من تذكيرها بموقف والده "مهاب" والذي كان ضلعاً رئيسياً في محاولة التخلص من "تقى" وطفلته، حلق أمامه مسلطاً أنظاره على حركة السيارات لينتهي النقاش الحاد بينهما بصمت متوتر مشحون على الأخير، كلاهما تحفز للآخر، وأصبح الوقت مناسباً لاصطياد الأخطاء والمحاسبة على مات فات، لذا كان الخيار الأنسب حالياً هو السكوت.

.....

عادت إلى المنزل بعد فحص الرضاعة عند طبيب الأطفال المتخصص وهي مشحونة ضده بغضب مفهوم، هو يقيد حريتها وإن كان يدعي العكس ويفرض عليها قيوداً تجعلها نصب عينيه أغلب الأوقات حتى وإن كانت بعيدة عنه، لم تجذب "تقى" تلك الطريقة التي تشير إلى تحكم "أوس" بها وفرضه لسيطرته عليها وكأنها ما زالت خاضعة له وليست زوجته التي تشاطره حياته، قررت أن تعامله بجفاء قليل لتشعره بالضيق والامتعاض، ولجت إلى داخل غرفة النوم، ثم ألقت عليه نظرة باردة قائمة أزعجته، سألها مستفهماً سبب عبوسها:

لسه مضايقة؟

ردت بجديّة وهي تنحني لسحب الغطاء ووسادة صغيرة من على الفراش الذي يجمعهما:

-أنا هانام مع "حياة" في أوضتها

انتصب "أوس" في وقفته ليظهر ضيقه أضعافاً مضاعفة، تحجرت ملامحه وبدأ وجهه متيبساً، رمقها بنظرة أقلقته دون أن يرف له جفن وهو يسألها:

-هتعملي إيه؟

ابتلعت ريقها مجيبة إياه:

-زي ما سمعت، هنام مع بنتي في الأوضة الثانية

أظلمت نظراته متسائلاً بخشونة ظهرت في صوته:

-وده عشان إيه؟

حافظت على ثباتها رغم الرجفة التي أصابت بدنّها من طريقة تطلعه بها لتقول:

-عاوزة أفضل معاها

قبض "أوس" على ذراعها ضاغظاً عليه بأصابعه لتشعر بألم يجتاحها، هزها بقوة منه ثم حذرّها بشراسة وهو يكرّ على أسنانه:

-"تقى"، بلاش تعاندي وتركبي دماغك معايا!

انترعت بكل ما أوتيت من قوة ذراعها من بين قبضته القوية لترد متسائلة بتحدٍ:

-هتعمل إيه؟ هتغصّبي على حاجة مش عاوزاها؟

سألها بنبرة ذات مغزى وقد بدا المزاح بعيداً عنه كلياً:

-إنتي عاوزاها توصل لكده؟

أجابته بمرارة ذكرتها بما سلف:

-الظاهر إن ده اللي بتعرف تعمله وبس، تستقوى على اللي أضعف منك

صرخ بها رافضاً محاولاتها للتلميح عن ماضيه:

- "تقى"

تجمدت حدقتها المذعورتان على وجهه المتشنج متابعة بخوفٍ قرأه ردة فعله القادمة، كم
"أوس" أنفاسه ليكبح اندلاع غضبه فيخرج عن شعوره ويفعل ما لا يُحمد عقباه، هتف بنبرة
أقرب للحنق عنها للهدوء:

خليكي في الأوضة و"حياة" هتنام معاكى هنا

اعترضت معاندة:

-لا، مش هافضل معاك في مكان واحد

أشار بسبابته آمراً بلهجته الصرامة:

هي كلمة، هتفضلى هنا يا "تقى"!

وقبل أن تهتز شفتاها لتنطق تركها في مكانها وانصرف إلى خارج الغرفة، تبعته بنظرة مطولة
محركة ساقها بعصبية، همست لنفسها بإصرار:

برضوه هانام مع بنتي!

.....

حاويزة حاجة تانية أعملها لك قبل ما أنزل؟

تساءلت "تهاني" بتلك العبارة موجهة حديثها إلى أختها "فردوس" التي ثبتت ساقها أسفل
جسدها لتعتدل على الأريكة، استندت بطرف ذقنها على مرفقها مخرجة زفيراً مطولاً من
صدرها قبل أن ترد عليها بتذمر:

بردك سيبانى لوحدي ورايحة الدار؟

اقتربت منها أختها لتنظر لها بجدية قبل أن تقول لها:

هنرجع لموال كل يوم يا "فردوس"؟

حاولت أن تبدو أقل حدية مراعاة لظروفها المرضية فتابعت "تهاني" بهدوء:
-إتي عارفة إني مسئولة عن الدار، وصعب أثق في حد يتابع كل حاجة من غير ما أتأكد
بنفسي من

قاطعتها "فردوس" بلوم:

-ده بدل ما تاخدي بالك مني، أنا أختك الوحيدة العاجزة
ردت عليها بنبرة عقلانية كي لا تدع لها الفرصة للشكوى والتذمر:
-اللي بأقدر عليه باعمله، وأفكر إن "أوس" كمان مقصرش معاكي رغم اللي عملتيه في مراته
وعامل الواجب وزيادة

هتفت محتجة بوجه مليء بتعبيرات متجهمه:

-هو إتي بتسمي الخدمة اللي بتيجي كل كام يوم دي واجب؟ ده حتى مكلفش خاطره يدفع
تمن علاجي!

نظرت لها شزراً وتمنت لو استطاعت أن ترى استنكارها لا تقول، ثم وبختها بلطف حتى
تكف عن تذررها المستمر:

-والله إتي اللي ضيعتي نفسك بنفسك، كتر خيره إن ساحك بعد اللي حصل

مصمصت "فردوس" شفيتها معقبة:

-في النهاية أنا خالته، وبعدين ده ماهشش عليه يشوفلنا حطة عدلة بدل المخروبة اللي أعدين فيها
دي

انقرجت شفتي "تهاني" بإنكار أكبر من عجفرتها وبرودها الذي لا يتناسب مع ما اقترفته من
جريمة شنعاء في حق ابنتها، جاهدت لتبدو هادئة وهي ترد عليها:

على فكرة هو مش ملزم بينا

زمت ثغرها لتضيف بتأفف:

لأ وإتي عاجبك حالة الفقر الضنك دي ومتبته هنا، على إيه مش عارفة!
فقدت "تهاني" أعصابها من أسلوبها المستفز الباعث على استثارة الأعصاب لتصبح بها:
- "فردوس"، إتي مش بتتعطي أبدًا؟!
لطمت أختها على صدرها باستياء مصطنع قائلة لها:
هو أنا معرفش أفضفض معاكي بكلمتين، هاتبقي إتي و"عوض" والزمن عليا، حسي بيا، ده
أنا

قاطعتها "تهاني" رافضة الإصغاء للمزيد من كلماتها الفجة:
ربنا يهديكي
أسرعت في خطاها نحو الباب لتصفقه بقوة بعد أن خرجت من المنزل لتغمغم "فردوس" بعدها
بامتعاض مستهجن:
عيلة غاوية فقر!

.....

فرك خصلات شعره بعصبية وهو يتلقى كلمات أخته الغاضبة على مسامعه لتزيد من حنقه
نحو ابن عمه، تعمدت "رغد" أن تسيء إليه لتشعره بتفاهته وعدم إجادته لأي شيء تكلفه
به، تحجرت ملامحه وقست نظراته مع استمرارها في تعنيفها الشرس له، فاض بـ "يامن" الكيل
وصرخ بها بنفاذ صبر:

-كفاية يا "رغد"، قولتلك هاتصرف

صاح به متسائلة:

إزاي إن شاء الله؟

صمت للحظة ليفكر فيما سيقوله لها ليقنعها بمقدرته على تنفيذ ما وعدها به، طارت أفكارها
قبل أن يستجمعها في عقله حينما أهانته بقسوة:

ده مسح بيك البلاط وانت لسه يدوب بتقوله هات مفاتيح الفيلا بتاعتنا!

شعر بوخزة حادة في حلقه من فظاظتها العنيفة ورد مدافعًا عن نفسه

خدني على خيانة

عقت عليه مهينة إياه بقلة ذوق متناهية:

إنت اللي مش نافع في حاجة، طول عمرك فاشل

بدت ملامح باهتة من شدة ما تردده عليه، صرخت به متعودة إياه:

بس أقسم بالله لو ماتصرفت يا "يامن" في أسرع وقت وجبت حقنا لهتسجن، أنا

مدفعتلكش ديونك عشان تبغدد عندك، ومترجعش تترجاني بعد كده

رد باقتضاب كاظمًا غضبه في صدره:

حاضر يا "رغد"، هاعمل اللي إتي عاوزاه!

أنهى معها المكالمة وهو يجوب الغرفة جيئة وذهابًا يفكر في خطوته القادمة، بالطبع ابن عمه

ليس بالخصم السهل ليسهل استدراجه أو حتى تهديده، أظلمت نظراته مرددًا لنفسه:

هو أنا ناقص

استمع لدقات هادئة على باب غرفته الفندقية، صاح بزفير مزعوج:

أيوه

أمسك "يامن" بالمقبض ليفتح الباب فتفاجأ بآخر من يتوقع رؤيته في هذا المكان وبعد الذي

صار اليوم، تجمدت عيناه على "أوس" محرّكًا شفتاه ليقول بنبرة مصدومة للغاية:

إنت !!

.....

الفصل الثالث

وعلى غير المتوقع تفاجأ بوقوفه شامخاً أمام باب غرفته الفندقية يطالعه بنظراته الواثقة التي لا تعرف الضعف أو الهزيمة ليشعره بقليل من الرهبة من حضوره الصادم، ازدرد "يامن" ريقه ونظر لابن عمه يتمعن محاولاً التغلب على دهشته الواضحة على قسماته والتي امتزجت برعشة خفيفة أصابت بدنه ليسأله بعدها بجدّة ملحوظة:

-عاوز إيه؟

ورغم عدم ترحيبه به ومقابلته الجافة له إلا أن "أوس" بدا واثقاً من نفسه وهو يتقدم نحوه ليدفعه من كتفه حتى يلج إلى الداخل، جاب بأنظاره تصميم الغرفة وأثاثها الفاخر ليتشكل على ثغره بسمة متهمكة، كان مؤمناً بأن "يامن" لم يكن ليتصرف بمفرده دون وجود من يسم رأسه، فرك طرف ذقنه مستطرداً بجمود غامض:

-هاعمل معاك اتفاق

تبعه متسائلاً بسخط:

-إنت يا "أوس"؟ مصدقش!

التف ابن عمه الكبير نحوه لينظر له بغموض، في حين تابع "يامن" متسائلاً بنبرة ساخرة:

-إيه ناوي ترجعلي حقي؟

أجابه "أوس" بصوته الأجش:

-ملكش حاجة وكله بالورق والقانون

ثم أخرج من جيبه عدة أوراق مطوية ناولها إياه ليلقي الأخير نظرة شاملة خاطفة عليها قبل أن يحتاج محتجاً:

-ده نصب واحتيال

رد عليه ببرود مستفز له:

-من أبوك .. أه

تحول لون حدقتي ابن عمه لحرمة ملتهبة من هجومه الصريح على والده، كز "يامن" على أسنانه هاتفاً بغیظٍ:

إنت ...

قاطعه آمراً وبلهجة صارمة:

اسمع للآخر!

تجمدت نظراته على وجهه فأضاف "أوس" بهدوءٍ ليستدرجه في الحديث ويسبر أغوار عقله:

أنا عارف إنك مالکش في جو حقي وحقك والحاجات دي، إنت طول عمرك مُرفه، وجيتك هنا باينة وش إن وراها "رغد"

هتف معترضاً:

أختي مالهاش دعوة

التوى ثغره للجانب معلقاً:

دي مفهومة

رد عليه "يامن" بحنق:

وحتى لو كانت واقفة معايا، مش أختس وبنطالب بحقنا اللي إنت سرقتة و...

قاطعه مصححاً:

تاني هاتقول سرقتة، يا ابني أبوك حرامي كبير، ده غير إنه كان عاوز يقتلني، افهم بقي

استشاطت نظراته صائحاً:

مش هاصدقك حتى لو ادتني مليون ورقة تقول ده، ما سهل أوي إنك تزورهم

رد عليه بوجه جامد الملامح ونبرة باردة:

براحتك، تصدقتي، تكذبني، الكلام ده مايمنيش، وأنا جاي لحاجة محددة، نتفق!

صمت "يامن" للحظات ليفكر في عرضه الغريب والمريب، سأله مستفهماً عنه يستطيع فهم ما يدور في رأسه:

-وأنا هاستفيد إيه؟

اتسعت ابتسامته قائلاً:

-شوف إنت!

استشعر وجود خطب ما من طريقته التي أصابته بالريبة والشك، هتف متسائلاً:
مش جايز تكون حركة واطية منك عشان تجيب رجلي وتوقعني في مصيبة؟ وأهوو بالمره
تخلص مني زي ما عملت مع عمك، والساحة تفضي ليك!
وقف "أوس" قبالة ليطالعه بنظرات قوية حادة مليئة بالهيبه الخيفة، زفر معقباً ببطءٍ ومتعمداً
الضغط على كل كلمة يتلفظ بها:

-أنا حتي بأخذه وش، وبنفسي، مش محتاج أعمل ده وخصوصاً مع عيل زيك
احتج هاتقاً بعصبية وهو يلوح بذراعه:

-أنا مش عيل، أنا أعرف أجيب حتي كويس حتى لو كان منك إنت شخصياً
برزت أسنان "أوس" من خلف ابتسامته المتغترسة وهو يؤكد له بثقة تامة:
صدقتي مش معايا أنا، حط ده في دماغك، "أوس الجندي" غير أي حد عرفته في حياتك!
أزعجه عنجهيته وتسارعه الواضحين وقبل أن يضيف المزيد تحرك "أوس" نحو باب الغرفة ليقول
دون أن يلتفت نحوه:

-هاسيبك تفكر، بس عرضي مش بأكره مرتين!

تعلقت أنظار "يامن" به وقد أصابته زيارته المفاجئة بالارتباك وقلبت الموازين في رأسه، توقف
"أوس" عن السير ليدير رأسه في اتجاهه مضيقاً بوجهٍ متحجر الملامح:

-واحمد ربنا إن في حد رحمك من شري!

رد مدهوشًا وقد ارتفع حاجباه للأعلى:

نعم!

لم يقل المزيد واندفع إلى خارج الغرفة تاركًا ابن عمه متخبطًا في رغبته الانتقامية منه، هو بالطبع على دراية تامة بطباعه الشرسة والعنيفة، وكونه قد أتى اليوم للتفاوض معه بشكل غير مباشر جعل أفكاره المشحونة ضده تترزعزع، جلس "يامن" على المقعد مستندًا بوجهه على مرفقيه، سأل نفسه بعد تفكير متعمق وحائر:

يا ترى مين ده اللي رحمني منه؟!

.....

مشطت خصلات شعرها ونثرتها خلف ظهرها ليبدو ثائرًا ومثيرًا في نفس الآن، تأكدت "ليان" من تناسق ثيابها معًا، كانت تنورتها السوداء إلى حد ما قصيرة، تكاد تلامس ركبتها، جذبتها على قدر المستطاع للأسفل كي لا تلفت انتباه زوجها، فهي ليست بحاجة للتوبيخ بشأن أمر تافه كهذا، كذلك بدا الوقت متأخرًا للوصول إلى المركز الذي تستذكر فيه محاضراتها ليلاً، بحثت عن أحمر الشفاه الخاص بها فلم تجده، تذكرت أنها وضعتة بالحمام، انحنى سريعًا لترتدي حذاءها ذو الكعب العالي قبل أن تهول في اتجاهه، سمعت صوت انهمار الماء بالداخل، دقت الباب متسائلة:

- "عدي" إنت جوا؟

أتاها صوته قائلاً:

-أيوه، باخد شاور

استأذنته بنعومة:

طب بليز أنا محتاجة أشوف ال lip stick (أحمر الشفاه) بتاعي عندك

رد عليها:

-اوكي يا "ليوو"

فتحت الباب وهي تشكره مبتسمة:

ثانكس بيبي

أَلقت "ليان" نظرة سريعة عليه، كان يغتسل خلف ستائر الحمام التي حجبت عنها، اتجهت إلى الحوض لتفتش عن أحمر الشفاه خاصتها، وجدته موضوعًا بجوار المعطر الخاص بها، التقطته بيدها ثم انحنت للأمام لتقترب بوجهها من المرأة لتضعه بإتقان على شفتيها، لم تلاحظ نظرات "عدي" المختلطة نحوها والذي حرك الستارة للجانب قليلاً ليتأمل تفاصيل جسدها برغبة مُلحة تتراقص بين ثنايا خلايا رأسه خاصة مع تمايلها غير الحذر، سألها بفضول وقد اعتلى ثغره ابتسامة عابثة:

هو جايلنا ضيوف ولا حاجة؟

أجابته نافية دون أن تستدير نحوه:

-لا، أنا عندي كورس

قطب جبينه مردداً باستغراب:

-كورس

استرسلت موضحة:

-أها، في مادة غبية مش فاهمة فيها حاجة، أصحابي قالولي على سنتر فيه معيد شاطر يبشرح كويس، فأنا رايحة أشوفه

سحب "عدي" المنشفة ليلف خصره ثم اتجه نحوها مسلطاً أنظاره على مفاتن جسدها البارزة من أسفل ثيابها الضيقة ليسألها بنزعة غيرة ذكورية:

-باللبس ده؟

التفتت نحوه واضعة يدها أعلى خصرها لتسأله بعدم فهم:

-ماله لبسي؟

رد عليها متسائلاً بضيق لم يجبئه:

-شيفاه مناسب للكورس؟

زفرت معلقة بامتعاض:

-ده العادي بتاعي يا "عدي"، إنت نسيت ولا إيه

ثم مدت يدها لتداعب طرف أنفه ياصبعها متسائلة بدلالٍ ناعم:

-أوعى تكون بتغير؟

بدت نبرته خشنة نوعاً ما وهو يرد عليها:

-إيه مش من حقي أغير على مراتي؟

أولته ظهرها قائلة بعدم مبالاة:

خليك كool يا بيبي

رد مصححاً:

-دي مش كool يا "ليوو"، دي معناها أكون إريال، وأنا مش كده مع مراتي!

عادت لتحدق في وجهه المزعوج مرددة:

-أفندم؟

تابع "عدي" بجديّة:

-وبعدين لو حاجة مش فهمها أنا أشرحها لك!

كانت غير مقتنعة بما يقول، ظنت أنه يفعل ذلك بسبب غيخته المقروءة في قسّمات وجهه

المشدودة، ضحكت قائلة:

-بطل هزار

رد عليها:

-أنا بأتكلم جد

استدارت لتحلق في وجهه بنظرات معجبة، لوحت له بيدها قائلة بتلهف:

- "عدي" بليز، مافيش وقت، أنا تقريبًا متأخرة، نتكلم بعدين، باي

وقبل أن تخرج من الحمام كانت يده الأسبق في الإمساك بها من ذراعها، هتف بها بجدية مستوقفا إياها:

-استني يا "ليان"

نظرت له متسائلة:

-في إيه ثاني؟

وقبل أن تستمع إلى إجابته جذبها نحوه بعد أن شدد من قبضته على رسغها ثم انحنى ليحملها فوق كتفه، صرخت مصدومة وهي تركل بساقها في الهواء:

-إنت بتعمل إيه يا "عدي"؟ كده هدومي هاتنبل

رد بابتسامة عريضة:

-مافيش كورسات ولا سنتر

صاحت محتجة بتوتر:

طب نزلني، إنت ناوي على إيه؟

لم يجيبها لتزداد الأجواء تشويقًا وحماسة، ثم سار بها نحو المغطس، أدار صنبور المياه بيده المتحررة غير مكترث لصراخاتها ولا ركلاتها لتتحرر منه، أنزلها لتقف على قدميها بداخله متعمدًا إحاطتها من خصرها لتبقى تحت حصاره، حاولت الإفلات منه ومع ذلك فشلت، ألصق ظهرها بالحائط المبتل وأغرق جسدها كليًا بالمياه لتفسد كامل ثيابها وهو يقهقه عاليًا، لكزته بقبضتيها في صدره تعنفه بعتاب:

-إنت مجنون؟

-أيوه

ظلت تضربه بغيظ وهو يتلقى ضرباتها بضحكات مرحة عابثة، ثم تمكن من تقييد رسغيها وأدارهما خلف ظهرها ليقربها منه، عاتبته بنظرات متممة:

-مش ممكن، بجد مجنون، هاعمل أنا إيه دلوقتي؟

قربها منه متأملاً عينها بنظرات متممة، أحنى رأسه على شفتيها ببطء ليطلع قبلة عميقة عليها هامساً لها:

-بأحبك

تجاوبت مع مشاعره المشتعلة بلهيب العشق لترد محذرة:

-أنا كده هاعيد السنة بسببك

أرخی "عدي" يديه عن معصمها ليطوق خصرها متمسكاً بخبرة حرفية تفاصيلها المشوقة له، ثم همس بتنهيده حارة:

-وماله، طالما هتفضلني في حضني!

تعلقت "ليان" بعنقه وتبادلت معه لحظات خاصة حميمة جعلتها تنسى ما لديها من مهام استذكار ضرورية لينجح من جديد في استدراجها لبحور الغزل والغرام.

.....

عاد إلى المنزل متأخراً بعد أن فرغ من أعماله العالقة، ظلت تحذيرات "تقي" الجادة تعصف برأس "أوس" حتى انتهى به المطاف في الفندق ليقابل ابن عمه مرتباً في رأسه ما سيمكنه من إزالة أفكار أخته المسمومة ليضمن ولائه له، فالأخير غض يسهل استمالته وإقناعه للعزوف عن رغباته الانتقامية، نزع سترته وأرخی رابطة عنقه قليلاً ليتجه إلى غرفة نومه متوقفاً وجود زوجته بالداخل، تحولت تعابيره المرهقة بعد يوم شاق ومشحون إلى انزعاج جلي حينما رأي المكان خالياً منها، والفراش كما هو لم تمسه أي يد، كز على أسنانه هامساً بغيظٍ مضاعف:

-برضوه عملي الي في دماغك يا "تقي"؟!

ألقي بسترته على الفراش مندفعًا نحو غرفة صغيرته التي تقع على مقربة من غرفتهما، كان الباب مغلقًا، اضطر أن يدير المقبض بجذرٍ تحسبًا لنوم الرضيعة "حياة"، وكما توقع كانت "تقي" ممددة على الأريكة المواجهة لفراشها الصغير مع فارق أنها تغط في سبات عميق والصغيرة في أحضانها تحرك ذراعيها في الهواء وتغمغم ببراءة، ارتخت قسماته قليلًا مع ترديد طفلته: با.. با!

رسم ابتسامة صغيرة على ثغره وهو يتجه نحوها، تأمل "أوس" زوجته الغافلة بإرهاق واضح عليها، سحب شهيقًا عميقًا ليكبح به حنقه قبل أن يطفو على السطح ويفسد الأجواء أكثر، انحنى نحو طفلته لينتشلها بجذرٍ من بين قبضتي والدتها، داعب وجنتها بأفقه وظل يهددها برفق بين ذراعيه فتشاءبت وثقل جفניה، وما هي إلا لحظات معدودة وكانت "حياة" قد غفت على كتفه، التفت نحو "تقي" ليحلق فيها مليًا بنظرات امتزجت بالضيق والعتاب، فهو يسعى جاهدًا للتغلب على حدة طباعه وتحجيم شراسته المعتادة، وهي لا تمهله الفرصة لفعل ذلك، تشعره في كثير من الأحيان أنه على وشك نقض العهود والعودة إلى سالف عهده، زفر مطولاً ثم جلس إلى جوارها على الأريكة، مد يده ليتلمس بأنامله بشرتها الرقيقة، ارتعشت قليلًا رغم لمساته الخدرة وتحرك جفناها لا إرادياً، أزاح خصلة شعرها المبعثرة على جانب وجهها للخلف ثم اقترب برأسه منها، تلمست شفتاه وجنتها مقبلاً إياها بنعومة وهو يهمس لها: ماتبقيش قاسية عليا يا "تقي"

تهددت الأخيرة وهي تميل برأسها عفويًا نحوه لتلامس شفتها شفتيه فحصل منها على قبلة خاطفة حطت من بقايا شرارات غضبه محرّكة فيه مشاعره المحبة لها، قام "أوس" بإسناد رضيعته في أحضان زوجته من جديد متأكدًا بحرص تام من إحكام ذراعيها عليها، ثم مرر ذراعيه خلف ظهرها وأسفل ركبتيها ليتكمن من حمل الاثنين معًا وسار بهما نحو غرفة نومهما مستمتعًا بوجودهما في أحضانهم رغم نومهما، وبجذرٍ رقيق مددهما على الفراش ساحبًا الغطاء عليهما، تعلق نظراته بوجهي كليهما، كانت سعادته الحقيقية في وجودهما بحياته، استقام واقفًا واضعًا يده أعلى رأسه، مرر أصابعه بين خصلات شعره محدثًا نفسه بسخرية ومستعيدًا في عقله ذكرياته القديمة مع "تقي":

هنام على الكنبه، وأهي أحسن من نومة الأرض!

تسلل على أطراف أصابعه كي لا يتسبب في إيقاظ إحداها، ثم أطفأ الإنارة الخافتة وأغلق الباب عليهما ليعود إلى غرفة طفله ليقضي ما تبقى من ليلته مسجياً على الأريكة.

.....

تقلبت على جانبها بعد أن شعرت بألم في عظامها لتبدأ في الإفاقة من غفلتها الطويلة، بدا كل شيء في البداية طبيعياً حتى أدركت "تقى" أنها بغرفة نومها وليست غرفة الرضاعة "حياة"، تأهبت حواسها بالكامل واستعاد عقلها كامل نشاطه الذهني لتنهض فجأة من رقتها ووجهها شبه مذعور، تحركت عيناها الزرقاوتان نحو "أوس" الذي كان يقف بشموخ أمام المرأة يضبط رابطة عنقه، سألته بصوتها الذي ما زال متحشراً:

-أنا جيت هنا إزاي؟

أجابه بنبرة جامدة لكنها جادة دون أن يلتفت نحوها:

-أنا رجعتك أوضتك بالليل

أزاحت الغطاء من عليها لتهب واقفة على قدميها ثم اقترب منه لتصيح فيه باستنكار وقد احتفت نظراتها:

-إزاي تعمل كده؟ أنا قولتك هنام هناك مع بنتي و....

قاطعها وهو يدير رأسه في اتجاهه لتركز عيناه الصارمتين عليها:

-بلاش تعرضيني ثاني يا "تقى"

ثم اشتدت نبرته قوة وهو يكمل بتحذير:

-لأنه لو اتكرر صدقيني هيكون في زعل كبير بينا!

سيطرت حالة من القلق المتوتر على تعبيراتها الناعسة مع ازدياد جفاف حلقها، شهقت عفوياً حينما رأت قبضته تمتد لتمسك بها من ذراعها، وفي أقل من ثانية كان يجذبها إلى أحضانه متابعا بابتسامة تناقض جدية الموقف:

-ويعدين فين صباح الخير؟

نظرت له ببلاهة غير مصدقة التحول العجيب في شخصيته التي أحياناً تحيرها بسبب تأرجحها بين الحزم واللين، ضاقت حدقتها وانزوى ما بين حاجبيها إلى حد ما كتعبير عن اندهاشها منه، تأمل ما يعتري ملامحها من تبدلات مصدومة بابتسامة الواثق المنتصر، مال "أوس" نحو صدغها ليقبلها منه فشعرت بأنفاسه الساخنة تلاطم بشرتها وهو يقول بخفوت:

-تقدري تروحي تشوفي أهلك النهاردة، ومن غير حراسة

انفج ثغرها بدهشة أكبر ورمشت بعينها غير مصدقة تليته لمطلبها بين عشية وضحاها، رمقها بنظرة حنونة مستأنفاً حديثه الهادئ:

-بس متأخريش، وخليكي على اتصال معايا

أومأت برأسها دون تعقيب، تخشب جسدها كلياً مع تلك القبلّة المفاجئة التي تلقتها شفتاها على غفلة منها، عمق منها لتشعر بحبه الشغوف واللا محدود لها، لم ينتظر تجاوبها معه، فقد كان يريد إشعارها بأنها وحدها القادرة على تطويع غضبه وتحويله إلى شيء آخر أقل شراً بل وربما رومانسياً مليئاً بالمشاعر العميقة، تراجع "أوس" عنها ليتأمل تأثير قبلته عليها، اشتعل وجهها بدموية مشرقة، احتضن عنقها براحتيه هامساً لها:

-بأحبك

ردت عفوياً وقد تلاّأت حدقتها:

-وأنا كمان

أوصاها بجدية:

-خلي بالك على نفسك

أومات برأسها هامسة:

حاضر

ضمها إلى صدره ليحتضنها بذراعيه، شعرت باحتوائه الكامل لها وبدقات قلبه تخترق أذنيها فابتسمت برقة متجاوزة صدام الأمس، تركها بعد لحظات لتبقى بمفردها في الغرفة وقد تملكها إحساسًا منعشًا بالحيوية والنشاط، اتجهت إلى رضيعتها التي استيقظت لتوها لتغدق عليها بحنانها الفائض.

.....

فرغت علبة سجائره من آخر واحدة استنشق دخانها قبل لحظات، أطفأ "يامن" بقاياها في المنفضة الكرسطالية وهو يتأمل المشهد من شرفة غرفته الفندقية، لم تذوق عيناه طعم النوم منذ زيارة "أوس" المباغته له، ظل يقلب عرضه المريب في رأسه عله يكتشف السبب الحقيقي وراء طرحه عليه حتى كاد عقله ينفجر من كثرة التفكير، ومع ذلك لم يصل إلى شيء يريحه، زفر بإحباط قائلاً لنفسه:

ماهو استحالة يعمل ده لله!

ولج إلى الداخل سائرًا يتمهل نحو الحمام، وقف أمام الحوض مدققًا النظر في علامات الإرهاق الظاهرة أسفل جفنيه، أخفض رأسه بعد أن فتح صنوبر المياه جاعلاً القطرات الباردة تنساب بين خصلات شعره، تأوه برجفة خفيفة ضربت جسده، ثم اعتدل في وقفته مرددًا بحيرة:

ماهو أنا لو وافقت "رغد" مش هاتعدي الحكاية دي على خير، و"أوس" واحد مش سهل يضحك عليه، وأنا في النص واقع بينهم!

تمط بكتفيه نازحًا ذلك التيبس الذي أصاب عضلاته وفقراته ليخرج بعدها من الحمام ليجيب على هاتفه الذي صدح برنين متواصل، انحنى ليلتقطه من على الفراش متأملًا اسم المحامي الذي احتل شاشته بالكامل، وضع "يامن" الهاتف على أذنه قائلاً:

صباح الخير

سكت للحظة قبل أن يكمل بصوته المتغير نتيجة قلة نومه:

-يعني هاينفع أزور بابا ؟ طب التصاريح هتخلص امتي ؟

فرك طرف ذقنه مكملًا:

-اوكي، وأنا مستني تليفون منك، سلام!

أنهى الاتصال ليجلس بتعبٍ على الأريكة وقد شرد محددًا في نقطة بالفراغ أمامه، نفخ بزفير ثقيل وهو يفكر برويةٍ في تبعات زيارته الاستثنائية لوالده بمحبسه، فرما رؤيته له ونصيحته قد تساعده في حسم أمره بشأن تعامله مع "أوس".

.....

تأكدت من وجود ما قد تحتاج إليه من لوازم الرضاعة خلال ذهابها لرؤية والديها بمنطقتها الشعبية، علقت "نقى" الحقيبة على كتفها وحملت طفلتها "حياة" بذراعها الآخر ثم اتجهت إلى خارج منزلها مكلمة طريقها حتى وصلت إلى الشارع الرئيسي، تعذر عليها الحصول على سيارة أجرة شاغرة لكونها ساعة الذروة، لامت نفسها قليلًا لرفضها بعنادٍ رغبة زوجها بتوفير وسيلة المواصلات لترجيحها من ذلك العناء، وقبل أن تياأس كليًا وتهاتف "أوس" لتطلب منه إرسال إحدى سياراته لتقلها إلى هناك لحت أحدهم وهو يترجل من تلك السيارة القريبة منها، لوحت للسائق بذراعها هاتفه له بنبرة عالية:

خاضي يا أسطى

اقترب الأخير بسيارته منها متسائلًا بعبوس:

-رايحة فين ؟

أجابته بحرج:

عند ((.....))

امتعض وجه السائق كتعبير عن تردده الصريح في القبول على توصيلها إلى وجهتها، وقبل أن ينطق بذلك علنا بادرت قائلة كنوعٍ من التحميس:

-وهادفعلك اللي إنت عاوزه

بدا له عرض المال مغريًا، ومع ذلك عَمِدَ إلى ارتداء قناع العبوس ليقول لها باستسلام بترم:

-ماشى، اركبي يا أخت!

تنفست "تقى" الصعداء لحصولها على مبتغاها، ركبت في المقعد الخلفي بعد أن وضعت حقيبة ابنتها إلى جوارها، وتأكدت من جلوس الصغيرة بارتياح في حجرها، انطلق سائق الأجرة بسيارته عبر الشوارع والطرق المزدحمة، زفر لأكثر من مرة بصوت مسموع ليشعرها بضيقه وتذمره من مشوارها الطويل خاصة أن حركة السير كانت بطيئة بدرجة كبيرة، تجاهلته مضطرة وادعت الانشغال بطفلتها حتى أردف قائلاً بنزق:

-بصى جنبك كده يا ست

التفتت "تقى" للجانب لتحقق من نافذتها الملاصقة لها في تلك السيدة البدينة التي كانت ترتدي ثياباً أقل قياساً من حجم جسدها الممتلئ بقياسين على الأقل مما أظهر ترهلاتها وسمنتها بطريقة غير لائقة، أشاحت بوجهها بعيداً عنها شاعرة بالإحراج من هيئتها، أضاف السائق متهمكاً:

-الولية هتفرقع من جنبها

ردت معترضة تهذيب على طريقته الساخرة منها حتى وإن كانت تلك المرأة مخطئة في ارتدائها لتلك النوعية من الثياب الضيقة:

-ربنا يهديها، أنا غضيت بصري

سألها بنظرات غير مريحة لمحتها "تقى" من انعكاس عينيه في المرآة الأمامية:

-هو إتي هتشتيها ولا إيه؟

انقبض قلبها خوفاً من جملته الأخيرة التي تضمنت تلميحا مزعجاً ورغم هذا عللت مصححة:

-نعم؟ حضرتك أنا بأقولك مش المفروض نبص عليها أو على غيرها

رد عليها بفضاظة فجة:

هي اللي عاملة في نفسها كده عشان الرجالة تبخلق في كرشها و..... ، وبرضوه مش هانبرها
بتخنها وجسمها اللي شبه الفيل

غلت دمائها من أسلوبه الوقح في الإساءة لتلك المرأة بكلمات منحطة، لوحت بوجهها قائلة
باقتضاب:

-مالناش دعوة

بصق السائق من النافذة المجاورة له ليضيف بعدها بحقارة:

-نسوان عاوزة الحرق مش مريحة نفسها، بيعملوا البدع عشان نبص عليهم، ولو حد قال كلمة
تلاقي بكابورت طفح في وشنا

تجاهلته "تقى" كي تقطع عليه أي فرصة للتادي في الحديث معها، ومع هذا استمر في استرساله
المستفز والمسيء للنساء ناعثًا إياهن بالرخيصات والعاشرات، اشتدت قسماات وجهها توترًا
من حديثه غير المريح، وتشبثت برضيعتها أكثر، كذلك أخفضت نظراتها لتتأكد من احتشام
ثيابها حتى لا تثير بغير قصد فتنة ما في عقل ذلك السائق المريب، ودّت لو قصرت المسافة
فتصل إلى وجهتها دون أن تضطر للإصغاء إلى ثرثرته المخرجة لها، وما إن انعطف نحو الشارع
الجانبى المؤدي إلى منطقها الشعبية حتى

!!!

الفصل الرابع

لم يكن ليتركها بأي حالٍ من الأحوال تذهب إلى منطقتها الشعبية دون أن يرسل معها من يراقبها من على بعد ليؤمنها أو حتى يتواجد بنفسه، وخصوصًا في وجود صغيرته، استقل "أوس" سيارته متجهًا إلى هناك، أوقفها على مسافة قريبة من بنايتها ثم ترجل منها ليستند بظهره على مقدمتها، جاب بنظراته الثاقبة أوجه المارة من خلف نظارته القاتمة، لمح الشيخ "أحمد" أثناء سيره في اتجاه المسجد القريب فتهللت أساريره لرؤيته، عبث بمسبحته بإصبعيه ودنا منها مرحبًا بوجه كبير:

-نورت الحنة يا ابني

التفت "أوس" برأسه نحو صاحب الصوت المألوف مبتسمًا له وهو يرد بهدوء:

-شكرا يا شيخنا

سأله الأخير باهتمام وهو ممسك بمسبحته من طرفيها:

-أخبارك إيه؟ والدنيا ماشية معاك إزاي؟!

أجابه باقتضاب:

-تمام

صمغ له بلطف:

قول يا ابني الحمد لله دائما، دي أحسن من أي كلمة

رد مومئًا برأسه:

-حاضر

رفع الشيخ "أحمد" ذراعه في الهواء متابعا:

-ما تيجي يا ابني تقعد معايا في الجامع شوية، وأهوو بالمرّة تشوف التعديلات اللي عملناها بعد

ما اتبرعتلنا بـ

قاطعه "أوس" بجذري:

مرة ثانية يا شيخنا، ولو في أي حاجة نقصتك اطلب على طول، وأنا معاك
رد عليه بامتنان:

-ربنا يباركك ويفتحها عليك ويحفظك، هستأذنك أنا، مايلزمش حاجة مني
هز رأسه نافيًا:

-شكرا يا شيخ "أحمد"

ثم مد يده ليصافحه ولم يتوقف لسان الأخير عن الدعاء له بصلاح الحال، تابعه "أوس" بنظراته
حتى اختفى بين المارة ليزفر بعدها بضيق وهو يراقب ساعة يده، انتبه لصوت بوق إحدى
السيارات التي ظهرت مقدمتها عند مقدمة الطريق فتحركت رأسه عفويًا نحو مصدر الإزعاج.

.....

في تلك الأثناء، انعطف السائق بسيارته الأجرة نحو الشارع الجانبي ليتمكن من الدخول إلى
المنطقة الشعبية، وما إن أصبح عند بدايته حتى ضغط على البوق المزج لسيارته ليحجب المارة
المتزاحمين على الابتعاد من طريقه، دست "تقي" يدها في حقيبتها لتخرج النقود منها، لم يكن
معها فكة كافية لإعطائه ما يريد، فمدت إصبعها بمبلغ كبير وهي تحاذر من تلمس يده لها، لكن
تعمد السائق تحسس يدها بخشونة فامتنع وجهها كليًا من وقاحته المقصودة، كذلك أشعرتها
نظراته الجريئة نحو مفاتن جسدها غير البارزة بنوايا خبيثة تدور في عقله، رأت أيضًا تقوس
فمه بابتسامته الصفراء المستفزة ليدير بعدها رأسه للأمام كي يأتي لها بالباقي، علقت "تقي"
حقيبة صغيرتها واستعدت للنزول، وقبل أن تترجل من سيارته هتف بها:

خدي الباقي

وبعفوية غير مشكوكة منها اضطرت أن تمد يدها لتأخذ نقودها فاستغل الفرصة ليتسلى معها
ولكن إبهامها بالنقود المطوية وهو يكرر ضاحكًا، استنكرت جراته الزائدة عن الحد قائلة له:

لو سمحت عيب كده

رد بابتسامته السمجة:

-بأهزر معاكي شوية يا .. مدام

استشعرت من طريقة تلفظه للجملة تلميحا خبيثا، رمقته بنظرة حادة محتجة عليه:

-دي قلة أدب مش هزار

تجهمت ملامحه قائلاً بخشونة:

-يا ستي فكي شوية، بلاش وش الخشب ده!

نهرته بعصبية:

-الزم حدودك، إنت واحد مش محترم

استفزه ردها المهين له فعمد لإهاتها بفضاظة وهو ينظر لها بازدراء:

-والله شكلك مدورها

شهقت مصدومة من كلماته الفجة، بينما تابع بنفس الأسلوب البذيء:

-ما هو مش معقول واحدة زيك تركب من الحتة الهاي لايف اللي كانت فيها وتيجي للمزيلة

دي من غير ما تكون مقضياها؟ وجاية بس تعمل شريفة هنا!

لم تجد "تقى" من الردود ما تعلق به عليه، فطريقته النابية في التعبير أوضحت لها أن الصمت

هو الخيار الأفضل حالياً، ترجلت من السيارة دون أن تأخذ باق نقودها، فتعمد السائق إلقائها

في وجهها هاتفاً بصوت مرتفع:

-وابقي سليملي على الشرف!

تجمدت قدماها في مكانها حينما وقعت أنظارها على "أوس" الذي بدت ملامحه الشرسة دليلاً

قوياً ودامغاً على متابعته لما حدث بينهما، اهترت شفتها قائلة بتوتر مذعور:

- "أوس"!

سار نحوها آمراً بخشونة وقد قست تعبيراته بشدة:

ولا كلمة! اطلعي فوق!

ارتعدت فرائصها وانتفض جسدها بالكامل من صياحه الهادر، أرعبتها نظراته المخيفة واستدارت مبرولة نحو مدخل البناية محتمة في وجود رضيعتها بأحضانها، اختبأت بالداخل لكنها لم تصعد الدرج، حثها فضولها على معرفة ما الذي سيفعله زوجها به، اقتربت بحذر شديد من بقعة تمكنها من الرؤية دون أن يلاحظها، وقف "أوس" أمام نافذة سيارته الأجرة، رفع الأخير نظره قائلاً بتأفف:

وسع يا أخ خليني أطلع من المخروبة دي!

حدجه "أوس" بنظرات نارية تعكس عنقاً على وشك الاندلاع، تدافعت دماؤه المغلولة في أوردته لتعزز رغباته الشرسة في الفتك به، وفي لحظة مباغتة انقض عليه ليمسك به من تلايبيه، سأله السائق مذهولاً:

في إيه يا جدع؟

لم يجبه الأخير بل سحبه بقوة الغاضبة المستثارة بداخله إلى خارج السيارة عبر جره من النافذة، صدم السائق من ردة فعله العنيفة هاتقاً به:

-الله! الله! إنت فيك إيه يا عم؟!

طرحه "أوس" أرضاً بعد أن سدده له لكمة شرسة أصابت فكاه، لم يفهم السائق سبب ثورته الهائجة فسأله مغتاضاً وهو يكافح لصد ضرباته المؤلمة على وجهه:

مالك فارد عضلاتك عليا ليه؟

تجمهر بعض المارة من لفت أنظارهم بواذر الشجار، في حين جثا "أوس" فوقه ثم قبض على عنقه قاصداً خنقه، ضغط بأصابعه بقوة على عروقه ليمنع عنه الهواء وهو يردد من بين أسنانه المضغوطة:

مرات "أوس الجندي" خط أحمر!

انحبست أنفاس السائق في رثتيه وخرج صوته مكتوماً وهو يسأله:

مين دي؟!!

وقبل أن يحصل على جوابه منه كانت لكمة قاسية تضرب عينه فألمته بشدة، خرجت صرخاته الموجوعة متحشجة من جوفه وهو يتلقى ضربًا مبرحًا جعل عظامه تن، أرخى "أوس" قبضته عن عنقه ليضربه بشراسة مضاعفة أنهكت الأخير وأوشكت على القضاء عليه، ارتفع صراخه المستغيث بمن حوله عله يجد من بين أهالي المنطقة ممن تجمعوا لمشاهدة المشاجرة الحامية من ينجده من براثن ذلك العدواني الغاضب، لم يتدخل أحد واكتفوا بالمتابعة بفضول لما يدور، فرجل مثله من ذوي النفوذ والسلطة والجبروت لن يقدر أحد على إيقافه أو رده، نهض "أوس" عنه ليركله بعنف أسفل معدته وفي ساقيه ليبكي الأخير بأعين متألّم، ثم سحله بعيدًا عن سيارته باصقًا فوقه قبل أن يهدر به:

ده يعرفك ما تقربش منها ثاني

منحه ركلة أشد قسوة في صدره جعلته يسعل بدمائه النازفة من أسنانه، لهث "أوس" بصوت مسموع ولكن لم تحط دماؤه الهائجة بعد، أراد إفراغ ما تبقى من شحنته فيه، عاد إلى سيارته ثم أدار محركها واندفع بها نحو سيارة الأجرة متمددًا الارتطام بمقدمتها، هلل أهالي المنطقة بفزع مع قوة التصادم العنيفة، تراجع "أوس" بسيارته للخلف وكرر فعلته مرة أخرى ليتسبب في حدوث تلفيات بالغة بها، نظر السائق بعجز من عينيه المتورمتين إلى سيارته التي أصيبت بأضرار جسيمة، لم يكن به من الطاقة ما يمكنه من النهوض حتى على قدميه، زحف رافعًا يده للهواء وهو يتوسله بنحيب:

حقك عليا يا بيه، كفاية كده، أنا بيتي اتخرب!

ترجل "أوس" من سيارته ففزع السائق من رؤيته يدنو منه، أحنى رأسه على صدره ليحميها من بطشه إن تهور عليه مجددًا، أطلقت شرارات الغضب من حدقتي "أوس" واكتفى بتلقيه درسا لن ينساه ما حيي، مسح بقايا الدماء التي علق بأصابعه بمنشفته ثم سار في اتجاه مدخل البناية القديمة، وما إن رآته "تقى" يقترب منها حتى كتمت شهقتها العفوية، استدارت راكضة نحو الدرج لتهرب منه قبل أن يدرك أنها ظلت واقفة تتابعه، لم تسعفها قدمها بسبب خوفها الزائد من هول ما تطلعت إليه عيناها، اهتز جسدها وعجزت عن مواصلة الركض خاصة أنها

تحمل رضيعتها بذراعٍ وحقيبتها بالذراع الآخر مما أبطأ من حركتها، وصلت بصعوبة وهي تلهث لالتقاط أنفاسها إلى الطابق المتواجد به منزلها، قرعت الجرس ودقت بكفها المرتعش على الباب، انتفض جسدها بقوة حينما سمعت صوته يناديها من خلفها:

- "تقي"

سرى الخوف تحت جلدها وتشعب في كامل خلاياها من نبرته التي أجفلتها بقوة، استدارت ببطء نحوه لتطالع به بحدقتين مرتاعتين، بالطبع لن يمر الأمر على خير، خاصة أن ما حدث من تجاوز مسيء كان نصب عينيه، نهج صدرها برهبة مضاعفة، أحست بتشوش الرؤية لديها وبأن ظلام مريب يزحف نحو عقلها ليتخلى بعد ذلك وعيها عنها من شدة التوتر النفسي، سقطت "تقي" مغشياً عليها، وقبل أن يهوى جسدها ورضيعتها معها تلقاها "أوس" بذراعيه، وضماها إلى صدره كي يسندها ويمنع ابنته من السقوط، فتحت "تهاني" الباب لتتفاجأ بحالة الإغماء المسيطرة على ابنة أختها، هتفت متسائلة بهلع:

- إيه اللي حصل؟!

.....

فرك كفيه معاً وتلفت حوله بنظرات قلقة تحوي حيرة كبيرة، طرق "يامن" بأصابع يده على الطاولة الخشبية القديمة منتظراً بترقب مجيء والده ليلتقي معه بعد أن دبر له محاميه الخاص زيارة استثنائية، ظل يرتب الأفكار في رأسه ليعرف من أين يبدأ حديثه، خاصة أنه لم يتواجد معه طوال فترة محاكمته بسبب مشاكله المادية التي منعت من القدوم حتى تولت أخته تسديدها، وما إن انفتح الباب ومَرَّ "سامي" منه حتى هب ابنه واقفاً ليتجه نحوه محتضناً إياه باشتياق، شدد من إحاطة ذراعيه حوله مردداً:

- إزيك يا بابا؟ عامل إيه؟

تراجع "سامي" مبتعداً عنه ليقول بانزعاج ووجهه ممتعض:

- مش كويس يا "يامن"

دفعه بعيداً عنه ليتابع موجهاً:

أخيراً افكرت إن ليك أب تسأل عليه

ابتلع "يامن" ريقه معتذراً بندم:

أنا أسف يا بابا، بس الظروف كانت مش تمام معايا ومعرفتش أرجع و...

قاطعته مستنكراً بحنق:

مش مبرر! طول عمرك طايش ومستهتر ومكبر دماغك، مش فارق معاك حد إلا نفسك
كتم ابنه ضيقه من توبيخه اللاذع، فهو محق في هجومه عليه، أشار له "سامي" بالجلوس وهو
يكمل بنزفة:

أؤكد أنا مش قاعد في كبوند خمس نجوم عشان إنت وأختك متسألوش عني، ده أنا عملت
كل ده عشانكم!

رد بحذرٍ محاولاً التهوين عليه:

وأنا رجعت يا بابا، وهأكون جبك

نظر له شزراً قبل أن يعلق بعدم اقتناع:

يا ريت، وتفلاح وتعرف تاخدلي حقي من "أوس" وتخلي حياته جحيم

توترت نظرات "يامن" مما يلقيه على عاتقه من مصائب قد تؤدي به في نهاية المطاف للحبس
مثل أبيه، انتشله من شروده السريع تذر "سامي" القائل:

ابن "مهاب" لعبها صح وجاب رجلي هنا عشان خدت حقي منه، عاوز يفضل مكوش على
كل حاجة

راقبه ابنه بنظرات قوية مصغياً لاسترساله الغاضب بانتباه تام، أضاف والده بوعيدٍ وهو يكور
قبضة يده:

ولو رجع بيا الزمن هاعمل المستحيل عشان أخد حقي وأخلص منه، آه لو كان حصل اللي
في دماغى والأغبية فخذوا الخطة اللي كنت راسمها، فلت من الموت يا ابن "مهاب"

تأكد "يامن" بداخله من صدق ادعاءات "أوس" بتورط والده بصورة مباشرة في تلك القضايا التي أودعته السجن، علق عليه معترضًا عليه يزيل الغشاوة من على عينيه ويرى ما آلت إليه الأمور معه:

بس ده ابن أخوك، يعني كان في مصالح وشراكة بينكم، وأكيد هو
هدر مقاطعًا بعصبية وقد استنشطت عيناه:

-ابن أخويا مالوش إلا مصلحته وبس، بيدوس على أي حد يظهر قدامه ولا يعارضه، لولا
اللي حصل كان زماني مكانه، امبراطور!

ثم تحولت نبرته للتهكم مشيرًا بيده:

-أنا عارف إنه ولا فارق معاك اللي حصلي، همك بس الفلوس ترجع زي زمان تملى جييك،
وتبعزقها يمين وشمال

هتف "يامن" معترضًا بغضبٍ ظاهر على ملامحه العابسة:

-إنت غلطان يا بابا، مش معنى إن حصلتلي أزمة أبقي فاشل
تحدث من زاوية فمه قائلًا بسخطٍ:

-أزمة، فكرك أخبارك مكانتش بتوصلني من "رغد"؟ الديون والقرف اللي كنت فيه، وفلوسي
اللي عمال تبعترها بدون حساب، كل حاجة كنت عارفها عنك

طأطأ رأسه حرجًا منه وهو يرد بخزي:

-أنا عقلت، وده مش هايحصل تاني

بدا صوته فاترًا وملامحه متجهمة قائلًا له

-أشك

ساد صمت متوتر للحظات بينهما تخلله نظراتهما المنزعجة، تفرس "سامي" في وجه ابنه بنظرة
الخبير الذي يدرك الأمور من مجرد التطلع لوجهه المقروء، ساورته الشكوك بأن ابنه لن يلبي

رغباته، بل لن يمتلك الشجاعة لمجابهة ذلك الخصم الشرس، لم يترك تفكيره يحيره حيث قطع السكوت متسائلاً:

قولي إنت هاتقدر تقف لـ "أوس"؟

رد "يامن" بعد تفكير متأن:

أيوه

ضاقت نظرات "سامي" نحوه، بات حدسه باحتمالية خذلان ابنه له قوياً، لاحت ابتسامة متهمكة على زاوية فمه معلقاً:

معتقدش، ده مش بعيد يفعضك تحت جزمته! لو كانت "رغد" هنا كنت اطمنت أكثر، هي غيرك، تقدر عليه!

هاجت دماء "يامن" في عروقه وانتفخ وجهه غضباً من استهزائه الدائم به، ثم صاح محتجاً:

ليه الكل مستقل بيا؟ أنا اتغيرت

رمقه بنفس النظرة المستخفة به قائلاً له:

أبقى وريني شطارتك

ثم أتى من خلفها صوتاً صادحاً يردد برسمية جادة:

الزيارة خلصت

وقف "سامي" على قدميه زافراً بتأفف وضيق، حاول "يامن" احتضانه مردداً:

خذ بالك من نفسك يا بابا

رفع والده كفه ليمنعه من الاقتراب منه قائلاً بقسوة:

خلي أختك ترجع وتقابلني، أنا مش هرتاح غير لما أشوفها وأقولها على اللي عاوزه، هي الوحيدة اللي هاتنفذ كلامي بالحرف!

أوغرت كلماته القاسية صدر ابنه وأشعرته بالحنق من تهميشه المتعمد له واستهتاره به، اشتعلت حدقاته بشراسة مغتظة وردد من بين شفثيه بهمس حاد:

أنا غير "رغد"!

.....

تحرك رأسها لا إرادياً مع تلك الرائحة القوية التي اخترقت أنفها، وارتجفت شفثاها مخرجة آهة خافتة التقطتها أذنه، استمر "أوس" في تقريب قطعة القطن المبتلة بالعطر من أنف "تقى" لتستنشقها بالإجبار حتى تفيق، وضعت "تهاني" يدها على كتفه هامسة له:

متقلقش يا ابني، هاتبقى كويسة

صمت ولم يعلق عليها وواصل ما يفعل حتى تجاوزت معه وبدأت تستعيد وعيها، لم يرغب "أوس" في رؤيتها لتلهفه عليها، فما زال غضبه مسيطراً عليه بسبب رفضها اتباع أوامره فيما يخص حمايتها، تراجع عنها ليرك لوالدته مهمة التأكد من عودتها لوعياها، أولاها ظهره ثم اتجه إلى النافذة ليهدئ من غضبته الوشيكة، أغمض عينيه مقاوماً تلك الرغبة التي تحثه للتطلع إليها فور أن سمعت همهمات غير المفهومة، أراد أن يشعرها بضيقه مما حدث، تصلب جسده مع سؤالها:

- "أوس" فين؟

أجابتها خالتها بابتسامتها المطمئنة وعيناها اللاتين تفيضان حناناً:

بنخير يا بنتي، هو واقف أهوو، "وحياة" مع "فردوس" برا، المهم إتي كويسة يا "تقى"؟

حركت "تقى" رأسها لتنظر له بمقلتين تتسلل إليهما الدموع وهي ترد:

أيوه

تابعت "تهاني" قائلة بنبرتها الأمومية الدافئة:

طيب ارتاحي يا بنتي وأنا هاعملك عصير فيرش يرد الدموية في وشك، وبالمرة أطمئن أمك عليك

ردت عليها بخفوت مرتبك:

ماشى

تتبعت خالتها بعينها حتى خرجت من الغرفة ثم حركت رأسها في اتجاه زوجها الذي لازم الصمت لبعض الوقت، توقعت أن يثور في وجهها، أن يصب جام غضبه عليها، أن يسمعها من الكلام ما يؤنبها ويجعلها تدرك خطئها الفادح، لكنه ظل صامتا ليغذيها أكثر بسكوته المريب، اغرورقت عينها بالمزيد من العبرات، وبدأ صوت نحيبها يُسمع، قاوم "أوس" ما يعتريها ليركز أنظاره مع ذلك الطفل البائس الذي يطالعه من النافذة، فقد أمسك به الميكانيكي من كتفه وهزه بعنف وهو يوجعه بضربات عصاه الرفيعة كنوع من التأديب له لمخالفته لأوامره، أبعد نظراته عنه ليصدق في رجال حراسته الذي تجمعوا عند مدخل البناية متأهبين لتنفيذ ما يأمر به تواء، برقت حدقتاه بقوة مع ندائها الرقيق:

- "أوس"

ورغم الصراع المحتدم بداخله الذي يحفزه للذهاب إليها واحتضانها إلا أنه حافظ على قناع البرود قائلاً بجفاء:

- الحراسة واقفة تحت، وهرجعك البيت لما تخلصي زيارتك هنا

صدمت من ردة فعله الجليدية وتمتت بتلعثم:

- أنا ..

لم يمهلها الفرصة للروح بما تريد التعبير عنه حتى لو كان ندمها، تحرك مبتعداً في اتجاه باب الغرفة وهو يقول باقتضاب:

- سلام!

فغرت "نقى" شفيتها مذهولة من تجاهله لها، كان الأمر غريباً عليها للمرة، لم يكن ليسمح بشوكة أن تؤذيها دون أن يهرع للاطمئنان عليها والتهوين من وجعها، لكنه بدا مختلفاً هذه المرة، لم يمنحها نظرة واحدة وإن كانت مليئة بالعتاب والتوبيخ، بل تركها هكذا لتشعر بقسوة من

نوع جديد، انسابت عبراتها التي تجمعت بكثافة في طرفيها حرجاً وندماً على ما حدث، لامت نفسها لعنادها غير المجدي، ربما لو أصغت له منذ البداية لما تعرضت لذلك الموقف المؤسف، ولما أجبرته على الاقتتال بشراسة من أجل رد اعتبارها والحفاظ على كرامتها كحبيبته أولاً وزوجته ثانياً !!

.....

الفصل الخامس

بكت لأنه تركها بمفردها دون التفوه بكلمة لوم واحدة معاتباً إياها، غلبها إحساس الضيق الممزوج بالندم، فعجزت عن منع نفسها عن البكاء، دفنت "تقى" وجهها بين راحتي يدها كاتمة

لشهقاتها، عادت إليها خالتها فتفاجأت بحالتها المنكسرة تلك، أسندت المشروب الذي أعدته لها على الطاولة الصغيرة بجوار فراشها لتهرع إليها متسائلة:

-مالك يا "تقي"؟

انهارت الأخيرة بأكية في أحضانها وقد تعالت شهقاتها، توجست "تهاني" خيفة من أن يكون مكروهاً ما قد أصابها، سألتها مجدداً بقلبي أكبر:

-طميني يا بنتي في إيه؟

همست من بين بكائها:

- "أوس"

زائغت نظراتها قليلاً معتقدة أنه ربما قد تطاول عليها باليد في لحظة طيش عمياء حينما تركتها بمفردها، ابتلعت ريقها متسائلة بخوف:

-عمل إيه؟

حبست أنفاسها مترقبة جوابها الذي ربما لن يكون ساراً، أجابتها "تقي" بنحيب:

-سابني ومشى من غير ما يقول حاجة

تنفست "تهاني" الصعداء لكون بكائها ناجم عن أمر طبيعي وليس عنفاً من أي نوع، ربتت على ظهرها برفق قائلة لها:

-اهدي يا "تقي" واحكي لي بالضبط إيه اللي حصل

حاولت الحديث بصوتها الباكي لتخبرها بإيجاز عما حدث من عناد بينها وبين "أوس" بشأن المجيء إلى هنا، لم تقاطعها خالتها وانتظرت حتى انتهت لتقول لها بعتابٍ لطيف:

-جوزك عنده حق، أنا مجاش في بالي إنه هو اللي بيتخايق تحت، فكرتها خناقة بين مقاطيع الحنة زي كل مرة

سألتها بنحنة متقطعة:

-يعني أنا غلطانة؟

سكتت "تهاني" للحظات تعد على أصابع اليد قبل أن تجيبها بهدوء:

-بصراحة .. أيوه

نظرت لها "تقى" بضيق من عينيها الباكتين فتابعت خالتها موضحة بتمهل:

- "أوس" مش هايعمل كده إلا لو كان خايف عليك من نسمة الهوا الطاير، وبعدين إتي مراته وجاية مع بنته لمكان إتي فاهمة طبيعة الناس اللي فيه عاملة إزاي، ماتلوميش عليه لما يشوف بنفسه حاجة مش عجباه وتقريبًا حد شبه بيتعدى عليك!

ردت معترضة وهي تمسح بظهر كفها عبراتها:

-وأنا كنت هاعرف منين إن كل ده هايحصل؟!

علقت عليها بجدية رغم هدوء صوتها:

-وأديكي عرفتي وشوفتي بنفسك النفوس المريضة

أومات برأسها متفهمة قبل أن تسألها بحيرة:

طب أنا هاعمل إيه دلوقتي؟

أجابتها بنظرات ثابتة:

-المفروض تعتذري لجوزك، وأظن هو مقصرش معاك ويعمل اللي عليه وزيادة عشان تكوني مبسوفة ومرتاحة

عاد صوتها للاختناق مجددة متذكرة جفائه الجامد معها لتقول بنشيج:

ده مكلمنيش و...

قاطعتها مبررة تصرفه الجاف:

-معلش، حقه يضايق ويزعل، حاولي إتي تكلميه وتجري ناعم معاه وتصالحيه، وكون إنه سكت ومعاتبكيش ده أكبر دليل على إنه يبحبك ومش عاوز يزعلك بكلمة تضايقك

تعلقت نظراتها الدامعة بوجهها الحنون، مسدت "تهاني" على رأسها مكلمة حديثها:
-وبعدين يا "تقى" ياما بيحصل بين المتجوزين، أهم حاجة اسمي كلامه طالما في الصح
هزت رأسها بانصياع:

حاضر

مدت "تهاني" يدها لتمسك بكوب المشروب ثم ناولته لها قائلة بحنو:
-ياللا اشربي العصير وتعالى نقعد مع أمك برا، زمانتها طقت من الأعدة لوحدها
ماشى

قالتها "تقى" باستسلام وهي ترتشفه في جوفها الذي امتلأ بالعلقم لتفكر بعدها ملياً في طريقة
تسترضي بها زوجها وتطلب منه العفو عما بدر منها من خطأ غير مقصود.

.....

هدأت من روعها لتعود إلى سكونها قبل أن تخرج للجلوس مع والدتها بالخارج، ففضول
"فردوس" لم يمنعها من التلصص خلسة -رغم عجزها- لتعرف سبب الخصام بين ابنتها وزوجها،
لم تلتقط أذناها إلا القليل من الكلمات غير المترابطة فلم تتضح الصورة بالنسبة لها، تحركت
بحذر متلمسة ما تطاله يدها من أثاث لتعود إلى الأريكة جالسة بجوار حفيدتها، ادعت انشغالها
بمداعبها عندما سألتها "تقى" بنبرة شبه مختنقة:

-عاملة إيه يا ماما؟

زفرت "فردوس" مطولاً قائلة بامتعاض:

-زي ما إنتي شايفة، عاجزة، لا لاقية اللي يخدمني ولا ياخذ يايدي

ردت عليها "تهاني" محتجة على أسلوبها الاستفزازي في استرقاق من حولها:

-بلاش تبطري على النعمة، هو مش "أوس" باعتلك بنت تشوف طلباتك كل يوم؟

مصممت شفتيها قائلة بتذمر:

دي يوم تيجي وعشرة لأ، وبعدين ده بدل ما يشوف دكاترة برا ولا علاج لحالتي ده أنا خالته
قبل ما أكون حماته؟!!!

علقت عليها أختها بضيق رافضة تلك الطريقة الفظة في طلب المساعدة:

-والله هو مش ملزم بيكي، وكفاية أوي إنه عدى اللي حصل زمان

لم ترغب "تنقي" في الحديث عن ذكريات الماضي التي ألمتها وأحدثت شرخاً عميقاً في علاقتها
بوالدتها تجاوزته بصعوبة، حملت رضيعتها قائلة بفتور:

-أنا هاقوم أغير لـ "حياة"

ردت عليها "تهاني" مدعية الابتسام:

-وماله يا حبيبتي

انتظرتها حتى اختفت بالداخل لتنظر إلى أختها شزراً ثم همست لها بغيظ لتوبخها:

-بلاش يا "فردوس" نفتح في الدفاتر القديمة، واحمدى ربنا إن المياہ رجعت لمجارها، مش
أحسن ما كانت بنتك قاطعتك؟

ردت عليها بوجهها الممتقع:

-ما هو جوزها على قلبه فلوس أد كده، مستخسر فيا كام ألف أتعالج بيهم، ياختي يعتبرهم
طالعين لله

استنشأت نظراتها من تهكمها عليه فحذرتها بجدية بالرغم من خفوت نبرتها:

-ده ابني على فكرة

وكانها لم تكثرث على الإطلاق بتحذيرها فأكلت باستهجان:

يا ريته كان عمل اعتبار لصلة الدم، وبعدين مش أبوه اللي غواني وضحك عليا

ضربت "تهاني" كفها بالآخر مرددة باستياء مستنكر:

-أنا غلبت معاكي والله، مش عارفة أقولك إيه!

ردت عليها بفم ملتو:

-ولا حاجة، ده حتى معبرش أمه بشقة في حته نضيفه هيعبرني أنا؟!

فاض بها الكيل من سخطها الدائم على كل شيء، حسمت معها الحديث في تلك المسألة تحديدًا هاتفة بصرامة:

-والله أنا عاوزة أفضل هنا، أنا مش هأكون عبء على ابني

استنكرت عنادها معقبة:

-يعني الكام ملطوش اللي هايدفعهوملك في شقة هيعضلوه، ولا هي عنتظة على الفاضي!

احتقن وجه "تهاني" بحمرة مغتاظة من لغوها المستفز فنهرتها بجدوة:

-"فردوس" بطلي

ثم التفتت برأسها للخلف حينما سمعت المفتاح يدار في قفل المنزل، لحظات ورأت "عوض" يلج للداخل قائلاً بصوته المتحشر:

سلامو عليكم

ردت عليه بود:

-وعليكم السلام

هبت واقفة لتضيف بابتسامة متسعة:

-مش هاتصدق مين هنا يا "عوض"

أنباه قلبه بوجودها فهتف بابتسامته الصافية:

-"تقي"

أكدت له صدق إحساسه قائلة:

-أيوه، هتلاقيا في الأوضة مع حفيدتك يا جدو

تهللت أساريه المجددة مضيئاً بجائس وهو يكافح للإسراع في خطواته المتباطئة:

ماشاء الله، أما أخش أسلم عليهم

في حين غمغمت "فردوس" بخفوت محدثة نفسها:

ماخذتش من العيلة دي غير الفقر والمرض وبس!

.....

-كنت مستنيك!

قالها "أوس" بابتسامة صغيرة تعكس انتصاراً واثقاً وهو يتفرس بعينيه الصارمتين وجه "يامن" الذي أتى إليه في مؤسسته صاغراً ليتحدث معه في أمر جاد، ادعى الأخير الجمود والثبات وهو يلقي بثقل جسده على المقعد المقابل لمكتب ابن عمه قبل أن يرفع عينيه في وجهه ليقول بزفير بطيء:

-أنا موافق

سأله "أوس" بمكر ليتحقق مما يريد سماعه:

على إيه؟

ابتلع "يامن" ريقه في حلقه الجاف مسبقاً مردداً بصعوبة بدت ملحوظة في نبرته:

على العرض بتاعك

سأله "أوس" بجمود وهو يعبث بقلمه الحبري ذو اللون الذهبي:

-والتغيير ده كان بعد زيارتك لأبوك ولا قبلها؟

اتسعت حدقتاه اندهاشاً من جملة الأخيرة، ف ضرب على سطح مكتبه متسائلاً بحنق:

هو إنت بتراقبني؟

أشار له بالقلم معتباً:

-اعتبرها بأحميك

تجاوز "يامن" تلك النقطة مضطراً لينتقل للأمر الهام الذي جاء من أجله، تابع متسائلاً بتبرم لم يخفه:

-وأنا هاشتغل إليه هنا؟

أجابه بجدية تامة دون أن يرف له جفن:

-"عدي" هايلغك بالمطلوب منك، وهاتكون تحت الاختبار وإشراف مباشر منه

كان "يامن" بحاجة لنقطة يبدأ منها ليثبت نضوجه وقدرته على تحمل المسؤولية، وليس كما يزعم والده بكونه شاباً غزاً لا يعرف إلا الفشل، وأن أخته الكبرى وحدها القادرة على فعل ما يعجز عنه، شردت نظراته وتأمل "أوس" سرحانه الواضح عليه بنظرة مليّة متأكداً من صدق تخمينه بأن طباع عمه لم تتغير وأنه أقص من شخصه عن قصد ليشعره بخيبة أمله، وربما فيما حدث الفرصة لكسبه وضمه إلى صفه، خاصة إن تطورت المواجهات مستقبلاً وأتت "رغد" من الخارج لتتصارع معه، أراد "أوس" إعلامه بقدرته على استنباط الأمور قائلاً:

-أتمنى إنك تكون أد المسؤولية وميكونش كلام عمي أثر فيك

رد عليه بعدم ارتياح:

لو كنت سمعت كلام بابا مكوتش هتلاقيني هنا

أظهر له ابتسامة باهتة معلقاً عليه:

-كويس إنك حسبتهأ صح

ضغط على شفثيه قائلاً بيأس مقروء في تعابيره:

-كل واحد في النهاية بيدور على مصلحته

رد عليه "أوس" بنبرة ذات مغزى:

-وطبعاً لاقيت إن مصلحتك معايا

أزعجته كلماته المنتقاة حرفيًا وأصابته في مقتل، فلو لم يكن ذلك غرضه الحقيقي لما خطا إلى هنا
بملء إرادته، مد "أوس" ذراعه بمفتاح وضعه أمامه هاتفًا:

دي مفاتيح شقتك الجديدة، مش معقول هتفضل مقضيها فنادق
أخذها "يامن" مرددًا باقتضاب:

شكرا

استأنف ابن عمه موضحة بنبرة عملية صريحة:

دي مش هدية، أنا هاخصم إيجارها من مرتبك
رد عليه "يامن" بامتعاض:

طيب

استرخى "أوس" أكثر على مقعده الوثير الذي لا يليق بشخص مهيب إلا هو، ثم فتح ذراعيه
في الهواء مرحبًا بعنجهية ابتدعها:
أهلاً بيك في شركات "الجندي"!

.....

ودعت والدها بحرارة بعد أن جالسها لبعض الوقت لتجمع بعدها متعلقات رضيعتها، علقت
"تقى" الحقيبة على كنفها وحملت طفلتها بالذراع الآخر ملقبة التحية على والدتها قبل أن تخرج
من المنزل، هبطت خالتها الدرج معها لتوصلها إلى الأسفل حيث ينتظرها أفراد الحراسة
التابعين، أوصتها بجدية قبل أن تخرج من مدخل البناية:

ماتنسيش اللي قولتلك عليه يا "تقى"، راضي "أوس" وحسيه إنك غلطتي، ده هيفرق معاه
أجابتها مستسلمة:

أنا هاعمل كده

ريبت عليها برفق متابعة توصياتها الجادة:

وابقي طمئيني عليكي، وخدي بالك من "حياة"

ردت متصنعة الابتسام:

حاضر، مع السلامة يا خالتي

انحنت عليها "تهاني" لتحتضنها قائلة بحنو كبير:

الله يسلمك يا بنتي ويحفظك إتي وابني من كل سوء!

ثم لوحت للرضيعة بيدها لتصرف بعدها عائدة إلى الداخل، سارت "تقى" بحذر في اتجاه السيارة المرابطة على مقربة من البناية، لمحتها "بطة" وهي تخرج بصحبة أختها من البناية المقابلة فهتفت عاليًا لتجذب انتباهها:

- "تقى"

استدارت الأخيرة برأسها للخلف فوجدتها تمشي في اتجاهها وتشير بيدها مرجبة بها، توقفت عن السير راسمة على ثغرها بسمة صغيرة قائلة لها:

إزيك يا "بطة"؟

أجابتها "بطة" بتهيدة مرهقة عبرت عن تعبها الملحوظ على قسماات وجهها:

الحمد لله

ثم ركزت نظرها على أختها التي كانت تطالعها بنظراتها المشرقة سائلة إياها:

وإتي عاملة إيه "هالة"؟

ردت مبتسمة:

أنا كويسة الحمد لله

سألتهما "تقى" بفضول وقد وقعت نظراتها على الرضيع الذي تحمله "بطة" بين ذراعيها:

إنتو رايجين فين كده؟

أشارت "بطة" بعينها نحو رضيعها لتجيبها باهتمام:
ده ميعاد التطعيم بتاع "إسلام" هنوديه عند الوحدة ياخده هناك
اقترحت عليها بإصرارٍ وهي تمرر نظراتها بين وجهيهما:
طب تعالوا أوصلكم بدل ما تمشوا المسافة دي، أنا العربية معايا و...
ردت "بطة" مقاطعةً بحرج:
مافيش داعي، احنا كده هنعطلك
ألحت عليها "تقي" بجديّة:
عطلة إيه بس، دي فرصة كمان اقعد معاكي يا "بطة" واطمن على أحوالك
تشكل على وجهها المرهق ابتسامة رضا لكونها ستتجنب مع رضيعها عناء التنقل في المواصلات
العامة وزحاما المستنفذ للقوى، التفتت نحو أختها لتقول لها:
تعالِي يا "هالة"
تبعتها أختها نحو السيارة ليستقر ثلاثتهن بها، رفعت "تقي" عينها نحو السائق الخاص بها تأمره
بلطفٍ:
اطلع بينا لو سمحت على الوحدة الصحية، وأنا هاديلك على مكانها
رد بامثالٍ تام:
تحت أمرك يا هانم
أخفت "هالة" ضحكة عبثية لتميل على أختها هامسة لها:
حلوة كلمة هانم دي، والله لايقة عليها
نهرتها "بطة" بنظرة صارمة محذرة إياها بصوتٍ خفيض:
بس، مش عاوزين فضايح

لزمت "هالة" الصمت مستمتعة بالجلوس باسترخاء على المقعد الجلدي المريح الذي لم تكن لتجلس عليه أبدًا لولا اقتراح جارتها "تقي"، تأملت منطقتها الشعبية من النافذة الملاصقة لها، سريعًا ما تبدلت ملامحها المشرقة للعبوس والقلق حينما التقطت نظراتها عينين خبيثتين أشعرتها أن هناك من يترصد بها، رجفة خفية اعترت جسدها وهي ترى أنظار "منسي" مسلطة عليها، أشاحت بوجهها على الفور لتتجنب تحديقه بها مقاومة ذلك الشعور المزجج الذي أفسد سعادتها المؤقتة.

.....

انتظرت على أحر من الجمر عودته إلى المنزل لتعذر له كمحاولة أولية جادة منها للندم والتصالح معه، لكن احترقت أعصابها من كثرة الانتظار، ولأكثر من مرة أمسكت "تقي" بهاتفها المحمول مترددة في محادثته لكنها لا تلبث أن تتراجع عن تلك الفكرة مفضلة مجيئه لتعبر له وجهًا لوجه عن ذلك، تأثقت في غرفة نومها وارتدت قميص نوم حريري الملمس من اللون البتولي يبرز بياض ساقها، ويكشف عن جمال كتفها وتناسق جسدها، غطت مفاتها التي برزت بإغراء ملهب للحواس بالروب الملحق به وأحكمت ربطه على خصرها، وترقبت بشوق لحظة وصوله، كذلك وضعت على بشرتها القليل من مساحيق التجميل لتزداد فتنة وروعة، ومع ذلك لم يأت "أوس" إلى المنزل وتغيب عن حضور العشاء، أشعرها ذلك بالمزيد من الضيق والقلق، وملأ رأسها بالمزيد من الأفكار المعاتبة لتسرعها في الإصغاء إليه، وقفت لبرهة خلف النافذة تراقب الطريق من وراء الستارة التي شكلت حاجبًا يمنع من الخارج من رؤيتها، ملت من الانتظار الممل فجابت الغرفة ذهابًا وإيابًا لعدة مرات ثم مكثت مع رضيعتها لبعض الوقت، عادت بعد ذلك إلى النافذة لتراقب الطريق من جديد وقد تملكها إحساس اليأس.

اختفى ذلك في لحظة حينما رأت سيارته قادمة من على بعدٍ، بدأت عيناها تلمعان من جديد وتورد وجهها بدموية خجلة، هرولت "تقي" نحو الفراش لتمدد عليه مدعية النوم بعد أن نزعت روبا عنها لتبدو أكثر إغراء وإثارة، حبست أنفاسها وأتقنت دورها حينما سمعت صوت خطواته بالغرفة، تأهبت بتلهف واستعدت نفسيًا وجسديًا للمسمة حنونٍ منه على بشرتها، انتظرت بشوقٍ لكن لم يحدث شيء، فتحت عيناها بحذرٍ لتختلس النظرات بنصف عين عليها ترى ما

الذي يفعله "أوس"، اتسعت حدقتها في صدمة حينما رأت الغرفة خالية منه، انتفضت من نومتها متلفتة حولها وقد بهتت تعابيرها المتوهجة، أيقنت أنه ما زال غاضباً منها، كورت أناملها لتضغط عليهم بحيرة وهي تسأل نفسها:

-للمرجادي زعلان مني؟!

أنزلت قدميها عن الفراش لتسير بإحباط إلى خارج الغرفة، سمعت أصوات حركة تأتي من غرفة الأجهزة الرياضية فتوقعت أن يكون بداخلها، اقتربت "تقى" بحذرٍ لتتأمل من الفجوة الصغيرة البارزة من الباب الموارب فوجدت "أوس" يمارس تمارين الضغط بعد أن بدل ثيابه بسرور رياضي فقط دون أن يضع أي شيء يغطي صدره العريض، عضت على شفتها السفلى بارتباكٍ حائر وقد ظهر عليها التردد، همست لنفسها بتشجيعٍ مسترجعة حديث خالتها لها:

-لازم أصلحه، مش هاخلية ييات زعلان!

دعمت قرارها وأمسكت بالمقبض لتدفع الباب برفقٍ قائلة له بنظرات تعكس خزيها منه:

-مسء الخير

استقام "أوس" واقفاً رافعاً إياها بنظرة سريعة جافة خالية من الاهتمام وهو يرد بفتور:

-مسء النور

استاءت لكونه لم يطالعهما يتمعن فيرى ما الذي ارتدته من أجله، تقدمت نحوه بخطوات بدت مترددة، ثم تهتت متسائلة:

-هو إنت مش هتنام؟

أجابها بجديّة وبوجهٍ متعقد الملامح:

-لا

سألته بنظرات قلقة وقد تركزت حدقتها على ملامحه الجامدة:

-إنت لسه زعلان مني؟

رد بتساؤل يحمل التوبيخ في طياته:

تفتكري إيه؟

طأطأت رأسها خجلاً منه، هو محق في غضبه منها، أغمضت عينيها للحظة لتحفز نفسها من جديد على الاعتذار له متجاهلة بروده المحبط، همست له برقة دون التطلع إلى عينيها:
أنا أسفة!

انتظرت أن يرد عليها لكنه ظل صامئاً، فتحت "تقى" جفنيها ونظرت في اتجاهه فوجدته جالساً على المقعد الجلدي يمرن عضلات ذراعيه بأثقال من الحديد، أزعجها عدم أكثرائه بها ولا باعتذارها، ومع ذلك أخفت ضيقها، فهي تستحق المعاتبه والتجاهل منه، سارت نحوه بتؤدة ثم التفت حوله لتقف خلفه، تلمست بأناملها الرقيقة كتفه وهي تكرر اعتذارها بنعومة:
حقك عليا، أنا فعلاً غلطت!

مالت على ظهره لتلتصق به ثم طوقت بذراعيها عنقه وصدره، لامست بوجتها صدغه متابعة همسها:

أنا أسفة، متزعش مني يا "أوس"

ترك الأخير الثقل الحديدي من يده ليمسك بها من رسخها، حرك وجهه نحوها لينظر لها بغموض قبل أن يقول:

مش كفاية اعتذارك يا "تقى"

ابتسمت له قائلة برقة:

أنا هاسمع كلامك ومش هعارضك ثاني، عشان خاطري متزعش مني

ثم طبعت على صدغه قبلة رقيقة شعر فيها بأنفاسها الحارة تضربه، ارتخت تعابيره العابسة وتحفزت خلاياه مع تلك القبلة الموججة للمشاعر، نظر لها ملياً مستعيداً في ذاكرته مشهد تأديب الميكانيكي للطفل الصغير، التوى ثغره بابتسامة عابثة أخفاها سريعاً، ثم شدد من قبضته على رسخها قائلاً لها بغموض البكها:

-تمام، بس مش قبل ما نخلص حسابنا

قطبت جبينها بحيرة غير قادرة على فهم ما يرمي إليه بجملته تلك، سألته بنظرات حائرة:

-حساب إيه؟

لم يترك لها المجال لتخمن مقصده حيث جذبها من رسغها بقوة لتستلقي على حجره، ووجهها مواجه لقدمه، شهقت عفويًا من حركته المباغته التي ذكرتها بأسلوب معاقبة والدتها لها حينما كانت طفلة صغيرة لم تتجاوز الخامسة من عمرها وتشرع في صفعها على عجزيتها عندما تخطئ كنوع من العقاب الصارم لتكف عن ارتكاب المزيد من الأخطاء، لف "أوس" رسغها خلف ظهرها ليقيدها بقبضته وثبتها جيدًا فشل حركتها بالكامل، سألته وقد توترت على الأخير:

-إنت هاتعمل إيه؟

برزت ابتسامة عبثية على ثغره، رفض الإجابة عليها ليزيد من حماسة الأجواء، تأوهت "تقي" متألمة حينما شعرت بألم مباغت يصيبها، ركلت بساقها في الهواء تستسمحه:

-أنا أسفة، مش هاعمل كده تاني، كفاية يا "أوس"

همس له بصرامة:

-ششششش! ولا كلمة!

رجته بتوتر وهي تنتفض بكامل جسدها:

-حقك عليا!

وكأنها تحدث نفسها، تجاهلها "أوس" عن عمد مستمتعًا بذلك التأنيب الخطير، انفرجت شفتها بذهول وارتفع حاجباها للأعلى في صدمة أكبر، بل وتحول وجهها لكتلة ساخنة من الدماء مع تكرار صفعاته لينقلب الأمر بعد لحظات إلى حالة من الرومانسية الحميمة بينهما حيث اندمجت فيها المشاعر الحسية مع الرغبات الجسدية، تعانقت الأرواح، وامتزج الوجدان، وتناسا كلاهما ما حدث من خصام مؤقت لتصفوا الأجواء وتعود الأمور إلى ما كانت عليه؛ من حبٍ وتلهفٍ واشتياق !!

الفصل السادس

تلقت تكريمًا جديدًا وتشجيعًا من معلمي الصف في مدرستها لنموها وتفوقها الدراسي، شعرت "هالة" بالفخر من نفسها لمقدرتها على تحدي الصعاب وشق طريقها وسط ما تجاهاه، عادت إلى منطقتها الشعبية وهي مليئة بالحماس والغبطة، قررت ألا تخبر والدتها بما حقته من إنجازات حتى لا تفسد فرحتها بما ينقص يومها ويكرها، صعدت الدرج وهي تلهث بتعبٍ بعد يوم شاق من الاستذكار وملاحقة وسائل المواصلات لترجع إلى منزلها، وما إن وصلت أمام الباب

حتى انتزعت حجاب رأسها ودست المفتاح في القفل لتدخل إلى الصالة، كانت مرهقة فلم تنتبه للضيف غير المرحب به والمتواجد في انتظارها، اعتلتها دهشة مصدومة حينما رأت "منسي" يُجالس والدتها وابتسامته الصفراء المستفزة تعلو ثغره، تنهت لكونها بدون حجابها فوضعتة بإهمال على خصلاتها لتخبئه، اكتست ملامحها بتعايير مزعوجة لمجرد التطلع إلى وجهه البائس، هتفت والدتها بحمايس وكأن ضيفها أحد المشهورين:

-تعالى يا "هالة" سلمى على "منسي"، ده مش غريب!
نظرت له شزرًا من طرف عيناها قبل أن ترد على مضض:
-أهلاً

مدحته "أم بطة" قائلة بابتسامة متسعة:

-والله ما في زيه في شهامته وجدعنته، مخلصوش جاية من السوق شايلة الطلبات طلعهالى لحد هنا، لأ وكمان صلحلي جلدة الحنفية البايطة!
تركزت أنظار "منسي" على وجه "هالة" بجرأة بائنة ومع ذلك لم تبادله إلا النظرات المتأففة المستنكرة لوجوده، ردت على والدتها باقتضابٍ مستهجن:

-كثر خير، عن إذنكم

ارتفع حاجب أمها للأعلى صائحة فيها بجدّة طفيقة:

ما تقعدى شوية يا بت، متسرّبعة على إيه؟!

ردت عليها بعبوس:

جاية تعبانة من المدرسة وعندي مذاكرة كثير

علقت عليها قائلة بتهكم وهي تشير بيدها:

هما الـ 5 دقائق دول اللي هيعطلوكي

زفرت بضيق كبير فأضاف "منسي" برود محترف ليبدو متقبلاً لأمر ذهابها:

سديها على راحتها يا ست "أم بطة"، الله يكون في عونها

ردت عليه بسخط:

هي بتعملي إيه يعني؟!

لم تجد "هالة" بداً من الرفض أمام هجوم والدتها المستمر، فإن أصرت على موقفها لنالت من الكلمات الموبخة ما سيضايقها طوال اليوم وربما على مدار عدة أيام، نفخت بصوت مسموع لتشعره بضيقها منه لتقول بعدها باستسلام ممتعض:

حاضر يا ماما أديني أعدت

وما إن تأكدت من جلوس ابنتها ولاحظت نظرات "منسي" المتطلعة إليها حتى هتفت متسائلة بنزق وكأنها بذلك تتيح له الفرصة للتفكير فيها من منظور آخر غير كونها طالبة صغيرة:

هاقوم يا خويا أعلقك على الشاي، تحب كام معلقة سكر؟

فهم حركتها المفتعلة واعتلى ثغره ابتسامة انتشاء معقبا عليها:

ثلاثة يا ست الكل

ضحكت عاليا قائلة له بحماس مريب:

عينيا

انتظر بصبر مدروس انصرافها ليحرك جسده على الأريكة العريضة متعمداً الاقتراب من الأريكة الجالسة عليها "هالة"، انكمشت الأخيرة على نفسها خوفاً وانزعاجاً منه، سألها مبتسماً بسماجة:

عاملة إيه؟

لم تنظر له وركزت بصرها على نقطة ما بالفراغ قائلة له بتبرم:

-كويسة

وبوقاحة جريئة منه -مستغلاً عدم تطلعها إليه - مد يده ليتلمس حجاب رأسها، جذبه فجأة ليكشف عن خصلات شعرها غير المرتبة قائلاً بمكر:

-مغطية شعرك ليه، هو إتي بتكسفي مني؟

التفت نحوه كالملسوعة وهي تهب واقفة من مكانها بعد حركته المستفزة تلك لتنظر له باستنكار كبير، استشاطت نظراتها من عبثه بجباها باستمتاع لم يخفه ثم انحنت نحوه لتجذبه منه عنوة وهي تنهره بغلظة:

-ليه الي بتعملوه ده؟

نهض واقفاً ليحرق فيها بنظرات متفحصة لها أشعرتها بالحرج والنفور، غطت سريعاً رأسها وتراجعت خطوة للخلف لتتجنب اقترابه منها، فرك "منسي" طرف ذقنه بحركة متكررة قائلاً لها:

-يا بت ده أنا كنت بأخذك على حجري وإتي لسه طول كده، نسييتي ده

منحته "هالة" نظرة حاتقة رافضة لذلك الحق الذي يمنحه لنفسه فيما لا يخصه، أولته ظهرها لتبتعد عنه عائدة إلى غرفتها صاققة الباب خلفها بقوة وهي تبرطم بكلمات غاضبة، أخفض "منسي" يده ودسها في جيبيه وقد التمت حدقاته بوميض شرير محدثاً نفسه:

-وماله، إتقل على الحلو لحد ما يجيلك برجليه

خرجت "أم بطة" من المطبخ حاملة صينية صغيرة موضوع بها كوب من الشاي، سألتها باستغراب وهي تدنو منه:

-الله! رايح فين يا سي "منسي"؟

أشاح بيده مدعيًا بالكذب:

-ورايا كام مصلحة كده بأقضيها، أهوو نطلع منها بقرشين

طب والشاي

اعتذر منها بضيق مصطنع:

مرة ثانية

أخرجت تهيدة آسفة من صدرها معلقة عليه:

-ربنا يفتحها عليك يا ابني

رد عليها قاصداً استغلال تلهفها للحصول على زوج لابنتها الثانية:

-بالله عليكي تدعيلي ربنا يرزق بالحلال عشان اتأهل كده وأكمل نص ديني، أديني جبت

الشقة بس ناقصني أوضيها واشوف بنت ناس طيبين ترضى بيا وبظروفي!

تهدجت أنفاسها مرددة بحماس انعكس على وجهها وحدقتها الناظرتين إليه:

-يا رب يسعدك عن قريب

هز رأسه مضيقاً:

-تسلمي يا ست الكل، متؤمريش بحاجة؟

ردت عليه:

-ميامرش عليك عدو، مع السلامة

ودعته باهتمام أكبر حتى هبط على الدرج فأغلقت الباب وعادت إلى غرفة ابنتها لتعنفها بتذمر:

-كان لازم يعني تقابليه بالبوز ده، فيها إيه لما تكلميه عدل؟!

عقدت "هالة" شعرها جديدة والتفت نحوها ترمقها بنظرات مستنكرة، ثم ردت عليها بجدّة:

-هو مين ده أصلاً عشان أعمله اعتبار ولا أهمية؟!

اقتربت أكثر من والدتها لتتابع بنفس النبرة المحتدمة:

-ده واحد صايع وبلطجي، وطول اليوم متلأح على القهاوي

ردت عليها "أم بطة" بغيطٍ لأكزة إياها في كتفها بقسوة:

لأتني اللي حاطة مناخيرك في السما، اللي زي "منسي" بيعرفوا يجيبوا القرش من حنك السبع
صاحت بها بنزفة جلية:

-واحنا مالنا بيه من الأساس؟ ما يشوف حاله بعيد عننا

حدجتها أمها بنظرة غامضة قائلة لها بغموض أربكها:

-جايز يبقلنا مصلحة، محدش عارف النصيب مودي على فين!

تلبكت "هالة" من حديث والدتها الذي جعل بدنها يقشعر ونظراتها تتوتر، حاولت تغيير
مجرى الحديث كي تسد عليها أي محاولة لمدحه فهتفت متسائلة:

هي "بطة" مش هاتجي الأسبوع ده؟

أجابتها والدتها بفتور:

-لا، جوزها رجع وهفضل معاه، لما يسافر ثاني هتبقى تعدي علينا

أومأت برأسها مرددة:

طيب

ثم اتجهت نحو الفراش لتجمع ثيابها المدرسية وقامت بتعليقهم على الشماعة الخارجية الملتصقة
بخزانتها القديمة راجية الله في نفسها ألا يكون ما تفكر فيه والدتها وتلمح إليه جادًا وبخصوصها
هي تحديدًا.

.....

أسند علب الطعام الجاهز التي اشتراها في طريق عودته على الطاولة التي تنتصف الصالة في
منزله الجديد، تأمل "يامن" أرجاء المكان بنظرات شاملة متفحصة لكل ركن فيه، لم تكن
مساحته تصل تقريبًا إلى ربع مساحة فيلا والده، لكنه مضطر للقبول بها كما أبلغه ابن عمه،
خاصة أن ظروفه المادية لن تسمح له بتأجير ما يعادلها أو حتى أقل تكلفة منها ودفع تقودها
مقدمًا، استدار للخلف حينما سمع تلك النحنة المتحشجة، وجد حارس البناية يقف ورائه

مطأطأ الرأس ومنتظراً لتلقي التحية المادية منه، أخرج من جيبه بضعة نقود ووضعها في راحته، تناولها الأخير مردداً بامتنان قبل أن يدسها على الفور في جيب جلبابه القديم: تُشكر يا بيه؟ أي أوامر ثانية؟ محسوبك

قاطعه "يامن" بفتور:

-لا، اتفضل!

-ماشى يا بيه

قالها الحارس وهو يستدير خارجاً من المنزل ليغلق الباب خلفه، زفر "يامن" مطولاً ثم تأمل المكان من حوله بنظراتٍ أكثر دقة، قطع تأمله رنين هاتفه، كان يتوقع المتصل قبل أن ينظر إلى الشاشة، ضغط على شفتيه وهو يرد:

-أيوه يا "رغد"

سألته دون انتظار:

-عملت إيه؟

أجابها ناعماً:

-ماfish

بدا صوتها حاداً وهي تسأله بعصبية:

-يعني إيه ماfish؟ قابلت بابا ولا لا؟

رد بوجه باهت التعبيرات مستعيداً في عقله مقابلته الفاترة له:

-أيوه قابلته واتكلمت معاه

سألته بفضول:

-واتفقت معاه على إيه؟ ها ظبطت مع المحامي عشان نعرف ناخد حقنا من "أوس" و....

لم يعرف "يامن" المراوغة فقرّر مصارحتها بما عقد العزم عليه لتكون الصورة واضحة أمامها فقاطعتها دون تهمل:

-بصراحة أنا قررت أشتغل معاه

صرخت فيه باهتياج كبير:

-إنت اتجننت؟ إزاي تعمل كده مع اللي حبس بابا وخذ كل حاجة مننا؟!!

دافع عنه قائلاً بحذر:

-إنتي مش فاهمة حاجة، "أوس" قالي آ.....

قاطعته رافضة الإصغاء لكلمة يبرر بها تصرفه الذي اعتبرته دينياً من وجهة نظرها:

طول عمرك غبي ومتخلف، مش همك إلا نفسك وبس

استاء من هجومها الشرس عليه ورجاها بترثي عليها تترك له الفرصة لإيضاح كل شيء لها:

يا "رغد" اسمعي

صاحت به بانفعال أشد:

-أنا غلطانة إني اعتمدت على واحد زيك، كان المفروض أنا اللي أرجع مكانك، وقال إيه دفعتلك ديونك على أمل تساعدني، كان حتي أسبيك تتسجن مع المشردين والمجرمين اللي شبيهك، إنت فعلاً غبي و...

احتقن وجهه بحمرة مغتازلة من تطاولها بالسباب عليه وتحقيرها من شأنه بذلك الأسلوب القاسي، زفر منهياً الحديث معها:

-سلام

ألقي "يامن" بالهاتف إلى جواره لاعتنا طريقتها في التعامل معه، لم تجعله يوماً يشعر بإمكانية الاعتماد عليه أو بأنه قادر على التصرف في الأزمات، لذا لم يكثرث برده فعلها عندما يخطئ ويرتكب المحاقات، فربما في تلك التفاهات التي يفعلها الفرصة لإثبات أنه موجود.

رَجَّت "ماريا" زجاجة الرضیعة "حياة" بعد أن ملأتها باللبن الاصطناعي وأعدته ليصير جاهزًا للتناول، انحنى لتقدمه لـ "تقی" التي تولت مهمة إرضاعها وهددها بجنو زائد، ثم تركتها بصحبة ضيفتها وانصرفت لتكمل أعمال المنزل مع "عفاف"، داعبت "ليان" قدم ابنة أخيها ببراءة، ثم اعتدلت في جلستها مرددة بمرح:

-كبرت "حياة"

ردت عليها "تقی" قائلة:

-الوقت يبعدي بسرعة، قريب هتكمل سنة

-واو، العمر كله يا رب

تسلمي

أخرجت "ليان" تهيدة عميقة من صدرها لتقول بعدها بتعب:

-أنا بجد زهقت، مش قادرة من كتر الضغط، شركة ودراسة وبيت، نفسي أخذ بريك طويل معملش فيه حاجة غير إني استجم وأسافر أغير جو

نظرت لها "تقی" قائلة بتشجيع:

-هانت، فاضل حاجة بسيطة على الامتحانات

سألها "ليان" بفضول:

طب إنتي مش بتفكري تكلمي دراستك؟ اللي أعرفه إنك كنتي في معهد، وآخر سنة تقريري هزت رأسها بالإيجاب موضحة:

-ايوه، واقتريحت على "أوس" ده، وهو معندوش مانع، بس شارط عليا أحضر الامتحانات وبس!

أومأت برأسها معلقة:

-أها، مذاكرة منزلية يعني!

-حاجة زي كده

-تابعت تساؤلاتها المهمة:

-كويس، بس هتقدري توفقي بين ده وبين "حياة"؟ أنا ملاحظة إنها أخدة كل وقتك، يعني هتعرفي تذاكري وتخدي بالك منها؟

-صمتت للحظات قبل أن تجيبها:

-هاحاول، واللي هاقدر عليه هاعمله!

-أوكي

-غمزت لها "نقى" متسائلة بابتسامة عابثة:

-المهم إتي مش بتفكري تخلفي دلوقتي؟

-أجابتها بنفي قاطع:

-لأ طبعاً، أنا الموضوع ده مش في بالي، ده غير إنه مش وقته خالص

-تفاجأت من ردة فعلها الغريبة وسألته مستفهمة:

-و"عدي"؟ رأيك زيك؟

-ردت عليها بتوتر:

-ده قرار مشترك، استحالة نعمل ده وإنتي شايقة يومي عامل ازاي، ناقصة عيال أنا، لالالا،

-الفكرة مرعبة أصلاً، بليز ماتكلمش في الموضوع ده

-لم تضيف المزيد فاكشفت بقول:

-ربنا يقدملك اللي فيه الخير

ثم التفتت إلى رضيعتها تداعبها بجنو وتغمغم معها بكلمات مبهمه جعلتها تضحك، شردت "ليان" في ضحكاتها البريئة، تصلب جسدها إلى حد ما حينما تسلل إليها إحساسًا بالارتباك والتوتر لغفلها عن شيء هام ربما لم تعره الأمر في البداية، لكنه أشعل تفكيرها قلقًا لمجرد توهم حدوثه نظرًا لمرور وقت طويل على غياب ضيفتها الشهرية، بهتت ملامحها وضاحت نظراتها، شعرت بجفاف مريب يصيب جوفها، وبدون أي مقدمات هبت واقفة لتعلق حقيبة يدها على ذراعها قائلة بجمود:

-أنا هامشي يا "تقي"

استغربت الأخيرة من حالة التوتر التي اعترتها بصورة فجائية وسألتها بتعجب:

هو في حاجة؟ مش المفروض احنا هنتضي اليوم سوا

ردت عليها بتلعثم:

-أصلي افكرت مشوار كده مش عملته، ده غير إني وعدت ماي هاعدي عليها في الدار قبل ما أرجع

حركت "تقي" جسدها لتنهض وهي حاملة صغيرتها بين ذراعيها، رسمت بسمه رقيقة على ثغرها قائلة لها:

-براحتك، وأنا هستناكي في أي وقت تجيلي

لوحث لها بيدها ثم أحنت رأسها على الرضاعة متممة:

-أكيد، باي يا "تقي"، باي بيبي!

ثم خطت مسرعة إلى الخارج وهي تفكر في الذهاب إلى الصيدلية لشراء إحدى عبوات كشف الحمل المنزلي متمنية في نفسها أن تكون شكوكها خاطئة.

.....

على غير عادته، قرر المجيء مبكرًا لتناول طعام الغداء مع زوجته، وتمضية باقي اليوم بصحبة رضيعته تاركًا ما لديه من أعمالٍ على عاتق رفيقه لينح نفسه بعض الفسحة والراحة، ولج

"أوس" إلى داخل غرفة نومه باحثًا عن "تنقي"، لم يجدها فحمن على الفور مكانها، بالفعل كانت جالسة تلاعب الصغيرة "حياة" على الأرضية، تأملها بنظرات حانية تعبر عن حبه القوي لقطعتين غاليتين ترتبعان على عرش قلبه، لم يقاطع ما تفعله وظل مرابطًا في مكانه لبعض الوقت، رفعت "تنقي" رأسها للأعلى لتتفاجأ بوجوده عند باب الغرفة ومحددًا بها بتلك الطريقة الرومانسية التي تحبها منه، تورد وجهها قليلًا من نظراته، أخفضت عينها متسائلة بنعومة:

-إنت رجعت النهاردة بدري؟ معندكش شغل ولا إيه؟

أجابها بهدوء وهو يقترب من الاثنين:

-الشغل ما يخلصش، بس أنا عاوز أقضي اليوم معاكو

لمعت نظراتها بوميض سعيد وهي ترد بارتياح:

ماشى

جثا على ركبته بجوارها متابعا بنبرته الهادئة:

-عاوزين تفكر هانعمل إيه في عيد ميلاد "حياة"

ترددت في إخباره بعدم رغبتها في إقامة حفل كبير يُدعى لحضوره الكثير من الضيوف ممن لا تستطيع التعامل معهم، خاصة من معارفه ذوي السلطة والتعقيدات الطبقيّة الذين قد يضايقوا بتلميحاتهم المستترة والعلنية أفراد عائلتها بتمرهم أو سخريتهم، عبست تعبيراتها قليلًا وهي تسأله بتوجس:

-أنا حابه يكون عائلي شوية؟ إنت إيه رأيك؟

رد مبتسمًا مانحًا إياها حرية الاختيار:

-اللي يعجبك، أنا معاك في أي حاجة

لاحظ ابتسامتها الرقيقة من جديد على وجهها فزادته إشراقًا ووهجًا لاستجابته دون جدال لطلبها، استرخى "أوس" في جلسته أمام رضيعته يداعب رأسها بأنامله، تمددت "حياة" على

ركبته مستسلمة لرغبتها في النوم، استمر والدها في المسح على خصلاتها الخفيفة برفقٍ حذر حتى أغمضت عينها وغفت، ثم ركز بصره على "تقى" متسائلاً بمكرٍ:

-مش ناوية تغلطي ثاني؟

ضاقت نظراتها والتهبت بشرتها حرجاً من تلميحها العاثر والمشير إلى عقابه المتسلي معها، ادعت العبوس قائلة بصرامةٍ تخالف طبيعتها:

-لأ طبعاً، أنا اتعلمت الدرس، مش هاتكرر ثاني، اطمن!

غمز لها قاصداً الابتسام وهو يرد:

-كويس، ده اللي يهمني، لأني مش بأسامح بسهولة!

ردت عليه بريقة خفيفة ظهرت في نبرتها:

-ما أنا عرفت وجربت!

مد "أوس" يده ليتلمس جانب عنقها فارتعشت قليلاً من لمسائه الخيرة على بشرتها والتي توقظ فيها مشاعرًا جميلة ورغبات مشتعلة تحتاج للإخماد، تراجعت عنه ببطء لتجنب ذلك الإحساس المغربي الذي يحثها دومًا على تذوقه متسائلة بجدية زائفة:

-أجهزلك الغدا؟

استند على مرفقيه ليرمقها بنظرة مطولة ذات مغزى قبل أن يجيبها:

-ماشى، وأنا هانيم "حياة" في سريرها

أومأت برأسها موافقة، ثم نهضت واقفة على قدميها لكنها لم تتحرك قيد أنملة، بدت متشنجة إلى حد كبير، سألتها "أوس" مستفهمًا:

-في إيه مالك؟

أجابته بصعوبة وهي تركز على أسنانها:

-الظاهر رجلي نملت!

تحركت "نقى" بتهمل لتستند على أقرب أريكة حتى تخف حدة التميل الذي سيطر على قدمها
لجلوسها بطريقة خاطئة لفترة طويلة، في حين حمل "أوس" رضيعته ووضعها في فراشها ليقف
بعدها خلف زوجته وهو يجوب بنظراته تفاصيل جسدها وقد اشتعلت الرغبة بداخله،
انفضت مع لمسه لحصرها، واستدارت نحوه تحذره بوجهها المشدود:

-مش وقته يا "أوس"؟

سألها بعث:

-هو إتي عارفة أنا عاوز إيه؟

علقت عليه بضيق بسبب ذلك الألم الذي يزعجها:

-مش محتاج تقول

مال عليها برأسه ليطلع قبلة عميقة على وجنتها أحست فيها بأنفاسه الحارة، قاومت ما يفعله
معتضة:

-بلاش

عمق أكثر من قبلته التي كادت تلامس شفيتها متسائلاً بخفوت:

حطب وكده؟

توترت أنفاسها وخرجت نبرتها شبه مهزوزة وهي تجيبه:

-لا

اعتبر امتناعها تحدياً يستفزه، وهذا ما لن يقبل له، التفت ذراعه حول خصرتها ليحاوطها
ويقربها منه، كانت شبه مستسلمة لتأثيره الطاغى الذي يعرف جيداً كي يغزو حصونها، ارتجفت
أكثر مع لمساته الماهرة، ألصقها به هامساً لها بغرور صريح:

محدث يقول لـ "أوس" الجندي لاً!

.....

مش ممكن

رددتها "ليان" بصدمة وهي تمنع شهقة مذعورة من الخروج من جوفها بعد أن قرأت نتيجة اختبار الحمل المنزلي، كانت النتيجة إيجابية، تأكدت من طريقة الفحص بقراءة إرشادات الاستخدام لأكثر من مرة، زاد ذعرها وتوترها وهي لا تصدق حدوثه، كيف غفلت عن الانتباه لذلك؟ انحنى لتجمع محتويات العبوة وألقت ما فيه في القمامة قبل أن يرى زوجها ذلك، خرجت من الحمام وحالة من الارتباك الخائف مسيطرة عليها، صرخت بفزع حينما رأت "عدي" أمامها، نظر لها الأخير باندهاش عجيب من ردة فعلها وكأنها قد رأت شيئاً للتو، سألها وقد قطب جبينه:

في إيه يا "ليوو"؟

ازدردت ريقها وهي تحمق فيه بنظرات جمعت بين الخوف والتوتر، تنفست بعمق لتضبط اضطرابها المثير للريبة لترد بابتسامة باهتة:

مافيش حاجة

لاحظ "عدي" ذلك الشحوب المريب الذي غطا تعابير وجهها، اقترب منها متحسناً بشرتها وهو يسألها باهتمام أكبر:

شكلك مش طبيعي؟ في حاجة حصلت وإنتي مخبياها؟
ادعت كذباً:

لا أبداً، أصلي نسيت أعمل sheet كان مطلوب مني

رد عليها بتنهيذة ارتياح محاولاً بث الطمأنينة لها:

ولا يهملك يا "ليوو"، قوليلي اللي إنتي عاوزاه وأنا هساعدك فيه
بادلته ابتسامة فاترة قائلة له:

ثانكس بيبي

ثم أبعدت رأسها عنه لتتملص من حصار نظراته وأولته ظهرها متابعة:

-أنا هاطلب بيتزا، تحبها يا به

رد عليها بتأوب:

-كلي إتي يا حبيتي، أنا هأخذ دش وأريح شوية، أخوكي ناخني في الشغل، ده غير إني مطلوب مني أدرب "يامن" ابن عمك

سألته بجمود مفتعل:

هو "يامن" رج من برا؟

-أه بقاله فترة، واتقابل مع "أوس"، واتفق إنه يدرب معانا في الشركة

هزت رأسها معلقة:

-تمام، لكن مافيش أخبار عن "رغد"

أجابها وهو ينزع قميصه:

-لأ لسه

وقفت "ليان" عند باب الغرفة لتستدير برأسها نصف استدارة لتضيف بعدها مبتسمة:

-ارتاح إنت يا حبيبي

ألقي بشقل جسده المنهك على الفراش مستلقيًا عليه، أغمض عينيه مرددًا بنبرة شبه ناعسة:

-ماشى، وصحني لو وقفت معاكي حاجة

أومأت برأسها قائلة:

-أوكي

تنفست الصعداء لكونه لم يكتشف أمر ذعرها الحقيقي، أسرعته مهرولة من الغرفة وهي بالكاد تسيطر على أعصابها المنفلتة، شل تفكيرها مؤقتاً فبدت تائهة وعاجزة عن إيجاد حلاً لما أسمته بـ (الكارثة) التي حلت على رأسها !!

.....

الفصل السابع

تلفتت حولها بنظرات حادة غاضبة وهي تمرق عبر البوابات الرئيسية لمطار القاهرة الدولي، بدت واثقة في خطواتها التي تشق الأرض شقاً أثناء سيرها المتعجل، لفتت الأنظار نحوها بأناقته الواضحة ولون شعرها الجاذب للأعين رغم كونه مصبوغاً باللون الذهبي، وضعت نظارتها لتخجب عينيها وأكملت سيرها بنفس الثبات الجاد، بدت رنة كعب حذاءها قوية تجبر من يمر بجوارها على النظر إليها، لاحظت أعين الضباط المركزة على بياض ساقها المصبوتين بحرفية،

أظهرت جودًا عجيبيًا وعنجهية لا محدودة خلال تعاملها معهم حتى أنهت كافة المعاملات والإجراءات الرسمية ليصبح متاحًا لها الخروج منه، لوحظ عليها قوة الشخصية من نظراتها وطريقة استقامة جسدها واشتداد كثافتها، حتمًا هي ليست بالخصم السهل، فمنذ مكالمتها الأخيرة مع أخيها وقد انتابها الهواجس باحتمالية فشله في الثأر لأجل والدهما، جرجرت "رغد" حقيبة سفرها خلفها، ثم وضع هاتفها المحمول على أذنها لتقول بلهجة قوية:

-أنا وصلت يا "أكرم"، وخلصت كل الإجراءات

أتاها صوت زوجها متسائلًا:

عرفتي "يامن" إنك رجعتي؟

أجابته على مضض:

-مايستهلش، الواحد غلط من الأول إنه اعتمد عليه، اللي زيه أخره الهلس والديون، مش يتحمل مسؤولية زي دي

تابع مضيقًا بلهجة جادة:

-تكلمي مع المحامي وشوفي هيقولك إيه

علقت عليه قائلة بغموض مثير:

-هاعمل كده، ده غير إني في دماغي ترتيبات معينة للبيه "أوس"

أكمل بنفس جديته:

-أوكي يا "رغد"، وأنا هاكون على تواصل معاكي

-اتفقنا، وسلم على الأولاد، باي!

أنهت معه المكالمة متجاهلة تلاحق السائقين من حولها ليحصلوا على تلك الضيفة ذات المظهر الثري، ركزت أنظارها على واحد بعينه مشيرة له:

تاكسي!

ركض السائق نحوها ليأتي بحقائبها مرحبًا بهليل:

-ويلكم .. ويلكم

ردت عليه بتأفف ووجه عابس:

-أنا مش أجنبية، وبلاش دوشة

تخرج السائق من ردها الفظ، وضغط على شفثيه ممتعضًا وهو يكمل عمله في صمت، استقلت المقعد الخلفي مشيرة له بسبابتها:

-وديني على فندق (....)

رد بامثال:

-حاضر يا هانم!

تنفست "رغد" بعمق معيدة نثر خصلات شعرها المصبوغة للخلف، أشاحت بوجهها للجانب لتحقق في الطريق بنظرات مطولة غامضة مليئة بمحقد مضاعف، غمغمت مع نفسها قائلة:

-وريني هاتضحك عليا إزاي يا "أوس"، وأنا أعرف عنك كل حاجة!

.....

انبعثت أدخنة سيجارته غير البريئة من جوفه وأنفه لتعبق هواء ورشته المقفولة ليسرح بعدها في خيالات جامحة متذكرا ما اعتاد ممارسته من أفعال مشينة مع "رحمة"، تلك الفتاة العابثة التي باعت جسدها للهوى من أجل الثراء السريع، سحب "منسي" نفسًا آخرًا انحبس في صدره فسعل بقوة وهو يلفظ بقاياها خارجه، تمدد باسترخاء على أريكته الجلدية الممزقة ليتجسد طيف وجه "هالة" أمامه، مسح على صدره وفرك شعره محدثًا نفسه:

-آه لو البت دي طلعت من نصيبي

للحظة توهم تذليل كافة العقبات لتصير زوجته، بدأ في ترتيب أفكاره رغم رأسه المغيب عن الوعي مسردًا لنفسه ما سيقوم بفعله لاحقًا:

-أما سهل يضحك عليها بكلمتين، والشقة هتزلزل عينها، ولو جبت للبت حاجة ذهب كده
هتوافق من غير تفكير

نفت "منسي" دخان السيجارة من جديد مكملاً الحديث عن طموحاته وآماله في الزواج بها
وكان الأمر بات مفرغاً منه::

-وزيما زي أختها، مش هاتفرق عنها!

رفع بقايا سيجارته نصب عينيه الحراوتين ليحرق بها متابعا:

-سيجارة متكلفة .. على أبوها

تنحس بخشونة وهو يعتدل في جلسته بعد أن سمع تلك الهمهمات النسائية التي لم تكن غريبة
عليه بالمرّة، استعداد وعيه الذي أوشك على التخذركلياً مع صوتها المألوف له، تأهبت حواسه
ونفض فجأة ليقترّب بحذرٍ من تلك الفجوة الخفية الصغيرة في جدار ورشته والتي تجعله يتلصص
على من بالخارج دون أن يراه أحد.

.....

توقفت عن السير لتلتقط أنفاسها بعد ذلك المجهود الشاق والوقوف لساعات في طابور يمتد
لمسافة لا بأس بها للحصول على المواد الغذائية الضرورية، هدهدت "بطة" رضيعها بقوة طفيفة
ليكف عن البكاء وهي تقول بتبرم:

-الفرن كان زحمة، يا بابي الناس مش عاوزة تمشي ولا حد بيراعي حد

ردت عليها "هالة" بنبرة مرهقة:

-ما هو ده ميعاد صرفية التموين والنقط

أضافت "بطة" قائلة بارتياح قليل:

-الحمد لله، أدينا خلصنا من المشوار ده، وجيبنا عيش يكفيننا كام يوم

وافقتها الرأي وهي تخفض نظراتها لتتأمل الأكياس المعبأة بالمواد الغذائية:

أيوه

انتبهت "بطة" لرنة هاتفها المحمول فضغطت على زر الإيجاب قائلة بصوتها اللاهث:

ألو، أيوه يا "عبده"

ثم التفتت ورائها لتجد زوجها يلوح لها قائلاً:

-كويس إني لحقت

اقترب "عبد الحق" منها ملقياً التحية على "هالة" التي ردت مبتسمة:

-وعليكم السلام، ازيك يا "عبده"؟

أجابها بصوته المرهق:

-في نعمة والحمد لله

سألته "بطة" باستغراب وقد انزوى ما بين حاجبيها:

-إنت خلصت المصلحة بتاعتك

رد بتذمر:

-اتلغت، والدنيا مقشفرة على الآخر

حاولت زوجته التهوين عليه فريقت على كتفه قائلة:

-معلش يا سي "عبده"، بكرة ربنا يفرجها عليك

لوى ثغره هاتقاً:

-ربنا كريم، مش يالا بينا بقى

سألته "هالة" مستفهمة:

-هو إنتو مش هاتطلعوا فوق شوية

اعتذر "عبد الحق" بلباقة:

مرة ثانية بقي لأحسن جاي همدان وعاوز أنا

وافقته "بطة" الرأي فأيدته قائلة:

سلمي يا "هالة" على أي وأخواتك، وقوليلها هابقي أجيلها وقت ثاني

تفهمت الموقف ببساطة، فاكنت بالابتسام مرددة:

ماشى، سلام يا "سمسم"

حمل "عبد الحق" الأكياس البلاستيكية التي تخص زوجته بعد أن طبع قبلة أبوية على طفله

الرضيع، ثم أردف قائلاً وهو يشير بيده:

تعالى ناخذ مواصلة من على أول الشارع

ماشى، مع السلامة يا "هالة"، خدي بالك من نفسك ومن مذاكرتك

قالتها "بطة" وهي تقبل أختها من وجنتها لترد عليها الأخيرة بتنهيده متعشمة:

ربنا يسهل

أضافت أختها الكبرى بلهجة آمرة ومحدرة:

اطلعي على طول، ماتلكعيش

حاضر

ثم لوحت "هالة" بذراعها مودعة ثلاثتهم وبدأت في السير بتؤدة نحو الزقاق الجانبي لتختصر

المسافة لتعود إلى منزلها، انقبض قلبها فجأة وشعرت ببرودة قوية تصيب بشرتها عندما أدركت

أنها تسير بمفردها فيه، استجمعت جأشها وواصلت المشي ولكن بخطوات سريعة نسبياً لتنبيه

وهي تحاول طمأنة نفسها بعدم وجود ما يخيفها فيه، خرج من جوفها شهقة عفوية مذعورة

حينما ظهر ذلك الشخص فجأة أمامها، تراجعت تلقائياً للخلف محاولة تبين هويته من بين الظلام

الذي غلف المكان، شخصت أبصارها مع رؤيتها لقسماته البغيضة، اهترت شفتها متممة باسمه:

- "منسي"

حك الأخير ذقنه غير الحليقة وفرك جانب عنقه مردداً بصوته المتحشرج:

-مضطرب يا حلوة

كأخت "هالة" لتخفي خوفها المبرر منه وتسلمت بقوة زائفة متسائلة بتشنج:

-أنت واقف كده ليه؟ و.....

قاطعها متسائلاً بنبرة أجفلت جسدها وجعلتها ترتعد من داخلها:

-تهربي مني ليه يا غزال؟

توترت على الفور وتلاشت شجاعتها الزائفة مع صوته الذي أزعجها، استمرت في التراجع للخلف دون أن تبعد نظراتها عنه وهي ترد متسائلة بصوت خائف:

-عاوز إيه مني؟

أجابها بأنفاس كرهة تيقنت منها بأنه ليس في وعيه:

-القرب والوصال يا عسل

هددته بلا تردد:

-أبعد أحسنك بدل ما أصوت وألم عليك الناس

هز رأسه مستنكراً تفكيرها في ذلك، ثم عقب بعبوس يحمل الوعيد في طياته:

حلب وليه الفضايح بس؟ ده أنا غرضي شريف

تلفظه بتلك الكلمات الأخيرة جعلها تتأكد من شكوكها التي ساورتها مؤخراً من كونه يلاحقها لغرض ما في نفسه، هوى قلبها في قدميها وهي تتخيل انتهاء حياتها قبل أن تبدأ مع شخص مقيت مثله، زائغت عيناها، وشحب لون وجهها بخوف مضاعف، استدارت بجسدها عاقدة العزم على العودة من حيث أتت، ولكن ركضاً لتهرب منه، صرخت مفزوعة حينما امتدت قبضته لتمسك بها من ذراعها وتجبرها الوقوف، نهشته بنبرة أقرب للبكاء:

-أبعد عني

شدد من قبضته عليها محذراً إياها بصوته الثقيل:

-اهدي كده وخلينا حبايب

توسلته بنحيبٍ وقد أدمعت مقلتها بقوة:

-سييني أمشي

تجرأ عليها قاصداً تلمس وجهها فتقرزت من اقترابه المحرم منها وابتعدت برأسها نافرة منه وهي تستعطفه:

-اتقي الله، حرام عليك

رد بزفيرٍ ثقيلٍ مركزاً نظراته الوقحة على تفاصيلها الأنثوية المخفية خلف ثيابها:

-ومش حرام عليكِ تجنني بحلاوتك دي

تضاعف خوفها من جرأته اللا متناهية، ارتجفت أكثر وهي ترجوه:

-خليني أمشي، أنا مش ناقصة فضايح

أكنفى "منسي" مضطراً بالنظر إلى مفاتها متخيلاً إياها بالمشير من الثياب التي تلهب العقول وتؤجج الحواس وتحرك النزعات الذكورية، دق قلبه بقوة وقاوم بصعوبة رغبته في الإقدام على شيءٍ متهور ليرد قائلاً:

-هاسيك المرادي بمزاجي، بس المرة الجاية هنشرب شرباتنا سوا وإلا

بتر عبارته عمداً ليثير في نفسها الخوف والهواجس المرعبة، لم يكن أمامها سوى الإيمان برأسها لتتجنب تهوره الأرعن، أرخى "منسي" قبضته عنها فاتحاً ذراعه في الهواء كتعبير عن تركه لها، هرولت هاربة من أمامه وهي تكاد لا تشعر بجسدها المنتفض ولا بقدميها، ظلت تردد بأنفاس غير منتظمة:

-الحمد لله يا رب، الحمد لله

تجمدت أنظاره الملتهبة عليها داعكاً صدره بكفه، زفر قائلاً لنفسه بتمني:

هانت، فاضل على الحلو دقة!

.....

استغلت فرصة انشغال زوجها بمتابعة المزيد من الأعمال المسائية مع أخيها لتتججج بعذرٍ وإِ
حتى تتمكن من القيام بتلك الزيارة الهامة والسرية، انتهت "ليان" من الفحص السريري للتأكد
مما عرفته مؤخراً، كانت في حالة توتر ممزوجة بالخوف وهي تتابع ما تفعله الطبيبة النسائية
بانتباه تام، ضبطت ثيابها وأنزلت قدميها عن الفراش الطبي ثم اتجهت إلى مكتبها لتجلس في
مواجهتها، ابتلعت ريقها وهي تسألها بتردد:

ليه الأخبار؟

أجابتها بابتسامة صغيرة وهي تدون بعض الملاحظات في ورقة بيضاء تحمل اسم وشعار عيادتها:
مبروك يا مدام، إنتي فعلاً حامل في شهرين
صاحت مستنكرة تلك الحقيقة التي نزلت على مسامعها كالصاعقة:

ليه، طب إزاي؟

أجابتها ببساطة:

إرادة ربنا

ردت غير مستوعبة حدوث الأمر بالفعل:

مش معقول، أنا جوزي كان عنده مشاكل وحاجات تمنع ده!

علقت عليها الطبيبة بلهجة عملية:

أنا أسفة إن كنت هاتدخل، بس هل جوزك اتعالج أو كان بيتابع مع دكتور أمراض ذكورة؟

صمتت للحظات لتفكر قبل أن تجيبها بتردد:

أيوه، على ما أظن كان بيتابع

اعتلى ثغر الطبيبة ابتسامة مجاملة وهي تضيف:

-يبقى العلاج جاب نتيجة وربنا كرمكم

شردت "ليان" من جديد لتفكر في الأمر من منظور مختلف، هتفت فجأة بنزق وكأنها تعبر عما يعصف بعقلها من أفكار غير محسوبة العواقب ولكن بصوت مسموع:

-دكتور، ينفع أعمل ... إجهاض؟

ضاقت نظرات الطبيبة لها وتشكلت علامات الاستنكار على صفحة وجهها الرائقة، تابعت "ليان" مضيفة بهمس:

-أنا مستعدة للتكاليف كلها و...

قاطعتها الأخيرة بصرامة وبلهجة تشوبها الحدة:

-يا مدام حضرتك جيتي عنوان غلط، أنا مش بأعمل النوع ده من العمليات

ردت عليها آملة أن تتمكن من إقناعها وتوضيح وجهة نظرها:

-يا دكتور إنتي مش فاهمة، أنا لسه بأدرس وعندي شغل كثير، مش هاقدر أتحمل مسئولية طفل وأنا مش عارفة أشيل مسئولية نفسي و...

تفهمت الطبيبة حالة الخوف التي اعترتها ووترها بشكل مضاعف، حاولت تهدئتها بشرح ما تمر به قائلة بجدية ولكن بنبرة أقرب للين:

-اهدي يا مدام، الحالة اللي حضرتك فيها دي توتر وقلق بسبب التغيرات الهرمونية في جسمك، لكن صدقيني وقت ما البيبي يكبر جواكي وتحسي بحركته هتتمني تشوفيه وتستني اللحظة اللي يتولد فيها بفارغ الصبر

وكانها في عالم آخر لا تعي رفضها للمسألة من البداية، تيقنت "ليان" أنها لن تساعد بأي حال من الأحوال، نهضت واقفة لترد بوجه باهت التعبيرات:

-ميرسي يا دكتور، أنا هاتصرف

وقفت الطيبة لتنظر لها باستغراب، ثم مدت يدها بالورقة المدون عليها بعض الأدوية الضرورية قائلة لها:

طب مش هاتخدي الروشته؟ المثبتات مهمة في الفترة الأولى من الحمل و...

قاطعتها "ليان" بعبوس شديد:

مش عاوزاها

بدت كالتائهة وهي تخطو خارج العيادة النسائية، تهدل كتفها وهتت ملامحها أكثر مع ازدياد إحساسها بالرهبة مما هي مقبلة عليه، رفض عقلها الإصغاء لصوت المنطق ومصارحة زوجها بمسألة حملها، فضلت أن تخفي عليه تلك الحقيقة التي ربما ستسعده، لكنها ستقلب الموازين رأساً على عقب بالنسبة لمخططاتها، رددت متسائلة مع نفسها بحيرة:

هاتصرف إزاي دلوقتي؟!

.....

تأملته بنظرات مطولة وهو يعقد رابطة عنقه دون أن تقاطع ما يفعله بكلمة واحدة، تحركت أنظارها مع حركة يده وهو يمشط شعره، ثم مع نثره لعطره المميز على سترته غير مصدقة أنها بالفعل زوجة لرجل مثله يمتاز بالمهابة والقوة والنفوذ والسلطة رغم الفوارق الطبقيّة بينهما، لم تدرك "نقى" أنه كان ينظر لوجهها المتطلع إليه من خلال انعكاس صورتها بالمرآة، توهجت نظراته بوهج متحمس، فهو لم يكن ليحلم بأن يرى ذلك الشغف مقروءاً في حدقتيها بعد كل ما مرا به من تحديات ومعاناة امتزجت بالكثير من الصعاب والذكريات غير المحمودة، تشكل على ثغرها "أوس" ابتسامة عذبة وهو مستمتع بتحديثها فيه، التقت نظراتها سويًا فحجبت من إمساك عينيه بها، سألته بخفوتٍ وهي تعض على شفيتها السفلى:

إنت نازل؟

أجابها بهدوء:

أها، عندي شغل مع وكلاء من برا

سألته باهتمام:

هتأخر؟

التفت ناحيتها ليتأمل وجهها متسائلاً باستغراب وقد لاح شبح ابتسامة عابثة على شفثيه:

من امتي الاهتمام ده يا "تقى"؟

تخرجت من عفويتها التي كشفت عن تعلقها به ثم ردت معللة:

-أنا بسأل عادي

اقترب منها لتتخلص المسافات مضيئاً بتساؤلٍ مهم:

تحيي تيجي معايا؟

أجابته بترددٍ وقد أخفضت نظراتها عن التطلع إلى حدقثيه:

-أنا مش بأفهم في شغلِكَ؟

جلس بجوارها ثم مد يده نحو وجهها متلمساً برقة طرف ذقنها، رفعه إليه قائلاً بإصرار:

مش لازم، تعالي معايا، وبالمرّة تتعشى سوا بعد ما أخلص

هزت رأسها نافية بتوتر:

-لالالا، خليني أعدة هنا أحسن

لم يجبذ "أوس" الضغط عليها فابتسم لها معللاً:

زي ما تحبي

همست له فجأة من بين شفثيها بارتباك:

- "أوس"

طالعها بنظراتٍ مقيمة مردداً بتنهيدة حارة ومستمتعاً بتلفظها باسمه وكأنه معزوفة خاصة به:

عيوني

سألته بعد لحظة من الصمت الحائر:

إنت لسه بتحبني ؟

تعقد جبينه معقبا:

ده سؤال ؟

أجابته مبررة القلق الذي ينتابها من آن لآخر حينما تشرد في تفاصيل حياتها معا:

خايفة يجي يوم وتندم إنك كملت معايا، ساعات بأحس إني دخلت حياتك غلط

وضع "أوس" إصبعه على شفتيها لمنعها عن إضافة المزيد من اللغو المزجج، تصلبت تعايره قائلاً بلهجة صارمة رغم هدوئها:

متكلميش

تجمدت عيناها على وجهه المشدود ونظراته التي غاصت في ماضٍ لم يكن بالبعيد عنه، زفر معلقاً بمرارة شبه بائنة:

أنا كنت الغلط نفسه يا "تقى"

أشعرتها جملته الأخيرة بتلك النغصة التي ضربت قلبه ولمستها بقوة مؤكدة لها صدق إحساسه، وندمه الكبير، فكلاهما عانا كثيراً، تابع "أوس" مضيئاً بهدوء جاد:

ولو مكوتنش قابلتك مكوتنش اتغيرت عشائك!

ابتسمت قليلاً، فاستأنف بثباتٍ رغم قسوة ما ييوج به:

إنتي شوفتي أسوأ ما فيا وأبشعه، وعيشتي معايا حاجات مايجبش أفكرها لأنها صعب علينا احنا الاتنين!

كان محققاً في ذلك، تأثرت عيناها مع كلماته الصادقة، وزاد لمعانها وهو يكمل بفخر:

ومع كده ووسط كل ده إنتي طلعتي الحاجة الكويسة اللي جوايا، خليتني واحد ثاني خالص غير اللي عرفته واتعودت عليه، وفوق ده كله اديتيني أجمل هدية، بنتنا "حياة"

احتضن "أوس" كفيها بيديه، ضغط عليهما بأصابعه ثم ركز نظره مع عينيها اللاتين تبرقان بوجهه،
همس لها مؤكّداً:

-أنا هافضل أحبك لحد آخر نفس في عمري
ألصق كفيها بقلبه متابعاً عن ثقة ودون أن يرتد له طرف:
-وده يشهد على كلامي

ابتسمت بسعادة ظهرت على تعبيراتها أنستها الأوجاع والآلام، أحنى رأسه على رأسها لتشعر
بقرب أنفاسه الحارة من بشرتها متسائلاً بخفوت:

-مش هاسمعا منك بقي؟

سألته وهي ترمش بعينيها:

-ليه هي؟

أجابها بغموض وقد تلامست الشفاه:

-الكلمة اللي بأستناها كل يوم

ردت برقة:

-بأحبك

قبل "أوس" شفيتها بعمق ليبت لها مشاعره التي تشتعل دوماً بقربها منه وبوجودها في حياته،
زاد من قوة قبلته ليتراجع بعدها لمسافة معدومة هامساً لها:

يا عمري كله

احتضن وجهها الذي تورد بدموية ساخنة بأنامله، داعب بشرتها بإبهاميه، ونظر لها بتمعن قائلاً
لها:

-مش هحاول أتأخر برا، هاخلص وأرجعلك، عندي كلام كتير عاوز أقوله ليكي

أومات برأسها مرددة:

ماشى

لم يستطع الابتعاد عن تأثير شفيتها ومذاقها المثير له، انحنى عليها لينهل منها قبلة أخرى أشد عمقًا وتأثيرًا على كليهما واعدًا نفسه بالمزيد من المشاعر الحميمة حينما يفرغ من أعماله.

.....

لم تصدق نفسها وهي بالكاد قد استطاعت الوصول إلى منزلها بعد لقاء غير متوقع مع آخر من تمنى رؤيته، استندت "هالة" بظهرها على الباب لتلتقط أنفاسها التي انقطعت، تحسست دقات قلبها المتلاحقة بصدرها وهي تغمض عينيها، خطت بقدمين مرتعشتين نحو المطبخ لتضع ما أحضرته به ثم أسرعت بالاختباء داخل غرفتها، لم تبدل ثيابها بل دست نفسها في الفراش وألقت الغطاء على جسدها وكأنها تحتمي به، استغربت والدتها من الحالة المريبة الواضحة عليها، دنت منها وأزاحت الغطاء عن وجهها لتجدها ترتجف بقوة، سألتها بقلبي:

-بتترعشي كده ليه يا بت؟ إيه شوفتي عفريت؟!

خشيت "هالة" من إخبارها بما تعرضت له فتفسر الأمر بصورة خاطئة وربما تلعب الأفكار الشيطانية برأسها فتتهال عليها بالضرب أو حتى تعاود مدح "منسي" بطريقة تصيبها بالغثيان، ضمت يديها إلى صدرها لتتكور على نفسها وهي ترد بخفوت:

-مافيش حاجة، أنا عاوزة أناام، تعبانة

بدت غير مقتنعة بحجتها تلك فسألتها بإصرار:

-من إيه ياخوتي؟

أجابتها بتلعثم:

عندي .. منص

علقت عليها بتأفف وهي تمصص شفيتها:

ده اللي بأخذه منك، وبعدين فين أختك

ردت عليها بملقٍ جاف مليء بالعلقم المرير:

رجعت مع "عبده" لبيتها

وضعت "أم بطة" إصبعيها أسفل طرف ذقنها متسائلة بفضول:

هو لحق يخلص المصلحة اللي كان طالعها؟

ردت باقتضاب وهي تسحب الغطاء عليها:

معرفش، وسيني أنام الله يكرمك

نظرت لها والبتها شزراً وهي تلوي فيها بامتعايض جلي، تركتها بمفردها لتشعر "هالة" من جديد ببرودة قارصة تصيب أطرافها، أغمضت جفنيها بقوة لتقاوم تلك الذكرى الكريهة، لكنها ما لبثت أن زادت من هلعها، رغمًا عنها بكت بخوف وهي تشعر في قرارة نفسها بهاجس مرعب، بأنها ستكون الضحية القادمة لمطامع أمها ونزوات ذلك العاقل البغيض

!!!

.....

الفصل الثامن

استقلت سيارتها وقادتها بدون وجهة محددة، تشوشت أفكارها وتداخلت معًا فلم تعرف كيفية التصرف حيال تلك المسألة الحرجة، ارتعشت قبضتها "ليان" وهي تدير عجلة المقود فتوقفت عن القيادة لتبكي بصورة هيسترية، لا تدري لماذا أصابها تلك الحالة المذعورة الممتزجة بالخوف والتوتر من المستقبل، فغيرها كان سيطير فرحًا ويرقص طربًا لمجرد تلقي تلك الأخبار السارة، على عكسها التي شعرت بأن الدنيا أظلمت من حولها وتخبط كل شيء في لحظة، عجرت عن مواصلة القيادة أو حتى معرفة وجهتها، فما كان منها إلا أن أخرجت هاتفها المحمول من حقيبتها.

نظرت له بشرود من بين عبارتها، مسحتم بظهر كفيها وحدقت في قائمة الأسماء، ترددت في مهاينة "عدي"، كانت متوترة بشأن ردة فعله، خشيت من أن تكون صادمة فرما يظن بها الظنون، ويربط المسألة باحتمالية خيانتها له، فقد كانت على علم تام بعجزه لكنها لم تدرك إن كان قد شفي منه أم لا، كذلك لم ترغب في إزعاج والدتها أو إقلاقها في تلك الساعة المتأخرة، لن تسبب لها المشاكل فعزفت عن اللجوء إليها، وبالطبع خيار الاتصال بـ "تقي" لن يكون جيدًا، فالأخيرة ستحول الأمر إلى ما يشبه حالة من الفوضى وتخبر الجميع، خاصة "أوس" لذا عادت إلى الاختيار الأول مضطرة، ألا وهو مهاينة زوجها، فبالنسبة لها هو الأقرب لها منذ أن اجتهدا لإعادة بناء جسر الثقة بينهما، لن تصارحه حاليًا بما عرفته، لكنها بحاجة إلى وجوده بجواره، وبأنامل مرتجفة ضغطت على زر الاتصال به، ثم وضعت الهاتف على أذنها مترقبة رده، وما إن أتاها صوته المتفائل حتى همست له بنحيب:

- "عدي"

توجس خيفة من صوتها الذي أثار فيه الخوف، وسألها بجدية رغم خفوت نبرته:

في إيه يا "ليوو"؟ حصل حاجة؟

أجابته بنبرة متقطعة:

-أنا واقفة في الشارع، ومش عارفة أسوق

سألها بتخوفٍ ظهر في صوته:

-إنتي عملي حادثة؟

تنفست بعمقٍ قبل أن ترد نافية:

-لا

سألها من جديد باهتمام أكبر:

-أومال في إيه؟

أجابته من بين بكائها غير المفهوم بالنسبة له:

أنا تعبانة

سألها بجديّة:

أنتي فين دلوقتي؟

تلفتت حولها محاولة تبين وجهتها، شعرت بأن ما يحفظه عقلها من معالم الطرق والأماكن قد تم محوه، ردت بحيرة:

مش عارفة

تريث "عدي" في التعامل معها بعقلانية كي يتمكن من الوصول إليها فأردف قائلاً:

طب اهدي وافتحي جوجل maps، وابعتي منه اللوكيشن بتاعك على الواتساب وأنا جايلك على طول

ردت عليه باقتضاب:

أوكي

تابع محذراً بلهجة جادة:

واقفلي اللوك بتاع العربية عليكي، ماشي؟

علقت بانصياع:

حاضر

أكمل محاولاً بث إحساس الأمان لها:

وأنا هافضل معاكي على الخط، أوكي يا "ليوو"؟!

هزت رأسها بإيماءة خائفة معقبة عليه:

أوكي

استمعت إلى صوته وهو يعتذر لأخيها طالبا الانصراف من الاجتماع الذي يحضره، لم يناقشه "أوس"، وتركه يفعل ما يحلو له، أعادت "ليان" رأسها للوراء لتستند على مؤخرة مقعدها، وأغمضت عينيها لتبكي في صمتٍ بدون أي مبرر منطقي يفسر حالتها تلك.

.....

تبرجت بالثمين من مساحيق التجميل قاصدة أن تكون في أبهى صورها الليلة، فنذ لقاها الأخير بابن عمها قبل أن تسافر إلى الخارج وتزوج بـ "أكرم" تعمدت ترك ما حفر في ذاكرته وذاكرتها، وأرادت الليلة أن تتأكد من كونها تحظى بنفس التأثير الخطير عليه، ذاك الذي يعريه أمامها ويجعله مقروء الأفكار، عقدت "رغد" خصلات شعرها معًا ليصير كذيل الحصان بعد أن شدته للخلف ل يبدو ثابتًا وصارمًا في نفس الآن، ثم لفت حول عنقها قلادة حملت زمردة لامعة محفوظة على شكل قلب أسود، ارتدت ثوبها البنفسجي وجذبت أطرافه لتلامس مسافة تقارب شبرًا من ركبتيها، تغنجت بجسدها وهي تسير بخيلاء عبر البهو المكسو بالسجاد الفاخر جاذبة أنظار الرجال المتواجدين بالفندق الشهير، تعمدت أن تكون خطواتها متهادية وثابتة، صوت حذاءها يفرقع بقوة ليحجر السائر بجوارها على الالتفات نحوها، كانت وجهتها معروفة ومحددة، الالتقاء بـ "أوس" دون إشعار مسبق في لحظة مباغته تشله عن التفكير الصائب، لم تجد صعوبة في الوصول إليه، فكونها ابنة عمه يسر لها الحصول على عنوان اجتماعه من موظف الاستقبال بمؤسسته، أكملت سيرها المتباهي حتى ولجت إلى داخل المطعم، ألقت نظرة متأنية على كل ركن فيه لتحدد مكانه، التوت شفتاها بابتسامة لئيمة وقد التقطته من على بعد، همست لنفسها قائلة:

-وأخيرًا هنتقابل!

في تلك الأثناء كان "أوس" قد انتهى من الإطلاع على بنود الاتفاقية الجديدة التي هو بصدددها، مرر الأوراق لمحاميه المخضرم الذي طمأنه بصحة ما جاء في العقود وعدم وجود شروط ملتوية أو أمور مقلقة غير شرعية تضعه تحت طائلة القانون، أوما "أوس" برأسه ثم جاب بنظراته الوكلاء الجالسين حول الطاولة قائلاً لهم بجدية تامة:

-كل حاجة واضحة قصادم

رد عليه أحدهم مبتسمًا بلكنة عربية متكسرة:

-تمنى أن تكون بداية موفقة لنا، سعداء بالتعامل معك "أوس" بك

رد عليه باقتضاب:

-شكرا

تولى المحامي تمرير الأوراق على طرفي التعاقد ليوقع كلاهما في الجزئية المخصصة لذلك، وما إن انتهى الاثنان حتى جمع العقود وهنا الجميع قائلًا:

-ألف مبروك، شراكة ناجحة إن شاء الله

ثم أشار لرئيس طاقم الندل بالمطعم بالقدوم إلى طاولة رب عمله ليأمر الأخير تابعيه برص أطباق الطعام المعدة خصيصًا للضيوف في سرعة وخفة دون السماح بوجود أي خطأ قبل أن يتراجع للخلف متمنيًا لهم شهية طيبة، راقب "أوس" ردة فعل من حوله وهم يتناولون الطعام بنظرات عادية فاترة، قطع تحديقهم بهم جلوس إحداهن بغتة على طرف المائدة بجواره هو تحديدًا، تجهمت ملامحه على الفور وقست نظراته من ذلك التجاوز غير المسموح به، رفع رأسه للأعلى ليطالع تلك الوقحة بنظرات مغلولة فتفاجأ بكونها "رغد" ذات الابتسامة المألوفة والوجه اللثيم، قل غضبه وامتزج مع دهشته التي كانت واضحة في نظراته نحوها، همست له الأخيرة بدلالٍ وهي تهز ساقها المتدلية من على الطاولة بحركة ثابتة:

-مفاجأة، صح يا "أوس"؟

طالعها بنظرات جمعت بين التهمك والاستخفاف ثم رد عليها بجمود متعمدًا الحفاظ على ثبات تعابير المتصلبة:

-كنت متوقع ده يحصل، بس مجاش في بالي إنه يكون بالشكل ده

مالت بجسدها نحوه قاصدة إظهار مفاتيها الأثوية بصورة مغرية لتعبت بمشاعره الذكورية وتحدث فيه شيء ما، همست قائلة عن ثقة:

-أنت عارفتي، دايما أحب أفاجئك

وكانها سلعة رخيصة بالنسبة له، رمقها "أوس" بنظرة مزدريّة مستنكرا أسلوبها الرديء والمستهلك في جذب أنظاره إليها، بالطبع تجاهل نظرات الفضول التي اعترت أوجه المحيطين به ليعلق عليها بسخط:

-متعود منك على كده، بس مش كبرتني على الحركات دي؟!!

استشاط وجهها حنقا من إهائته الصريحة لها، استقامت "رغد" واقفة على قدميها لتحديه بنظرة مغتظة منه، ومع ذلك وضعت يدها على كتفه لتداعب أذنه بإصبعيها، نهض "أوس" واقفاً من مكانه ودافعا مقعده للخلف، سحب "رغد" يدها ونظرت له بتحدٍ سافر، أدار رأسه نحو محاميهِ ليأمره محاميهِ بجديّة:

-خليك مع الوكلاء

رد الأخير صاغرا لأوامره:

-تمام معاليك

قبض "أوس" على رسغ "رغد" وجذبها خلفه ليبعدها عن أعين الجميع رغم يقينه بملاحقتها بنظراتهم الفضولية المستطلعة، انزوى بها في ركنٍ شبه خالي من رواد المطعم ثم أرخى أصابعه عن معصمها، تركزت حدقته على وجهها المتوهج، ومع ذلك ادعت البرود لتضيف بنصف ابتسامة وهي تفرك جلدتها المتألم:

-لسه زي ما إنت!

رد بلهجة خالية من العطف:

-غلطانة يا "رغد"

كركرت ضاحكة قبل أن تضيف بمكرٍ عابث:

-معقول؟ ده أنا أكثر واحدة فهماك صح يا "أوس"!

تجمدت نظراته على عينيها الشرستين، كان يدرك أن قدومها اليوم مصحوبا بالكثير من لعنات الماضي، لن يسلم من خبثها، فقد ذاق منها القليل، شرد بعقله لسنوات فانت وانقضت

تضمنت في جعبتها أطعماء غير محدودة ومقايضات كبيرة عن زلات لسانه في لحظة كان مغيباً فيها عن وعيه حينما أسرف في الشرب، وكان يهذي بجزء من جموحه الطائش ونزواته الماحنة مع العابثات وفتيات الليل وما أرتكبه في حقهن من أفعال تقترب للسادية والعنف، تصيدت ببراعة تلك الأخطاء وساموته عليها لتصمت، حتى أنها عرض عليه الزواج بوقاحة وجرأة تتنافى مع كونها أثى كنوع من المقايضة والضغط عليه ليرضخ لها، ومع ذلك لم يبال بما يمكن أن تفعله، وقبل أن يمنحها جوابه النهائي بالرفض وربما الانتقام العدواني الشرس رحلت ليعلم لاحقاً بزواجها بالخارج، انتزعت من شروده السريع بتلمسها لكف يده، انخفضت نظراته على أناملها التي تفحصت أصابعه بدقة، قطبت "رغد" جبينها بقوة وهي ترى بوضوح ذلك الخاتم الذي يزين إصبعه، علقت عليه قائلة بسخرية ملحوظة:

مش معقول تكون اتجوزت؟

انتشل يده من بين أناملها بضيق متراجعا خطوة عنها ليرد بقسوة تعكس شراسة مهددة:

شيء ميخصكيش

وكان في ابتعاده الفرصة للضغط عليه من جديد، اقتربت منه قاصدة تقليص المسافات، مالت عليه برأسها وهي تشب بقدمها قليلاً لتصل إلى أذنه هامسة له:

ويا ترى المدام كانت عارفة إنت بتعمل إيه زمان؟

دفعها من كتفها بخشونة معلقاً عليها:

ملكيش فيه!

غمزت له مضيفة بنبرة ذات مغزى وبنظرات موحية:

يا حرام، شكلك مطلع عينها، ما أنا عارفة مزاجك بيحي على حاجات معينة، مش بالساهل أي واحدة ترضيك!

رمقها بنظرة احتقارية قبل أن يرد بصلافة متجاهلاً ما تحاول عن عمد الإشارة إليه:

أنا اتغيرت

وضعت "رغد" سبابتها على شفتها تداعبها بحركة عابثة قاصدة جذب حدقتيه نحو فكها ثم استرسلت قائلة بتهديد خفي:

-ماتخافش يا "أوس"، سرك في بير، لو كنت عاوزة أتكلم كنت عملت ده من زمان، بس أنا مش كده!

وبجراة متجاوزة وضعت يدها على كتفه، ودنت منه أكثر فباتت المسافات شبه معدومة ليشعر بأنفاسها تلاطم وجهه وهي تقول:

-وبعدين قولي هي المدام بتعرف تسد زهم ولا إنت بتقضيها من حنة تانية؟

تخطت حدودها بكلماتها المستفزة والمسيئة إلى زوجته، ليس لكونها فقط قد عانت معه من فرط جموحه العنيف وشراسته المخيفة، ولكن أيضًا لأنها ذكرته بما عاهد نفسه على نسيانه من انحرافات غير سوية لتذبذب ما وصل إليه في مراحل علاجه المتقدمة، أشعلت بمهارة جذوة غضبه الكامنة بداخله واستثارت ما يحاول التخلص منه من مكنونات اعتاد عليها قديمًا ولفترات طويلة، قبض "أوس" على يدها التي تتلمسه بوقاحة ثم ضغط على أناملها بقسوة قاصدًا إيلاهما، نظر مباشرة في حدقتيها هاتقًا من بين أسنانه:

- "رغد"

تأوهت بأنين موجوع من عنفه، ثم ردت عليه بتحدٍ مستفز له:

-مش هاتعرف تلف وتدور، إنت دماغك مريضة

زاد من ضغطه على يدها لتزداد حدة الآلام، عضت على شفتها بقوة وهي تهمس بوجع:

آه

هددها بنبرة صارمة وقد أظلمت نظراته وانعكس في مقلتيه وهجًا يُجسد شبح الماضي الملبك للأبدان:

-كلمة زيادة وهامحي كلمة قرايب من قاموسي

حاولت سحب يدها من قبضته التي تعتصرها وهي تتم بعدم أكثر من متعمدة فضحه أمام نفسه:

-وايه الجديد؟ ما طول عمرك عنيف، أو تقول الكلمة المناسبة سادي، تموت في اللي تعدل مزاجك على طريقته إنت وبس، ومع كده كنت عاجبني بكل اللي فيك!
أيقن أنها تحاول استثارة أعصابه واستنزاف عقلانيته لتعيده لنقطة الصفر حيث يتهاوى كل شيء وتبقى فقط الأفعال العنيفة المتهورة لتكون لها الكلمة الأخيرة، أضافت متسائلة بلووم زائد:

-تنكر إنك مش بتحن لليلة من الأيام دي؟ قولي، أنا سمعك وجاهزة آ.....

قطعت باقي جملتها لتترك الفرصة لخياله للعبث بقوة في أفكار ربما يستلذها، ثم تلمست بأناملها جانب عنقه لتصيبه بنفور رهيب منها، قاوم ما اعتراه من غليان يندلع في عروقه المستشطرة هادراً بها:

-إنتي واعية لكلامك؟ ده حتى عيب على واحدة متجوزة زيك؟

لم يحرك فيها شعرة إهانتته المتعمدة، بل بدت أكثر بروداً، بشخص يناطحه الند بالند وهي ترد مبتسمة:

- "أوس" أنا مش بتاعة حب ومشاعر، والجواز بالنسبالي واجهة اجتماعية بأكل بيها الصورة، وبعدين للدرجادي نسيت اعترافاتك ليا؟ ده في حاجات حصلت محدش يتخيلها تطلع منك إنت!

أراد أن ينهي معها حديثها المحفز لرواسب الماضي والمهيج لأمر غير محببة بداخله، صاح بها غير مبالي بأنظار المحدثين به ومشيراً بسبابته:

-إنتي عاوزة إيه؟ وماتكرريش كلام أخوكي!

مطت فمها قليلاً قبل أن تجيبه بتنهيده بطيئة:

- "يامن"، ده مغفل، عرفت تصطاده، أنا غيره يا "أوس"

هتف بها بنفاذ صبر:

هاقي أخرك

علقت بكلمة واحدة:

حقي

رد عليها بنظرات قائمة ولهجة غير مشكوك في قوتها:

خديه لو كان ليكي عندي حاجة

تحدثه بابتسامة واثقة:

هاخده، وهاتشوف، بس حبيت أحذرك، لأن رجعتي مش بالساهل!

تحرك بؤبؤاه بحركة عصبية عقب جملتها تلك، تبدل شعوره وهي تحني رأسها على وجهه لتقبله في صدغه، اتسعت ابتسامتها المصحوبة بشرٍ علني لتبتعد عنه وهي تتأمل أثر أحمر الشفاه على ملامحه، لوحث له بإصبعيها تودعه:

باي يا "أوس"!

كور الأخير قبضة يده ضاغظًا بتنشج على أصابعه فلم يشعر بأظافره وهي تخترق جلده وتجرحه، توترت أنفاسه واختنق صدره غضبًا، وتدفتت الدماء بقوة في عروقه المغذية لخلاياه، اختفت التعابير الهادئة المرتخية ليحل بدلاً عنهم الإظلام والقسوة، التفت برأسه للجانب ليحدق في طيف أثرها الذي اختفى بعد أن عاثت فيه الفوضى، أخرج منديله القطني من جيب سترته العلوي لمسح آثار أحمر الشفاه من على صدغه، طواه وأعاده في جيبه، ثم عاد إلى مقعده وقد اختلف حاله كليًا عما كان عليه منذ بضعة دقائق لينظر بفراغ وتبليد إلى من حوله دون أن ينبس بكلمة حتى قارب اجتماعه على الانتهاء، قطع صمته المنذر بشرٍ قائلًا بجدية موجهاً حديثه لمحاميته:

-أتأكد بعد ما يخلصوا إنهم رجعوا الفندق وما فيش حاجة ناقصة

حاضر يا باشا

هب "أوس" ناهضًا من جلسته غير المريحة مودعًا ضيوفه بكلمات مقتضبة لينصرف بعدها ووجهه يعلن عن قسوة وشيكة.

.....

لم يجد صعوبة في العثور عليها أو حتى رؤية سيارتها المصفوفة على جانب الطريق، أوقف "عدي" سيارته أمامها ثم ترجل منها مهرولاً ليتجه إلى "ليان" التي كانت شبه غافلة على مقعدها والدمعات تبلل وجنتيها، دق على الزجاج الملاصق لها فانتفضت مذعورة، نظرت له بعينين شاخصتين، طمأنها مرددًا:

-متخافيش يا حبيبتى، ده أنا

تنفست بعمق لتعيد حالة الهدوء الانفعالي إلى نفسها المرهقة، فتحت الباب فنظر لها بإمعان وهو يسألها:

-إنتي كويسة؟

هزت رأسها بالنفي وقد عادت لنوبة بكائها:

-لا

احتضن وجهها الحزين بين كفيه متابعًا بهدوء حتى يستشف منها ما الذي أصابها:

طب اهدي، احنا هنرجع البيت

تهدجت أنفاسها وهي تبذل جهدًا للتحكم في بكائها، حاوطها "عدي" من خصرها ليدفعها قائلاً:

-تعالى يا "ليوو"، مافيش حاجة تقلق

أومات برأسها في خنوع، ثم سأله بنحيب:

-والعربية؟

أجابها بجدية وهو يغلق سيارتها بالقفل الإلكتروني:

-متقلقيش، هابت حد يجيبها، اطلعي عربيتي

أوكي

فتح لها باب المقعد الأمامي في سيارته ثم أجلسها عليه وانتظر قبالتها للحظات حتى هدأت تمامًا، تابع متسائلاً باهتمام وهو يمرر نظراته على كل تفصيلة من وجهها الباكي:

-عائلة إيه دلوقتي؟

أجابته بنبرة مختنقة:

-يعني!

حاول تصنع الابتسام رغم كون بسمته باهتة ليقول مبرراً:

-أكيد كل ده من ضغط المذاكرة، أنا عارف إنه وقت صعب والامتحانات قربت، هانت يا "ليوو"

نظرت له بعينين تحبسان العبرات فيهما، للحظة كاد لسانها ينفلت وتبوح له بما يوترها هكذا، ضغطت على شفثيها كي تمنع الكلمات من الخروج من جوفها، مد يده ليتلمس جانب عنقها مضيئاً بنبرة مرحة آملاً أن يخفف ما تمر به:

-الواحد نسي الحاجات دي، بس اطمني أنا معاكي في أي حاجة، شوفي إيه المطلوب وأنا جاهز أذاكرلك على أدي يعني، بس مش مسئول عن النتيجة

تقوست شفثاها عن ابتسامة مجاملة وهي ترد:

أوكي

.....

فركت أحد عيدان الثقاب في علبته الورقية بحركة ثابتة لتشعله ثم أضاءت به الشموع الحمراء التي زينت طرفي طاولة الطعام، نظرت "تقي" إلى ذلك العشاء الرومانسي الذي أعدته بصحبة "عفاف" بانيهار، استأذنت الأخيرة بالانصراف مبكراً، وكذلك سمحت لـ "ماريا" بالعودة إلى أسرتها لتظل هي مع زوجها وتمضي أمسية لا تنسى وبصحبتها الرضيعة "حياة"، تأملت الأطباق وطريقة رصها بابتسامة رقيقة، تراقص وهج الشموع في انعكاس مقلتيها الزرقاوتين، حركت

بصرها لتحقق في ساعة الحائط، بات الوقت مقارباً لميعاد عودته مثلما أخبرها قبل أن يذهب إلى اجتماعه.

تهددت بحرارة والتفتت لتحقق في المرأة العريضة التي تعتلي أحد الجدران، أبدت إعجاباً ملحوظاً بثوبها الحريري الأسود الطويل ذي الأكمام الواسعة وفتحة الصدر المثلثة الذي أظهرها بشكلٍ مغرٍ ومثير، توردت وجنتاها لمجرد التفكير في انطباع "أوس" حينما يرى ذلك، وضعت يدها على قلبها لتحسس دقاته المتقاذفة، فزعت في وقتها حينما سمعت صوت الباب يُفتح، ما لبثت أن هدأت حينما رأت زوجها قبالتها، توقعت استقبالاً حاراً وربما حميمياً يعكس شغفه لرؤيتها هكذا، لكن على عكس ما ظنت بدا "أوس" واجماً، نظراته مختلفة عن ذي قبل، اعتقدت بوجود خطب ما أفسد العمل فسألته بتلهف:

-إيه الأخبار؟ الاجتماع كان كويس و...

قاطعها مردداً بعد بزفيرٍ طويلٍ ممل:

-تمام، متشغليش بالك

وضعت يدها على ذراعه وقد تعلقَت عينها بوجهه الباهت متسائلة بقلق:

فليك حاجة؟

أجابها نافيا وهو يتحرك للأمام:

-لا

تأبطت "تقي" ذراعه بالإجبار لتسير بتمهلٍ متابعة بنعومة رقيقة:

طب تعالى معايا، أنا عملاً لك مفاجأة

رفع "أوس" حاجبه للأعلى مبدئياً استغرابه من جملتها الأخيرة، لم يكن ذهنه صافياً ليخمن طبيعة تلك المفاجأة، قادتته إلى حيث الطاولة المجهزة خصيصاً من أجله، راقبت بنظرات مشرقة ووجه متوهج ردة فعله وهي تسأله:

ها إيه رأيك؟

تركزت أنظاره على الطاولة، صمت لبعض الوقت قبل أن يجيب باقتضابٍ وبنبرة شبه ميتة:
حلوة

اندهشت من رده التي خالفت من جديد توقعاتها بشأن ليلة حماسية مليئة بالأجواء
الرومانسية، عللت تصرفه البارد قائلة:

-شكل الناس اللي قابلتهم تعبوك في الاجتماع

لم يعلق عليها واكتفى بسحب مقعده ليجلس عليه، أمسك بالشوكة والسكين وبدأ في تناول
الطعام بهدوءٍ مريب، أنبأها حدسها بوجود ما يشغل تفكيره، ما يجعله في عالم آخر بعيدًا عنها
حتى يقربه منها، بدت خجلة قليلًا وهي تلمح له بارتباك:

-أنا طلبت من "عفاف" و"ماريا" يمشوا بدري، يعني فرصة يقعدوا مع عيلتهم وتكون احنا
كمان على راحتنا

رمشت بعينها متوقعة تعليقًا إيجابيًا منه، كان وجهه فاترًا، بمعنى أدق جامدًا يخلو من أي تأثير،
وكان ما أشارت إليه لم يثر فيه الرغبة أو حتى الاهتمام، نادته بجديةٍ لتجذب انتباهه:
-"أوس"

التفت نحوها متسائلًا:

-بتقولي حاجة يا "تقى"؟

أجابته بعتابٍ رقيق:

-أنت مش معايا خالص، لو المفاجأة مش عجبك قولي، أنا كان قصدي ن

قاطعها بابتسامة متكلفة وهو يد يده ليضعها على كفها المسنود على الطاولة:

-لا يا حبيبي، أنا بس مرهق شوية

هزت رأسها متفهمة قبل أن ترد بابتسامتها الصافية:

-ولا يهمك

انخفضت نظراتها للأسفل لتتجمد على تلك البقعة الحمراء التي برزت في منديله القماشي،
أمعنت النظر فيها بدقة لتنتابها هواجس مخيفة بشأن ماهيتها، لم يكن حدس المرأة ليخيب أبدًا
في تفسيره لتلك الأمور؛ إنها بقايا لطخة حُمرَة الشفاه، شحِب وجهها فجأة، واختفت بسمتها
لتصبح ملامحها مزعوجة متوترة، اتسعت حدقتها بذهول مصدوم، بل إنها شعرت بألم قوي،
بضربة قاصمة تصيب قلبها في مقتل، وقبل أن تدع أفكارها المرعبة تسيطر عليها رفعت عينها
المحتدتين لتنظر إلى وجه "أوس"، تشنجت قبضتها أسفل يده وهي تسأله بنبرة أقرب
للاستجواب:

ليه ده؟!

.....

الفصل التاسع

انخفضت عيناه نحو تلك اللطخة التي أشارت إليها بعينها المحتقتين، بدا "أوس" واجماً لبرهة وقد فهم سبب عصبيتها البائنة في نبرتها، قست نظرات "تقى" وتحولت للحدة حينما لاحظت صمته وفسرت الأمر على كونه يحاول اختلاق كذبة ما تبدو مقنعة بالنسبة لها ليبرر وجود تلك البقعة المثيرة للشكوك، كانت على وشك سحب قبضتها من أسفل يده حينما تمسك بها وشدد من أصابعه عليها، تشنجت صائحة بنبرة منفعة:

ده اسمه إيه يا "أوس"؟

رد عليها بهدوء عقلائي ليمتص ثورتها الأنثوية الغاضبة قبل أن تندلع من لا شيء:

ولا حاجة

ضاقت عينها من جوابه الفاتر، هتفت متسائلة بغيط:

-يعني إيه ولا حاجة؟

تنفس "أوس" بعمق ليحافظ على ذلك الهدوء الحذر الذي يعتري ملامحه قبل أن يتابع بنبرة غير مبالية:

-موقف مالوش لازمة من "رغد" عشان تستفزني وتخرجني قصاد ضيوفي في الاجتماع

ارتفع حاجبها للأعلى متسائلة بوجه مشتعل:

عادي كده؟

رد بجدية رغم هدوء نبرته:

أها، هي عاززة تعمل كده، بس أنا وقفها عند حدها

تظل الأتشي كما هي في عقليتها محما كانت رقتها، طباعها، ثقافتها الفكرية، أو حتى طبقتها الاجتماعية فحينما يتطرق الأمر لأتشي غيرها تتحول إلى شخص آخر مليء بالعدوانية والشراسة، أطلت شرارات الحنق من عيني "تقي" ثم عقت باستنكارٍ وقد بدت غير مقتنعة بأي حرف مما يمليه على مسامعها:

-بالبسطة دي!

أوما مضيئًا باقتضابٍ واثق:

-أيوه

ارتفعت نبرتها نسبيًا معلقة وهي تجذب يدها بقوة لتتحرر من قبضته:

-إنت كداب!

حملت جملتها إهانة صريحة واتهامًا لن يقبل به أبدًا، ضرب "أوس" بكفيه على الطاولة بعنفٍ صائحًا بخشونة ومدافعًا عن نفسه:

-مش محتاج أكذب يا "تقي"

تحولت نظراته للقسوة وهو يكمل:

قولتلك "رغد" بنت عمي، وجت مخصوص عشان تعمل كام حركة تستفزني بيهم في الفندق، إيه الكذب اللي في كلامي؟!

هبت واقفة على قدميها ثم انحنت نحوه لتجذب المنديل من جيبه بإصبعيها، لوحت به أمام وجهه صارخة بنفس الصوت المتعصب:

-والروح اللي أنا شيفاه من الحركات دي؟!!!

ربما هي محقة في غيرتها عليه، حاول إقناع نفسه بذلك، وأخذ انفعالها على محمل الجد، زفر بصوتٍ مسموع ليقول بعدها بترث عقلاني متحايلاً عليها:

حييتي افهمي آ.....

صرخت محتجة:

ماتقولش حييتي وانت بتخوني!

احتدت نظراته من اتهامها الباطل، وتحولت ملامحه للجمود والتحجر وهو يرد معترضًا:

- "نقى"

لمعت حدقتها بعبرات مترققة وحبيسة، نظرت له بعتاب لم يتحملة، نفخ بعمق كالجأ غضبه قبل أن يندلع من ممكنه ليقول ملطفًا:

-أنا من يوم ما عرفتك ومافيش واحدة غيرك في حياتي، مش عشان مقدرش أعمل كده، بس لأنني بأحبك فعلاً

ثم مد ذراعيه ليتلمس كتفها لكنها انتفضت بعيدًا عنه صارخة فيه بسؤال مباشر وكأن عقلها حُجب عن التفكير المنطقي:

ليه تعمل كده؟

هدر بنفاذ صبر وقد وضع قبضيه على كتفها يهزها بقوة طفيفة عليها تتخلى عن عنادها العقيم وتصني لصوت العقل:

يا "نقى" أنا مخونتكيش

نفضت ذراعيه متراجعة للخلف رافضة تصديق ما يقول، انسابت عبراتها عفويًا وتشوش تفكيرها بالكامل، ودون أي مقدمات اندفعت نحو صحن الطعام وأطاحت بكل ما فيها صارخة بهياج:

مالوش لازمة ده كله

ألقت بجنون الصحن وقذفت بالشموع المشتعلة عن الطاولة لتسقط على السجاد، وفي أقل من لحظة تحول كل شيء إلى فوضى عارمة، تفاجأ "أوس" بردة فعلتها المتهورة، خشي من

حدوث الأسوأ، فالتف خلفها ليمسك بها من رسيها قاصداً تثبيتها وإيقافها عما تفعل، شدد من ضمه لها ومن إلصاقها ب صدره وهو يرجوها:

-اهدي يا حبيتي

بكت صارخة بانفعالٍ قد عايشه من قبل:

-ليه تعمل كده؟!!

أوغر صدره كلماتها رغم براءته من أي شكوك، نفخ خلف ظهره ما يظهر منها من عتابٍ قاس حتى ترضح لصوت القلب وتتخلى عن ظنونها الواهية، سحبها بعيداً عن الطاولة هامساً لها بتأكيد:

-اقسم بالله ما حبتش حد إلا إني ولا هاحب حد غيرك!

كانت مغيبة عنه، تبكي بهيستيرية، منساقه خلف شيطان رأسها، مصدقة لما زرعه فيها من شكوك أفسدت ليلة رومانسية وحولتها لجدال محتدم، لم يتخلَّ "أوس" عنها وتفهم طبيعة تفكيرها، فالنساء تتشابه في اعتقادها في تلك الأمور، أدارها ببطءٍ دون إفلاتها، ثم أحنى جذعه للأسفل قليلاً ليتمكن من حملها بين ذراعيه، سار بها نحو غرفتهما راجياً إياها أن تكف عن البكاء والصراخ، لم ينتبه لتلك الشرارة الصغيرة التي سقطت عن الشمعة المشتعلة الملاقاة أعلى السجادة فوجدت بيئة جيدة لإشعال جذوة أشد حرارة وخطورة.

.....

جلست ضامة ركبتيها إلى صدرها على الفراش محدقة أمامها في صمت وبنظرات شاردة، قاومت "ليان" تلك الرجة الخفيفة التي اقشعر منها بدنهما، تأملها "عدي" باستغرابٍ وهو يمسح وجهه بالمنشفة، وقف عند عتبة الحمام مسلطاً أنظاره عليها ومتعجباً من حالتها المريبة، ألقى المنشفة بإهمال خلفه، ثم اقترب منها وجلس بجوارها على الفراش، نظرت له بذعر متفاجئ حينما حاوطها من كتفها، سألها مندهشاً من تصرفها المثير للشكوك:

-مالك يا "ليوو"؟

ازدردت ريقها قائلة بتلعثم ملحوظ وهي تطالعها بنظراتها المتوترة:

-مافيش

ريت على كتفها بحنوّ هاتفًا:

-مش عاوزك تشيلي هم المذاكرة، كله هيعدي

تصنعت الابتسام فأضاف بحماس بائن في نبرته ونظراته:

-بأقولك إيه تيجي أعملك عشا حكاية بدل ما نطلب ديلفيري؟ نفتكس أي حاجة ونعك سوا

اتسعت ابتسامتها التي أخفت خوفها مع مزاحه اللطيف، ثم ردت عليه موافقة بتهنيدة خافتة:

-أوكي

عاونها على النهوض من الفراش دون أن يحرر كتفها من ذراعه متابعًا بنبرة متشجعة مليئة بالتفاؤل:

-ياللا يا بيبي، وبالمرّة تتعلمي وتكتسبي خبرة من خبراتي المحدودة في المجال ده

اكثفت بالأيام برأسها وسار الاثنان سويًا إلى خارج الغرفة ثم هبطا الدرج ليتجها نحو المطبخ، أرخى "عدي" ذراعه عنها ليقول:

-أحنا ندور على مكان الحاجة ونشوف هنعمل إيه، ماشي؟!

انصاعت هامسة:

-أوكي

تبعته "ليان" في صمت، وانتظرت بفتور ما سيمليه عليها من أوامر ليشرعا في إعداد وجبة خفيفة على العشاء، فتح "عدي" الثلاجة مخرجًا منها بعض البيض وعلبة الجبن، واللحوم المدخنة، وغيره مما وجده يصلح للتناول، وضعهم على الطاولة التي انتصفت المطبخ ثم هتف بجديّة:

- "ليوو" اقلي البيض، عندك المقلاية هناك والسمنة أهى، دي حاجة بسيطة

ثم غمز لها بعينه مضيئًا بتسلية:

مش عاوز فيها بسطرمة، فهاني طبعا!

حكّت جبينها بخجل ملحوظ، فلم تكن تجربتها السابقة في إعداد البيض المقلي بالناجحة، أخرجت تهيدة متعبة من جوفها وهي ترد:

-اوكي

أحضرت "ليان" المقلاة ووضعت بها القليل من السمن كما أرشدها زوجها، ثم بدأت في كسر البيض، كانت شاردة الذهن فلم تنتبه لمعظم ما تفعله، بدت كالآلة المبرمجة وهي تتحرك لتنفذ ذلك الأمر البسيط، ومع ذلك ألقت بمحتوى البيض في القمامة ووضعت القشر في المقلاة، استدار "عدي" نحوها ليرى ما الذي تفعله، اتسعت حدقتاه عن دهشة مصدومة وهو يرى ثقتها العمياء وهي تقلب القشور التي لا تصلح لشيء، ركز بصره عليها ليتأكد أنها بالفعل واعية لما تفعل، سألها وهو في حالة صدمة تامة:

-إنتي بتعملي إيه؟

ردت عفويًا وهي تهز كتفها:

-بأسوي البيض، بس هو مش عاوز يتحمر!

مش هايحصل يا "ليوو"، ده آخر يتحرق!

دققت النظر فيما تفعله، إلى حد ما كانت شبه مغيبة عن إدراك خطئها، علق عليها "عدي" مازحًا:

-والله أنا كنت عاوز اللي جوا البيضة مش قشرها، بس طالما منك مقبولة!

انقرجت شفتها عن دهشة عجيبة، استوعبت الأمر بالفعل، التفتت نحوه لتنظر له وهي ترمش بعينها وقد بدأت دمعاتها في التجمع عن طرفيها، اعتقد أنها ربما انزعجت من سخريته منها، أسرع بأخذ المقلاة منها قبل أن تحترق على شعلة النار، علق عليها مبتسمًا محاولاً التهوين عليها:

حادي يا بيبي، ياما يحصل، أنا ماليش نصيب معاك أكل بيض مقلي خالص، نقضيتها
سندوتشات جبنة!

تلمس بيده الأخرى وجتها ليداعبها برفق، أغمضت عينها بوهن حينما شعرت بذلك الدوار
الغريب يزحف نحو رأسها، لم تقاومه من الأساس، كانت بحاجة لما يساعدها على الهروب ولو
مؤقتاً من التوتر المنهك لقواها العقلية، ترنح جسدها للخلف معلناً عن إغمائها المفاجئ، بادر
"عدي" بتلهف على الإمساك بها قبل أن تسقط وترتطم رأسها بحافة الطاولة، ضمها إلى صدره
بذراعيه، تركز بصره على وجهها الذابل مردداً بجزع:

- "ليان"!

لم يفهم ما الذي أصابه لتفقد وعيها هكذا دون مقدمات، انتابته حيرة قلقة وهو يتفقد بنظرات
شاملة، أطبقت أصابعه على فكها وظل يربت على وجتها برفق عليها تستفيق متابعاً ندائه
الخائف:

ردي عليا يا "ليوو"

.....

تلوت بجسدها بتشنج وركلت بساقها في الهواء لتتحرر منه رافضة أن يحملها بأي صورة،
وكعادته حينما تنفلت زمام الأمور يلجأ للجمود والصرامة في التعامل، بدت مقاومتها وحركاتها
الانفعالية لا تقارن بثباته وقوته الجسدية، اتجه "أوس" بزوجته إلى غرفتهما، ورفق حذر مدد
جسدها على الفراش، لم يترك لها المجال للهرب، بل جثا فوقها ليقفل من حركتها، ثم رفع ذراعيها
أعلى رأسها وثبتها بقبضتيه، حدق فيها بنظراته القوية هاتفاً بخشونة:

- "تقى"، اهدي، مالوش لازمة اللي بتعمله ده

زادت مقاومتها الشرسة له قاصدة التخلص من ثقله عليها، صرخت به بنبرة مهتاجة:

- بعد عني

رد عليها بصوته الصارم:

-لما تسمعيني الأول

هزت رأسها رافضة وهي تقول:

مش عاوزه، سييني بقي، إنت إيه مابتحسش؟

أوجعته جملتها الأخيرة وجعلت عيناه تحتدان بدرجة مخيفة، أرخى كفيه عنها معتدلاً في جلسته ورامقاً إياها بنظرة قاسية تحمل العتاب الغليظ، ثم علق عليها هادراً:

براحتك يا "تقي"، بس خليكي فكرة عنادك وصلنا لايه!

زحفت بمرفقيها بعيداً عنه لترد بقسوة وغضبها الثائر متناثر في الأجواء:

-إنت بتدور لنفسك على أي مبرر عشان أصدقك بيه، اللي فيه طبع مش بيغيره يا "أوس" باشا، وإنت اتعودت على القرف ده!

قست نظراته وهاجت دماؤه على الأخير، عض على جانب شفته مغتاضاً من هجومها الباطل عليه، هو يسعى لإقامة حب قائم على الاحترام والثقة والعطف والود، وهي في المقابل عند أول فرصة تسنح لها تتذرع افتعال المشاكل من لا شيء لتفسد بغباها المستحكم ما يجاهد لفعله، قبض على ذراعها معتصراً إياه بقوة هاتقاً من بين أسنانه المضغوطة:

قولتلك أنا اتغيرت

تألمت من قسوة قبضته عليها، تأوّهت قائلة:

آه، إنت بتوجعني

ترك ذراعها ليقول بنفاذ صبر وقد بلغ ذروة حنقه وتحمله:

-أنا بأعمل كل حاجة عشان أثبتلك حبي، وأرضيكي، وتحسي معايا بالأمان، وإني فعلاً واحد ثاني نضيف من برا ومن جوا، وإن مكانش عشان خاطرك فعشان خاطر بنتي، إنتو عيلتي اللي بجد، مش معقول هاضيع كل ده عشان كلام فارغ في دماغك إنتي وبس؟

ردت عليه بعصبية:

مش كلام، والدليل إنت جاي بيه

هب واقفًا من على الفراش كي لا يتهور ويتصرف برعونة مزيدًا الأمور تعقيدًا، زفر بصوت مسموع موضحًا بجديّة:

- "رغد" إنسانة حقودة، افهمي ده كويس، جاية عشان تنتقم وبس!

وضعت "تقى" يديها على أذنيها رافضة الاستمتاع لحججه الواهية من وجهة نظرها، صرخت بهيستريّة:

أنا تعبت من كل حاجة

حدجها بنظرة عكست الكثير من مشاعره المزعوجة بداخله والرافضة لحماقتها، هي لا تمهل نفسها الفرصة للتريث والحكم على الأمور بشكل منطقي، بالطبع لن يستسلم لإغواء أي امرأة مهما كانت تمتلك من مقومات مغرية تذهب عقول الرجال وتسلب ألبابهم، لم يكن هذا بطبعه حتى وإن كان يمارس الرزيلة سابقًا، لم يسئل لعابه على أنثى من قبل، فقد كانت هواجسه مسيطرة عليه وتحفزه لارتكاب أمور بعينها ليشبع تلك النزعة المريضة بداخله حتى قابلها وشرعت علاقتها الشائكة في اتخاذ منحًا جديدًا، فتخلّى عن كل شيء لأجلها ولازم العلاج النفسي ليقوم من انحرافات غير السوية، وضع "أوس" يده على رأسه الذي يكاد ينفجر ليضغط عليها، تركته "تقى" في مكانه على وضعه المتأجج لتهرول نحو الحمام، ثم أوصدت الباب خلفها مفضلة الانزواء به بأكية بحرقة وضيق.

.....

في تلك الأثناء، تضاعفت الجذوة وتحولت إلى ألسنة لهب تغذت بشراهة على السجاد والمنسوجات المتناثرة على الأرضية لتزداد وهجًا وشراسة، بات المكان مثاليًا لاندلاع حريق مرعب، لحظات بسيطة وتضاعف الدخان سريعًا بعد أن انتشرت النيران في أجزاء كثيرة، التقط جهاز الإنذار الرائحة فبدأ يصدر صافرة مدوية، وعلى إثر ذلك الصوت المفزع انتبه "أوس" واستدار برأسه للجانب، خرج من الغرفة ركضًا ليجد مشهدًا مهولًا من الجحيم ينتظره بالخارج، تراجع بجسده مذعورًا وقد شغصت أبصاره، كيف حدث ذلك؟ لم يكن الوقت

مناسبًا للبحث عن إجابات مرضية، هرول عائداً لغرفته ليدق باب الحمام على "تقى" بقبضته المتكورة صارخاً بها:

- "تقى"، افتحي الباب بسرعة، مش وقت عناد

أفزعها صوت الصافرة وجعل قلبها يهوى في قدميها، حركت القفل لينفتح الباب وهي ترد متسائلة بخوف كبير:

في إيه؟

قفز قلب "أوس" رعباً بين ضلوعه، بل كاد أن يقتلع منه وهو يردد بهلج:

- "حياة"!

لم يفكر مرتين، حاوط زوجته من كتفيها وخبأ رأسها في صدره ثم اندفع بها كالجنون نحو غرفة ابنته القريبة منها واضعاً يده على أنفه ليمنع تلك الرائحة الخائقة للدخان من اختراق رئتيه، سعلت "تقى" عدة مرات كدلالة على اختناقها، تشبثت بـ "أوس" وهتفت له من بين سعالها الحرج:

الحق بنتنا

رد مطمئناً رغم الخوف المفرع الذي سيطر على كيانه بالكامل:

متخافيش

توخي حذره وهو يمر في الرواق حتى وصل إلى الغرفة، ولج إلى الداخل فتركته "تقى" وركضت نحو فراش رضيعتها، حملتها بين ذراعيها وضمتها بقوة إليها لتحميها من النيران التي كبر حجمها بصورة مخيفة، مرر "أوس" عينيه سريعاً على محتويات الغرفة باحثاً عما يمكن أن يحمي زوجته وطفلته من الأذى، التقط أحد الأغشية الموضوعة على الرف بداخل خزانة الثياب الجانبية ثم فرده في الهواء ليضمهما به معاً قائلًا لها بثبات يظهر الرجال في أصعب المواقف:

مش هاسيب حاجة تأذيكم، خليكي واثقة فيا

ردت عليه بكاءً مرتعد:

-حمينا يا "أوس"

ضمهما إليه بعد أن تأكد من تخبئة جسدتهما بالغطاء لحمايتهما وهو يرد بتأكيد غير قابل للتشكيك:

-متخافيش

شدد من إحاطة ذراعيه لهما وكأنهما كنزه الثمين الذي يخشى فقداه أو هلاكه، قادهما بحذر مضاعف نحو الخارج، اختنق صدره من كم الدخان الكثيف الذي استنشقه وشوش الرؤية لديه كثيراً، أدارهما في سرعة للخلف ليحميها بظهره حينما سقطت إحدى الستائر المشتعلة فجأة، تلقى ضربة عنيفة تكاد تقصم الأظهر من تهاوي بصورة مباغتة الثقل الخشبي الحامل للستائر عليه، تحمل الألم الشديد واستدار مكملاً سيره الحذر باحثاً عن مخرج آمن لهما، لم يعبأ "أوس" بنفسه أو بما قد يصيبه من أذى، فشاغله الأكبر هو إنقاذ عائلته، سعل مختنقاً لأكثر من مرة حتى استطاع المرور بهما نحو تلك البقعة الصغيرة الخالية من السنة النيران والتي تنتصف الصالة، قادته بسهولة إلى باب المنزل، أخرجهما منه وهو بالكاد يتنفس، تدافع الجيران لنجدة جارهم ومنزله الذي يشتعل بالكامل، تدخل الأمن سريعاً بأجهزة الإطفاء كمحاولة أولية لإخماد النيران ريثما تصل عربات الإطفاء، أسرع أحدهم بسحب "أوس" وعائلته بعيداً عن المنزل، نزع الأخير الغطاء عن زوجته ليتأكد من كونها بخير، سألها بتلهف وقد انقطعت أنفاسه:

-"تقى"، إتي كويسة؟

أجابته بوجه مرتاع:

-أيوه

أخفض نظراته ليطالع رضيعته التي بكت فزعاً، تنفس الصعداء لكونها بخير، تتم بارتياح غير مسبوق:

-الحمد لله

لم يستطع جسده المتألم الصمود أكثر من ذلك، ثاقلت حركته وارتخت عضلاته فهوى جالساً على الدرج وقد بدا عليه الإعياء الشديد، نظرت له "تقى" بخوف وهي تناديه:

- "أوس"!

.....

أفاقت من حالة الإغماء المفهومة بالنسبة لها على صوته الذي كان قريبًا من أذنها، حركت "ليان" رأسها للجانب بتمهلٍ، وببطءٍ متريثٍ قامت بفتح جفניה المتعبين، نظرت إلى "عدي" الذي كان على رأسها بنصف عين، في وضع ما بين الغفلة واليقظة، أغمضت عيناها متسائلة بصوتٍ خافت:

حصل إليه؟

سألها بجدية متلهفة:

- "ليوو"، سمعاني؟

أجابته بزفيرٍ بطيء:

أيوه

عاودت فتح عينيها لتنظر له مطولاً دون تعليق، كانت إلى حد كبير خائفة من إخباره بالحقيقة، شردت في تأمل وجهه بوجهٍ مبهم التعبيرات، أردف "عدي" مازحاً:

مكانش شوية بيض طلبتهم، أنا محقوقك

سعلت وهي تضحك، ثم سألته باهتمام:

أنا إليه اللي جابني هنا؟

أجابها موضحاً:

إنتي دوختي في المطبخ وأغنى عليكي وأنا جبتك على هنا

مسد على رأسها برفق، تحرك من مكانه ليلتصق بها ثم مرر ذراعه خلف ظهرها لتشعر باحتوائه لها بين أحضانه، قبل جبينها متسائلاً:

حاسة يايه دلوقتي؟

رفعت "ليان" عينها لتحقق في ملامحه بتردد مقروء، كان في شدة احتياجه لمن تفضفض له،
وذلك السر يجثم على صدرها بصورة خائفة، توترت أكثر حينما سمعته يضيف:

-أنا كلمت الدكتور ولما هايجي هيطننا

ردت عليه بجلقي جاف:

-مافيش داعي

رفض تهاونها في تلك المسألة مردداً بإصرار:

-يا حبيبي لازم نطمن، الموضوع ده لو كان حصل وإتي سايقة، محدش عارف كان ممكن آ.....

قاطعته لافظة ما في جعبتها دفعة واحدة لتزيح ذلك العبء عن صدرها:

- "عدي" أنا حامل

رد بجدية غير مستوعب لما باحت به تَوّا:

-مش سبب يعني إنك آ.....

قطم عبارته مصدوماً وقد تجمدت عيناه على وجهه المتوتر، شعر بدقات قلبه تتلاحق بقوة،
ابتلع ريقه متسائلاً ببلاهة:

-هاه، قولتي إيه؟

أجابته وقد انكششت على نفسها وهي بين أحضانه:

-أنا حامل ومكوتنش أعرف

خشيت من ردة فعله، بل تذبذبت هواجسها مع نظراته ونبرته وذلك الحماس الفطري الذي
كسا وجهه وانعكس على تصرفاته معها، برقت عينا "عدي" بوميض يشع سعادة غير مسبقة،
ردد بتلعثم:

-إتي ح... حامل!

أومات برأسها هامسة بخفوت مرتبك:

أيوه

هلل صائحا وهو شبه لاهث الأنفاس:

-يعني أنا هابقي أب؟

أكدت له:

أه

سألها بنفس الحالة المصدومة التي تمزج بين الفرح والذهول:

بتهزري؟

هزت رأسها نافية وهي تعلق:

-لا، أنا كنت عند الدكتورة النهاردة وأكدتلي ده، أنا حامل في شهرين

عاطبها برقة متصنعا العبوس:

حرام عليك يا "ليوو"، ومخبية عليا ده من بدري، طب ليه كده بس؟

تبددت مخاوفها مع فرط السعادة التي ظهرت عليه، همست بارتباك:

-أنا

قاطعها بتهيل:

-إنتي الحب كله!

مرر أصابعه بين خصلات شعره مكلاماً وهو يسلط نظره على بقعة في الفراغ:

-ياه، أنا مش مصدق نفسي، أنا هايتقى عندي بيبي صغير، مش معقول!

بدا كمن يحدث نفسه حينما أضاف:

-أنا عمري ماتخيلت ده، كنت مستبعد حاجة زي دي تحصل، أنا مش مصدق نفسي!

ثم التفت نحوها ليقبلها بشغف وهو يزيد من ضمه لها قائلاً:

-بأحبك يا "ليوو"

لاحت ابتسامة اطمئنان على ثغرها قضت على الكثير من خوفها، سألته بعينين ترمشان:

-أنت مبسوط؟

وضع يده على طرف ذقنها يتلمسه برفق قائلاً لها:

-مبسوط بس؟ ده أنا هاطير من السعادة

أنزل قدميه عن الفراش ليستقيم واقفاً وهو يكمل:

-لازم أقول لأخوكي وأفرحه!

استدار برأسه باحثاً عن هاتفه المحمول مستأنفاً بابتسامة عبثية:

عشان محدش ييقى أحسن من الثاني، وإتني يا "ليوو" قولي لمدام "تهاني"، دي هتفرح جداً

وقبل أن يضغط "عدي" على زر الاتصال به، كان هاتفه يضيء برقمه، نظر إلى "ليان" رافعاً

الهاتف نصب عينيها وهو يقول:

-شوفتي، أخوكي بيحي على السيرة

أجاب عليه بعد أن وضع الهاتف على أذنه ووجهه يعبر عن فرحة لا مثيل لها:

باشا ...

بتر باقي عبارته قبل أن يشرع فيه لتتحول تعابيرهِ للوجوم المضطرب، تبدلت نبرته متسائلاً

بعبوس مخيف:

-بتقول إيه!!!؟

.....

الفصل العاشر

هروول الأمن المسئول عن تأمين البناية والمجمع السكني لنجدة ذلك المنزل المشتعل والمتصاعد منه أدخنة كثيفة من أغلب نوافذه، دوت صافرات الإنذار بالحرائق في كامل المبنى مما أفرع السكان، وفي خلال دقائق شرع رجال الأمن في استخدام طفايات الحرائق لإخمادها قبل أن يتفاقم الأمر ويصل إلى المنازل الأخرى، خاصة أن المشهد كان مرعباً ملبكاً للأبدان.

راقب بعينين محققتين من تأثير ألسنة اللهب ما يحدث كأنما بتحمل يفوق قدراته آلامه القاصمة للأظهر ليبدو أمام زوجته الخائفة صلباً، قوي الشكيمة، لا يهزه شيء، خاصة أن نظراتها

المرتاعة ووجهها المرعوب أكد له إن شعرت للحظة بأنه ليس على ما يرام لربما تفقد ما تبقى من تماسكها الزائف، اعتدل "أوس" في جلسته غير المريحة على الدرج مخرجاً هاتفه المحمول من جيبه، والذي كان لا يزال موضوعاً به، بحث سريعاً بالأرقام ليهاتف الأقرب إليه، من سينفذ أوامره حرفياً دون جدالٍ، كز على أسنانه مانعاً آهة موجوعة من الخروج من صدره، وضع الهاتف على أذنه قائلاً بتشنج ملحوظ:

-أيوه يا "عدي"

بدا صوت الأخير متحمساً لكنه قطعه متابعاً بصرامته الجادة:

لو "ليان" جبك متقولش حرف ليها

سأله رفيقه بتوجيس:

-بتقول إيه؟ في حاجة حصلت؟

رد عليه محذراً:

مش عاوز شوشرة، زي ما قوتلك، تسمع كويس وتنفذ اللي هاقوله من غير ما مراتك تحس أتاها صوته متسائلاً بتلهف:

-تمام، خير في إيه؟

-الشقة ولعت عندي، واحنا كويسين، بس طالعين على المستشفى لما يجي الإسعاف، حصلني على هناك

رد بقلبي متعجل:

حاضر، مسافة السكة وهاكون عندك

أنهى "أوس" معه المكالمة دون إضافة المزيد، فالحديث يؤلمه بقسوة، تهدل كتفاه وظهر الإعياء جلياً على قسماته، التصقت به "تقي" لتحتفي به وهي واضعة لرضيعتها على حجرها، شعر بتلك

الرجفة التي تملكته، ففرد ذراعه رغم الألم الشديد من حركاته الزائدة وغير محسوبة العواقب ليضمها إليه لتشعر بالأمان والاحتواء، طمأنها قائلاً بخفوت:

-متخافيش، عدت على خير

ردت بصوتٍ بالك:

-الحمد لله يا رب

لحظات وامتلاً المكان رجال الشرطة ليحققوا فيما حدث، وتحولت البناية إلى حديث من يقطن في المجمع السكني، في تلك الأثناء، خرجت إحدى الجارات -من ذوي الشيبة- من داخل منزلها المواجهة لهما حاملة في يدها إسدالاً للصلاة، اقتربت من "تقى" هاتفية بجديّة:

-البسي ده يا بنتي!

انخفضت نظرات "تقى" عفويًا إلى جسدها ليعتري وجهها نظرات مصدومة خجلة من ثيابها شبه الفاضحة التي ربما منحت البعض فرصة ذهبية لاختلاس الأنظار إليها رغم تغطيتها بالغطاء، ارتفعت يدها لتتلمس شعرها الذي ثار بتمرد فزادت هلعًا وتوترًا، بدا مجيء تلك الجارة الطيبة كطوق النجاة بالنسبة لها، نظر لها "أوس" بامتنان، فقلما تجد من يكون حريصًا على غيره في المواقف الحرجة، عاوتها الجارة في ارتدائه وحملت عنها الرضيعة ريثما تنتهي من ستر جسدها، التفتت "تقى" لتنظر إلى "أوس" بعينين نادمتين ودمعاتها تتسابق من جديد في الانهيار على وجنتيها، سألته بنحيب:

-أنت كويس؟

نكس رأسه وقد نفذ مخزونه من القوى، زفر ببطء قبل أن يجيبها بوهن:

-أيوه، المهم إيتي و"حياة"

منحت "تقى" ابنتها قبلة عميقة حنونة أعلى جبينها قبل أن تقول له:

-أحنا بخير الحمد لله

اقترب أحد رجال الأمن مرددًا بلهجة جادة:

- "أوس" باشا الإسعاف وصل تحت، وطالعين

أوما برأسه دون تعقيب، ثم أشار له بيده ليعاونه على النهوض، فقد ثقل جسده ولم يعد قادرًا على الوقوف بمفرده، استند على كتف الحارس الأمني ليلبغ المصعد وتبعته "تقي" بتمهل، فُتح الباب على مصراعيه فتوقف الجميع عن الحركة لتواجد المسعفون به، هرعوا في التعامل مع "أوس" بعناية فائقة، وما هي إلا لحظات وكان مع زوجته ورضيعته في عربة الإسعاف متجهين إلى مشفى "الجندي".

.....

نظرت إليه بفضول حائر وهي ترى تلك التحولات العجيبة على ملامح وجهه وحتى نظراته، ركزت "ليان عينيها على "عدي" الذي طالعها بنظرات مرتبكة، ادعى الابتسام ليخفي القلق الذي ظهر عليه، سألته باهتمام وهي تراه متجهًا نحو خزنة الثياب ونازعًا ثيابه عنه:

- في حاجة حصلت؟ هو إنت نازل ولا إيه؟

التفت نحوها لينظر لها بجدقتين مضطربتين قبل أن يتنحنح مجيبًا إياها ببسمة متكلفة:

-حاجة تبع الشغل

سألته مجددًا وقد بدت غير مقتنعة بما يقول:

-في مشاكل يعني؟

أجابه بحذرٍ وهو يخرج ثيابه من ضلفته:

-بخصوص الاجتماع، شوية حاجات طالبا "أوس" مني، ما إنتي عارفاه لما يحط حاجة في دماغه

هزت رأسها بتفهم:

طيب

أسند ثيابه على الفراش ثم انحنى عليها ليحتضن وجهها بين راحتيه قائلاً لها بنبرة مليئة بالدفء:

حبيبتى، مش هتأخر عليكي برا
تشكل على صغرها ابتسامة مجاملة وهي ترد:

-براحتك

تابع مؤكّدًا بجديّة:

-المهم تخدي بالك من نفسك لحد ما أرجع، ماتعمليش أي حاجة تتعبي بيها نفسك والباشا
اللي قاعد جوا

أخفض رأسها لتحقق نحو بطنها ثم عاودت النظر إليه مرّدة:

-أوكي

طبع قبلة رومانسية على شفّتها هامسًا لها بمحبّة كبيرة:

-بأحبك يا "ليوو"

ثم تراجع عنها ليلتقط ثيابه وأسرع بالولوج إلى داخل الحمام ليبدلها، تبعته أنظار "ليان" التي
رددت بين جنبات نفسها بفضول:

-مش مستريحة، حاسة إن في حاجة غلط

.....

تشابكت الأصابع معًا فشعرت بذلك الدفء المطمئن يتسلل إليها ليخفف من وطأة ما عاتته
قبل لحظات حينما باتت على وشك الموت والتهديد بخسارة فلذة كبدها، حماها المولى وأنقذها
زوجها من خطر محتوم غير مكترث بما يمكن أن يصيبه، توترت نظرات "تقى" مع اقترابها من
ذلك المشفى الذي لم يكن غريبًا على ذاكرتها وشاهدًا على الكثير من الأحداث المؤسفة، انقبض
قلبا بخوفٍ مبرر، فذلك المكان حمل بين جدرانهِ ذكرياتٍ مؤلمة وضعتها في اختيارات مصيرية،
وشكلت الكثير مما أصبحت عليه حياتها الآن، قاومت بشدة سيل الذكريات الذي امتزج مع
مخاوفها الطبيعية وحاولت ألا تنبش فيها أو تسترجعها، فلتركز الآن على زوجها الذي يتمدد على
الحامل الطبي في وضع لا تعرف بعد خطورته، نظرت إليه بهلع، كان مستكينًا، صامتًا، في

وضع لا يبشر بخير، انقبض قلبها بقوة من تكرار المشاهد نصب عينها وكأنه قد حكم عليها بالمعاناة، تمنت هامة:

-ماتسبناش يا "أوس"

شعرت بتلك الضغطة الخفيفة فتسارعت دقات قلبها، تجمدت نظراتها على يده لشوان ثم رفعت رأسها لتحقق في عينيه الغافتين، انسابت دمعاتها في صمت وهي بالكاد على شفا خطوة من الانهيار، توقفت عربة الإسعاف عند مدخل الطوارئ وتسابق العاملون بالمشفى وعلى رأسهم الطبيب "مؤنس" الذي هدر عاليا بصرامة شديدة:

-بسرعة انقلوا الباشا على جوا

وبحيلة مدروسة تم دفع الحامل الطبي إلى الداخل ليقوم الأطباء بفحص "أوس" والوقوف على مدى إصاباته، كذلك تولت إحدى الطبيبات مهمة متابعة "تقى" والرضيعة، واصطحبتها إلى قسم رعاية الأطفال، وهناك عمل الجميع على قدم وساق للتأكد من سلامة الصغيرة، راقبت "تقى" ما يحدث من تدقيق طبي فائق الاهتمام بتوتر، خرجت الكلمات من جوفها مهتزة وهي تسأل الطبيبة:

- "حياة" كويسة؟

نظرت لها الأخيرة بغموض قبل أن تجيبها باقتضاب عملي:

-اطمني يا هانم، أنا بأعمل اللي عليا وزيادة!

ثم أشارت لزميلتها بعينها لتضيف بعدها بصيغة أمرة:

-خليكي مع الهانم برا شوية وأنا هاقوم باللازم هنا

شعرت "تقى" بتلك القبضة التي توضع على كتفها لتجبرها على الاستدارة برأسها للجانب، رأت شابة مبتسمة تطلب منها برقة واحترام:

-هستأذنك تيجي معايا يا فندم

ردت معترضة:

أنا عاززة أكون مع بنتي، مش هاسيها لوحدها

تفهمت عنادها الواضح وأضافت بهدوء متمرس لتثنيها عن رأيها العنيد:

كلنا هنا موجودين عشانها، ماتلقيش حضرتك، من فضلك تعالي معايا عشان نطمئن عليك،
5 دقائق وهانكون هنا

اضطرت "تقى" أن ترضخ لها واستدارت خارجة من غرفة الفحص لكن بقيت نظراتها وقلوبها مع وحيدتها التي شرعت تبكي، وضعت يدها على صدرها مقاومة هي الأخرى رغبته في البكاء وهي تتخلى عنها مجبرة، استمرت الطيبة في دفعها برفق إلى الخارج، ومع ذلك رفضت "تقى" الذهاب معها لتفحصها، أصرت على الوقوف ملتصقة بالجدار الزجاجي الذي يظهر لها ما يحدث بالداخل، تغلغل بداخلها رهبة مفزعة من احتمالية تعرض تلك الضعيفة لمكروه ما بسبب لحظة غباء متهورة منها، اغرورقت عيناها بالعبرات وشوشت الرؤية لديها، وما زاد الطين بلة أنها بمفردها من جديد، عاجزة، لا تقدر على فعل شيء، وزوجها بمكان ما بنفس المشفى لكنها لا تعلم عنه شيئاً، خوف مضاعف تسرب إلى كيانها بالكامل، بدأت ترتجف وهي تستند بكفها على الجدار لتشعر ببرودة أكبر تصيبها، طمأنها نسبياً ذلك الصوت المألوف الذي أتى من خلفها مردداً:

- "تقى"

التفتت كالمسوعة للجانب لتجد "عدي" مسرعاً في خطواته نحوها، توقف بجوارها ليتأمل حالتها الفوضوية بعينين حائرتين، ثم أردف متسائلاً بنبرة أقرب للهاث:

حصل إيه؟

أجابته بكاءً:

أنا السبب

لم يفهم مقصدها، فسألها من جديد ليستشف ما حدث منها:

- يعني إيه؟

أجابته من بين بكائها المرير:

لو كنت سمعته من الأول مكانش ده كله حصل، أنا غيرتي عمتني عن إني أفكر
زفر بعمقٍ مرددًا بحرج:

-أنا مش فاهم حاجة منك يا "تقي"، اهدي كده وفهميني حصل إيه من الأول!
كفكت عبارتها لتضيف بحنيٍ وقد عادت ذكرى تلك اللطخة التي أفسدت سهرتها الحاملة
وحولت كل شيء إلى كابوس مفزع:
كله بسبب واحدة اسمها "رغد"

انعقد ما بين حاجبيه باندھاشٍ عجيب، فكيف تكون "تقي" على صلة بها وهي لم تلتقي بها من
قبل؟ لم يدع الأمر يحيره فعاد لسؤالها باندھاشٍ:
-"رغد"، وانتِ تعرفيها منين؟

تنفست بعمقٍ لتسيطر على بكائها حتى تخرج كلماتها واضحة، ثم علقت عليه بنبرة متقطعة:
-معرفهاش، "أوس" كان بيتكلم عنها، وأنا.. فكرته على علاقة بيها
رد "عدي" نافيًا بقوة:

-استحالة، أولاً هي بنت عمه، ثانياً دي متجوزة وعندها عيال، ثالثاً وده الأهم هي بتاعة
مشاكل وجاية تهد كل حاجة عملها "أوس"

شعرت مع كلماته المؤكدة لبراءة زوجها من فداحة غيرتها الحمقاء التي أودت بعائلتها لذلك المأزق
الحرج، انخرطت في بكاءٍ جديدٍ أشد ندمًا لتدفن بعدها وجهها بين يديها موجبة نفسها:
-أنا غبية

ضاقت نظرات "عدي" متابعاً بجديّة:

طب و"أوس" فين دلوقتي؟

هزت كتفها قائلة بخزيٍ أكبر:

مش عارفة، هما نقلوه هنا وأنا جيت مع "حياة" يشوفوها، أنا السبب، أنا المسئولة عن اللي حصلهم!

تضاعفت نوبة بكائها ليشعر "عدي" بالحيرة من أمره، تنحنح قائلاً بهدوء:

"أنا موجود معاك، كل حاجة هتبقى تمام يا "تقي"

ردت عليه برجاءٍ وقد أبعدت يديها عن وجهها لتتفحص بصرها للسماء:

يا رب

ظل "عدي" واقفاً بجوارها لبضعة دقائق مستمعاً إلى صوت نحيبها، لم يجد ما يعبر به في ذلك الموقف، عليه أن يكون متماسكاً كرفيقه ليتعامل بحكمة مع ما قد يحدث من تطورات، خرجت الطيبة من الداخل فاندفعت "تقي" نحوها لتسألها بتلهفٍ وقد زاغت نظراتها:

-بنتي عاملة إيه؟

ادعت الطيبة الابتسام وهي تجيبها:

-اطمني، هي هتبقى كويسة بس محتاجين نسيبها تحت الملاحظة هنا 24 ساعة

شعب وجهها مع جملتها الأخيرة، اتسعت حدقتها في رعبٍ مفهوم لأي أم في موقفها لتسألها بفرع:

-يعني إيه الكلام ده؟

ردت بروتينية موضحة سبب إبقائها تحت الملاحظة والمتابعة الطبية:

-ده إجراء طبيعى عشان نطمئن أكثر

صرخت بهيستيرية وهي تحاول الاندفاع نحو الداخل:

-أكيد حصلها حاجة وإنتي مش عاوزة تقوليلى، أنا عاوزة أشوف بنتي

-اعترض "عدي" طريقها ليمنعها من التصرف بحماقة قائلاً لها:

-يا "تقي" اهدي، مش كده! خلي الدكاترة يشوفوا شغلهم

أضافت الطيبة مدعمة موقفه:

هاتشوفيا وتطمني يا هانم، بس احنا محتاجين برضوه نطمن على حضرتك كمان

هتفت بنبرة أقرب للصراخ العنيد:

مش مهم أنا، بنتي عندي بالدنيا كلها

نظرت الطيبة بحيرة إلى "عدي"، ما خفف من وطأة الموقف هو هتاف الأخير قائلاً:

د. "مؤنس" هناك أهوو

عند ترديد اسمه عاد ضميرها لتأنيبها بشراسة بسبب أذته عن عمد، همس جوفها باسمه:

- "أوس"!

تحرك "عدي" في اتجاهه ليسأله دون تفكير:

خير يا دكتور؟ "أوس" عامل إيه؟

حبست "تنقي" أنفاسها بترقب وقد عجزت قدماها عن التقدم نحوه، شعرت أن خنجراً حاد النصل يضرب قلبها بقوة ليؤلمها، وضعت يدها على فمها لتكتم أي شهقة قد تباغتها وتخرج عفواً منها إن سمعت ما قد يؤلمها، أجاب "مؤنس" بهدوء عملي وهو يوزع نظراته بين الاثنين: الحمد لله، رغم إن الضربة عملت كدمة جامدة وكان ممكن تسبب كسور، لكن ربنا ستر وعدت على خير

تنفست "تنقي" الصعداء وشعرت بأن روحها ردت إليها مع كلماته المثلجة لصدرها الملتاع، تمتت حامدة المولى في نفسها لتجاوزه تلك المحنة، وإلا كانت ستعاني من تأنيب ضميرها لفترة طويلة، ومن عذاب جديد يُضاف إلى قائمة معاناتها، أصغى "عدي" بعناية لكل ما يقوله ليضيف متسائلاً باهتمام:

-تقدر نشوفه؟

رد ببساطة:

أُكيد

بدأت الفرصة جيدة لـ "عدي" ليسحب "تقي" بعيدًا عن ابنتها بحجة الاطمئنان على زوجها فلا تفتعل أي مشكلة مع طاقم الرعاية الطبي المسئول عن متابعة الرضیعة، أشار لها بذراعه لتتبعه، امتثلت صاغرة له، وسارت بخطوات متخاذلة نحو الغرفة المتواجد حاليًا بها مرددة لنفسها بلوم شديد:

يا ريتني سمعته، مكانش ده كله حصل!

.....

ثقلت خطواتها مع اقترابها من الغرفة المتواجد بداخلها، أحست بتخلي قدمها عن مساعدتها لتزداد مهمتها صعوبة ومشقة، فهي الملامة الرئيسية على ما حدث، تهدجت أنفاس "تقي" وهي تلمح طيفه من خلف الزجاج الكاشف له، ألمها أن تراه على تلك الحالة موضوعًا على الأجهزة الطبية، والشاش الطبي يغطي صدره العاري، لم تظن أن حالته بذلك السوء، اعتقدت أن إصابته طفيفة، لكن ما رآته من خلف الزجاج زاد من إحساسها بالذنب، التقطت نظرات "أوس" عينها المتورمتين من البكاء المتواصل، رفع يده ليشير لها بالدخول، شجعها حركته تلك على المضي قدمًا، سبقها "عدي" في خطواته ليطمئن على رفيقه باهتمام كبير، استرسل هاتفًا:

- "أوس" باشا، ينفع كده تقلقنا عليك

لم يجبه الأخير بل كانت نبضاته الصادرة من جهاز قياس ضربات القلب تعبر عنه، بقيت "تقي" في الخلف مترددة في البوح بكلمة واحدة تعبر عن ندمها، انكسرت نظراتها واكتست بعلامات الحزي، اقتربت أكثر منه مطأطأة الرأس، تقدم قدمًا وتؤخر الأخرى، تجمدت نظرات "أوس" عليها، كان يحس بما يختلج صدرها من مشاعر نادمة آسفة، أزاح القناع الذي يغطي نصف وجهه مناديا إياها بصوت شبه متحشرح:

- "تقي"

تلقائياً ارتفعت عيناها نحوه لتحقق في عينيه العاشقتين لها، تسابقت عبراتها في التجمع عند طرفيها، مدت يدها لتحسس كفه، ثم انحنت قليلاً بعد أن رفعته إلى فمها تقبلها هامسة له:
أنا أسفة

سحب يده برفق من بين أناملها المرتجفة ليتلمس بشرتها المبتلة، أضاف بخفوت:

أنا كويس، متخافيش يا حبيبي

انهارت بأكية وهي تقول:

حقك عليا، أنا السبب في اللي حصلك!

حاول أن يتنسم لكن بدت ابتسامته باهتة واهنة، سعل بتعبٍ لتزداد رعباً من اختناقها، سألتها
بتلهف مذعور:

رد عليا يا "أوس"

التفت برأسها نحو "عدي" لتصرخ فيه بهلع وقد اتسعت مقلتاها:

نادي الدكتور بسرعة

وقبل أن يركض رفيقه ليستدعي من يتفقد حالته، أشار "أوس" بيده قائلاً بجدية رغم انخفاض
نبرة صوته:

مافيش داعي، أنا كويس

احتضنت "تقى" كفه بين يديها، ألصقته بوجتها رافضة إفلاته، ثم توسلته من بين بكائها
الحارق:

عشان خاطري متعملش فيا كده

نظر لها معقبا:

اهدي يا حبيبي، أنا هابقي تمام

ظلمت تنحنح بهيج متتابع حتى خف بكائها، سألتها من جديد:

فين "حياة"؟

أجابه "عدي" تلك المرة قائلاً:

-اطمن، الدكاترة عملوا اللازم معاها، هي مافيهاش حاجة
ارتخت تعابير بعد عبارته الأخيرة، ابتلع ريقه في حلقة الجاف ليأمره بصرامة رغم الوهن البادي
عليه:

خذ "تقي" و"حياة" على الفيلا عندك، وماتقولش لـ "ليان" على اللي حصل

ردت عليه معترضة بعناد كبير:

-أنا مش هاسييك يا "أوس"!

عاد ليحرق بها مضيئاً:

-أنا كويس يا حبيبتي، اسمعي بس الكلام و...

قاطعته بإصرارٍ أشد رافضة الإصغاء لأوامره:

-مش هامشي، أنا هافضل هنا جبك

لم يجادلها كثيراً، فرويتها متلهفة عليه، بل ومقاتلتها للبقاء معه أسعدته للغاية، وملأت قلبه
سعادة وغمرته بالفرحة، تلمس بشرتها بأصابعه ممتتماً:

-ربنا ما يحرمني منك

همست له بوجه أشرق مع لمساته الحنون:

-بأحبك

رد عليها مبتسماً ومقاوماً لتلك النغزة التي أصابته فجأة:

-وأنا أكثر يا "تقي"

تابع "عدي" المشهد الرومانسي الخاص بينهما بنظرات حرجة، تنح بصوت مرتفع ليتنبه كلاهما إلى وجوده، ثم استطرد معلقًا بهرح:

-والله بوظتوا فرحتنا، وأنا اللي كنت عاوز أبشرك

رد "أوس" بمزحًا وقاصدًا إثبات حبه لواحدة فقط تربعت على عرش قلبه:

-خير؟ "رغد" ولعت؟

علق نافيًا:

-لأ لسه شوية، بس دي حاجة أحسن

سأله بتعجب:

-ليه؟

أخرج "عدي" نفسًا بطيئًا من صدره ليقول بعدها ببسمة عريضة ونظرات لامعة:

-"ليان" حامل يا باشا

اعتلت الدهشة تعابير المهقة ليرد متسائلًا:

-ده بجد؟

أجابه بثقة:

طبعًا، هو احنا بنلعب!

سعل "أوس" مُباركًا:

-مبروك يا "عدي"، أنا أفوق من اللي حصل وهاتصل أباركلها

رفع كفيه معقبًا بحماس:

-براحتك يا باشا، كأنه حصل، المهم سلامتك وتخرج من هنا، مش عاوزينك تطول

أضافت "تنق" قائلة ببحر:

ألف مبروك يا "عدي"، أنا أسفة بوظت كل حاجة و....

قاطعها "عدي" مبتسمًا:

حصل خير، وحمدلله على سلامتك يا صديقي!

ثم فرك مؤخرة رأسه مكملًا بعد أن شعر بأن وجوده غير محبب في تلك اللحظات العائلية الخاصة:

أحم .. هاسيكم شوية مع بعض وهاروح أشوف الدكتور "مؤنس"، ولو في حاجة يا "أوس" كلمني

نظر له رفيقه بامتنان لبديته، وعلق عليه مرددًا:

تمام

انتظرتة "تقي" حتى خرج من الغرفة لتجلس على طرف الفراش هاتفه بندم:

أنا كان ممكن أموت لو جراك حاجة، أنا أسفة، مش هايحصل ده ثاني

صمت للحظة ليكنم آهة تعبر عن ألمه من وخزة أخرى قاسية أصابته في كتفه وهو يحاول التحرك على الفراش ليدنو من زوجته، احتقن وجهه وظهر انعكاس الألم في بريق حدقتيه، توجعت لرؤيته على تلك الحالة، مالت عليه لتحضنه دون أي مقدمات هامسة له:

سامحني

امتدت ذراعه لتلتف حولها وتحاوطها، لم تكن ضمته بالقوة لكنها كانت كافية لتذهب عنها أحزانها الملازمة لها، تراجعت عنه لتطالع وجهه بعينها الدامعتين، تأملها "أوس" مطولاً قائلاً لها بتأكّد:

حبيبي، لازم تبقي عارفة إنك إتي و"حياة" أغلى حاجة في حياتي، عمري ما هاخونك، ولا هابعد عنك

انخفضت نظراتها على ذلك الشاش الطبي الملفوف حول صدره، تلمسته بيدٍ مرتجفة، اهتزت شفتاها برعشة خفيفة، شعرت بنغصة تؤلمها وقد أحست بوجعه، ابتلعت غصة مريرة مرددة:

-أوعى تتخلى عني في يوم

ثبت عينيه عليها مؤكداً بنبرة لا تعرف المزاح أبداً:

-مش هايحصل!

انحنى نحوه مجدداً لتحضنه وهي تبكي على كتفه، مسح "أوس" على ظهرها برفق طالباً منها:

-كفاية يا "تقى"

توقفت عن النحيب وظلت باقية في أحضانه، سمعت صوته يقول بجدية:

-عاوزك بكرة تروحي مع "عدي" عنده يومين

اشتد ضمها له وهي ترد محتجة:

-لا، مش هامشي من غيرك

أصر على رأيه هاتفاً:

-أنا هابقي كويس، هتلاقيني على آخر النهار خارج من هنا، بس مش هاطمن عليكى وإنتي متبهلة كده

لم تصغ له وكبرت قائلة:

-مش عاوزة

يئس "أوس" من محاولة إقناعها بالانتقال ولو مؤقتاً عند "عدي" وأخته، فوجودها هنا لن يريحه بأي حال من الأحوال، سيبقى باله مشغولاً عليها وهو في وضع لا يسمح له بالقيام بأي حركات مفاجئة، لاح في عقله فكرة ما، ربما ستجعلها تتخلى عن عنادها وتبلي أوامره، زفر قائلاً بتمهل جاد:

طب خلاص روجي عند أهلك يومين، بالمرة تشوفي أبوكي وأمك، وأنا هاجيلك أخذك من هناك بس أكون ظبطت المكان اللي هاتقعد فيه

ردت عليه رافضة:

رجلي على رجلك، أنا

قاطعها بإصرار صارم:

- "تقي" اسمعي الكلام، أنا مش عاوز أجبرك على حاجة، بس ده في مصلحتك، وعشان بنتنا، مش لازم تتعيني!

أبعدت جسدها الملتصق ب صدره لتنظر إليه بتوتر، كانت عيناه جادتان للغاية، لم ترغب في إثارة غضبه بعد كارتها الأخيرة، هزت رأسها مرددة باستسلام:

حاضر يا حبيبي، هاعمل اللي إنت عاوزه

خفت حدة نظراته لتعبر عن ارتياحه بانصياعها له أخيراً، تصنعت الابتسام متسائلة برقة:

-ينفع أنا م جمبك؟

لم يجيبها بل أفسح لها قليلاً لتمكن من الاستلقاء على ظهرها إلى جواره، حاولت "تقي" ألا تثقل بجسدها عليه، واكتفت بمحاوطة صدره بذراعها، سألته بخوف:

-كده بيوجعك؟

رد نافيًا:

لا-

مال برأسه نحوها ليتأمل وجهها عن كثب، راقبها في صمتٍ حتى غفت بجواره ليستمع إلى انتظام أنفاسها، اعتلى ثغره بسمه راضية لقربها منه، تمنى لو ظل كلاهما هكذا للأبد رغم حدسه الداخلي بأن ما حدث اليوم ما هو إلا مقدمة بسيطة لكوارث أخرى ستضع عائلته على المحك وفي مواجهة مباشرة مع مخاطر جمة !!

الفصل الحادي عشر

تحركت نظراته ببطء متأملة وجهها النائم دون أن يصدر أي جلبة لتستفيق من نومتها، أراد "أوس" أن يتمتع عينيه بسحر "تقى" الذي فرضته عليه فصارت إدمانه الذي لا يشبع منه أبداً، حلق أمامه ليفكر بتمعن في الكارثة المسماة "رغد" وهو يزفر مطولاً، فمجرد تذكر حركتها المستفزة التي افتعلتها احترق منزله وكاد يؤدي بحياة الأعلى إلى روحه، وبتريث حريص حرك جسده لينهض من جوارها دون أن يتسبب في إيقاظها، أنزل "أوس" قدميه وسار على مهل إلى خارج الغرفة متجهاً إلى قسم الأطفال الملحق بالمشفى، فقد اشتاق لرضيعته ورغب في الاطمئنان عليها، كان الوقت لا يزال مبكراً، وما إن رآته إحدى الممرضات المسئولات عن متابعة الصغار حتى هبت واقفة، ارتجف صوتها وهي ترحب به:

- "أوس" باشا

أشار لها بسبابته لتصمت، امتثلت صاغرة لأمره وتنحت للجانب متحاشية النظر إلى شخصه المهيب، مشى "أوس" بتؤدة إلى الداخل قاصداً فراش ابنته، ثبت عينيه عليها مستمتعاً بحركاتها العفوية أثناء نومها، أسرته غمغمتها البريئة وتأوهات الصغيرة، امتدت يده لتلمس بشرتها بحذر مضاعف، امتلأ صدره بالارتياح لكونها بخير ولم يصيبها أي مكروه، ابتسمت تلقائياً فتشكل على ثغره ابتسامة صغيرة سعيدة، أحنى رأسه ببطء على جبينها ليطلع قبلة أبوية مطولة عليه، مسد على رأسها بخنو ثم اعتدل في وقفته ملتفتاً نحو المريضة ليسألها:

أخبارها إيه؟

أجابته بتلهف وهي ترتعش من نظراته الصارمة:

بخير يا فندم

ابتلعت ريقها في حلقها الذي جف كلياً لتكمل بارتباك:

أنا موجودة معاها، والدكتورة كل فترة بتيجي تشوفها، يعني حضرتك متقلقش!

هز رأسه بإيماء خفيفة متفهمة دون أن يضيف المزيد ليحرق بعدها في وجه ملاكه الصغير، سحب نفساً بطيئاً لفظه على مهل ثم انصرف من المكان سائراً في الرواق بهدوء، أخرج هاتفه المحمول من جيبه، تفقد على عجالة بريده الإلكتروني الخاص وكذلك المواقع الإخبارية، شعر بالارتياح لعدم وجود أي خبر صحفي نشر عن ذلك الحريق الذي اندلع بمنزله، عبث بأزرار الهاتف ليجري بعض المكالمات الهامة، بدت نبرته جادة وهو يأمر أحد موظفيه:

خلال يومين بالكثير عاوز كل حاجة تكون خلصت، مفهوم!

أنهى المكالمات معه وقد اعتلت شفتاه ابتسامة مغتررة، تتم مع نفسه قائلاً:

أتمنى المفاجأة تعجبك يا "تقى"، معدتش ينفع تتأجل أكثر من كده!

.....

في تلك الأثناء، استيقظت "تقي" من نومتها لتحسس الفراش بجوارها، كان المكان باردًا فانتفضت مذعورة من رقتها فاتحة لجفניה، تلفتت حولها بخوف باحثة عن "أوس"، نهضت عن الفراش متجهة إلى الحمام الملحق بالغرفة، دقت الباب تناديه بتردد:

- "أوس"، إنت موجود؟

لم تجد ردًا من الداخل، فقبضت على المقبض وأدارته لتتفاجأ بخلو الحمام منه، شحب وجهها خوفًا متوقعة حدوث مكروه ما له أثناء غفلتها، شعرت بدقات قلبها تتسابق بداخلها، استدارت متهولت نحو باب الغرفة، وقفت عند عتبة الباب حابسة أنفاسها، ارتخت تعابيرها المشدودة بدرجة كبيرة حينما رأيته مقبلاً عليه بخطا شبه بطيئة في الرواق، ركضت نحوه هاتفة:

- "أوس"

احتضنته دون مقدماتٍ محاولته ظهره بذراعيها لتلتصق أكثر به، استندت برأسها على صدره وهي مغمضة لعينها ومستمعة لدقات قلبه تحترق أذنيها، همست له بتنيدة ساخنة شعر بجزارتها على صدره:

خضتني، الحمد لله إنك كويس

تعجب "أوس" من تلهفها عليه، لم ردة فعل كهذه منها، ومع ذلك شعر بسعادة كبيرة تغمره لكونها تعبر له عن حبها بطريقتها، تهدد بعمقٍ ماسحًا على ظهرها برفقٍ، أبعداها عنه ليتأملها، وضع يده أسفل ذقنها رافعًا وجهها إليه، التوى ثغره بابتسامة عذبة متسائلًا:

للدرجادي خايفة عليا؟

أجابته بندمٍ مقروءٍ بوضوح في عدستها:

-أيوه، أنا السبب في اللي حصل

رد عليها بهدوء:

-انسي يا "تقي"، أنا قدامك واقف على رجلي أهوو

نظرت له بعينين زائغتين مرددة:

-أنا خفت لما ملاقتكش في الأوضة!

تلمس وجنتها موضحًا ببسمة صافية:

-أنا روحت أشوف "حياة"

كان رده مثلجًا لصدرها، فرغم ظرفه الصعب إلا أنه منح صغيرتها وقتًا ليتفقدتها، عادت لتحتضنه وقد تجمعت العبرات عند طرفيها تأثرًا لتقول له:

-ربنا يخليك لينا!

حاوطها "أوس" من كتفيها، لو كان الخيار بيده لما تركها أبدًا، لكنه مضطر لإبقائها في مكان آمن حتى يرتب أوضاعه، ورغم عدم تحببها لتواجدها بذلك المكان الشعبي الشنيع إلا أنه تغاضى مؤقتًا عن نفوره منه ليضيف بلهجة جادة:

-العربة هاتيحي كمان شوية تاخذك عند أهلك يومين، والحراسة هيفضلوا قريبين منك لو عوزتي حاجة

ردت معترضة بخوف:

-أنا عاوزة أفضل جمبك

بدا وجهه صلبًا ونبرته إلى حد ما خشنة وهو يقول:

-مش هارينفع يا "تقى"، وبعدين أنا بقيت أحسن، ده غير إني محتاج أخلص كام حاجة في الشغل

عبست ملامحها أمام إصراره غير القابل للتفاوض، لن تصل من جدالها معه إلى شيء، ظل "أوس" على جديته فأردف محذرًا:

-خلي بالك على نفسك يا "تقى"، إنتي عارفة إني بأقلق عليك من أقل حاجة

أومأت برأسها قائلة بانصياع:

حاضر

أكد عليها مشددًا:

-ولو في حاجة حصلت كلميني على طول، تمام؟

ردت مبتسمة ابتسامة باهتة:

-ماشي

تابع محذرًا:

-ويا ريت محدش يعرف باللي حصلنا عند أهلك، إنتي رايحة تزورهم وبس، اتفقنا

لم تعارضه رغم الامتناع الظاهر على تعابيرها، فهي المخطئة في الأساس، هزت رأسها بالإيجاب، ولم يصف هو المزيد من التعليقات.

.....

بدت مشمئزة وعلامات التأفف واضحة على وجهها الممتعض، ورغم كونها جالسة بمكتب مأمور السجن إلا أن مجرد التفكير في وجود والدها هنا وسط الحثالة وأرباب الإجرام جعلها في حالة استنفار متحفزة، هزت "رغد" ساقها بحركة عصبية خفيفة، دارت بعينها في أرجاء المكتب محاولة تشتيت تفكيرها المشحون، ثم التفتت برأسها للجانب لتطالع الباب الذي فُتح فجأة، نهضت من جلستها غير المسترخية حينما وقعت أنظارها على جسد والدها الهزيل، ازدادت عبوسًا مع رؤيتها لتأثير الحبس عليه، بدا أكبر عمرًا، وأكثر إرهاقًا، أعدت الابتسام لتخفي ضيقها الكبير مستقبلًا والدها بأحضان مشتاقة، حل المأمور أصابع يده المتشابكة لينهض من خلف مقعدها، أردف قائلاً بصوته الأجش الخشن:

-هاسيكم شوية مع بعض وراجع ثاني

ردت عليه "رغد" بابتسامة متكلفة:

-شكرًا يا فندم

انتظرت بترقب خلو غرفة المكتب منه لتهرع إلى والدها، احتضنته مجددًا مرددة باشتياق:

بابا

ضمها الأخير بقوة قائلاً لها:

أخيراً جيتي يا "رغد"، وحشتني أوي

ابتعدت عنه لتأمل ملامحه عن كذب، قرأت بوضوح نظرات الانكسار عليه، أضاف "سامي"
معلقاً باستنكار:

شوفتلي اللي حصلي

ريت على جانب ذراعه قائلة بنبرة موسمية نادمة:

أنا أسفة يا بابا إني مكوتنش جبك الفترة اللي فاتت

ابتلعت ريقها في حلقها المرير لتكمل بوعيد:

بس خلاص أنا رجعت وهاتصرف

عقب عليها بضيق ليضاعف من إحساسها بالغضب:

باباكي متبهدل هنا، وكله بسبب ابن عمك

كزت على أسنانها قائلة عن ثقة:

متقلّش يا بابا، "أوس" أنا هاعرف انتقملك منه بطريقتي، هاخلي حياته جحيم، مش هاعرف

طعم الراحة ثاني

أكد عليها مشدداً:

هردي ناري يا "رغد"، أخوكي "يامن" زي قِلتَه، مايحلش ولا يبربط و...

قاطعته قائلة بازدياء:

ده عيل تافه، آخره الصياغة ويحط نفسه في مشاكل، بجد ندمت إني سدّدته ديونه، كان

المفروض أسييه كده

سألها باهتمام:

هو عرف إنك رجعتي؟

أجابته نافية:

-لأ لسه

ثم تنفست بعمق لتضيف بعدها بنبرة أكثر اهتمامًا أثارت الفضول في نفس أيها:

-بس أنا قابلت "أوس"

بدت الحماسة جلية في نظراته وهو يسألها بترقب:

-وكان ردة فعله إيه؟

لوت ثغرها لتظهر بسمة متهمكة على زاويته وهي تجيبه:

-اتفاجئ طبعا، مكنش متخيل إني هاوصله، وأحرجه كمان، بس اللي جاي معايا أسوأ بكثير

تهللت لمحاته العابسة لتظهر إشراقة مأكرة فيهم وهو يثني عليها مادحا:

-برافو يا "رغد"، إتي كده بنتي، وأنا كمان هاقولك على مين يساعدك أكثر في انتقامك منه

قطبت جبينها متسائلة بفضول:

-مين ده؟

صمت للحظة ليحصل على انتباهها بالكامل قبل أن يحرك شفثيه ناطقا بكلمة واحدة مقتضبة:

-"ناريمان"

انفجرت شفثاها عن اندهاشة عجيبة قبل أن تعلق:

-مرات أنكل "مهاب"؟

أوما برأسه موضحا:

-أيوه، هي مرات عمك

زفر بعدها مكملًا بنبرة ذات مغزى:

هي ما تصدق تلاقي فرصة تنتقم فيها من عيلة "الجندي"، وخصوصًا بعد ما "ههاب" مات ووداها في داهية، وفرصتها هاتكون مع "أوس"

هزت "رغد" رأسها بالإيجاب كتعبير عن إذعانها له لتضيف بعدها بابتسامة شيطانية أظهرت خبثًا مضاعفًا:

-او كي يا بابا، قولي بالظبط حضرتك عاوز إيه، وأنا هانفذه بالحرف!

.....

كانت مهمتها محددة حتى وإن كان المكان لا يليق بما اعتادت على الخدمة فيه، لكنها ستتبع سيدتها أينما ذهبت، أنهت "ماريا" عملها بداخل المطبخ المتواضع في ذلك المنزل الفقير لتخرج منه متجهة إلى الصلاة، ناولت "تقى" زجاجة الرضيعة بعد أن أعدت لها الحليب الاصطناعي بها لتأخذها الأخيرة منها وعلى وجهها ابتسامة امتنان، أخفضت "تقى" نظراتها لتحقق في صغيرتها بحنان أمومي غريزي، رفعت عينيها لتحقق في وجه "ماريا" حينما سألتها بلكنتها العربية المتكسرة:

-في حاجة تانية "تقى" هانم؟

ردت نافية دون أن تختفي ابتسامتها:

-لا يا "ماريا"، كله تمام، تقدري إتي تروحي، خلي بس حد من الحراسة يوصلك لبيتك ارتسمت تعابير الارتياح على وجه الخادمة التي ستتجنب عناء العودة إلى المنزل من تلك المنطقة النائية، ابتسمت مرددة:

شكرا سيدي

انصرفت بعدها لتعلق "فردوس" -الجالسة بجوار ابنتها على الأريكة- ساخرة:

عشنا وشفنا، خدامة ألفرانجا عندنا هنا، لأ وبتقولك يا هانم، عجائب!

نظرت "تنقي" إلى والدتها بعبوس ملحوظ من طرف عينها، كانت مستنكرة طريقتها في التعليق على ظواهر الأمور، ومع ذلك ردت بهدوء عليها تكف عن ذلك الأسلوب:

- "أوس" يعمل اللي عليه عشان أكون أنا وبنتي مرتاحين

مطت "فردوس" فمها مكلمة:

تلاقيا بتاخذ بالدولار، ماهو اللي زي دي ماقبضش ملاليم!

زفرت مرعدة بتجهم:

معرفش يا ماما

مصمصت أمها شفتها مغممة بسخط:

حسرة علينا احنا، إن ما هالين عليه يطلع قرشين من جيبه أتعالج بيهم، مستخسر في خالته ترجع تشوف تاني

نظرت لها باستياء، فدوماً تلجأ للشكوى والسخط والازدراء من حياتها المتواضعة، حتى طريقتها في طلب المساعدة تجبر الغير على النفور منها، انتهت فجأة إلى الأصوات الصاخبة بالخارج فتساءلت:

هو في إيه؟

ردت عليها "فردوس" بفهم ملتو:

هناخد إيه من الحطة دي غير الخناقات والمصايب اللي مابتخلصش

أشاحت بوجهها بعيداً عنها لكن حدة الأصوات والصراخ المرتفع دفعها للنهوض من جلستها لتعرف ما الذي يدور، رفعت صغيرتها إلى صدرها ثم دنت بها من الشرفة لتطالع بفضول مثل باقي أهل المنطقة الشعبية ما يحدث من شجار محترم لزوجة غاضبة تسب وتلعن وهي في أوج ثورتها، رأت قبالتها "بطة" و"هالة" تراقبان ما يحدث فلوحت لهما بيدها، بادلتها الاثنتان ابتسامة مرحبة ثم تركزت الأنظار كلها على المشاجرة، هاجت المرأة صائحة بنبرة جمهورية:

-انزل يا حيلتها وخلي الناس تتفرج على المسخرة اللي بتحصل في بيتي
تجمهر المارة على إثر صراخها اللافت ليتحول المكان في أقل من ثوانٍ معدودة إلى تجمع كبير،
تابعت المرأة صياحها قائلة:

-بقى أسافر يومين لأهلي في البلد أرجع الآتي البيه جوزي بيخوني مع واحدة "....!"
صدرت جلبة وهمهمات جانبية بين جموع المتفرجين، شعر زوج تلك السيدة الحاققة بالحرص
الشديد من فضح أمره هكذا علنًا، وبخها بخشونة وهو يلوح بذراعه من أعلى النافذة مهددًا
إياها:

-اسكتي يا ولية بدل ما أجيبك من شعرك
نزعت المرأة حجاب رأسها دون أكثرات بنظرات من حولها، رmqته بنظراتها النارية المشتعلة
وردت عليه بتحدٍ سافر:

-أهوو يا ادلعدي، عريته عشان الناس تتفرج كمان
ثم صفقت يديها لتلفت الأنظار أكثر وهي تكمل:

-تفرجوا يا ناس، والله لأفضحك وسطهم، خليم يعرفوا العرة اللي متجوزاه
لم يتحمل الزوج المزيد من الإهانات القاسية فأوحد النافذة متوعدًا إياها بالرد العدائي الشرس
في الحال ليحفظ ماء وجهه، حاولت بعض النساء التدخل لمنعها من تصعيد الأمور لكنها أبت
ألا تقتص لكرامتها الأنثوية، فيمكن للمرأة أن تتحمل كل شيء، الفقر، العوز، ضيق اليد،
الظروف المعاشية القاسية، فيما عدا الخيانة، لا يمكن أن تقبلها مطلقًا، ستقاتل من أجل
استرداد كرامتها ورد اعتبارها، تحفزت تلك المرأة لمواجهة منذرة بالكثير من التطاول باليد
والألفاظ، لم تعبأ بتبعات ما ستلاقيه، المهم أن تفضح ذلك الزوج الخائن، لمحت بعينها المتقدتين
إحدى النساء وهي تتسلل من مدخل البناية، التقطت نظراتها بها فأيقنت أنها اللعينة اللعوب
التي مارست البغاء مع زوجها، وبدون ذرة عقلانية ركضت كالمجنونة نحوها، تمت تلك العاهرة
لو أفلتت منها قبل أن تنالها قبضتها، لكن حظها العثر أوقعها في براثن زوجة تشتعل غضبًا،
أمسكت الزوجة بكتلة من شعرها تجذبها منه لتدفعها أمام الحشد المتجمع صارخة بهياج:

فكرك مش هاعرفك يا، ده أنا أطلعك من وسط ألف يا زبالة!

أوقعها أرضًا ثم جثت فوقها لتضرها بكفيا وبخفها على مواضع مختلفة من جسدها لاعنة إياها بكلمات نائية فاضحة، ثم رفعت عينها مكملة:

مش سيباكي يا بنت الحرام

صرخت المرأة الأخرى مستغيثة بمن ينجدها، لكن فضل الأغلبية مشاهدة التلاحم الجسدي بين المرأتين بجمرة، فساقطة مثلها تستحق الرجم، هكذا حكمت عليها نساء المنطقة بتشيف ظاهر في نظراتهن نحوها، أفرغت الزوجة شحنتها الثائرة فيها ثم نهضت عنها لتمسك في تلايب الزوج الذي خرج من مدخل البناية قاصدًا ضربها لتطاولها عليه وفضحه، عند تلك النقطة تدخل "منسي" مدعيًا الشبهة وهو يقول بجدة:

ما تلموا نفسكم، كفاية فضايح!

فقد لمح الأخير بطرف عينه "هالة" وهي تقف بجوار أختها ووالدتها في شرفة منزلهن بالطابق العلوي، طمع في إثارة إعجاب أمها ليستحوذ بدهاء مدرّوس على عقلها فتظن أنه رمزًا للرجولة والشجاعة والتصرف في المواقف الشائكة، عاد من شروده السريع على صوت المرأة الغاضب وهي تقول:

مش سيباه المفضوح ابن المفضوحة، جايب واحدة زي دي تنام في فرشتي و...

قاطعها زوجها بتويخ:

محروق أبوكي إتي وهي و...

نهره "منسي" بخشونة عنيفة:

ما تلم نفسك، يعني العيب راكبك من ساسك لراسك وجايلك عين تتكلم كده وتزم في مراتك، احترم الرجالة اللي واقفة!

رد عليه بتدمر:

يا عم "منسي" دي ولية حيزونة ماتتعاشرش

استشاطت الزوجة غضبًا من إهائته الصريحة لها فهدرت به:

-وايه يا روح أمك الي جابرک علی کده؟ ارمي عليا اليمين خليني أخلص من قرفك
في تلك الأثناء، رأت "هالة" نظرات "منسي" غير المريحة لشخصها تحديدًا، ومطالعتة لها عن
قصد فانتابها قشعريرة مريبة أجفلتها ولبكت بدنًا، أحست لوهلة أنه لا ينتوي خيرًا لها،
انسحبت للداخل آملّة في نفسها ألا يكون ما شعرت به حقيقيًا، ما كانت تخشاه بحق هو
انسياق والذتها وراء لهفة الزواج لتوقع بها مثل أختها الكبرى مع بغيض مثله، همست لنفسها
برجاء:

-يا رب ابعده عني، قلبي مش مرتاح!

بعد برهة، وعقب انتهاء المشاجرة، دخلت أختها للغرفة متعجبة مما رآته، لم تنتبه لها "هالة"
وظلت على وضعيتها الشاردة، لاحظت "بطة" عبوسها فسألتها مهتمة:

-مالك؟ سرحانة في إيه كده

-نفخت مطولاً قبل أن تجيبها بفتور:

-مافيش حاجة

جلست بجوارها على الفراش مضيفة بتهكم ساخر:

-ياما هانشوف في الحتة العجب دي، كل بيت محبي وراه بلاوي

لم تعقب عليها وادعت الإصغاء لثرتها دون أن تشارك في التعليق، هتفت "بطة" مقترحة
بجاس:

-بأقولك ايه ما تيجي نعدي على "تقي" تقعد معاها شوية؟

جمدت عينها عليها لتفكر في اقتراحها الذي ربما قد أتى في وقته، فهي بحاجة للترويج عن
نفسها، سألتها بامتعاض وقد تذكرت محامها في ترتيب المنزل وغيره من المشاق التي لا تفرغ منها:

حطب وأمك؟ ما إتي عارفة مش هترضى و...

قاطعتها بثقة:

دي نص ساعة، وبعدين هو احنا هנסافر، دي قدامنا، يعني فرقة كعب!

أومأت برأسها موافقة:

ماشى

فربما في تلك الزيارة القصيرة ما قد ينسيها قلقها المزج بشأن ملاحقة "منسي" لها.

.....

استقبلت ضيفتها بحفاوة كبيرة واصطحبتها إلى داخل غرفتها لتجلس ثلاثتهن بارتياح وبعيداً عن تلصص والدتها، خاصة إن أردن الحديث عن بعض الأمور الشخصية، حدثت "تقى" في الرضيع "إسلام" الذي غفا بجوار ابنتها على الفراش لتقول بابتسامة مرحة:

ما شاء الله، ابنك كبر يا "بطة"، ربنا يباركك فيه

ردت عليها "بطة" بتنهيده مطولة طوت الكثير من معاناة سابقة:

يا رب، ده ربنا كرمني بيه بعد اللي حصلني من حماقي، الله يرحمها بقى، مع إنها ماتستهلش الرحمة

علقت عليها "هالة" بعتابٍ لطيف:

انسي يا "بطة"، كله بيعدي

أخرجت زفيراً ثقيلاً من صدرها قائلة لها:

الحمد لله

تساءلت "تقى" باهتمام:

واتي عاملة إيه يا "هالة"؟ كله تمام معاكى؟

أومأت برأسها قائلة باختصار:

أيوه

أضافت "بطة" بحمايس مادحة أختها الأصغر:

عاوزة أقولك البت "هالة" شاطرة أوي في دراستها ومذاكرتها، كان نفسي أكون زيها، بس هي
إن شاء الله تكون أحسن مني وتخش الكلية
ردت عليها "تقي" بتفاؤل:

ربنا يوفقك يا حبيبتي

امتعض وجه "هالة" قليلاً وهي تتمم بيأس مقروء:

لو أي تشيلني من دماغها هاقدر أعمل حاجة، بس أنا بصراحة مش مطمئة، قلقانة منها
ومن دماغها

سألتها "تقي" مازحة:

ليه؟ أوعى تكون ناوية تجوزك بدري بدري؟

عبست كلياً وهي تجيبها بحزن:

حاسة إنها عاوزة تعمل كده

اندفعت الدماء في وجه أختها لتقول بقوة رافضة تكرار تجربتها الفاشلة والزج بها مع زوج يدمر
مستقبلها ويقضي على طموحاتها وأحلامها القادمة:

أنا هاقفلها، مش هاميل بختك زي، ركزي بس في مذاكرتك وربك هيكرم

تصنعت الابتسام وهي ترد:

يا رب

اندجحت ثلاثتهن في الحديث عن أمور جانبية حتى بدأ الرضيع "إسلام" في التملل في الفراش،
بحثت "بطة" عن حليبه الخاص لتطعمه، لم تجده في حقيبتها الواسعة، رددت متسائلة بتوتر:

الله، فين الرضعة بتاعة "سمسم"؟!

أجابتها "هالة" على الفور حينما فشلت في إيجادها:

باين نسيناها، هاروح أجيها وأرجع على طول

أضافت "تقى" قائلة بجدية:

حطب ما أنا عندي لبن صناعي بتاع "حياة"، أجيلك منه؟

ردت عليها "بطة":

مش بيرضى يشرب أي حاجة، متعود على اللي ضاكتور كاتبه

هبت "هالة" واقفة على قدميها لتقول بهدوء وهي تشير بيدها:

أنا هاروح أجيها وأرجع

لوحت لها بيدها مؤكدة:

متأخر يش بدل ما يصحى، ويزن، ويفقل دماغنا من العياط

هزت رأسها مرددة:

حاضر

ثم أسرع بضبط حجاب رأسها عليها لتخرج بعدها من الغرفة قاصدة العودة إلى منزلها في

البنية المقابلة، مالت "تقى" على صديقتها لتقول لها:

بالمناسبة، "أوس" ناوي يعمل حفلة عيد ميلاد لـ "حياة"، هتكمل سنة كمان كام يوم

تهللت أساريرها قائلة برجاء:

ماشاء الله، عقبال 100 سنة يا رب

ردت عليها بامتنان:

يا رب إن شاء الله، إنتو معزومين عليه

بهت ملاحظتها قليلاً من عرضها المغربي بحضور حفل طفلتها، بالطبع لن يخلو من مباحج الحياة ومظاهر الثراء التي ستفتن حتماً من يراها، ناهيك عن شعورها بالضالة والفقر بين أثرياء القوم المدعويين له، لذا ردت معذرة بحرج:

هو احنا أد المقام، جوزك بيه كبير و....

قاطعتها "تقى" بإصرار:

على فكرة "أوس" هو اللي قايلي أجيب كل أهلي، هو عاوز كده، وأنا حابة تكونوا كلكم معايا

ابتسمت قائلة:

-ربنا يخليولك

ألحت عليها بجدية لتجعل الرفض خياراً غير متاح:

هستناكو تنوروني

فركت "بطة" جانب عنقها لتقول:

-ربنا يسهل

تصنعت العبوس وهي تضيف:

-والله هازعل لو مجتوش

لم تجد بداً من الرفض أمام إصرارها العنيد، تهتت قائلة باستسلام:

حاضر يا حبيبتي، هو أنا أتأخر عليك!

لمعت نظراتها ببريق متحمس لشروعها فعلياً في الترتيب والدعوة لجيرانها والأقرب إليها لحضور ذلك الحفل، اتسعت ابتسامتها هاتفة:

تسلمي يا رب

تسمرت قدماها عند مقدمة الدرج بعد أن أغلقت الباب خلفها لتجد آخر من توقعت رؤيته أمامها يطالعها بنظراته غير البريئة، جف حلقها وهربت الدماء من عروقها، بحثت "هالة" عن أي مهرب لها منه لكنها لم تجد، ودت لو تأخرت في ارتدائها لحذاءها لبضعة دقائق لما كانت رآته على الإطلاق، لكن سوء التوقيت وضعها في لحظة لا تُحسد عليها، تقوس فم "منسي" بابتسامة كريمة لها، اعترته حالة من الانتشاء العام وهو يجوب بنظراته على كل جزء فيها، تقدم خطوة على الدرج مردداً:

ده أنا حظي من السما إني شوفت القمر هنا

مقتت طريقته السمجة في التغزل بها، رفعت رأسها في إباء متجاهلة ما قاله، صعد الدرج ليصير في مواجهتها، شعرت "هالة" أنها حُصرت منه، نظرت بتوترٍ له، تراجعت بخوفٍ للخلف لتتأى بنفسها بعيداً عنه، همس لها بأنفاسه الكريمة:

-بتبعدي ليه يا قطة؟ ده حتى القرب حلو

خرج صوتها مهزوزاً وهي تحذره:

-وسع خليني أنزل

نظر لها بجراءة متسائلاً بنبرة عبثية وقاصداً إرباكها:

-ولو موسعتش؟ هتعملي إيه؟!

وجدت "هالة" نفسها ف مأزق حقيقي، خشيت من تجرؤه عليها باليد ومحاولته لتلمسها عنوة مثلاً فعل سابقاً، ما أنقذها من شره المستطير هو ظهور ذو الهيبة والقوة بالخلف ليتساءل بثبات:

-في إيه بيحصل هنا؟

تحركت أنظارها على شخص "أوس" المهيّب، الذي بدا في تلك اللحظة بالذات طوق النجاة بالنسبة لها، تنفست الصعداء لوجوده، بل لوهلة تلاشت مخاوفها مع حضوره الطاعني الذي يفرض مهابة تلقائية على الجميع، قرأ الأخير في نظراتها خوفاً جلياً وارتباكاً مدعوراً خاصة حينما

تحركت حدقتها عفوياً لتشير إلى وجه السمج "منسي"، وهدوئه الواثق اعتلى "أوس" الدرجات بخطى ثابتة ليقف بجواره رامقاً إياه بنظرات شرسة تحمل عدائية صريحة، وضع يده القوية على كتفه وكأنه يثبتته في مكانه متسائلاً بنبرة جادة لكنها جامدة:

-بتعمل إيه عندك؟!

.....

الفصل الثاني عشر

رمقه بنظرة عدائية صارمة لا تحمل إلا تهديداً صريحاً بالفتك به دون إبداء ذرة ندم واضحة إن تجرأ وفكر في تحديه باللفظ أو الفعل، هكذا اعتاد التصرف بخشونة والظهور بمظهر القوة والشموخ، قست نظرات "أوس" وتحولت لمحاته لمزيج من القوة والشراسة وهو يجوب بعينه الصارمتين وجه المقيت "منسي"، سألّه مجدداً بلهجة خشنة:

-جاي هنا ليه؟

ازدرد الأخير ريقه محاولاً استجماع شجاعته الفارة أمام خصمه الشرس الذي لا يعرف للتفاهم مصطلحاً في قاموسه، شعر بقبضته الشديدة تضغط على كتفه لتشعره بفارق القوى الجسمانية بينهما، بل وبترجيح الكفة لصالحه إن فكر في معاداته، تشجع قائلاً بنبرة شبه مهتزة:

-أنا.. طالع شقتي

ثم حانت منه التفاتة سريعة نحو "هالة" التي كانت مشدوهة بما يحدث، استشاطت نظراته من إذلاله بتلك الطريقة، ومع ذلك كظم غيظه كي لا يزيد الطين بلة، عاد ليحدق في "أوس"

بتوتر، فهيئته المصطنعة على المحك، وربما ستضيع كلياً إن أخطأ في انتقاء كلماته أمامه، لوى
"أوس" ثغره مردداً باستهجان وقد ارتفع حاجبه للأعلى:

-شقتك!

أوماً برأسه موضحاً بحذر:

-أيوه، أنا ليا لي شقة هنا!

سأله باستنكار:

-ومن امتي الكلام ده؟

رد بتجاوزٍ طفيف قاصداً إظهار شجاعة زائفة أمام "هالة" التي كانت تتابع المشهد بينهما بذهول
صادم:

هو حرام ولا إيه؟ أنا ماشي بالقانون، مأجر شقة زي أي حد ما يعمل

رد عليه "أوس" بغلظة:

-وايه اللي موقفك هنا؟

تعقدت ملامحه مدعيًا بالكذب:

-باخد نفسي زي مخاليق ربنا!

بدا "أوس" غير مقتنع برده الأخير، ردد باقتضابٍ دون أن يرف له جفن:

-هنا!

هز رأسه بإيماءة خفيفة قائلاً:

-أيوه، السلم قديم ويهد الحيل

ربت "أوس" على كتفه بقوة قاصداً إيلاجه ليضيف بعدها بنبرة ذات مغزى وقد بات صوته

خشناً على الأخير:

هاعمل نفسي مصدقك

ثم سأله مباعثًا وهو يشير بعينه نحو "هالة":

بس مالك بقي بيها؟!

شعب لون وجهه ربعًا من سؤاله الأخير الذي أكد له أنه مكشوف كليًا أمامه، تصنع الغباء متسائلًا:

تقصد مين؟

رد بغموض:

إنت فاهمني كويس

نظر "منسي" بطرف عينه إلى "هالة"، في لمحة بصر استطاع أن يرى الثقة قد عادت إليها، وربما القوة بعد أن كانت كالفرخ المذعور ترتجف منه، وبحسبة سريعة أيقن أن الموقف ليس في صالحه، لذا أجاب بعدم أكثر:

دي ... دي بت عيلة من الحتة، هابصلها على إيه، وبعدين أنا مجتش جمبها

لم يصدق "أوس" حرفًا واحدًا مما قاله، ومع ذلك رد بهدوء مريب حمل التهديد الصارخ:

تمام، خليك فاكر كلامك ده كويس، عشان لو كان غير كده هيبقالى تصرف تاني

فغر "منسي" فاهه بتوترٍ من أسلوبه المنذر بالشر، لكزه "أوس" بعنفٍ في كتفه كنوعٍ من إزاحته عن طريقه، وراقبه وهو يكمل صعوده على الدرج، لم يتجرأ الأخير على رفع نظراته نحو "هالة" التي انزوت في الجانب لتتحاشى اقترابه منها، غمغم "منسي" بغیظ مكتوم مع نفسه:

فاكر نفسه اشترانا ولا إيه؟

اختفى بعد لحظات في الطابق العلوي مدعيًا أنه ولج إلى منزله، لكنه بقي في مكان خفي لا تلتقطه الأعين ليختلس النظرات ويتلصص عليهما، راقبت "هالة" وجه ذلك المهيّب بنظرات جمعت بين الخوف والرغبة والاحترام والامتنان، تحركت شفاتها لتبرر فبدت كلماتها متلعثمة:

-أنا .. هو ..

قاطعها "أوس" بجدية تامة دون انتظار أي تفسير منها على سبب خوفها:

-تقدرني تنزلي

ثم تنحى للجانب ليفسح لها الطريق لتمر من جواره، وقبل أن تهبط على الدرج رمقته بنظرة ممتنة هامسة له:

-ش.. شكرا

التقطت أذناه صوتها الخافت ولم يعلق عليها، وقف أمام باب المنزل يقرع الجرس منتظراً فتح من الداخل له، تنفست "هالة" الصعداء مرددة بارتياح وكأن هماً ثقيلاً قد أزيح عن صدرها:

-الحمد لله يا رب

غلت الدماء في عروق "منسي" وشعر بأنه قد تلقى صفعه مؤلمة على مؤخرة عنقه هزت من صورته أمام تلك الفتاة التي لا حول لها ولا قوة لتزيد من جذوة غضبه بداخله، كرز على أسنانه هامساً بتوعدٍ وقد تحول وجهه لكتلة دموية ملتهبة:

-مش هاعدي اللي حصل على خير، مش سايبك النهاردة يا بت ال.....، لازم تعرفي "منسي" يبقى مين!!

انتظر على موقدٍ مشتعل ولوج خصمه اللدود للداخل ليهرع خلف "هالة" قاصداً إرعاها لتدرك أنه لا مناص لها منه.

.....

تفاجأ بها تحديداً تفتح له الباب، لم يجبذ أن تكون الوجه الذي يتطلع إليه عند زيارته للمنزل، لكنه مضطر للتعامل معها حتى وإن كره ذلك، امتنع وجهه لرؤيتها رغم محاولاته المضنية تجاوز ما فعلته مع زوجته وتآمرها مع والده الراحل للتخلص من طفلتها قبل أن تولد في صفقة مشبوهة بقيت آثارها عالقة بالذاكرة، لا زالت بذرة الحق نحوها موجودة بداخله بالرغم من

مرور الوقت، فالغفران يتطلب إرادة من حديد للحصول عليه، زفر "أوس" متسائلاً بجفاء مسموع:

- "تقى" صاحبة؟

تحسست "فردوس" طريقها للداخل وهي تترك له المجال ليتبعها، عمدت إلى التباطؤ في خطواتها والتكؤ لتشعره بالضجر والامتعاض، أجابته بتعجب زائف:

- أيوه، أهي أعدة مع جارتها جوا

ألقت بثقل جسدها على الأريكة لتضيف بتذمر:

- وأنا العاجزة بأخدم عليها وعلى اللي بيحولها

امتقع وجهه من كذبتها الزائف، ثم رد بوقاحة ليوقفها عند حدها قبل أن تتماذى في تصديق أكاذيبها:

- بيتيألي بلاش إتي تقولي الكلام ده، لأني مش هاصدقه، وأظن أنا باعت اللي يشوف طلباتك

علقت عليه بقلة حيلة:

هو يعني أنا أنكرت؟ بس بيحي عليا وقت أحس فيه بالعجز، وإنت ...

بترت عبارتها عن عمد لتثير فضوله، تعمدت التنفس بعمق قبل أن تواصل شكواها:

مستخسر تطلع كام ألف أتعالج بيهم

احتقنت نظراته من أسلوبها الفج في طلب المساعدة، وما أغاظه أكثر استرسالها بالقول:

- إيش حال ما كنت خالتك وجدة بنتك، ده حتى الناس بتعيب على جوز بنتي بخله وهو معاه أد كده!

اغتاظ من محاولتها الفاشلة لابتزازه عاطفياً، كان تجاهلها هو الرد الذي تستحقه كي يحافظ على هدوئه قبل أن يتهور أو يتناول عليها ويسمعها من الكلمات ما يخرسها للأبد، تحرك ليقف على بعد خطوات من باب غرفة "تقى" الموصود ليهتف عالياً:

- "تقى"!

انتبهت الأخير لوجوده بالخارج، فردت عليه:

- "أوس" يا "أوس"

فهم الأخير دون السؤال مباشرة عن احتمالية جلوسها بأريحية مع رفيقتها التي ربما تكون مثلها، لم ينطق بالمزيد واكتفى بدس يديه في جيبي بنطاله الداكن، تخرجت "بطة" كثيراً من حضوره المفاجئ، أسرعت بوضع حجاب رأسها عليها بإهمال مرددة:

يادي الكسوف

ردت عليها "تقى" مبتسمة:

- خدي راحتك يا "بطة"، "أوس" مش هايدخل دلوقتي، هو فاهم إن معايا حد

علقت معترضة بحرج أكبر وهي تضبط عباءتها التي انكشت على ثنايا جسدها:

- معلش بردك، ده جوزك وتلاقية عاوزك في كلمتين ولا حاجة، أشوفك وقت ثاني

ثم أقبلت عليها لتودعها وانحنت حاملة رضيعها "إسلام" بين ساعديها، أكدت عليها "تقى" بإصرار:

- ماتنسيش، هستناكو في عيد ميلاد "حياة"

ردت عليه بنبرة متعجلة:

- إن شاء الله، مع السلامة

أدارت "تقى" المقبض لتفتح باب الغرفة، كانت نظراتها الأسبق في البحث عن زوجها بالخارج، لمعت حدقتها بوهج مميز مع رؤيته، استقبل "أوس" نظراتها بسعادة لتنسيه الحديث المكدر لوالدته، تنحنت "بطة" قائلة بوجه منخفض وهي تسرع في خطواتها:

سلامو عليكم

لم تنتظر الرد منه، بل أكملت سيرها إلى الخارج، تعلق نظرات "تقى" بوجهه الذي افتقدته ليومين، ارتسم على شفتيها ابتسامة صغيرة عكست شوقاً خجلاً وهي تطالعه من على بعد مستندة بيدها على باب الغرفة، استطردت قائلة بهدوء مصطنع:

أخبارك إيه؟

أجابه باقتضاب:

تمام

تجاهل "أوس" وجود والدتها وتقدم في خطواته متجهاً نحو غرفتها، رمقته بنظرة ذات مغزى تلفت انتباهه لتواجد أمها على مرأى ومسمع منها، لم يكثرث بها من الأساس، واستمر في تقدمه حتى بات قبالتها، منحها نظرات مئمة أظهرت توقه إليها، لف ذراعه حول خصرها ليجبرها على التحرك معه للداخل وقد شعر بتلك الرجفة المرتبكة التي اعترتها لكونها تخشى من تركيز والدتها معها، استمر في سمحه الرقيق لها وعمد إلى صفق الباب بقوة ليزيد من حق "فردوس" التي كانت نيران غيظها تأكلها، لفت "تقى" ذراعيها حول عنقه متعلقة به، رمشت بعينيها هامسة بارتباك:

ماما برا و....

قاطعها متمماً بخفوت:

وحشتيني

أكد اشتياقه لها بقبلة عميقة على شفتيها نقلت إلى وجدانها مشاعره المتأججة بحبها الجارف المتشعب في كيانه، أغمضت عينيها مستسلمة لذلك التأثير المغربي المخدر والمحفز في نفس الآن

لأحاسيس عظيمة، قطع لحظتها الخاصة غممة الرضعة "حياة"، تراجعت "تقى" برأسها لتلتقط أنفاسها، تأمل "أوس" صفحة وجهها التي توردت بدموية مغرية، تلمس بيده بشرتها فاستشعرت تلك السخونة على يده، تهدد قائلاً بنبرة هادئة لكنها جادة:

-جهزي نفسك، همنشي دلوقتي

ارتفع حاجباها للأعلى متسائلة باندعاش:

-دلوقتي؟!

أجابها مؤكداً بغموض:

-أيوه

سألته باستغراب:

-هانروح فين؟

تشكل على زاوية فمه ابتسامة عيثة وهو يجيبها:

-هاتعرفي كمان شوية

ازدادت حيرة من جملته تلك فرددت متسائلة بجدية وقد بدت تعابيرها قلقة نوعاً ما:

-ده سر؟

لمحت تلك البسمة المتسلية التي ضاعفت من غموض الموقف على فمه قبل أن يرد:

-لا مفاجأة

أومأت برأسها مستسلمة:

-ماشني

ابتسمت له قبل أن تنسل من أحضانه لتنفذ مطلبه على عجلة، راقبها "أوس" باستمتاع وهي تنحني لتجمع متعلقاتها الخاصة وبعض الأشياء التي تخص طفله في الحقائب، جلس على الأريكة مركزاً بصره عليها لتشعر بنظراته تحاصرها وهي متأكدة في قرارة نفسها أنها نظرات

مليئة بالرغبة، أرادت أن تعبث معه فتمايلت بميوعة ودلال لتستفز مشاعره الذكورية، أدرك ما تفعله فتقوس ثغره بابتسامة مأكرة، تركها تتماهى في دلالتها المغري هامساً لنفسه بتأكيد متحمس:

كل حاجة وليها وقتها

.....

هرولت عائدة إلى البناية المقابلة وهي في حالة انتشاء جلية، لم تشعر "هالة" بمثل ذلك الارتياح من قبل، فقد ألقاها وجود ذلك المهيّب ذو السلطة من مضايقات "منسي"، بل وأوهما أن ما فعله معه من تحذير ضمنى سيردعه وربما يمنعه عنها، لكنها كانت مخطئة في حساباتها، لحق بها من تبغضه قاصداً تبديد أفكارها، تفاجأت على حين غرة منها بمن ينقض عليها من الخلف ليمسك بها بذراع قوية التفت نحو خصرها، ويبيد تكلم فيها فمنعتها من الصراخ، وجدت "هالة" نفسها مرفوعة عن الدرج، وقدمها عاجزتان عن ملازمة الأرض، ارتعدت أوصالها بالكامل وقفز الرعب في قلبها.

لحظات وكانت تهبط الدرج متجهة إلى الزاوية المظلمة عند المدخل حيث تتواجد المناور الخلفية بصحبة ذلك الغريب، راودتها هواجس مرعبة، شعرت بألم كبير يضرب ظهرها حينما تم إصاقتها بالجدار القديم، انحبست تأوهات المكثومة في جوفها، رفعت رأسها للأعلى لتطالع من تجراً على فعل ذلك في وضخ النهار دون أدنى تفكير في عواقب طيشه، حدقت بعينين متسعيتين في هلع بوجه "منسي" المشحون غضباً، تضاعف خوفها أضعافاً مضاعفة من نظراته التي أفرعتها، ضغط بيده على فمها هامساً من بين أسنانه بغل:

متفكرش إن البيه ده هيجميكى مني

اغرورقت مقلتاها بعبرات مذعورة من حديثه، أحست بتلاشي ذلك الإحساس المطمئن الذي غمرها لثوانٍ في لحظة، ارتجف بدنّها بالكامل من كلماته المهددة لها، زاد "منسي" من ضغطه متابعا:

إنتي هنا في حتتي، وملكيش محرب مني!

بكت رعبًا من همجيته المخيفة لها، رمقها بنظرة مخيفة عكست ظلامًا قادمًا وهو يكمل:

-وقريب هتعرفي ده، خليكي فاكرة، "منسي" مش عضمة طرية، أنا سيد الكل هنا!

كادت "هالة" أن تفقد وعيها من شدة الخوف، أرخى يده عنها ليتأمل الحالة التي تركها عليها مستعيدًا باستعراض قوته عليها جزءًا من بعثرة كرامته قبل برهة، حدجها بنظرات جائعة تحمل رغبة في اقتناص الفرصة والنيل منها، ما أنقذها منه هو صوت الهمهمات النسائية القريبة، أسرع "منسي" مختفيًا من المكان لتشعر بأن الأرض تميدها، انهارت على الأرضية بأكية بحرقه وهي شبه متيقنة بأن الخلاص منه أمرًا مستبعدًا.

.....

رقصت بميوعة متمعدة إثارته بمفاتنها الظاهرة من أسفل ثيابها الخليعة لتجبر عيناه على عدم مفارقة جسدها، هي تجيد مثل تلك الأمور ببراعة لتترجح ماديًا منها، فرك "يامن" جانب عنقه ممتًا عيناه بما هو محرم عليه، دنت منه الفتاة العابثة وهي شبه مترنحة في خطواتها بفعل الإرهاق والخمر الذي عبث برأسها، مد يده ليمسك بمعصمها ثم جذبها بقوة لتسقط على حجره، همست له بنعومة زائدة:

-بالراحة يا بيه، أنا مش أدك!

تفرسها بنظرات جريئة قبل أن يقول لها:

-هو أنا عملت حاجة لسه

أحنى رأسه عليها ليقبلها بشراهة، فبادلته قبلات حميمة عميقة تزيد من لهيب الموقف، توقف فجأة عما يفعل حينما سمع قرع الجرس، تراجعت الفتاة عنه لتسأله بتوتر:

-هو إنت مستني حد

رد ببرود:

-هيفرق معاكي؟

أجابته بتخوف وقد اختفى لون وجهها:

أصل لو حد شافني و....

قاطعها بجفاء قبل أن يزيحها عن قدميه لينهض:

خشي جوا

لملمت سريعاً ثيابها المبعثرة راكضة للداخل في حين سار "يامن" في اتجاه الباب ليفتحه، بهتت
تعايره بشكل كبير وقد أطلت "رغد" بوجهها الصارم ونظراتها المشمزة عليه، ردد مصدوماً:

إمتي

دفعته بتأفف من كتفه لتمرّق إلى الداخل وقد رأت الحالة الفوضوية التي عليها المنزل، نظرت له
شزراً من طرف عينه قبل أن تحرك شفيتها لتتطرق بتهكم:

هو ده اللي ضحكك عليك "أوس" بيه؟

سألها بضيق وهو يحاول تجاهل تلميحتها الأخير:

رجعتي إمتي؟ وليه معنديش خبر؟!

اقتربت من الطاولة الزجاجية الصغيرة المليئة بكؤوس الخمر وبعض المسليات، ألقت نظرة
شاملة على ما فيها، بدا وجهها متأففاً وعلامات الامتعاض جلية عليه، التفتت نحوه لتقول له:

خلي السافلة اللي هنا تمشي!

ابتلع ريقه محاولاً الظهور بثباتٍ أمامها، لكنها دوماً تكشف أمره بسهولة، رد بتردد شبه ملحوظ
وقد توترت نظراته:

معنديش حد

منحته نظرة احتقارية قبل أن توليه ظهرها، لم يكن غريباً عليها تصرفاته المتجاوزة، فليست
تلك المرة الأولى التي تضبط عنده ساقطات أو عاهرات يقضي معهن وقته وينفق ما معه
عليهن، تحركت للأمام باحثة عن العاهرة المختبئة بالداخل، أمسكت بكتلة من شعرها تجذبها
بشراسة نحو الصالة صارخة بها بسبابٍ لاذع:

-ياكي تيجي هنا ثاني يا!

خشيت الفتاة العابثة من افتضاح أمرها وربما اقتيادها للقسم الشرطي إن تحدثها، فهرولت هاربة من المكان دون تلقى باقي أجزائها، زفر "يامن" بضيق لتصرفها الفظ معه، وبخته قائلة بازدرأء:

-ده اللي فالح فيه!

صاح مغتآظًا من تسلطها عليه:

-والله أنا حر، أعمل اللي أنا عاوزه، ملكيش إتي فيه

نفضت أناملها معًا مظهرة له نفورها من تلمس الفتاة، ثم جلست على الأريكة واضعة ساقها فوق الأخرى، جمدت عينيها القاسيتين عليه ليشعر "يامن" بأن عودتها تحمل مصائب جمّة سيكشف النقاب عنها عما قريب، أضافت قائلة بهدوء مخيف:

-مش هنتحاسب على قذاراتك دي!

صمتت للحظة لتتابع بعدها بغموض:

-أنا جاية لحاجة أهم !!

.....

الفصل الثالث عشر

بعنجهية وخطرة اعتادت أن تكونا سمتها المقروءة على تعابير وجهها حتى باتت قاعدة أساسية في التعبير الصامت لسيما، نظرت "رغد" إلى أخيها المشدوه بحضورها المريب بنظرات جامدة تحمل الازدراء والتأفف، بادلها نظرات مزعوجة من وجودها غير المرغوب فيه، ألقى "يامن" بثقل جسده على الأريكة المجاورة لها متسائلاً بامتعاظ:

عاوزة إيه؟

أجابته متسائلة بعد زفير مطول:

مش ناوي تبطل القرف ده؟

أشاح بوجهه بعيدًا عن نظراتها الاحتقارية قبل أن يرد ببرود:

دي حياتي وأنا حر فيها

علقت باستياء:

بس مترجعش تندم لما تقع في مصيبة وتتصل تقولي الحقيقي

رد متحديًا:

مش هايحصل

ثم نفخ مجددًا وسألها قاصدًا تغيير مجرى الحوار:

إنتي جاية ليه؟

ركرت عينيها القاسيتين على وجهه لتجيب بعدها بنبرة مريية:

-تراقبلي "أوس"، تبلغني بكل حاجة حتى لو كانت صغيرة عنه

رد متهمًا:

ناوية تشغليني جاسوس عنده؟

أوضحت بسخرية وهي تطالعه بنظرة مستهجنة:

-أهوو نستفيد منك، بدل ما إنت مش فالح تعمل أي حاجة غير القذارات اللي أنا شيفها

قصادي

استنشاط غضبًا من إهاتها المستفزة له فرد قائلاً بوقاحة:

-كفاية إنتي رمز الشرف يا.. ربة الصون والعفاف!

صاحت محذرة من تجرؤه عليها:

-احترم نفسك

استقام في جلسته رامقًا إياها بنظرات قاسية وهو يضيف بلهجة قوية متعمدًا جرحها باللفظ لتكف عن التطاول عليه:

-بلاش نلف على بعض يا "رغد"، كل واحد فينا بيدور على مصلحته ويعملها بطريقته، ما تجيش تعملي واعظ عليا، وإنتي ماتفرقيش حاجة عني!

هبت واقفة من جلستها صارخة فيه بعصية وهي ترفع سبابتها في وجهه:

-أخرس

وقف هو الآخر ليواجهها معلقًا ببرود مستفز وقد استعاد القليل من كبريائه:

-أنا ساكت بمزاجي

توحشت نظراتها المحققة نحوه ثم هتفت بنزق:

-تصدق أنا غلطانة إني جيتلك

أسرعت في خطاها متجهة نحو الباب وقبل أن تخرج من منزله التفتت نحوه لتضيف بنفور واضح على وجهها:

-بابا كان عنده حق، واحد زيك ماينفعش نعتمد عليه أبدًا

عبث "يامن" بخصلات شعره هاتقًا بسخرية ليخفي ضيقه:

-استني اشربي حاجة

صفقت "رغد" الباب خلفها بقوة ليتخلى بعدها "يامن" عن قناع بروده الزائف، كان مدرگا أنها ستحاول استغلاله بطريقة أو بأخرى لتحقيق نزاعاتها الانتقامية -كعادتها في السابق- من ابن عمه حتى لو كان الأمر على حسابه هو شخصيًا.

.....

تولى قيادة السيارة بنفسه تاركًا أفراد حراسته يتبعونه بالسيارة الأخرى، ورغم الصمت الظاهري عليه إلا أن بداخله كان صاخبًا، تنفس بعمق لافظًا من صدره زفيرًا مطولًا ليخفف

به شدة الضغوط، بالطبع ضج رأسه بحديث "فردوس" المتسول الذي لا يتوقف أبدًا في كل مرة يزور منزل زوجته المتواضع أو حتى يعرج عليها، دومًا تذكره بحاجتها للنقود لتنفقه في علاجها، كان قد وضع الخطط مسبقًا من أجلها، لكنه لم يرغب أبدًا في الإفصاح عن ذلك وهي مستمرة في استخدام تلك النبرة الشاكية على الدوام، ورغم هذا مل في الأخير من إلحاحها المتواصل، التفت "أوس" برأسه نحو زوجته الجالسة بجواره ليناديها بهدوء:

- "تقى"

ابتسمت برقة قبل أن ترد:

أيوه

تابع قائلاً بوجه ممتعض وكأن الكلمات تتقاتل على شفثيه:

أنا في حاجة ناوي أعملها تخص أمك

تحفرت بعد جملته الأخيرة، ثبتت عينيها على وجهه متسائلة بفضول:

ليه هي؟

أجابها بفطور وهو يوزع نظراته بين وجهها والطريق المزدهم أمامه:

أنا بعث لمتخصصين في طب العيون بالخارج تقارير وأشعة بحالتها ومستني الرد

تفاجأت بنيتة المبيتة في علاج والبتها، مالت في جلستها ليصبح تركيزها بالكامل نحوه هو

فقط، رددت مصدومة وهي ترمش بعينيها:

سبجد؟

أكتفى "أوس" بالإيماء برأسه لتزداد حيرة وتخبطًا من تصرفه غير المتوقع، ظنت أنه سيقول

المزيد لكن لا شيء، فقط سكون مريب، عضت "تقى" على شفثها السفلى قائلة بتردد لتقطع

حاجز الصمت الذي ساد للحظات:

أنا عارفة إنها غلطت و...

قاطعها مرددًا بجديّة:

- "تقي" أنا مش محتاج أفكر هي عملت إيه، أنا بأحاول أنسى كل ده ده أشاح بوجهه بعيدًا عن نظراتها المراقبة له كي لا تلاحظ الامتعاض البائن على تعبيراته وهو يكمل:

لكن هي بصراحة مستفزة، مش صابرة على أي حاجة تخرجت هي الأخرى من أسلوبها الفج في طلب العون، بل وفي استجداء عطف الآخرين بطريقة تنفر الفرد من مساعدتها، تهدت هامسة:

- معلىش هي طبيعتها كده

لم يجد ما يعقب به عليها، فالموقف يعد حساسًا لكليهما، هي والبتها وفي نفس الوقت خالته بالرغم من أفعالها المخرجة، اعتدلت "تقي" في جلستها لتطالع الطريق الغريب عليها، بدا المكان أكثر خضرة، والطرق مرصوفة ومعبدة، دقت النظر في المباني حديثة الطراز التي بدأت في الظهور من على بعد، تساءلت بحيرة دون أن تبعد أنظارها عن الشارع:

- رايحين فين يا "أوس"؟

التوى ثغره بابتسامة باهتة وهو يجيبها بغموض:

هتعر في دلوقتي

طالعت المظاهر الحضارية الراقية بنظرات أكثر اهتمامًا، بدت المباني واضحة الآن بعد أن ولج بسيارته المدخل المفضي إلى ذلك التجمع الراقى، تضاعف فضولها ومع ذلك قاومت رغبة ملحة تختمها على سؤاله عن وجهتها الحالية، التفتت برأسها للخلف لتلقي نظرة خاطفة على رضيعتها النائمة بمقعدها الخاص، عادت لتحقق به متسائلة:

- أخبار شقتنا إيه؟

أجابها بكلمة مقتضبة وترتها:

-انسيها

اترفع حاجباها للأعلى في فزع وهي تسأله:

-يعني مش هاینفع نسكر فیها أو ترجع زي الأول؟

رد بوجه جاد التعبيرات:

-لا خلاص

أحست "تقی" بتأنيب الضمير لكونها المتسبب الرئيسي في إتلاف المنزل وإحراقه لحظة خروجها عن شعورها وانسياقها وراء شكوكها غير الحقيقية، أطرقت رأسها في خزي قائلة بندم:

-أنا أسفة، أنا السبب، لو كنت

مد "أوس" نحو ذقنها ليرفع وجهها المنكس حرجاً مقاطعاً إياها بنبرته الهادئة:

ما تفكریش فی اللي حصل

لم تخفِ علامات الحزن من نظراتها، أراحت وجنتها على يده مستشعرة لمستته الحنون على بشرتها، أبعدت رأسها لتسأله بتردد:

طب هاتقعد الفترة دي عند مين؟

أجابها "أوس" بهدوء:

-أنا مرتب كل حاجة، متقلقیش!

هزت رأسها بإيماءة متفهمة لكن سرعان ما تحولت تقسيماتها الواجمة إلى تعابير اندهاش مع مطالعة مناظر القصور الفاخرة والحدائق الجميلة الملحقة بها، تساءلت بإعجاب كبير بدا واضحاً في نبرتها:

-ليه المكان ده؟

تقوس فمه ببسمة ساحرة تشكلت على زاوية شفثيه وهو يسألها:

عجيبك؟

أجابته دون تفكير:

-شكله حلو أوي

لحظات وأوقف السيارة بجوار إحدى الفلل رائعة التصميم ذات اللون الرمادي الفاتح والداكن،
نظر ناحيتها قائلاً:

-أنا هنسكن هنا

افرح ثغرها مردداً بذهول:

هنا؟!!

ابتسم مؤكداً بنظراتٍ واثقة:

-إتي مش أقل من اللي ساكنين فيه

عادت لتأمل شكل الفيلا الأسر للأنظار بانهار واضح عليها، رمشت بجفניה قائلة بارتباك:

بس .. شكله غالي

وضع "أوس" يده على كفها، استدارت نحوه فور أن شعرت بيده تحتضن راحتها وأصابعه
تتخلل أناملها، قرب كفها من فمه ليقبله بهدوء ونظراته مركزة على وجهها البشوش، برقت
نظراته بوهج مشرق قائلاً لها بتفاخرٍ عظيم:

-إتي مرات "أوس الجندي"، ماتستقليش بده!

تورد وجهها من غزله الممزوج بقوته وهو يشعرها دوماً بأنها تستحق الأفضل على الإطلاق،
ردت عليه بنجل:

حبيبي، ربنا يخليك ليا

احتضنت يده بكلتا كفيها ضاغطة برفق على أصابعه، رمقها بنظرة حانية مطولة احتوت على عشق غير محدود، ومحبة تسري في العروق، خلا كل شيء إلا من نظراتها الرومانسية، قطع ذلك التأمل الواله رنين هاتفه، أخرجه من جيب سترته ليحيب عليه بجدية:

-ألو

صمت لبرهة مصغيًا للطرف الآخر قبل أن يحرك شفثيه ناطقًا بجمود:

-تمام

راقبت "نقى" ردة فعله التي لم تستطع تبين إن كانت جيدة أم لا، ما أثار قلقها هو إنهائه للمكالمة دون أن تعرف أي تفاصيلٍ عن طبيعتها، سألته بفضولٍ مهمم:

في حاجة؟

تصنع الابتسام فخرجت ابتسامته باهتة نسيًا وهو يحييها:

-لا يا حبيبتى، شغل

شرد "أوس" متطلعًا أمامه وقد تحولت تعايره للجمود الخفيف، راقبته "نقى" بطرف عينها متعجبة من ذلك التحول المريب في قسماته، استشعر حدسها وجود خطب ما، ومع ذلك لم تتجرأ على سؤاله، فإن كان يرغب بالبوح بما يزججه لن يتردد للحظة في إخبارها، انشغلت بمتابعة مظاهر التمدن الحديثة في ذلك المجمع السكني الراقي الذي لم تكن تحلم أبدًا لأن تكون أحد قاطنيه.

.....

لم تصدق أنها نجت بأعجوبة من شره المستطير وقد تربص بها ليرعبها ويشعرها بأنها في خطر محقق، بقيت "هالة" على حالها المذعور رغم صعودها لمنزلها واختبائها أسفل الغطاء، لكن ظلت تعايره الشرسة ونظراته المتوحشة محفورة في ذاكرتها رافضة تركها تنعم بلحظات من السلام، لاحظت "أم بطة" انزواء ابنتها في غرفتها والتزامها للصمت منذ أن عادت من الخارج، ولجت إليها لتسألها بوجه ممتنع:

مالك يا بت؟ مش على بعضك ليه؟ من ساعة ما رجعتي من برا وإنتي على الحالة دي؟
حابسة نفسك في الأوضة

أجابتها بصوت محتر وهي تكافح للسيطرة على رجفتها المستمرة:

-... مافيش

انتزعت والدتها الغطاء عنها لتأمل وجهها الشاحب ونظراتها المرتاعة، ضاقت عينها متسائلة
بلهجة حادة:

-لا في، أنا مش هابلة ولا دقة عصافير في دماغي، انطقي في إيه؟

للحظة فكرت في سرد ما حدث لها، لكنها خشيت من سوء تفسير والدتها للموقف، ابتلعت
ريقها وفكرت في التلميح ضمنياً عن ملاحظة ذلك السمج الهمجي لها، إذ ربما تساندها وتوقفه
عند حده فيلتزم حدوده معها، همست قائلة بتردد كبير:

-... منسي "يا ماما

حلت تعابير جادة على قسماتها، رفعت حاجبها للأعلى متسائلة باهتمام مزعوج:

-ماله سي "منسي"؟

ازدردت ريقها قائلة بتوتر رهيب وقد بدأت حبات العرق الباردة في التجمع على جبينها:

-بيضايتني في الرايحة والجاية

-ليه؟

قالتها "أم بطة" بعدم تصديق، ومع هذا تابعت "هالة" بخوف:

-أنا مش مرتحاله، وهو مش سايني عمال

قاطعتها بصرامة:

-بطلي تخاريف عبيطة

حدقت فيها مدهوشة، في حين أكملت تعنيفها القاسي مرددة:

هو الجدع هيعوز منك إيه؟ ده الحقة كلها شاهدة على مواقفه فيها، ده ناقص يعملوله تمثال
من كتر اللي بيعمله مع الواغش اللي هنا

أيقنت أنها أخطأت حينما باحت لها بما تخشاه، ومع ذلك بررت لها رهبتها منه قائلة:

-أنا بقيت بأتربع منه، حاسة إنه ناويلي على حاجة وحشة!

لوحث أمها بيدها في الهواء هاتفة باستنكار:

-كفاية فرجة على أفلام ومسلسلات، دماغك دي هتوديكي في داهية، أهوو ده اللي خدناه
من القراية والعلام!

سكتت مبهوتة من حديثها الصادم قبل أن تبكي بقهر لاستهتار والدتها بما يحدث واستخفافها
بالمضايقات المتجاوزة من ذلك البلطجي العاقل لها، وما زاد الموقف تأزماً هو مدحها له:

-ده يا ريت يوصلك، هو إتي طائلة حد يعبرك وإتي شبه الغفر كده

انسابت عبراتها بغزارة على إهانتها القاسية، تمنت من بين نحيبها المتحسر:

-الله يسامحك يا ماما

لم تعبأ "أم بطة" بمشاعرها التي دهستها بقسوة قلبها والتقليل من شأنها، بل تابعت بشراسة
قاصدة إشعارها بعدم جدوى التعليم:

-ده أختك لما كانت في سنك مشقبة الحارة بجلاوتها الرباني، مش تقولي لي هم مذاكرة وشهادات
إيه!

ردت مدافعة عن طموحها بعد أن فاض بها الكيل من تحطيمها لكل ما هو جميل في حياتها:

-أنا مش زي "بطة"

لكرتها بعنف في كتفها آمرة إياها:

-سيبك من القرف ده وقومي ساعديني، ورانا كوم غسيل أد كده، ده غير الأطباق و.....

وكانها تخاطب نفسها، بدت كلماتها ضائعة لا تصل إلى أذنيها، فقط نظراتها الباكية بعينيها
الحراوتين من كثرة البكاء مسلطة على وجه أمها، همست رائية نفسها:

يا ريت تحسي بيا، أنا ممكن أضيع في لحظة!

تأوهت بأنين موجوع حينما غرزت والبتها أظافرها في لحم ذراعها لتجبرها على النهوض وهي
تصرخ بها:

هتفضلي متبحالي كده كثير، قومي يالا!

تحركت بثقلٍ من فراشها، كفكت بظهر كفها دمعاتها المقهورة من على وجنتيها وهي تدعو الله
في نفسها أن ينجيها منه إن عجزت عائلتها عن حمايتها.

.....

ها قولت إيه؟

تساءل "منسي" بتلك العبارة وأنظاره المتوهجة بوميضٍ غير مريح مركزة على "عبد الحق"
الذي التقى به في المقهى الشعبي الكائن على الناصية، كان داهية في انتقاء الشخص المناسب
ليكون الداعم له في عرضه القادم بالزواج، فإن نجح في استدراجه وضمه إلى صفه تجاوز الكثير
من العقبات، ارتشف الأخير القليل من شايه الساخن ثم أعاد وضع الكوب الزجاجي في مكانه
بالصينية رافعاً وجهه نحو مُضيفه وهو يرد:

بردك مفهمتش قصدك!

أراد "منسي" إشباع غرور الآخر بمدحه بما ليس فيه ومنحه سُلطة لا يمتلكها فأضاف مبتسماً
من بين أسنانه السوداء بفعل نيكوتين السجائر:

يا سيدي إنت راجل العيلة دلوقتي، وقبل ما فاتح أمها قولت أخذ رأيك

حك "عبد الحق" رأسه بأظافره المتسخة معلقاً عليه:

والله مش عارف أقولك إيه

اتسعت ابتسامته اللثيمة قائلاً بتأكيد:

-وافق إنت والباقي سهل

داعب طرف ذقنه النابتة هاتفاً بترددٍ حائر:

-الحكاية متخصصينش، هي "هالة" أخت مراتي، بس أمها موجودة و....

مال نحوه ليقول له مقاطعاً بثقة:

-كلمتين حلوين منك يمشوا الليلة، وبعدين أنا جاهز، الشقة بأوضيها، وهاجيب كام حاجة

أفرشها، ونشوف طلبات العروسة

هز رأسه في استحسانٍ معقباً بدبلوماسية:

-ربنا يسهل، أما توافق الأول

عاد ليقول بهدوءٍ ماكر ليضمن دعمه له:

-البركة فيك تظبطني، ده إنت كبيرهم، وبعدين الكلام في الأول والآخر بين الرجالة، والحريم

أخرها تبارك وتهني

زفر "عبد الحق" قائلاً باستسلام:

ماشى

تهللت أساريه وامتلاً صدره بغبطة مضاعفة من قدرته على استمالة دون عناءٍ يُذكر، هلل

صائحاً بصوته الأجش:

هات يا ابني شيشة للمعلم "عبد" بسرعة

رد عليه أحدهم من الداخل:

حاضر

بدت علامات الانتصار جلية في نظرات "منسي"، فقد راهن على اختيار الشخص المناسب

وها قد تحقق مراده، بقي فقط القليل ليظفر بما يريد.

.....

سارت بخطى ثابتة لكنها مرتبكة على الممر المعبد بالطوب متألمة الخضرة التي تحاوطه من الجانبين بما اشتملت عليه من أشجار وأزهار متنوعة، لمعت حدقتها بشدة وانعكس بريق السعادة فيهما، تساءلت "تقى" بأنفاس متحمسة وهي تدير رأسها في اتجاه "أوس":

-أنا هنعيش هنا؟

أجابها مؤكداً وهو يتأمل الإعجاب الظاهر عليها:

-أيوه

استنشقت الهواء النقي الذي غلف الأجواء من حولها، أغمضت عينيها مستمتعة بذلك التأثير الإيجابي عليها قبل أن تفتح جفניה لتردد بسعادة كبيرة:

-أنا مش مصدقة عينيا

استمر "أوس" في دفع عربة الرضیعة للأمام تاركاً لها الفرصة للتمتع بالطبيعة الخلابة من حولها، أدخل ابنته للبهو الواسع ثم عاد ليقف في مواجهة زوجته التي طالعتة بغرابة وهي تسأله:

-في إيه؟

خرجت منها شهقة عفوية حينما مرر ذراعيه خلف ظهرها وأسفل ركبتيها ليحملها، تورد وجهها بالكامل بحمرة ملتهبة عكست توترها وارتباكها الحرج من تصرفه المفاجئ لها، شعرت بخفقان قوي يعصف بقلبها، وأحس "أوس" بحالة الاضطراب التي اعترتها، ابتسم لها هامساً بتنهيده عاشقة:

-ماينفعش تخشي بيتنا الجديد وإتي ماشية على رجلكي

طوقت عنقه بذراعيها، نظرت له بحرج وهي تهمس له:

-الناس هتتفرح علينا

رد بقوة تليق به:

هو حد يستجري يقول حاجة ؟ ده أنا أنسفه قبل ما عقله يفكر في ده!

سار "أوس" حاملاً إياها للداخل رافضاً تركها تخطو دون أن يشعرها بأنها الملكة هنا، أنزلها على قدميها وبقي ذراعه محاطاً لخصرها، انبهرت أكثر واعتلاها مشاعر متحمسة مختلطة بفرحة غامرة مع رؤيتها لتصميم الفيلا من الداخل، بدت في حلم أسطوري وهي تجوب بنظراتها المبهورة كل ركن في البهو متأملة جدرانه والتحف التي تزين الطاولات الذهبية الجائنية، ناهيك عن الأثاث باهظ الثمن، اتسعت نظراتها في صدمة أكبر حينما أردف قائلاً:

-الفيلا دي هديتك لأنك جبتيلى أعلى حاجة في حياتي، بنتي "حياة"

فغرت ثغرها غير مستوعبة تلك الهدية الثمينة التي أنفق فيها ألوف الجنيهات آملاً فقط أن تحوز على إعجابها، تابع بهدوء وقد تشكلت بسمة ساحرة على شفثيه:
-أنا كتبتها باسمك وكنت بأجهزها عشان أديها لك في عيد ميلاد بنتنا
ردت بصدر يقفز بتوترٍ من فرط السعادة:

ده كثير عليا

حاوطها "أوس" بذراعيه لتستند بكفيها على صدره، حدق في عينيها بنظرات عميقة هامساً لها:

-مافيش حاجة تغلى عليكي أبداً، إنتي حبي الأول والأخير

لم يكن أمامها سوى منحه قبلة مباغته ممتنة على شفثيه كتعبير عن سعادتها بما يغدقه عليها من ترف لتتنعم في جنته الأرضية، بادلها قبلة أشد عمقاً بثت القليل من مشاعره المشتعلة بحبها الجارف، ابتعد عنها لتلتقط أنفاسها بعد أن غابت للحظات تحت تأثير تلك الأحاسيس المحفزة لها، تهدهد مقترحاً:

-لو حابة تغيري أي حاجة في العفش، أنا معاكي و..

قاطعته "تقي" واضعة إصبعها على شفثيه:

-كفاية عليا إنت!

شعر بالانتشاء لكون هديته أدخلت عليها السرور، وما حفز رغباته المشتعلة مسبقًا هو
تجاوبها معه، بل ودلالها الرقيق الذي يلعب على أوتار قلبه، زاد من ضغطه على خصرها
لتلتصق أكثر بصدرة، غمز لها قائلاً بعبثية:

-وبعدين في كلام بينا مكملش

ورغم فهمها لمقصده إلا أنها ردت تسأله ببلاهة:

-كلام إيه ده؟

داعب طرف ذقنها بإصبعيه قبل أن يمسك به قائلاً بغموض مثير:

-شكلك نسييتي اللي حصل في الأوضة هناك

رمشت بعينها بتوترٍ وقد تحولت بشرتها لكتلة ساخنة بسبب الدماء المندفعة بقوة في شرايينها
لتؤجج من تلك الرغبة التي تحتاج خلاياها، أرادت آنذاك أن تستفز مشاعره، أن تلاعبه
على طريقتها، ولم تعلم أن السحر سينقلب عليها، مال "أوس" برأسه على أذنها ليهمس لها
بنبرة ذات مغزى جعلت أوصالها ترتعش:

-اللي يلعب بالنار.. تحرقه

شهقت ضاحكة وقد انحنى للأسفل ليحملها على كتفه بخفة، ركلت بساقها في الهواء هاتفة
بارتباك:

- "أوس"، إنت بتعمل إيه؟!

رد كمن يقرر ولا يُخير:

-لينا حساب سوا

هتفت بتوتر:

-و "حياة" ...

قاطعها بجديّة:

-بنتك في سابع نومة، متقلقيش عليها

خرجت منها تأويمة متألة لكنها متحمسة حينما شعرت بتلك الصفعة الخفيفة على مؤخرتها والمصحوبة بقوله المتسلي وعن إيجاء مقصود:

-كل حاجة وليها وقتها

اشتعلت وجنتاها أكثر، وتحفز جسدها بالكامل لما هي مقبلة عليه معه، رددت بخجل:

مجنون!

علق عليها قائلاً:

-بيكي ويس!

كركرت ضاحكة ليصيح صوتها في المكان معلناً عن سعادة وشيكة ستغمر أركانها وزواياها ما لم يظهر من يكرها ويعكرها بمخططاته المهلكة !!

.....

الفصل الرابع عشر

انتابها فرحة لا توصف منذ أن علمت بحمل ابنتها، ها هي ستحظى بحفيد آخر يتشاطر اهتمامها مع الرضيعة "حياة"، كانت تتواصل يوميًا مع "ليان" إما بالزيارات أو المكالمات الهاتفية لتلمي عليها النصائح في تلك المرحلة الأولى من حملها، تحمست "تهاني" كثيرًا لرؤية شكل الجنين خلال المتابعة الدورية مع الطبيبة النسائية، كانت الأوامر المعتادة من الطبيبة بالحرص على تناول الطعام الصحي ومراعاة جرعات الأدوية الخاصة بتثبيت الحمل والفيتامينات، خرجت "ليان" من عيادة الطبيبة متأبطة ذراع زوجها الذي حرص هو الآخر على التواجد للتمتع بتلك اللحظة الخاصة جدًا، استطردت "تهاني" قائلة بابتسامة ودودة:

-ربنا يكملك على خير يا بنتي

ردت ابنتها بتوترٍ بدا من سماتها مؤخرًا:

أنا خائفة

علقت عليها بنبرة مطمئنة لتخفف من حدة قلقها:

معلش يا حبيبتي، الحمل في أوله متعب، بس بعد كده لما ابنك ولا بنتك تشيلهم كل حاجة هتهون

ضغطت على شفيتها مرددة بتهيدة شبه مطولة:

يا رب

أضافت "تهاني" قائلة بتشجيع لتشد من أزرها:

وبعدين احنا كلنا معاك، المهم الفترة دي لازم تاخدي بالك من صحتك وتهتمي بأكلك كويس زي ما الدكتور قالتلك جوا

عقب عليها "عدي" شاكيًا:

قوليلها يا مدام "تهاني"، مدوخاني معاها

نظرت له "ليان" من طرف عينها ترمقه بنظرة مزعوجة من إلحاحه الدائم على تناولها الطعام في كل الأوقات رغم إحساس الغثيان الذي يصيبها، ردت عليه بوجهٍ ممتعض:

ماليش نفس لحاجة

ريبت "تهاني" على ذراع ابنتها وهي تقول:

فترة وهتعدي، اطمني!

هتف "عدي" مقترحًا وقد وصل ثلاثتهم إلى سيارته المصفوفة خارج العيادة:

ليه رأيك يا لو جيتي أعدتي معاها؟

ورغم تكراره لذلك الاقتراح لأكثر من مرة -حتى من قبل ابنها "أوس"- إلا أنها كانت ترفض بشدة، لم تحبذ فكرة كونها عالة على أحدهم، يكفيها ما على عاتقها من مسئوليات دار رعاية المسنين، والاهتمام بأختها المريضة، ردت بحرج لم تستطع إخفائه:

صعب، أنا هابقي أجي عندكم من وقت للتاني

هز "عدي" رأسه متفهماً:

-اللي يريحك

تساءلت "ليان" بجدية وهي تستقل المقعد الأمامي من السيارة:

-إنت عندك شغل؟

أجابها زوجها قائلاً:

-أها، بأظبط كام حاجة لـ "أوس" عشان عيد ميلاد "حياة"

هتفت "تهاني" من الخلف مرددة بحماس:

-صحيح عاوزين نجيبها كام حاجة حلوة

التفتت ابنتها نحوها لتؤيدها في الرأي:

-أوكي، هنتكلم سوا يا ماما ونختار المناسب

-تمام

قالتها "تهاني" وهي تسترخي في جلستها بالمقعد الخلفي آملة في نفسها أن تحظى عائلتها بسعادة لا تنضب أبداً.

.....

لم تكن تترحم حينما قررت العودة إلى القاهرة وتحقيق انتقام والدها المزعوم من ابن عمها، سهل لها المحامي المنوط بمتابعة قضيته الإجراءات القانونية للقيام بتلك الزيارة الاستثنائية، تأففت "رغد" من الرائحة العطنة المكتومة التي تعبق المكان، وضعت منديلاً ورقياً على أنفها لتمنع

الرائحة المزعجة من النفاذ إلى رثتها وتكديرها أكثر وهي تسير بخطوات ثابتة نحو إحدى الغرف المعزولة، اتخذت مقعدًا شاغرًا في المكان المخصص للزيارة، طالعت بنظرات متأففة الجدران الكثيرة الباعث لونها الباهت على الالتباس، كان تواجهها هناك خائفًا، لكنها مضطرة لفعل ذلك، لحظات وولجت إليها "ناريمان".

تفاجأت بالتغيير الجذري الذي طرأ على ملامحها، لم تعد تلك هي سيدة المجتمع الراقى المتعالية الذي تُحدث الجميع بعبارات مختصرة من طرف أنفها، بدت أكثر شعوبًا، إرهاقًا، تجعيدًا، وأكبر عمراً، وكأن وجودها في ذلك المكان المقيت ضاعف من قسوة ملامحها الباهتة، تركت نظراتها المصدومة تعبر عن حالتها دون أن تكلف نفسها عناء إخفاء ذلك، رمتها "ناريمان" بنظرة متعجبة من زيارتها الغريبة لها، جلست في مواجهتها لتجوب بنظراتها المتفحصة كل تفصيلة في وجهها المزدان بمساحيق التجميل، كم كانت تفتقد لتلك اللمسات السحرية التي تخدع الزمن، أفاقت من تحديقها المطول بها لتقول باندهاش:

-مكونتش متوقعة إني أشوفك هنا

استقامت "رغد" في جلستها لتبدو أكثر ثقة وشموخًا وهي ترد بجمود:

-ولا أنا

شبكت "ناريمان" كفي يدها معًا لتسألها بزفير متعب:

-خير

أجابتها بخبث وقد برقت حدقتها بقوة:

-تحبي تنتقي من اللي سجنك هنا؟

تعقدت ملامح "ناريمان" من جملتها المريبة تلك، ثم علقت ببساطة:

-ما هو مات!

التوى ثغرها بابتسامة لئيمة أظهرت خبثًا أكبر وهي تتابع بخفوت لتستفز نزعتها الانتقامية:

-بس ابنه عايش وبيتمتع بكل ملهم، وإنتي هنا مرمية وسط أشكال قذرة!

مجرد تذكر وضعها البائس جعل الدماء تفور في عروقها، سألتها بحدة وقد استشاطت نظراتها:
-حائزة إيه يا "رغد"؟

ثم صمتت للحظة قبل أن تكمل بلهجة متعصبة:

-بلاش لف ودوران!

تشنجت تعابيرها فبدت قاسية متصلبة وهي تستأنف بحرقّة:

-أحرق قلب "أوس"، أدفعه تمن اللي عمله في بابا

بالطبع نما إلى مسامعها حبس "سامي الجندي" بعد اكتشاف تورطه المباشر في محاولة اغتياله،
رنت إليها بنظرة غير واضحة الغرض قبل أن تسألها مستفهمة:

-وأنا هافيدك إياه؟

أجابتها دون تردد:

-تقويلي مفاتيحه، الحاجات اللي أقدر استخدمها ضده وأخلي بيها حياته جحيم

سكتت لتدرس تقاسيمها الجادة المتصلبة، فوجودها هنا تحديدًا لن يكون بلا مقابل، حركت
شفتيها لتسألها بمكر:

طب وإيه المقابل؟

تيقنت "رغد" أنها استطاعت استمالة عقلها والعبث به لتجعلها دمية بين أصابعها تحركها كيفما
تشاء فتنفذ مخططاتها الجهنمية، ولتبدو أكثر واقعية ومنطقية أجابها قائلة:

طبعا صعب إني أخرجك من هنا، لكن أقدر أضمنك تخدي وضعك وتتعامل زي الملوك،
تبقى ليدي هنا!

توهجت عينا "ناريمان" بلمعان مثير، فلماذا لا تنال مميزات بعينها خلال فترة حبسها الممتدة،
فقد رأت بأم عينها كيف تعامل بعض السجينات على حساب أخريات، راقبت "رغد" ردة

فعلها بتآن، باتت شبه متيقنة من نجاح مهمتها الأولى، تابعت مضيئة ببسمة مأكرة تكونت على زاوية ثغرها:

فكري واحسبها كويس، في كل الأحوال إتي مش خسارة حاجة، بس لو ساعدتني على الأقل هترتاحي من مضايقات المشبوهات اللي هنا!

.....

على مدار عدة أيام انشغلت بالتفكير فيما ستحتاج إليه من أجل الترتيب لحفل عيد الميلاد العائلي، كانت الخيارات متاحة أمامها لتفعل ما يحلو لها، ومع ذلك بدت حائرة في انتقاء المميز لابتها، ساعدتها "ليان" كثيرًا واستفادت من خبراتها في تلك النوعية من الترتيبات التي لم تقم بها مسبقًا، بقي لها أمر أخير؛ ألا وهو اختيار الثوب الذي سترتديه، لم تحبذ "تقى" ارتداء ثياب السهرة البراقة والمبهجة، أرادت شيئًا بسيطًا، خاصة أن ضيوفها ليسوا بالغرباء، فأغلبهم أفراد عائلتها، جيرانها، ومعظم المقربين من زوجها "أوس"، تفقدت خزانة ثيابها ووجدت ما ظنت أنه مناسبًا، التفتت نحو زوجها الذي كان ينهي بعض أعماله العالقة على حاسوبه المحمول، سألته بجديّة وهي مخفضة لأنظارها لتتأمل هيئة الثوب على ثنايها بعد أن ارتدته:

-ليه رأيك؟ ده حلو؟ أنا بصراحة محتارة مش عارفة ألبس إيه!

رفع عينيه لينظر لها مليًا متأملًا الثوب النيذي اللون الذي ارتدته، تفحص ببطء تفاصيله، كان ثوبها طويلًا محتشمًا يضيق قليلًا عند الخصر الذي تزين بحزام جلدي ذهبي اللون، أما أكمامه فكانت واسعة نسبيًا، هز رأسه في إعجاب وهو يبتسم معلقًا:

-كل حاجة عليك بتخليكي أحلى من اللي قبلها

لم تكن بحاجة إلى مجاملة منمقة لتحصل على رد يرضيها، عبست ملامحها معترضة بتذمر:

-بطل يا "أوس"، أنا عاوزة رأيك فيه، الفستان هيليق ولا لأ؟!

أبعد الأخير حاسوبه عن ركبتيه ثم نهض واقفًا ليتجه إلى خزانة الثياب، ألقى نظرة مطولة على ما في ضلفتها ليخرج شيئًا بعينه، تقوس فمه ببسمة متسلية -شبه مأكرة- وقد كان في حالة مزاجية رائعة، رفعه نصب عينيه ليتأمل ردة فعلها المصدومة قائلاً لها بعثية:

لو عاوزة رأيي يبقى تلبسي ده!

انفلت منها شهقة حرجة مصحوبة بوجه شبه مشتعل الحمرة بعد أن رأت ما أخرجه، لم يكن ثوبًا ملائمًا لسهرة عائلية إطلاقًا، وإنما قيصًا حرييًا قصيرًا به عدد لا بأس به من الفتحات لتظهر مفاتن الأثى بطريقة مغرية تلهب المشاعر وتهلك الأعصاب كإشارة صريحة لقضاء ليلة جامحة، جذبت منه لتطويه هائفة بجدية مصطنعة ومتحاشية نظراته التي تلتهمها عن قرب:

-إنت بتهزري، ده ماينفعش طبعا

علق عليها مراوغة:

-ما هو ليا لي ويس!

وضعت يدها على خصرها راسمة على وجهها تعبيرات جادة وهي تسأله:

-والضيوف؟

سحبها من معصمها إليه مقلصًا المسافات بينهما بعد أن أجبت فيه بقوة رغباته التي لا تفتر بالتمتع معها بلحظات رومانسية لا تُمحي من الذاكرة لمجرد تخيلها ترتدي تلك القطعة الشفافة التي لا تستر شيئًا، اصطدمت بكفها على صدره ليسعر بأنفاسها غير المنتظمة تلفح وجهه وتزيد من رغبته، همس لها بتنهيدة حارة ضاعفت من توتر الأجواء:

-ولا يفرقوا معايا، خلينا سوا

كانت "تقي" شبه محاصرة بين تأثيره الطاعني الذي يعرف باحترافية كيفية اللعب على أوتار القلب وتحفيز المشاعر لإشباع ما تشاق له النفس التواقة لغرام مميز وعميق، ردت بخفوت خجل وقد أحست بتلك السخونة تنبعث من بشرتها التي اكتست كليًا بدموية نشطة:

- "أوس" .. عيب كده!

قرب رأسه منها لتزداد توترًا وهو يقول:

-مافيش عيب معايا

أغمضت عينيها مستسلمة لصوته الهامس الذي تغزل بها:

-أحب اسمي وهو طالع من بين شفايفك

عزز موقفه الرومانسي بقبلة شاعرية أحست بعذوبتها وبقوة الحب المستمدة من قلب عَرِف وتعلم قواعد العشق على يديها، استجاب وجدانها، وتفاعل كيائها مع تأثيرات خبراته العميقة في أساليب الهيام، أبعدت وجهها عنه لتلتقط أنفاسها التي اضطربت قائلة له بارتباكٍ ممتزج بالخجل:

-أنا كده مش هالحق ألبس ولا أجهز الحاجة، الناس جاية كمان شوية

هز رأسه معترضًا دون أن تتبدل نبرته العذبة وهو يقول لها:

-أومال الخدامين بيعملوا إيه ؟ إنتي هنا عشان ترتاحي وبس

حاولت الانسلال من بين أحضانه التي حاصرتها وأبقته أسيرته هامسة بدلالٍ ناعم ورقيق:

-ماشى، بالليل نتكلم

رفض "أوس" إفلات رسغها لتظل حبيسته، ثبت عينيه العميقتين على وجهها المتورد مخدراً بلهجة تفهمها جيداً جمعت بين اللين والحزم:

خليكي فكرة اتفاقك، لأني مابنساش!

أومأت برأسها مبتسمة في خنوع محبب إليه زاد من لهيب أشواقه، اضطرب رغماً عنه أن يؤجل خطته اللاهية معها إلى وقت لاحق مكثفياً بقبلة أخرى أشد عمقاً وقوة.

.....

أسرعت بلف حجاب رأسها بطريقة مبتكرة كما علمتها رفيقاتها بالمدرسة لتبدو تلك المرة مختلفة عما اعتادت أن تظهر عليه، ظهر عنق "هالة" إلى حد ما، حاولت رفع ياقة قميصها الأبيض الذي ارتدته أسفل كنزتها الزرقاء الواسعة لتخفي ذلك الجزء فلا تتعرض لتوبيخ من والدتها، تلفتت بجسدها للجانبين لتتأكد من تناسق ثيابها مع السروال الجينز الذي ارتدته، لمحة باهتة من مساحيق التجميل وضعتها على وجنتيها، وأحمر الشفاه الرقيق لتكتمل صورتها المتأنقة،

حركت مقلتها نحو انعكاس وجه أختها في المرآة المنكسرة من المنتصف إلى شقين غير متساوين
حينما سألتها:

ها لبستي؟

أومأت برأسها إيجاباً وهي ترد:

-أيوه، أنا جاهزة

أبدت "بطة" إعجابها بأختها الأصغر التي كانت جميلة رغم بساطة مظهرها، اتسعت ابتسامتها
المحفزة قائلة لها:

-ماشاء الله عليك، حلوة يا "لول"

ردت بتوترٍ حرج:

خايفة شكلي ميكونش حلو واحنا هناك

علقت بفتور غير مبالية برأي الآخرين:

مش فارقة، المهم نعمل الواجب ونرجع

وقفت والدتهما عند عتبة الغرفة تتأمل انهماكهما فيما أسمعته بالتألق الزائد عن الحد بسبب ذلك
الحفل المزعوم، كانت غير راضية عن ذهابهما إليه، ولم تهتم بإخفاء رفضها للأمر، كتفت ساعديها
أمام صدرها لتقول بتمتر:

عيد ميلادات إيه دي اللي هتحضروها على آخر الزمن؟

أجابتها "بطة" متصنعة الابتسام:

-"تقى" عزمنا واحنا مش عاوزين نكسر بخاطرنا

أرخت ذراعيها لكنها وضعت يدها أعلى منتصف خصرها متسائلة:

ودي هتروحلها لإزاي؟

ردت عليها "هالة" بنزق:

-العربية هاتيحي تاخذنا مع أهلها
مصممت شفتيها مرددة بتهكم ساخط:

-هاقول إيه غير أرزاق، والله ما له لازمة الموضوع ده، ما تخليكوا أعدين وخلاص
كانت "هالة" على وشك الرد عليها لكن بادرت "بطة" بالغمز لها كي تتجنب الجدل مع والدتها
أو حتى تعلق عليها لتقلل نهائياً باب النقاش والاعتراض في مسألة ذهابها، امتثلت أختها
لنظراتها المفهومة بترحاب صدر، فلا حاجة بها لتغصص ليلتها قبل أن تبدأ، هتفت "أم بطة"
محذرة بجدية:

-خدي بالك من الواد، مش ناقصين بهدلة
ردت عليها ابنتها الكبرى بانصياع:

-حاضر

ثم استدارت نحو أختها تأمرها:

-هاقي الهدية يا "هالة"

تأملت والدتها الهدية المغلفة التي علمت مسبقاً أنها لعبة باهظة الثمن -من وجهة نظرها-
ستقدمها الاثنان لها، زمت شفتيها متممة بنبرة ممتعة حملت في طياتها التلميح إلى فقرهم
المعلوم للجميع:

-وهي هترضى ياختي باللعبة دي؟ ده بقت في العليوي!

ضغطت "بطة" على شفتيها مبررة:

-أهوو اللي قدرنا نجيبه يامه، وهي مش محتاجة أصلاً، بس احنا بنقوم بالواجب وخلاص
انتهت "هالة" إلى بوق سيارة الدفع الرباعي التي احتلت المنطقة الشاغرة بجوار البناية، هلت
بجاس وقد أشرق وجهها:

-العربية واقفة تحت

رمقتها والدتها بنظرات ساخطة مزعوجة، طأطأت رأسها لتتجنب تحديقها المتأفف، هتفت أختها بجدية بعد أن حملت رضيعها إلى صدرها:

-بيننا لأحسن نتأخر على الجماعة، هتبقى قلة ذوق مننا

صاحت بهما "أم بطة" بهتاف مرتفع:

-كلموني أما توصلوا

التفتت "هالة" برأسها نحوها قائلة:

حاضر يا ماما

تابعت توصياتها المحذرة مكملة بنفس الصوت الجاد:

-وخذوا بالكو من بعض

ردت على الفور:

-ماشى، سلام بقى!

أسرعت في خطاها لتعلق بأختها الكبرى بعد أن ارتدت على عجلة حذاءها الرياضي الأبيض الذي استغرقت بضعة ساعات لتنظيفه ليبدو جديدًا ولائقًا بالحفل، انعكست الحماسة على وجهها فزادته تلاللًا، تمت "هالة" في نفسها بكل جوارحها أن تقضي سهرة لا تنسى تستعيد فيها بهجتها بعد أن ذبلت من كم التعاسة المحبط المحيط بها.

.....

استقرت بعد معاونة زوجها بالمعقد الخلفي في السيارة التي أرسلت لاصطحابها مع زوجها، ورغم انعدام الرؤية لديها إلا من خيالات متداخلة مشوشة لا تجعلها قادرة على التمييز إلا أنها كانت نائمة على تجاهل ابنتها وزوجها لوضعها وحرمانها من فرصة ربما ستمنحها الأمل في استعادة نظرها، أخرجت "فردوس" من صدرها زفيرًا مسموعًا مغلفًا بسخطٍ مضاعف قبل أن تستطرد ناطقة:

ياما كان نفسي أشوف العز ده بدل ما أنا مش محصلة حاجة
نظر لها "عوض" من زاوية عينه محرّكاً رأسه باستنكار لأسلوبها التهكمي المتواصل، رد عليها
بصوته الرخيم:

-احمدى ربنا، غيرك مش قادر يمشي على رجله
كانت شبه فاقدة لصرها، لم تعد تتحمل عبارات الإشفاق، وجمل التعاطف المتملقة، نفخت
هاتفة باستياء:

-يووه يا "عوض"، معاهم القرش ومستخسرين يطلعوه لله
يئس من فشله في جعلها تكف عن التذمر والشكوى فرد بعبوس:
-احنا مش مستنين صدقة من حد
علقت عليه باستفزاز:

دي مش حد ياخويا، دي بنتك، ومعاهها فلوس وتقدر
لا حول ولا قوة إلا بها
لم تكتف بذلك بل هتفت قاصدة جعل الأمر إلزامياً وليس نابعاً من رغبة الشخص في القيام
بعمل يثاب عليه:
ميل إنت عليها وقولها الكلمتين دول، وهي النبي حارسها وصاينها تقول للمحروس اللي
متجوزاه يطلع من معاه!
ضرب كفه بالآخر قائلاً بإحباط:

الله الأمر من قبل ومن بعد، ربنا يهديكي يا "فردوس"، ويبعد شيطانك عنك!

.....

تدلى فكها للأسفل في انهار كبير حينما مرقت السيارة عبر المجمع السكني الشهير والذي ترى
إعلاناته المصورة في تلفاز منزلها المتواضع، مررت "هالة" أنظارها على كل جزء فيه كي لا

يفوتها شيء، أرادت أن تحفظ عن ظهر قلب معالم ذلك المكان الذي ربما لن تطأه من جديد،
لم يختلف حال أختها عنها، بدت مبهورة هي الأخرى بما تراه عيناها، همست لأختها الصغرى
بـخفوت:

شوفتي العظمة يا بت

ردت عليها بصوتٍ خفيض:

ماشاء الله، ده ولا في الأحلام

غمغت هامسة بضحكة عابثة حاولت تخبئتها:

حاجة زي اللي بنشوفها في التلفزيون، يا حلاوة يا ولاد!

رمشت "هالة" بعينها البراقنتين بوميض الإعجاب مرددة:

ربنا يزيد ويبارك

استمرت في تأملها الدقيق حتى توقفت السيارة أمام مدخل إحدى الفيلا المضاءة من الخارج
بإنارات باهتة لكنها أعطت سحرًا للمكان، شعرت بالرهبة المختلطة بالحماسة وهي تخطو نحو
الباب الخشبي الكبير الذي يخفي ورائه ثراءً متوقعًا، تنفست بعمق حابسة للحظات ذلك
الشهيق الذي استنشقه ليبدأ من الحالة الحماسية المسيطرة عليها، كانت ملاحظها إلى حد ما
قلقة مرتبكة وهي تدير رأسها في اتجاه أختها التي أردفت قائلة:

تعالى أما نشوف "تقى" فين

خرج صوتها مكتومًا مهزورًا حينما ردت:

حاضر

تشجعت "هالة" للمضي قدمًا ممتعة نظراتها وعقلها بمظاهر الغنى والترف الذي يناقض حياتها
في المنطقة الشعبية بمعالمها المتدنية، خشيت من نظرات الضيوف الذين ربما لن يروقهم حضور
من هم أدنى منهم في المستوى الاجتماعي والطبقي، فأمثال هؤلاء لن يكفوا عن إشعار غيرهم
بالفارق الواسع بينهم، تلاشت هواجسها للحظة مع تلك الرائحة الزكية التي داعبت أنفها وهي

تلج إلى البهو المضي إلى الصالة المزدانة بزينة أعياد الميلاد التقليدية، ارتسمت ابتسامة إعجاب صغيرة على شفيتها وهي تمن النظر في البالونات المطاطية الملونة التي ترتشف السقف، خفف توترها السائد بداخلها عدم تواجد عليّة المجتمع المحلي، شعرت بالارتياح لكون الضيوف على شاكلتها من حيث البساطة والمستوى الاجتماعي المتوسط أو الأقل، فهمت الآن لماذا أصرت "تقي" على دعوتها مع أختها ولم تتقبل اعتذارها.

.....

على الرغم من كون صلة القرابة المعروفة للجميع تعود لسنوات مضت منذ ميلاد أبناء العموم إلا أن أوصل الود بينهم لم تكن جيدة نوعًا ما، ومع ذلك قرر "أوس" دعوة القليل من أقربائه وخاصة ابن عمه "يامن" لحضور الاحتفال بالذكرى الأولى لميلاد رضيعته، ليس لأجل مشاركته فرحته وإنما لأمر آخر شغل باله مؤخرًا، عملاً بمبدأ إن كان أصدقاء قرييون منك فلتجعل أعدائك أقرب، وببدلته السوداء الكاملة وطلته المهيبة سار بين المتواجدين مبتسمًا ابتسامة صغيرة مجاملة كنوع من الترحيب بضيوفه، كان هدفه محددًا وواضحًا، التقطته نظراته من على بعد فمشي صوبه، بهيبة معروفة وشموخ نافذ، دنا "أوس" من "يامن" الذي بدا مزعوجًا من تواجده في مثل تلك النوعيات السخيفة والمملة من الحفلات العائلية، لكنه اضطر للرضوخ لأمر ابن عمه الكبير بالحضور مساءً، وقف قبالة مركزًا نظراته الثاقبة على وجهه جامد التعبيرات، حافظ الأخير على ثبات تعابير الغامضة فلم يستطع "يامن" أن يستشف ما الذي يستحوذ عليه تفكيره، فنظراته نحوه لم تكن مريحة على الإطلاق، توقف "أوس" عن السير ليستقيم في وقفته وينتصب بكتفيه العريضين مباغتًا ابن عمه بتساؤل يرم عن معرفة سابقة:

-أخبار "رغد" إيه؟ كانت نازلة من عندك مضايقة أوي!

صدم "يامن" من خلفيته عن الأمر فردد مدهوشًا:

-إنت عرفت؟

تحدث من زاوية فمه قائلًا بعنجهية جلية:

-مافيش حاجة بتستخبي على "أوس الجندي"!

شعر ابن عمه الصغير بجفاف في حلقه، وبتوتر مضاعف يضرب في صدره حينما سأله بهدوء غير مطمئن له:

ها كانت عاوزاك تنقلها أخباري ولا تاخذ صفقة من اللي عندي؟!

دافع عن نفسه بنزق كي يقطع أي سبل للشك بشأنه:

أنا ماليش دعوة باللي بتفكر فيه

رفع "أوس" يده ليضعها على كتف "يامن" قائلاً له بنبرة جافة وقد قست نظراته المخيفة:

أبوك غلط معايا، وأنا سبت القانون ياخذ مجراه، لكن لو كان عليا كنت خدت حقي بنفسني،
وانت أكيد فاهمني

عجز الأخير عن الرد، فرت الدماء من وجهه فبدا شاحباً متوتراً، حذره "أوس" بلهجته النافذة:

أحسنلك تكون بعيد عن المواضيع دي

لم يكن أمامه سوى الإذعان له، لذا رد باقتضابٍ

طيب

أزاح يده عن كتفه ليدسها في جيب بنطاله الأسود، وباليدي الأخرى داعب طرف ذقنه،
تجمدت نظراته على وجه "يامن" القلق قبل أن يقول له بنبرة موحية:

وخف المسخرة اللي بتحصل عندك!

اعتلت قسماته دهشة أكبر من التي قبلها، ردد مذهولاً:

حتى دي كمان عارفها

رمقه بنظرة قوية احتوت على شراسة لا يجذب الفرد اختبارها، ثم حذره مجدداً:

خليك عاقل أحسن، أنا مش هتساهل معاك لو غلطت

ازدرد ريقه قائلاً من بين أسنانه وقد بدا كالتلميذ المخطئ الذي يؤنبه معلمه لتقصيره في أداء واجباته:

أوكي

تركه "أوس" في مكانه في وضعٍ حرج، شعر "يامن" بالضييق وبحالة من الاضطراب تتخلله لم يكن في حالة طبيعية وهو يتلقى مثل تلك الأخبار الصادمة، فابن عمه لا يُستهان به، إنه داهية حرفيًا، كان بحاجة للتنفيس عما يكبته من توترات مضاعفة، لفافة سجائر ستكون الخيار الأنسب حاليًا، لكنه يعرف تبعات ما يفكر فيه، لذا سيكون من الأسلم الاختفاء ولو قليلاً عن أنظاره ريثما يحقق متعته اللحظية من حرق ذلك التبغ، تلفت حوله باحثًا عن الشرفة ليهرب إليها محدثًا نفسه:

أحسن حاجة أعملها أطلع أدخن برا، بدل ما يعلقلي جبل المشنقة هنا!

.....

تذكرت أنها لم تهاتف والدتها مثلما أخبرتها ريثما تصل كلتاهما إلى الفيلا التي تسكن بها "تقي"، خشيت من غضبتها فأسرعت بإخراج هاتفها المحمول من حقيبتها الجلدية، وضعت "هالة" يدها على ذراع أختها قائلة لها بصوتٍ شبه مرتفع لتمتكن الأخيرة من سماعها وسط الصخب الصادح حولهما:

هاروح أكمل ماما برا اطمنها علينا

ردت عليها "بطة" بإيماءة موافقة:

أيوه، بدل ما تقلب علينا وتعملها مشكلة

بالضبط

ثم جابت بنظراتٍ مرتبكة الصالة الواسعة باحثة عن مكان أقل ضوضائية لتمتكن من الاتصال بها، لمحت الستائر التي يهزها الهواء عند أحد الأركان فاتجهت دون تفكيرٍ إلى هناك، أطلت برأسها من الفرجة الصغيرة المتروكة بين الستائر المتحركة لتجد ضالتها المنشودة، تنفست بارتياح لكونها قد وجدت الشرفة هادئة، خطت مسرعة للداخل ووضعت هاتفها على أذنها دون أن تتأكد جيدًا من خلوها، سدت "هالة" يدها الأخرى أذنها لتمتكن من سماع صوت والدتها بوضوح وهي تهتف عاليًا بنبرة تلفت الانتباه:

-ألو، أيوه يا ماما!

تفاجأ "يامن" المنزوي في أقصى الشرفة الدائرية بتلك الفتاة بسيطة المظهر التي اقتحمت خلوته الخاصة دون سابق إنذار، اعتقد من مظهرها المحلي أنها ربما أحد الخدم ممن يعملون هنا، أسرع بإطفاء سيجارته المشتعلة خشية افتضاح أمره بالتدخين سرًا في فيلا "أوس الجندي" الذي لن يتهاون في تلك المسألة تحديدًا، وبخطوات حذرة للغاية، تكاد لا تكون مسموعة، سار نحو الطاولة الزجاجية القصيرة ملتقطًا كأس مشروبه البارد مدعيًا ارتشاف ما فيه، وقف خلف الفتاة مصغيًا إليها وهي تردد بنبرة مضطربة وربما خائفة:

-ماشى، حاضر والله، طيب خلاص، على طول أهوو، سلام يا ماما!

أنهت "هالة" الاتصال معها مخرجة زفيرًا مزعوجًا من صدرها، ثم التفتت بغتة بجسدها للخلف لتصطدم بصدر ذلك الشاب الغريب عنها بكفيها جاعلة يده تهتز وتلقي بما في الكأس على سترته الرمادية الباهتة، كتمت شهقة مذعورة حينما أدركت ما فعلته دون قصدٍ منها، سيطر عليها في لحظة ارتباكًا مذعورًا، ضمت يديها إلى فمها مترجعة عنه بعد أن رأت عينيه اللاتين تحملان نظرة أربعتها معتذرة بحرج كبير:

-أنا أسفة جدًا، والله ما أعرف إن في حد هنا!

نفض "يامن" يده التي تلطخت بالمشروب في الهواء قائلاً بضيق واضح:

-مش تاخدي بالك!

تخرجت للغاية من الضرر الكارثي الذي أحدثته في سترته، لذا كررت اعتذارها هامسة بارتجاف خجل:

-أنا أسفة

انحنى للأمام ليسند الكأس على الطاولة ثم انتزع سترته ليبرز جسده الرياضي المنضبط في تنسيق عضلاته هائفاً بنبرة متدمرة:

-ناقص أنا البهدة دي!

تضاعف ارتباكها من ذلك الموقف المخزي الذي وضعت نفسها فيه بسبب غباؤها المتهور، فلو انتهت لوجوده منذ البداية لما كانت ترتجف هكذا خزيًا، راقبته بعينين قلقتين وخائفتين في نفس الآن منتظرة ردة فعله التي ربما لن تكون سارة، رفع "يامن" عينيه ليحديق بها بجمود ثم أشار نحو كأس مشروبه البارد قائلاً بصيغة أمر:

هاقي حاجة فريش بداله

امتزج توترها المرتعد مع صدمتها من جملته الأخيرة فزوت ما بين حاجبيها مرددة باستغراب متعجب:

نعم

رمقها بنظرة متعالية وقد عبس وجهه متابعًا:

-واضح إن فهمك بطيء، زي تصرفاتك، هاتي عصير فريش مكان اللي وقعته عليا وشوفيلي مناديل ولا

أدركت "هالة" ما الذي يرمي إليه بأمره الصارم وكلماته الحادة بفطنتها التي تميزت بها عن إخوتها، هو حكم عليها من مظهرها بأنها الخادمة المتواضعة التي أساءت التصرف مع أحد ضيوف المكان، أزججها تفكيره فيها بذلك الشكل كثيرًا، بل إنه طغى على حرجها منه، كانت كمن ينازع شيئًا بداخله وهي تكبح نوبة بكاء وشيكة، رفعت رأسها للأعلى لترد بكبرياء رغم اهتزاز نبرتها:

-أنا مش الشغالة هنا

رمقها بنظرة متعجبة، ابتلعت ريقها مستشعرة تلك الغصة المريرة التي علقت في حلقها ثم أضافت بعزة نفس:

-وان كنت غلطت ووقعت عليك حاجة، فأنا بجد أسفة، مكانش قصدي

رأى "يامن" بوضوح تلك العبرات التي تتقاتل للنزول سريعًا من حدقتها المتوترتين، اختنق صوتها بدرجة كبيرة وهي تكمل:

عن إذنك

أطرق رأسها متحاشية عينيه المتطلعيتين إليها بغرابة وفضول، اندفعت إلى خارج الشرفة كاتمة بصعوبة عبارتها وشهقاتها بعد أن شعرت بالمهانة والانتقاص من قدرها مع ذلك المتكبر الذي منحها بنظرة جامدة وعبارات لازعة تعاسة جديدة أفسدت خططها البسيطة لتلك الليلة، شيعها "يامن" بأنظاره حتى اختفى طيفها، ضاقت حدقتها متسائلاً مع نفسه بحيرة:
دي مين أصلاً؟!

الفصل الخامس عشر

اندفعت للخارج وعبراتها الموجعة تتسابق للنزول من طرفها، كففت بقايا دمعاتها سريعاً بأناملها المرتجفة قبل أن تلتقطها الأعين فتشير فضول أحدهم، لكن احتفظت عيناها بتلك الحمرة البائنة، تنفست "هالة" بعمق لأكثر من مرة لتضبط انفعالاتها، فكم شعرت بالمهانة والخزي لمجرد الحكم عليها من مظهرها البسيط بأنها خادمة بائسة، ولما لا تحزن وهي بالفعل هكذا؟ فقط لم تعتد أذناها على سماع تلك الكلمات القاسية، رأتها "بطة" فاقتربت منها، دقت النظر في تعبيراتها المنكسرة متسائلة باستغراب:

-في إيه مالك؟

أجابتها باقتضاب فخرج صوتها إلى حد ما مختنقاً:

-ما فيش!

تفرست فيها "بطة" بجدية أكبر، فقد كان ردها غير مقنع لها، عادت لتسألها بجدية دون أن تبعد نظراتها المتفحصة للمحاثات الحزينة عنها:

-أومال وشك عامل كده ليه؟

بهت "هالة" قليلاً وهي تحاول اختلاق كذبة ما تكون مرضية لفضول أختها، فلا حاجة بها لاستعادة ذلك الموقف السخيف الذي زجت بنفسها فيه وسرده عليها لتتلقى اللوم منها، وربما التوبيخ لتصرفها الأخرق منذ البداية، تهدت ناطقة:

في حاجة دخلت عيني طرفتها جامد

مطت فيها وبدت عيناها الثابتان تتفحصاها باهتمام، تراجعت عنها قائلة بزفير قصير:

طيب، ابقى خلي بالك، ويا لا عشان هيطفوا الشمع

هزت رأسها في استسلام لتتبعها مرددة بخفوت حزين:

حاضر

أخفضت نظراتها نحو حقيبة يدها الجلدية باحثة بداخلها عن منشفة قطنية لتجفف بشرتها المبتلة، وتزيل ما علق في أهدائها من عبرات، زفرت ببطء آملة أن يمضي ما تبقى من الليلة على خير.

.....

أخرج منديله القماشي الأسود الذي يتطابق مع لون قميصه لمسح به ما تناثر من قطرات المشروب عليه، استرعى فضوله تلك الفتاة الصغيرة التي بدت على وشك الانهيار بأكية لمجرد خطأه في تحديد هويتها الوظيفية، كانت ردة فعلها مبالغ فيها، حرك رأسه بتعجب مستنكر، كان ممتناً لكون قميصه داكناً فلم تظهر آثار البقع عليه، استقام "يامن" في وقفته مردداً مع نفسه:

حالة غريبة، مشوقتش في حياتي كده!

شعر باهتزاز هاتفه في جيب بنطاله، أخرجه من جيبه لتتحول تعابيره للانزعاج لمجرد رؤية اسمها يصدح على شاشته، نفخ مطولاً قبل أن يجيب على اتصالها المريب:

-أيوه يا "رغد"

أصغى لصوتها الحاد الذي سبب الأذى لأذنه لصراخها، تهدت قائلاً:

موجود عند "أوس"، في حاجة حصلت؟
التوى ثغره للجانب فكان ممتعضاً وهو يجيب بآلية على أسئلتها المتعاقبة:
-وكان عرفتني إنه نقل مكان جديد!
أبعد الهاتف عن أذنه ليتجنب صرخة مزعجة ألمته، وضعه من جديد مردداً بنفاذ صبر:
حاضر، مش ناقصة نرفزة، هابتلك اللوكيشن في رسالة!
اتسعت حدقتاه باندعاشة عجيبة وقد أغلقت الخط دون أي مقدماتٍ، استشعر كارثة خطيرة
على وشك الحدوث، دس الهاتف في جيبه مُحدثاً نفسه بتوتر انعكس في نبرته ووجهه:
-شكل الليلة مش هاتعدي على خير!
علق سترته بعد أن طواها على ذراعه ثم خطى يتمهل إلى الخارج ليشارك في حفل عيد الميلاد
السخيف من وجهة نظره.

.....

خبت الأضواء قليلاً مما جعل وهج الشمعة يظهر بوضوح، تجمع الضيوف حول المائدة
المستطيلة ليشاركوا العائلة الغناء للرضيعة التي أتمت عامها الأول، صفق الجميع بعد انطفاء
الشمعة لئضاء الصالة من جديد، احتضن "أوس" زوجته بذراعه هامساً لها بنبرة ممتية وعينية
تعبران عن حب شغوف:

-كل لحظة وإنتي حياتي

هددت صغيرتها قبل أن تطالعه بنظرات هائلة عشقاً من عينيها الزرقاوتين قائلة بوجه متورد:

-ربنا يباركلنا فيها يا حبيبي

ضم الاثنين إلى صدره ليحتويهما متابعاً بصدقٍ نابعٍ من قلبه النابض بعشقها الأبدي:

-بأحبكم

راقبت "هالة" الموقف الرومانسي لأفراد العائلة بابتسامة ناعمة تكونت على شفيتها وبنظرات أقرب للولاه، أحست بصدق المشاعر النابعة من الزوجين، فبالرغم من المآسي التي عانت منها "تقي" بسبب جبروت زوجها وتسارعه الخيف إلا أنها في النهاية حظيت به زوجًا محبًا عاشقًا بها، يبدل ما في وسعه لإسعادها، تمت لو قابلت مستقبلًا من يهيم بها ويحبها حتى النخاع، أفادت من تحديقها الشارد بهما على صوت أختها الأمر بجديّة:

روحي هاتي الهدية، أنا حطّاه على الكنبه اللي ورا
أومات برأسها إذعانا لطلبها وهي ترد:

ماشى

التفت بجسدها للخلف مندفة بتعجلٍ وبلا تفكيرٍ نحو الأريكة الموضوع بها الهدية المغلفة، كان عقلها مشغولاً فلم تر إلى أين تخطو، لذا اصطدمت دون عمدٍ بذاك الذي كان سائرًا في نفس اتجاهها، وجدت نفسها واقعة في أحضانه، بل وكفأها مستندان على صدره، كتمت شهقة خافتة وحرجة منه، اشتعل وجهها مرة أخرى، اعتذرت سريعًا قبل أن ترفع وجهها نحو الشخص الذي ارتطمت به:

أسفة!

أمسك بها "يامن" من كتفها ليعدها في وقتها، طالع وجهها المألوف الذي التقاه قبل برهة بنظرات مصدومة، لكن تبدلت تعابيره للابتسام مرددًا:

إنتي!

انفجرت شفاتها في صدمة أكبر منه، وتضاعفت الحمرة التي احتلت بشرتها بالكامل لتبدو أكثر حرجًا عن ذي قبل، استقام "يامن" في وقفته لتظهر عليه لمحات الغرور وهو يقول ممزحًا:

ده إنتي مستقصديانى بقى

حملت فيه باندهاش متوترٍ، فتابع مبتسمًا ليخفف من حرجها معتقدًا أنها ربما تنفجر بأكية إن أخطأ في هويتها:

خذني بالك يا آنسة

لم تجد "هالة" ما تعلق به عليه، ظلت نظراتها الخجلة متجمدة على وجهه المتسلي بالتطلع إليها وكأنها كائن غريب يدفعه فضوله الغريزي لتفحصه ودراسته باهتمام، لم تعرف ما الذي تفعله أو كيفية التصرف في ذلك الموقف الذي تكرر مرتين، وكانت هي المتسببة فيه، بدت لوهلة ضائعة، متخبطة، مترددة، وعاجزة عن التفكير، وهو لم يتوقف عن رمقها بتلك النظرات الغريبة التي كانت تخترقها وتزيدها تخبطًا، انتفضت على إثر الصوت الأمر القادم من خلفها:

يا لالا يا "هالة"!

استدارت برأسها لتجد أختها تلوح لها بذراعها لتتوقف عن التلکؤ وإضاعة الوقت، ردت عليها بنبرة مهتزة:

ط.. طيب

داعب "يامن" طرف ذقنه وهو يتنحى للجانب قليلاً لتمكن من المرور قائلاً لها بتهذيب:
-تفضلي، مش هاقف في سكتك!

خطت بارتباك بجواره وهي متيقنة أن نظراته ما زالت ترافقها، انحنى ملتقطاً الهدية ثم تحركت بعيداً عنه مفضلة ألا تمرق على مقربة منه، ورغم هذا ظل وجهها يبعث تلك السخونة الحرجة، وعلى قدر الإمكان تحاشت النظر في اتجاهه مفضلة الاختباء خلف أختها الكبرى.

.....

سارت أجواء الحفل بهدوء واستمتع الحاضرون بالترتيب البسيط لكل شيء، مرت "تقى" بين ضيوفها للتأكد من عدم وجود ما ينقصهم، بالطبع انزوى "أوس" عند الجانب ليتحدث مع "يامن" وبعض أقربائه عن الصفقات والاتفاقات الأخيرة، أوشكت "هالة" على الانتهاء من تناول قطعة الحلوى بالشوكة، لاكت البقايا الأخيرة بتعجل حينما مالت عليها "بطة" لتقول لها بجدية:

-بأقولك إيه "عبد" اتصل بيقولي عمته تعبت وودوها المستشفى

ردت بأسف:

يا ساتر يا رب

تابعت "بطة" قائلة بوجهٍ ممتعض وملامح قلقة:

-أنا مش هاينفع أسويه لوحده

علقت عليها أختها موافقة إياها في الرأي:

-الي تشوفيه يا "بطة"

أشارت لها بعينها مكلمة:

-بصي احنا خلاص عملنا الواجب، نقوم نمشي، مالهاش لازمة أعدتنا هنا

سألتها "هالة" مستفسرة:

حطب هاتقول لـ "تقى" عشان تبعت معانا العربية ترجعنا؟

هزت رأسها بالنفي وهي ترد:

-لا، بلاش نتقل على الجماعة، احنا أول ما نطلع من الحتة دي نركب أي مواصلة من على أول الشارع الرئيسي!

اكتفت "هالة" بالإيماء برأسها، ثم نهضت من مكانها واضعة الصحن الفارغ على الطاولة، وفي أقل من دقائق كانت كلتاهما تسيران نحو الخارج بعد توديع "تقى" ورضيعتها، وبدون أن تنتبه جيدًا لكزت "بطة" بكتفها تلك الضيفة المتأخرة التي كانت تصعد بغنج متدلل الدرجات الرخامية، هتفت معذرة دون أن تلتفت نحوها:

-لا مؤاخذه

رمقتها "رغد" بطرف عينا بنظرات مشمئزة مزعوجة من تلك الشابة السوقية التي تجرجر نفسها وهي تحمل في يدها رضيعًا بثيابٍ بدت وضيعة للغاية، ناهيك عن الفتاة الأخرى الملتصقة بها والتي كانت أقرب لخادمة منها إلى شابة، ارتسم على تقسيحاتها المتغطرة علامات

التأفف والنفور، لكن أوحى لها مظهرها بشيء ما، بل أكد لها ما تنامي إلى مسامعها من معلومات شيقة عن أصول زوجة ابن عمها، فكرت بذكائها أن تستغل ما رأيته للتو في تحفيز عقلها وشحنه لتفتعل مشكلة فتفسد الأجواء اللطيفة معلنة بذلك بدء الحرب الضروس مع قطب عائلة "الجندي".

خطت للداخل تجوب بعينين حادتين لكنهما قاسيتين كل ركن في تلك الفيلا الفاخرة، تحولت نظراتها للحق والغيظ وهي تتأمل بنفسها كم الترف والثراء الفاحش الظاهر في كل شيء بدءاً من الأرضيات وانتهاءً بالأثاث والثريات والتحف والأنتيكات، وقعت نظراتها على "ليان" التي كانت تكرر ضاحكة، انخفضت نظراتها لتلاحظ ذلك التورم الخفيف الملموس على بطنها، انتابها الفضول لمعرفة سببه، فعلى ما تذكر أن تلك الطائشة مهوسة بصيحات الموضة والجسد المثالي، ولكن التواء الشاذ الذي برز بوضوح من أسفل ثوبها الضيق جعلها تشك في احتمالية حملها، ستترك الأمر جانباً لتتحرى عنه لاحقاً، فهي الآن لديها مهمة خطيرة ومرعبة، بحثت بدقة عن خصمها فوجدته يقف بشموخ إلى جوار إحداهن وهي تحمل رضاعة بين ذراعيها، لم تكن بحاجة لتخمين هويتها، فلمساته المداعبة لوجتها وكذلك ميله نحوها أكد لها أنها زوجته، تقوس ثغرها ببسمة شيطانية لئيمة، تمت مع نفسها بخبث:

جه وقت اللعب اللي بجدا!

اقتربت بخيلاء من ثلاثتهم متعمدة أن يصدر حذائها العالي صوتاً مزعجاً، شبكت ساعديها أمام صدرها بعد أن وقفت بينهما لتقول من زاوية فيها بنبرة أقرب للسخرية عنها للتهنئة:

هايي بيرزداي

تفاجأ "أوس" بحضورها غير المرغوب فيه، نظر لها شزراً متأملاً بنظرة شمولية سريعة هيئتها الصارخة والفاضة، فقد ارتدت "رغد" ثوباً أحمر اللون، عاري الصدر والكتفين، يبرز مفاتها الأنثوية بصورة فجّة مثيرة للغرائز لدى الجنس الآخر، ويكاد يلامس حافتي ركبتيها، ناهيك عن كم مساحيق التجميل التي تفننت في وضعهم على وجهها لتبدو كدمية ملونة أو فتاة ليل رخيصة —من وجهة نظره، ومع ذلك لم يتأثر بذلك الابتذال الرخيص منها، مدت ساقها للأمام قليلاً

متعمدة أن تولي ظهرها لتقى لتشعرها بازديادها نحوها وتجاهلها المقصود لها، ركزت "رغد" نظراتها المتهكمة على وجهه لتقول بعتابٍ مصطنع:

-بقي كده يا "أوس"، مش كنت تعزمي؟

رمقها بنظرة احتقارية متعالية ليرد بعدها ببرود:

-مع إن المفروض أعمل كده، بس معاكى لأ

نظرت لها "تقى" بحيرة، فهي لم تستشف هويتها بعد، لكن أنبئها حدسها الأثوي أن وراء تلك المرأة خطب ما، عقت عليه "رغد" بعدم أكثرٍ وكأنها لا تبالي مطلقًا بانزعاجها من وجودها أو حتى ردوده الوقحة:

-عادي، أنا ماليش في الجو السخيف ده!

ثم دنت منه خطوة لتقلص المسافات بينهما قاصدة التصرف بجرأة أمام عيني زوجته لتثير غيرتها النسائية وكذلك لتشعرها بكونها على الهامش لا يشكل حضورها فارقًا معها، مدت يدها لتلمس طرف سترته مداعبة كتفه وهي تضيف بدلالٍ سخيف:

-بس كان لازم أشوفك النهاردة، إنت أكثر من ابن عمي

تجهمت تعابير "أوس" من تصرفها المتطاوّل معه، وبدون ترددٍ أزاح يدها بعيدًا عنه وكأنها جربة سيطاله منها عدوى ما، في حين جحظت "تقى" بعينها مصدومة من فعلتها الجريئة وتعاملها بكل ذلك التجاوز مع زوجها، اكتست حدقتها بحمرة مغتظة منها، وقبل أن تتحرك شفتها لتوبخها التفتت "رغد" نحوها مرددة بنبرة ساخرة للغاية:

-دي المدام بقي؟!

فاض به الكيل من فجاعتها، بل اشتعلت نيران حنقه على الأخير ليرد هادرًا بشراسة من بين أسنانه المضغوطة:

-ميخصكيش

وكان غضبه المندلع لا يساوي عندها شيئاً، ظلت نظراتها الدونية مسلطة على "تقى" لتشعرها بضآلتها وبعدم ملائمتها لشخص مهيب ذو قوة وثقوز مثل "أوس الجندي"، مطت "رغد" فمها لتقول بتأفف:

-ممم.. حاجة أوريجنال خالص

لمها "يامن" من على بعد فتوجس خيفة من رؤيتها، اقترب سريعاً ليرحب بها وهو يجوب بنظراته الوجوه المختلفة في التعبيرات:

-أهلاً "رغد"

نظرت له أخته شزراً من طرف عينها قبل أن ترد ببرود مستفز:

خليك على جنب

أحرجته بوقاحة وبرود بأسلوبها الفظ في الحديث، أدرك أن مجيئها سيكون لعنة على أصحاب المنزل، لذا الأسلم له عدم التدخل في مشكلاتها الخاصة والابتعاد عن مصائبها، بالإضافة إلى أن ابن عمه جدير بالتعامل معها بكفاءة ودون مساعدة، رفع "يامن" كفيه في الهواء مردداً بضيق:

-براحتك، إتي حرة، سلام!

انسحب كما جاء دون إضافة المزيد تاركاً الجميع على أهبة الاستعداد للتراشق اللفظي وربما أخطر من ذلك، فضل عدم البقاء في الحفل حتى لا يكون شاهداً على مشاجرتهم، فاتجه نحو باب الفيلا دون أن يلتقي بالاً لما يمكن أن تفعله أخته، تحرك "أوس" نحو زوجته ليلف ذراعه حول كتفها، ضمها إلى صدره متسائلاً بخشونة:

-جاية ليه؟

تجمدت نظرات "رغد" على وجه "تقى" المتوتر، بالنسبة لها كان جمالها مستفزاً، باهتاً، جديراً بهز ثقتها وإشعارها بأنها مصطنعة، وما زاد من إحساسها الداخلي بالغيظ والغليان هو دعم "أوس" لها ووقوفه إلى جوارها وكأنه درعها الواقي الذي سيدود عنها إن تعرضت لخطر ما،

استشاط غضبها لمجرد التفكير في ذلك، لكن براءة وتريث أخفت حنقها لتبدو كجبل جليدي أمام أنظارهما المتقدة، استعادت في عقلها صورة الفقيرتين اللاتين التقت بهما مصادفة عند المدخل فأظهرت ابتسامة متهمكة على زاوية فمها وهي تسأله بوقاحة:

هي دي بقى اللي حاربت أهلك عشانها؟

توهجت عينا "أوس" ببريق مخيف، ذاك الذي تهاب التطلع إليه، ورغم هذا لم تهتز منها شعر، بل أضافت بقسوة متعمدة سكب الزيت على النيران المستعرة:

-كنت مفكراها نزوة زي تلمي

صرخ بها بصوت خشن غاضب وجمهوري محذراً إياها من التماذي برعونة في الهجوم على زوجته:

-لي لسانك

أشارت "رغد" بسبابتها نحوها مضيفة ببرود ومدعية الضحك:

مع إن شكلها لوكال أوي، وحاجة يجمع!

رفع إصبعه أمام وجهها يحذرهما بلهجة أشد قوة وقد بلغ ذروة غضبه:

- "رغد"، ولا كلمة

واصلت ازدرائها على "تقي" مكلمة بتأفف لتشعرها بدونيتها:

-بقى "أوس" باشا "الجندي" صاحب العز والهيلمان الكبير ده كله واحدة بيئة زي دي توقعه،
بجد هزلت!

أرخی "أوس" ذراعه عن كتفي "تقي" ليتقدم خطوة للأمام في مواجهتها هادراً بتشنج وقد احتقنت دماؤه الشائرة في عروقه:

-اخرسي أحسنلك!

كتفت ساعديها أمام صدرها متابعة تهكمها الصارخ:

ذوقك اتغير أوي، أو جاوز إنت اللي غاوي رمرمة من الشارع

تجاوز "أوس" آخر حدود صبره، ولم يعد للسكوت تواجدًا لديه، رفع ذراعه عاليًا في الهواء، ثم بكل قسوة وكراهية هوى به على وجنتها ليصفعها بشراسة، تألمت من شدة الصفعة المباغتة واهتز جسدها بالكامل فارتدت للخلف كردة فعل لا إرادية، اشتعلت نظراتها صائحة به وهي تكز على أسنانها:

آآآآ، بتضريني

قبض على ذراعها غارًا أصابعه القوية في لحمها قاصدًا إيلاها بقوة، دفعها وسط الحضور المذهولين من طريقة جره المهينة لها هادرًا بها على مرأى ومسمع من الجميع:

-برا، وإلا هريمكي بنفسي!

كانت مقاومتها له معدومة أمام اندفاعه العدواني الشرس، هدرت به بصوتٍ مختنق:

-إنت اتجننت بتمد إيدك عليا؟

رد بعدائية صريحة متعمدًا أن يسمع الجميع إهائته القوية لها:

-وهزقك قصاد الموجودين، مراقي خط أحمر، وإتي مكانك تحت جزمته!

صاحت تتوعده ببقايا كرامة جريحة ومبعثرة:

-هدفك تمن ده غالي

دفعها بعنفٍ أكبر للأمام ليرميها خارج فيلته، فلا مكان لمثيلاتها المتعجرفات والمسيئات إلى زوجته، أطاح بها بقسوة مضاعفة فانكفأت على وجهها وهو يصرخ من خلفها بانفعالٍ كبير:

-برا!

تألمت "رغد" بشدة من قوة السقطة، جُرحت رُكبتها وأُفسد ثوبها، التفتت بوجهها المشتعل بحمرته الغاضبة لتجده قد صفق في وجهها لترداد غليانًا، استندت على كفيها لتهض وهي تتوعده:

هوريك يا "أوس"، وابقى خلي الزبالة دي تنفعك !!

الفصل السادس عشر

أهدرت كرامتها وكبريائها في لحظة فألقيت عند الأقدام كالذليلة لتطاولها المتعمد على زوجة ابن عمها البائسة، كانت كمن يغلي على موقد مشتعل وهي ترى الخدوش النازفة في ركبتيها، ناهيك عن فضحها علناً أمام حثالة القوم، هبت واقفة على قدميها نافضة يديها مما علق بهما، جذبت ثوبها القصير للأسفل، استقامت واقفة لتسير بتكبر وخيلاء وكأن شيئاً لم يحدث لها، تجمدت "رغد" في مكانها مصدومة حينما رأت أخيها مستنداً على جانب سيارته يصفق لها بيديه وهو يقول بسخرية:

ـبرافو، ده اللي كنت متوقعه من "أوس" معاك!

كانت بحاجة للتنفيس عن غضبها المكبوت بداخلها، وربما وجوده بالخارج وفي ذلك التوقيت الحرج قد يزيد الوضع تأزماً، احتقنت نظراتها وهاجت دماؤها من كلماته المستفزة لها، رمقته بنظراتٍ نارية هادرة به وهي تشيح بسبابتها في وجهه:

ـاسكت خالص

اعتدل في وقفته مطالعاً إياه بعينين جامدتين لا يبدو عليه التأثير بالمهانة التي تعرضت إليها،
تحدث من زاوية فمه معلقاً:

-أنا مرضتش أَدْخُل من الأول، وسيتك تتعامل معاه

لاح شبح ابتسامة متهمكة وهو يكمل:

-ودي كانت النتيجة

صرخت فيه بانفعال:

-ده بدل ما تدافع عن أختك!

هز كتفيه في عدم مبالاة مبرراً حياديته التامة:

-إنتي اللي طلبتي أبعد، شكل الوقعة نستك!

لكزته في كتفه بقوة لتندفع للأمام هاتفة به بنبرة متعصبة:

-حاسب من وشي

شيعها بنظراته وهي تتجه نحو سيارتها محذراً إياها بجدية واضحة:

- "رغد" افتكري إن "أوس" مش أي حد يقدر عليه

التفتت نحوه لترمقه بنظرات تحمل كرهاً مضاعفاً، ثم ردت عليه قائلة من بين أسنانها المضغوطة:

-اللي بتكلم عنه ده هاعرف أجيبه تحت رجلي مذلول

بدا حديثها فارغاً فرد بفتورٍ ليزيد من حالة الغليان الواضحة عليها:

صدقيني مش هأحصل

استشاطت "رغد" من بروده اللا متناهي فهدرت به متعمدة إيذائه بكلماتها الجارحة:

-كفاية إنك واحد جبان شايف أختك بتتهدل وواقف تتفرج

ورغم إهانتها القوية له إلا أنه رد ببرود وبوجه جليدي خالي من أي تعبيرات مزعوجة كأنما في نفسه ثورة تقاتل لتندلع:

-إتي اللي أخرجتي نفسك معاه، ماتلوميش غيرك على أخطائك
رمقته بنظرة نارية تود الفتك به ثم فتحت باب سيارتها متممة بغل:
-كلامي معاك زي قلته

انطلقت بسيارتها محدثة صوتًا مزعجًا وهي تستدير بها مبتعدة عنه، تابعتها "يامن" بعينه مرددًا بسخط:

غبية، هاتضيع نفسها عشان ولا حاجة!

.....

كانت خطواتها أقرب للركض عن السير الطبيعي، فأختها كانت على عجلة من أمرها، وبصعوبة واضحة لم تستطع رؤية سيارة أجرة تمر من ذلك المكان الحديث الإنشاء، تلفتت "بطة" حولها بنظرات مزعوجة محاولة تدقيق النظر في السيارات المارة بجوارها، غمغت بضيق وهي ترفع رضيعها للأعلى قليلاً:

-إيه الهو (مكان خالي) ده!

ردت عليها "هالة" متسائلة بصوت شبه لاهث:

-مافيش مكروباصات بتعدي من هنا ولا إيه؟

علقت عليها بوجه لا يخلو من علامات الامتعاض:

-بتاع الأمن قال في قدام، بس أنا مش شايفة حاجة

استمرت كلتاها في المشي بهرولة حتى ظهر في الأفق عدة حافلات متوسطة الحجم للأجرة، تنفست "بطة" الصعداء لكون الحارس الأمني قد أصدقها القول حينما سألته، هتفت بلهجة أمرة ظهرت في صوتها:

مدي رجلك شوية

انصاعت "هالة" قائلة باختصار:

ماشى

توقفت الاثنتان عند إحدى الحافلات، سألت "بطة" السائق عن وجهته فأخبرها بإيجاز عن طريق السير المعتاد، انتقت الأقرب للمشفى الحكومي الذي تقصده، وقبل أن تستقل المقعد الخلفي تأكدت من ركوب أختها في العربة الأخرى التي ستوصلها إلى أقرب نقطة يمكنها اتخاذ وسيلة مواصلات أخرى تقلها إلى منطقتها الشعبية، لوحت لها بيدها مؤكدة بشدة:

خدي بالك من نفسك، وأما توصلي كلميني، وطمني أمك عليا، ماشى

أومات "هالة" برأسها قائلة:

حاضر، وإتي طمينينا على عمة "عبده"

زمت شفيتها لتقول بيأس:

ماشى، وربنا يستر وما نسمعش حاجة وحشة!

انطلقت بعد لحظات الحافلات التي امتلأت بالركاب إلى وجهتها المعروفة مسبقًا، دون أن تدري "هالة" أي حظ عاثر ينتظرها.

.....

لم تكن مجرد عبارات مهينة أرادت بها استفزازه فقط، بل كانت أيضًا كلمات جارحة موجهة إلى شخص زوجته تحديدًا لتسببها بالدونية والنقص مزعومة المحبة والثقة التي غلفت قصة حبها غير التقليدية، من يتطلع إليها خلال تلك المشادة الحامية يظن أنها سلبية، عديمة الشخصية، لا تتمتع بالشجاعة الكافية للكيل بنفس المكيال الذي ذاقته منه تلك الجمل اللاذعة، لكن بداخلها كانت تتقد حنقًا وغضبًا، ورغم هذا خاتمتها الكلمات وتجمدت على طرف لسانها ليتضاعف بداخلها إحساسها بالعجز وقلة الحيلة، لم تكن قد أفادت بعد من صدمة تبعات انفعالها السابق على "أوس" لتتجرع مجددًا من نفس الكأس ولكن بمرارة أشد.

بالفعل نجحت "رغد" في إحداث شرخًا عميقًا في نفس "تقى" المهتزة، أوحى لها على الملأ أن علاقتها بزوجها علاقة غير متكافئة بالرغم من الروابط والصلات العائلية التي تجمع بينهما وغفلت عنها ابنة عمه، انهارت بأكية تذرف الدمعات الساخنة على جرحها بتلك الصورة المهينة التي أوضحت بجدارة عن مدى الفارق الطبقي والاجتماعي بين الاثنين، ركضت هاربة من الأعين التي تتابعها باندھاش مصدوم، لحق بها "أوس" قاصدًا لإيقافها وهو يناديها بصوته المتشنج:-
"تقى!"

وكأنه يحدث نفسه، لم تستجب لندائه المتكرر وهرولت صعودًا على الدرج لتفر منه ومن الجميع قاصدة الاختباء في غرفتها، أوصدت الباب خلفها بالمفتاح، وخارت مع رضيعتها التي بكى هي الأخرى بدون سبب على الأرضية، دقت "أوس" الباب بقبضته المتكورة هاتفًا بهدوء زائف وبصيغة أمرة:

-افتحي يا "تقى"

صاحت من بين بكائها المير الذي يقطع نياط القلوب:

-سيبني لوحدي يا "أوس"، مش عاوزة أتكلم مع حد

دق الباب مجددًا وهو يقول بإصرار:

-ماشي هاسيبك، بس لما تسمعيني الأول!

هزت رأسها نافية وقد ارتفع نواحها:

-كفاية اللي سمعته، عشان خاطري ابعد عني دلوقتي، مش عاوزة أشوف حد!

لم يرغب في الضغط أكثر من ذلك على أعصابها المحطمة جراء المواجهة غير المنصفة مع حقيرة مثل ابنة عمه التي لن تتوانى للحظة عن مضايقته وإلحاق الأذى بعائلته، انخفضت نبرته وهو يتوعدها بشراسة:

-هتندمي على كل حرف قولتيه في حق مراقي يا "رغد"، مش هارحمك!

.....

لم يكن المدعون إلى الحفل بحاجة إلى إعلانٍ صريحٍ بالانصراف بعد الموقف الحرج الذي دار نصب أعينهم، انسحبوا واحدًا تلو الآخر من المكان، وتولى "عدي" مهمة توديع الضيوف – ومن ضمنهم عائلة تقى - حتى لم يعد باقيا سوى زوجته التي بدت واجمة للغاية، حددت "ليان" في الفراغ بشروء، كان كل شيء مثاليًا حتى أتت "رغد" وأفسدت بحضورها الأجواء لينتهي الحفل المبهج نهاية مزعجة للجميع، حزنّت لرؤية "تقى" في وضع مخزٍ كذاك الذي واجهته، استندت برأسها على راحة يدها حتى جاء إليها زوجها، اعتذلت في جلستها هاتفة بضيقٍ لم تستطع كبحه أكثر من هذا:

- "رغد" دي مجنونة، مش إنسانة طبيعية!

هز "عدي" رأسه موافقًا وهو يرد:

ما هي جاية عشان تبوظ السهرة

ردت بنبرة شبه منفعة:

- كان باين عليها، عمرها ما هتتغير، لما حد يضايقها لازم تعمل أي حاجة عشان تفضحه وتقلل منه قصاد الناس، طبع مش غريب عليها

تكونت تكشيرة جانبية ساخرة على زاوية فم "عدي" حينما قال:

-بس "أوس" علمها الأدب

زفرت "ليان" مضيفة بتوترٍ وقد بدأت في هز ساقها بعصبية:

-وهي مش هاتعدي اللي حصل ده على خير

جلس زوجها على طرف المقعد ليحاوطها من كتفها، تهدد موضحًا بنبرة عقلانية

هي اللي بدأت، فلابزم تستحمل نتيجة عمايلها

ردت يارهاق:

-أيوه

تأمل "عدي" ملاحظها المتعبة فشدد قليلاً من ضمه لها وهو يطلب منها برفق:

خلينا نروح، إتي شكلك تعبان

تمطت بكتفها محاولة إزاحة ذلك الثقل المؤلم على فقرات عنقها وظهرها قائلة بتنهيدة مطولة:

أه أوي، عاوزة أنام، دماغي مصدعة، وكمان اللي حصل وترني

تمام

قالها "عدي" وهو ينهض من مكانه جاذباً إياها بتريث من مقعدها لتتأبط ذراعه، سار الاثنان يتمهل نحو الخارج وهما يثرثران عما يمكن أن يحدث من تبعات خطيرة نتيجة هذا الصدام المريب.

.....

مالت برأسها على النافذة الملاصقة لها لتشرذ في تأمل الطريق الطويل شبه المعتم إلا من بعض الإنارات المبعثرة على الجانبين، ضمت "هالة" حقيبتها الجلدية إلى صدرها وكأنها درع يحميها ويمنحها الدفء، شعرت برجرجة خفيفة في حركة الحافلة، اعتدلت في جلستها وراقبت بعينين قلقيتين ما يحدث، قفز قلبها في قدميها خوفاً حينما صدح السائق صائحاً بخشونة من الأمام:

معلش يا إخوانا، الفردة شكلها عملتها

لم تفهم ما الذي يقوله وتابعت بنظراتها المتوترة ردات فعل الركاب، ما استشفته من هماتهم الساخطة أن إطار السيارة أفرغ ما به من هواء مما قد يسبب مشكلة كبيرة إن استمر السائق في قيادة حافله، أوقف الأخير حافله هاتفاً بجمود:

هي كده جابت أخرها، هتنزلوا هنا يا إخوانا، وأنا مسامح في الأجرة

تذمر أحدهم مردداً:

يا عم كل بينا لقدام شوية، قرب من حته عمار بدل المكان المقطوع ده

رد عليه السائق بصوته الأجش الجاف:

ده اللي عندي، العربية هاشحطها لحد أقرب ميكانيكي!

بالطبع اضطر الركاب على التزل من الحافلة بعد أن استحال تحركها، وجدت "هالة" نفسها في ورطة جديدة دون داع، انتابتها حالة من الخوف القلق وهي تفكر فيما ستفعله في ذلك المكان الموحش بالنسبة لها، حتى من كانوا معها في لحظات بدوا وكأنهم قد تبخروا، أصبحت بمفردها تبحث بذعر عن وسيلة أخرى تنقلها إلى مكان عامر بالسكان، سارت بحذر على أقصى جانب الطريق هامسة لنفسها بنبرة مرتاعة:

يا رب استر، عديها على خير

ارتجفت قدماها وكادت أن تتعثر لأكثر من مرة أثناء سيرها المرتعد، تلفتت كل ثانية للخلف لتتأكد من وجود ما يشير إلى وجود حياة بتلك المنطقة النائية، جزعت وشعب وجهها كلياً حينما سمعت أحدهم يغازلها:

ماشى لوحدهك ليه يا جميل؟

أسرعت في خطاها وقد انكمشت على نفسها أكثر، بدا الصوت قريباً للغاية منها وهو يقترح بنجبت:

عاوزه توصيلة؟

شعرت بجفاف عارم يحتاج حلقتها، بخفقان قوي في دقات قلبها، بالدماء قد هربت من عروقها، لم تكن الظروف في صالحها أبداً، تضاعفت رجفتها وازداد هلعها مما تتعرض له، انفلتت منها شهقة خائفة حينما توقفت أمامها السيارة لتسد عليها الطريق، تسمرت ساقاها في المكان ونظرت بحوظ لها، اتسعت حدقتها أكثر في رعب بعد أن انخفض الزجاج الجانبي للسيارة ليظهر أحدهم من خلف عجلة القيادة، طالعها ذلك المريب بنظرات جريئة من عينيه الحمراوتين واللاتين تشيران إلى تجرعه لمادة ما مُذهبة للعقل، التوى ثغره متسائلاً بعبثية جلية:

شكله نفضلك، صح؟ أنا موجود يا حلوة، مش عاوزه تركبي معايا؟!

بحثت "هالة" عن شجاعتها الغائبة لتتمكن من الفرار قبل أن يحدث ما لا يُحمد عقباه، أجبرت نفسها على الركض من جديد بعيدًا عن شبهه المرعب، لحقها ذلك الشخص بسيارته هاتفاً بنبرة عالية:

عيب تقضيها كعابي

صمت دقات قلبها المتلاحقة أذنيها، شعرت أنها أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الهلاك الحتمي، فلا محرب لها منه، وهي بالكاد قادرة على الدفاع عن نفسها، تدفق في عقلها الكثير من الذكريات المزعجة والتي تُشابه ما مرت به من قبل مع المقيت "منسي"، ارتعبت أكثر وأدركت أنها على وشك الوقوع في بئر مظلم لا نهاية له، فلم تختبر أبدًا ذلك القدر الهائل من الذعر المتواصل، انهمرت دمعاتها بكثافة وشوشت الرؤية لديها، حاولت أن تصرخ لكن انحسر صوتها وبدأ كنواح أكثر منه صرخات استغاثة.

في تلك الأثناء، كان "يامن" يقود سيارته على مقربة منها، فالتريق هو نفسه الذي تستقله جميع السيارات للعودة إلى قلب العاصمة، لمح بنظرات دقيقة فتاة ما تركض وسيارة تلاحقها ببطء وكأنها تتسلى معها، لم يكن مهتمًا في البداية بالأمر حتى تقلصت المسافات واتضحت معالم الفتاة، ارتفع حاجباه للأعلى مرددًا لنفسه باستغراب:

مش دي البنت إياها اللي كانت في الحفلة!

أبطأ من سرعته ليتأكد من هويتها ومحاولاً تفسير الموقف المثير للارتباك، ارتفع صوت الشاب العابث هادرًا:

ليلتنا زي الفل يا قمر!

صرخت "هالة" مستغيثة بمن ينجدها، وما سارع من وتيرة الموقف هو التفات قدميها وتعثرها، هامت على وجهها وتغبر جسدها بالتراب المتراكم على الإسفلت، أطلق الشاب ضحكة عابثة جلجل صداها وملأ سكون المكان، أدرك "يامن" على الفور ما يسعى إليه ذلك الحقير دون حاجته للتخمين أو للتفكير مرتين، ضغط على دواسة البنزين ليزيد من سرعة سيارته متجاوزًا سيارة ذلك الشاب، ثم التف حولها قبل أن يوقفها فجأة معترضًا بمقدمتها طريقه، صرخت

"هالة" بارتياح من الموقف برمته، انزوت متجمدة في مكانها وهي تراقب بنظرات زائغة حصار السيارات لها، فمن الممكن أن تكون الضحية التالية تحت إطار إحداها، هدر الشاب العابث ملوحًا بذراعه بوجوم:

بالراحة يا كابتن!

كان "يامن" على دراية بما يمكن أن تفعله المواد المخدرة برؤوس مُدمنها، لذا لم يكن خيار الحديث السلمي والنقاش مع أمثالهم مطروحًا لديه، بدون تردد مد "يامن" يده نحو تأبلوه السيارة ليفتح الدرج السفلي، أخرج منه سلاحه المرخص الذي لم يكن يستعمله إلا نادرًا وعند الطوارئ، ترجل على الفور من السيارة مشهراً إياه في وجهه وهو يصيح بنبرة واثقة لكنها مهددة:

-بتقول إيه كده سمعني؟!

ارتسمت علامات الرعب على وجه الشاب، تراجع في مقعده معيذاً تشغيل محركه ليفر هارباً كالفرار من المكان قبل أن يلقي مصرعه على يد مخبول مجهول، ورغم شعور "هالة" بالارتياح لكونها تألف "يامن" الذي التفته مرتين في الحفل، إلا أنها ذعرت من تصرفه المباغت والمرعب في نفس التوقيت، تركزت حدقتها على فوهة السلاح، بمجهود مضاعفٍ تمكنت من السيطرة على أطرافها مجبرة إياهم على مساعدتها على النهوض والتراجع للخلف، اكتسى وجهها بلمحات جمعت بين الخوف والرهبة، لم تفارق نظراتها عينيه المتطلعيتين إليها بجمود، دنا منها قائلاً بنبرة جافة:

-تعالى أوصلك؟

هزت رأسها بإيماءات نافية متلاحقة وهي ترد بتلعثم فزع:

-لا

تعجب من ردة فعلها الخائفة منه رغم عدم إيذائه لها، بل على العكس شرع في حمايتها من شر ربما عجزت فيه عن الدفاع عن نفسها، وما إن اقترب منها خطوة أخرى حتى انفلتت منها صرخة مدعورة، توقف عن السير رافعاً يده في وجهها قائلاً بجفاء:

خلاص براحتك، إتي حرة!

اختبأت "هالة" خلف حقيبتها الجلدية متوهمة أنها ستحميها من رعونته إن عبث شيطان رأسه به وأوهمه أنها فريسة مباحة للصيد، تدفقت الدموع في عينيها بغزارة لتشوش الرؤية، لم تعرف لانسيابهم سببًا، لكنها كانت خائفة، مذعورة، عاجزة عن اتخاذ القرار الصائب، تأملها مليًا محاولاً سبر أغوار عقلها، أزعجه رؤيتها بأكية وهي تكبح شهقاتها قبل أن تصدر عنها، أعاد تكرار طلبه بصيغة أكثر هدوءًا عليها تتوقف عن الارتجاف والنحيب:

هاوصلك، متخافيش

صرخت فيه بهيسترية وكأن طاقتها على التحمل قد نفذت بالكامل:

-بعد عني!

اندهش من تصرفها فتراجع للخلف دون أن ينبس بكلمة، تبعته "هالة" بعينيها المرتجفتين وهو يسير عائداً في اتجاه سيارته، ظلت متسمرة في مكانها رغم تحركه بالسيارة لبضعة أمتار، ضرب "يامن" بيده على المقود مستشعراً حالة من الحنق تجتاحه، وكأن مصائب الدنيا قد اختارت تلك الليلة تحديداً لتتهال على رأسه، دس سلاحه في مكانه، ثم ضغط على المكابح ليوقف سيارته وهو يركز على أسنانه مردداً بغيط:

-أووف، غبية!

لم يعرف ما الذي دفعه وحثه هكذا بقوة على إرغامها على اتباع أوامره بالإجبار، ترجل من السيارة من جديد ليندفع بخطوات متعصبة في اتجاهها، حدثت فيه بهلع عندما أمسك بها من ذراعها، تدلى فكها للأسفل في فزع وقد بدأ في جرها معه وهو يقول بلهجة غير قابلة للنقاش:

-تعالى معايا

ظهرت مقاومتها من العدم لتصعب الأمر عليه قليلاً، صاحت بهيسترية وهي تقاتل للتخلص من قبضته المتشبثة بإحكام على لحم ذراعها:

-إنت بتعمل إيه، سيب ذراعي!

شحذت قواها الضائعة لتفلت منه رافضة تسهيل الأمر عليه، فبدت مسألة سحبه لها عويصةً إلى حد ما، ناهيك عن كون الأمر مثيراً للشكوك إن مر أحدهم بجوارهما ورأى ما يحدث من شد وجذب، استدار "يامن" نحوها ليتمكن من الإمساك بها من ذراعيها ثم انحنى ليرفعها دون صعوبة على كتفه مكملاً ما تبقى من المسافة وهي يسير بها نحو سيارته، ضربته "هالة" بقبضتها في ظهره، وركلت بقدميها في الهواء صارخة به:

-نزلني، سييني!

رد محتجاً بجمود:

-مش هارينفع، أنا مش في المود أصلاً، وكفاية كوارث النهاردة

توقف عند سيارته ثم أنزلها على قدميها دون أن يفلتها، حاولت دفعه من صدره لتتخلص من حصاره صارخة بيأس من بين بكائها:

-بعد عني!

ثبتها من كتفيها وألصقها بجانب السيارة قائلاً بنبرة عميقة:

-متخافيش، مش هاعملك حاجة!

حملت فيه بعينيها الباكتين، شعر بغصة ما عالقة في جوفه وهو يرها على تلك الحالة، بشيء ما يحثه على تعويض تلك المسكينة عن إساءته السابقة لها، برر إصراره على عدم تركها قائلاً بهدوءٍ عليها تقتنع:

-إنتي لو فضلتى هنا جايز حد ثاني يتعرضلك ولا يحاول يعتدي عليكى

مجرد تخيل الأمر أفرعها أكثر وأجبر دمعاتها على التحجر في مقلتيها، أرخى "يامن" قبضتيه عن كتفيها ولكنه ظل محاصراً إياها فباتت محتجزة بين ذراعيه دون أن يلمسها، خفف من وطأة الأمر مدعياً الابتسام وهو يرجوها:

-مممكن تركي!

كان رفضها أمراً مستبعداً، لذلك عدلت عن عنادها واضطرت أن تمتثل لطلبه وركبت إلى جواره في السيارة، تنفس الصعداء لاستمالتها بعد ليلة عصبية، دار حول السيارة بعد أن أوصد بابها ثم ركب خلف الموقد ليشرح بعدها في القيادة.

.....

ذرع الرواق جيئةً وذهاباً وقد باتت أعصابه على المحك، لم يضع "أوس" في حسبانته استغلال تلك الحقيرة لحفله العائلي وإفساد فرحته بجديتها الشنيع، بالطبع شدد على حراسه وأعطى أوامره للأمن الخارجي بعدم السماح لتلك المرأة بالدخول إلى المجمع السكني تحت أي ظرف، مروراً بأصابه في خصلات شعره وهو يزفر بضيقٍ وتعصبٍ، التفت برأسه كالمسوع حينما سمع المفتاح يدار في قفله بالباب، هرول نحوه وأمسك بالمقبض ليفتحه، كانت "تقي" تسير شاحبة واجمة عبراتها قد شقت طريقها عبر صدغيها ببراعة، احتضنها من الخلف ممرراً ذراعيه حول خصرها ليلصق ظهرها ب صدره، همس لها على مقربة من أذنها:

-اهدي يا "تقي"، محصلش حاجة!

وضعت يديها على قبضتيها لتنتزعها بعيداً عنها، تحررت منه لتستدير نحوه بشحوبٍ مقلق، سألته دون مقدماتٍ وقد تجمدت عينها المتورمتان على تعابيره المزعوجة:

هي دي بنت عمك.. "رغد"

وجدت صعوبة في التلفظ باسمها، اقترب منها "أوس" خطوة فأشارت له بالتوقف، أمعن النظر في هيئتها المريبة، كانت كمن يخوض صراعاً عويصاً ظهرت نتائجه على تعبيراتها، بالطبع تلك الدنيئة قد وجدت الثغرة المناسبة لتلعب بها ببراعة مستغلة ذلة واحدة ارتكبتها في الماضي لتشعل بها فتيل الحرب بضراوة، تنفس بتمهل ليضبط أعصابه المستثارة، ثم هتف بها يرحوها:

- "تقي"، اسمعيني، إتي أكثر واحدة عارفة أنا أد إيه بأحبك، متخليش بني آدمة قدرة زي دي تهز ثقتك في حبنا

بدأت يائسة حد الموت وهي تستعيد في ذاكرتها كلمات "رغد" الجارحة لها، ناهيك عن التلميح الصريح لماضي "أوس" المشين والذي أيقظ فيها أحاسيس الماضي بكونها كانت فريسة استلذ بتعذيبها قبل أن يتحول وينبذ طباعه السيئة، ارتجفت شفتاها وهي تقول بلا وعي:

-أنا كنت بالنسبالك ولا حاجة! أنا ...

قاطعها صائحًا بنبرة متصلبة قبل أن تتماهى في السقوط في هوية أوجاعها مذكرة كلاهما بما ظنا أنها تجاوزاه:

-بس، مش عاوز أسمع حاجة بعد كده!

أغمضت عينيها لتنساب عبراتها في صمت، لم تكن على قدر من الوعي النفسي لتدرك ما تنفوه به من حماقاتٍ مشككة، احتضنها "أوس" بقوة ماسحًا على ظهرها برفق، همس لها مؤكدًا عن ثقة ووعيد:

-انسي يا حبيبتي اللي حصل، أنا هاجيب حقك!

.....

كانت خائفة، ضائعة، في حالة تخطيط ذهني واضحة، لكن لم يمنع ذلك الشعور الدافئ بالاطمئنان من التسلسل إليها ليخفف من حدة تسارع دقات قلبها، انزوت "هالة" في أقصى المقعد ملاصقة جسدها بالباب وكان هناك شبحًا خفيًا يجلس إلى جوارها، نظر لها "يامن" من طرف عينه متعجبًا من ابتعادها بتلك الطريقة، ومع ذلك لم يتطفل عليها، تركها لبرهة حتى تعتاد عليه وتطمئن لوجودها معه، ران الصمت بينهما لبعض الوقت حتى ضجر منه، فقاطعه مُعرفًا بنفسه:

-أنا "يامن"، أهلاً يا ...

تعمد عدم ذكر اسمها رغم استحضار ذاكرته له ليمنحها الفرصة لترد عليه، أطبقت "هالة" على شفتيها بقوة رافضة الحديث معه، لاحظ تلك الرجة الخفيفة الظاهرة على أناملها القابضة على حقيبتها، ادعى الابتسام كاسرًا من جديد حاجز الصمت:

-إتي "هالة"، مضبوط؟!

قرأ نظرات الدهشة في حدقتها، اتسعت ابتسامته قليلاً وهو يوضح لها:

-أكيد من الحفلة، ماتستغريش

أشاحت بوجهها بعيداً عنه متجنباً نظراته التي تحاصرها، صدرت عنها شهقة شبه مكتومة حينما أوقف السيارة فجأة، التفتت نحوه لتسأله بجزع:

-في إيه؟

أدار جسده للجانب ليتمكن من رؤية وجهها كاملاً وبوضوح، ركز بصره على تفاصيلها المثيرة لفضوله رافضاً تلك المرة منحها الجواب الذي يرضيها، سألته من جديد بتوتر مضاعف فخرج صوته مبوحاً مرتعشاً:

-وقفت العربية ليه؟

رد ممزحاً:

-أكيد مش هانزلك هنا

حدقت أمامها متأملة بخوف سري حتى في بدنها الظلام الحالك بالمكان، وقبل أن تدور برأسها الهواجس بادر موضحاً:

-متخافيش، أنا كنت عاوز أعرف إتي دلوقتي كويسة

أومات برأسها بخفة، فشعر بالارتياح، انطلق بالسيارة مجدداً مفضلاً تلك المرة أن يشغل المذياع ليصغي كلاهما إلى الأغنيات الرومانسية الصادرة منه لبعض الوقت، نظرت له بغرابة من طرف عينها، والتقط هو نظراتها المختلسة نحوه، قاوم ابتسامة مغرية تقاقل للظهور على محياه، ظل "يامن" يدندن مع الكلمات التي يعرفها ليذيب الجليد بينهما، بعد برهة همست له بخجل وبصوت يكاد يُسمع:

-وقف العربية لو سمحت

توقعت أن يمثل لطلبها لكنه تجاهلها، هتفت مجدداً بنبرة أعلى نسيباً:

-حائزة أنزل هنا

التفت ناحيتها يسألها باهتمام:

-بيتك هنا؟

أجابته نافية:

-لا، بس أنا هاعرف اتصرف، المكان مش غريب عليا

أوما برأسه متفهماً:

-تمام

وبجذر واضح في قيادته اصطف بالسيارة على الجانب، ولكن قبل أن تضع "هالة" يدها على المقبض لترجل منها أمسك بها من رسغها ليمنعها من النزول قائلاً:

-لحظة

ارتجفت من لمستته المباشرة وتصلب جسدها بالكامل، رأى "يامن" نظرات الخوف في عينيها فأرخى أصابعه معتذراً:

-سوري، أنا بأطمئن عليكي

ترجلت سريعاً من السيارة وقبل أن توصل الباب صاح عاليًا كنوع من العتاب الرقيق:

-مافيش شكرا، أو ميرسي حتى!

ردت باقتضاب رغم ارتجافة نبرتها:

-متشكرة

ابتسم قائلاً وقد برقت عيناه بوميض غريب:

-العفو

صفقت الباب دون أن تنظر نحوه ثم هرولت مسرعة في اتجاه موقف السيارات القريب
لتختفي وسط الزحام المرابط هناك، ودعها بنظراته مرددًا لنفسه بفضولٍ مهم:
حالة غريبة أول مرة أصادفها!

ظلت ابتسامته العفوية ملازمة له لتبدد كوارث اليوم المتراكمة على كتفيه، حرك عنقه للجانبين
في لزمة معتادة منه ليخفف التيبس الذي اعترى فقراته، سخر من نفسه حينما تذكر إقدامه على
فعل متهور لم يرتكبه حتى في مراهقته، لكنه منحه شعورًا ذكريًا بالقوة والانتشاء
!!

.....

الفصل السابع عشر

بإشارة صامتة من عينيه امتثلت مدبرته الوفية لأمره غير المنطوق وحملت الرضيعة من مهدها لتعيدها إلى غرفتها تاركة الزوجين معًا، مرر "أوس" ذراعه أسفل جسد "تقي" ليتمكن من احتضانها بعد أن خبت نوبتها البكائية المتكررة، لم يعتد دومًا على انقلات زمام الأمور من بين أصابعه، لكن في تلك الليلة كان الوضع مختلفًا، أُعيد النباش في دفاتر الماضي بما احتوته من ذكريات مؤسفة جاهد للتغلب عليها ونسيانها، ذكريات كانت لعنته حتى وقت قريب، مسد يده الأخرى برفق على خصلات شعرها مستشعرًا قربها الدافئ من صدره، كان يقاتل بضراوة ظهور بقايا بذور الحب بحضور ابنة عمه البغيضة التي أوقظت رغباته الانتقامية نحو أشباح ماضيه التي نبذها، رأى في حدقتها الشرستين تجسيدًا لنظرات "ممدوح" اللئيمة وابتسامته المستفزة التي أشعلت حنقًا لم ولن ينضب أبدًا نحو ما يتعلق به، ثقها التامة ذكرته بغفلته في لحظة واحدة استسلم فيها لتأثير الخمر وباح لـ "رغد" بما اعتاد ممارسته مع العابثات بطرق عنيفة ليشبع تلك النزعة المريضة بداخله، تلك اللحظة التي استغلتها ببراعة لتجعلها سببًا في مساومته وربما ابتزازه إن لزم الأمر.

تصلب جسده مع تلك الأنة الخافتة التي التقطتها أذناه وحملت وجعًا محسوسًا من "تقي"، أخفض "أوس" رأسه عليها ليتأملها، كانت ما زالت نائمة، زفر يارهاق ثم قبلها أعلى جبينها هامسًا لها:

أنا معاك ومش هاسيبك

تأمل بنظراتٍ عكست حزنًا خفيًا وجهها الساكن مرددًا لنفسه بحزم:

محدش هيقدر ياذيكي طول ما أنا موجود!

تململت في أحضانه فزاد من ضمه لها وكأنه يؤكد لنفسه إصراره على تمسكه الشديد بها، فإن كان يمتلك الجسد القوي والمهابة الطاغية، فهي تمتلك الروح النقية التي داوت جراحه العميقة،

فمن المحال أن يتخلى عنها أو يترك الساحة لمن يتجراً على زعزعة تلك العلاقة دون حساب، استلقى إلى جوارها مقترّباً أكثر منها فاحتوى جسدها في أحضانها، لحظاتٍ واستسلم لذلك الخدر العصبي الذي أنهكه ليغفو بعدها.

.....

لم تكن بالمسافة الهينة لتعود إلى منزلها بالمنطقة الشعبية، اضطرت أن تبدل بين أكثر من وسيلة مواصلات حتى تتمكن من الرجوع إلى هناك، احتلت تعاير الإرهاق أغلب ملاحظاتها، بالإضافة إلى كون حالتها الذهنية متعبة للغاية، فعقلها لم يتوقف للحظة عن الشرود والتفكير في ذلك الشاب الذي أنجدها من لحظات عصيبة رغم كونه نفس الشخص الذي انهال على مسامعها بما سم بدنها من كلمات أشعرتها بالدونية، جمدت "هالة" أصابعها على الدارين مكملة صعودها البطيء على الدرج حتى توقفت أمام باب منزلها، أزاحت حقيبتها عن كتفها لتتمكن من البحث عن المفتاح، دسسته في القفل الخاص به ثم ولجت إلى الداخل لتتيسر قدمها في المكان عاجزة عن التقدم خطوة أخرى، شغصت أبصارها على وجه لا تجبذ أبداً رؤيته أو التطلع إليه ولو مصادفة، استمعت إلى صوت والدتها المهلل يقول:

تعال يا "هالة"، مافيش حد غريب!

تدلى فكها للأسفل في صدمة كبيرة، وشغصت عينها في فرع مرتعد خاصة أن ابتسامته اللثيمة برزت بوضوح لتعلن ضمناً عن قرب ضياعها، أضافت "أم بطة" قائلة:

ده سي "منسي" جاي

بدت الكلمات بعيدة عن أذنيها، لم تصغ إلى باقي حديثها، فجرد رؤيته بشحمه ولحمه أمامها جعل حضوره مطبقاً على الأنفاس، خائفاً للصدور، لم يكن يوماً لينتهي بطريقة أسوأ من ذلك دون إضافة تعاسة جديدة لها، نفذت قدرتها على تحمل المزيد، فشعرت بأنها على وشك فقدان وعيها، ترنخ جسدها بقوة مما أثار خوف والدتها التي صرخت بهلج:

- "هالة"

هب "منسي" واقفاً من جلسته مسرعاً نحوها، لم ينتظر أي دعوة صريحة للإمساك به، بل منح نفسه الحق كاملاً للتعامل معها كما لو كانت ملكيته الخاصة، أحست "هالة" بقبضة خشنة تحاوطها رغماً عنها من ظهرها، التفتت برأسها للجانب لتجد وجهه قريباً منها، تكاد نظراته تلتهمها، جاهدت لئلا تلتصق منه، لكن قوتها لم تكن كافية لمنعه، أجبرها على التحرك في اتجاه الأريكة، أصابتها أنفاسه العطنة التي زكت أنفها بالغثيان، فتضاعف إحساسها بالوهن والاشمئزاز، استسلمت لدفعه لها حتى تراخى جسدها وتمددت على الأريكة، لم يتركها "منسي" بل استمر في إمساكه بها مستغلاً كل ثانية ليتمتع بملاصقتها له.

كانت "هالة" في حالة ما بين الوعي واللاوعي، وظل صراخ والدتها يؤلم رأسها، هتف "منسي" بجديّة:

هاقي فحل بصل أفوقها بيه!

هرولت "أم بطة" راكضة نحو المطبخ، تبتعتها أنظار ذلك اللئيم الذي التوى ثغره بابتسامة خبيثة، أخفض نظراته على جسد "هالة" ممتعاً عيناه بما لم يحظ به من قبل، أغراه شيطان رأسه بعدم إضاعة تلك الفرصة سدى، اختلس النظرات نحو باب المطبخ ليتأكد من خلو المكان، وبجراءة اعتادها مرر يده أسفل كنزتها متمسكاً بشرتها الناعمة، اشتعلت خلاياه الذكورية بلهبٍ مهلك، وطمع في المزيد، للحظة شعرت "هالة" في حالة الضلال المسيطرة عليها بقشعريرة مريبة تسري في بدنها، لا تعلم سببها لكن هناك لمسات غير مريحة تستكشف مناطق معينة من جسدها فأصابتها بتلك الرجفة المرعبة، وبعينين زائغتين استدارت نحو وجه "منسي" الذي بدا كالأشباح، رأت أطياف غير واضحة المعالم ليده وهي تستمر في تلمس ما هو مُحرم عليه، شعرت بعجزها الكلي، بأنها تحت تأثير خدرٍ قوي يجبرها على الاستسلام رغم نفورها، تلاحقت أنفاسها وتعالّت خفقان قلبها، ثم همست بصوتٍ غير مفهوم وقد تحرك ذراعاها بصورة تلقائية لتدفعه بعيداً عنها:

إنت ..!

كانت مقاومتها ليده معدومة بمعنى أدق، بل إنها لم تمتلك الإرادة الكافية لإيقافه ومنعه من التلذذ بها، ميزت "هالة" صوته المقيت في هلوستها حينما قال لها بهمس اخترق أعماقها ليضعف من فزعها:

قريب أوي هانكون لبعض!

أنقذها من عبثه المقرز وجود والدتها التي كانت تولول خوفاً عليها، حركت رأسها نحوها وطالعتها بنظرات مشوشة مستغيثة، لم يستوعب عقل "أم بطة" ما تحاول قوله، حطت آخر ذرة من يقظتها لتغمض عينيها بعدها سارحة في بحورٍ من ظلماتٍ لا تنتهي.

.....

انحنى نحو المغطس تتلمس بأطراف أصابعها الماء الذي ملأه، كانت درجة حرارته مناسبة لها ومغرية في نفس الآن، خاصة أنها بحاجة للاسترخاء بعد التجربة المحرجة التي تعرضت لها، لم تقف عند تلك الجزئية كثيراً، فقد توقعت الأسوأ، وما حدث لم يكن إلا ردة فعل شبه عينية من ابن عمها لردعها، لكن هيات، تلك البداية فقط، استرخت "رغد" بجسدها بداخل المغطس تاركة للمياه الدافئة الدور في إزاحة التوترات التي أرهقت عضلاتها، رفعت ساقيها للأعلى متألمة آثار الخدوش السطحية التي اعتلت ركبتيها، أخفضتها في المياه، ثم مدت ذراعها للجهة اليمنى لتمسك بكأس المشروب الذي طلبته مسبقاً، قربته من شفيتها لترشف رشفة مستمتعة بتلك اللذة المريرة فيه، أغمضت عينيها لثوانٍ قبل أن يرن هاتفها المحمول ليقطع لحظات استجمامها المميزة، أسندت الكأس والتقطت هاتفها مجيبة على اتصال زوجها بوجه فاتر، نفخت قائلة ببرود:

لسه يا "أكرم"، في إيه، مستعجل إني أرجع ليه

تشنجت ملامحها وبدت أكثر قسوة من حديثه الذي لم يكن مريحاً لها، صاحت به ببرود لا يليق بأم من المفترض أنها تشتاق لفلذات أكبادها:

-اتصرف، هات ناني بالساعة وننقسم فلوسها، عادي يعني

صمتت للحظاتٍ معدودة قبل أن تقاطع حديثه بنبرة حادة:

مش معقول يعني هاسيب الي ورايا هنا عشان إنت مش قادر تستحمل الولاد كام يوم؟!!

قست لمحاتها الباهتة لترد بنفاذ صبرٍ مُهنية معه المكالمات:

- "أكرم" بليز أنا تعبانة وعاززة أرتاح، باي

أَلقت هاتفها بإهمال على الأرضية وهي تتمم بضيق:

مش ممكن!

عادت لحالة الاسترخاء التي كانت عليها نافضة عن عقلها كلمات "أكرم" المزجة بشأن عودتها إليه ليتبقى في رأسها فقط طيقًا مجسمًا لشخصٍ لم تستطع نسيانه، بات هوسها بالرغم من مرور السنوات، شردت بعقلها عند تلك الليلة تحديدًا مستعيدة ما حدث بها دون أن تغفل عن تفصيلة منها وكأنها تجبر عقلها يوميًا على تذكرها كي لا تنساها أبدًا، كانت ليلة كغيرها، مدعوة لحضور حفل عائلي في قصر عائلة الجندي، حيث اعتادت زوجة عمها "ناريمان" على دعوة صفوة المجتمع الخملي للتباهي بما تمتلكه وبكونها سيدة تنتمي للطبقة الراقية التي يحسدها الجميع عليها، ملت من الثثرة الفارغة وقررت الخروج للتمشية بالحديقة، توقفت عن السير وقد رأت "أوس" في مواجهة الطبيب المرموق آنذاك "ممدوح" والذي كان ملازمًا للعائلة، تابعتها عن قرب بفضول، زوت ما بين حاجبها متألمة ردة فعلها، فنظرات الاثنان أشارت للكثير من الكراهية الصريحة، ناهيك عن صدامها العنيف والذي هدد بمشاجرة حامية إن لم تتدخل فورًا وتحول دون حدوثها منعًا للفضائح، بلا تردد اندفعت نحوها وهي تقول بتوتر:

تعالى معايا يا "أوس"

تعلقت بذراع ابن عمها بيديها لتجبره على السير معها بعيدًا عن "ممدوح" الذي اتسعت ابتسامته قائلاً بسماحة:

هنروح من بعض فين، ده أنا اللي عملتك

نفض "أوس" قبضتها بقسوة ليقرب أكثر من عدوه اللدود، استشاطت نظراته مهددًا:

أحسنلك ما تستفزنيش، لأنني ماضمنش ممكن أعمل إيه فيك!

قهقهه "ممدوح" ضاحكًا ليزيد من استفزازه ثم ربت على كتفه قائلاً بتحدٍ مستثيراً إياه:

ده إنت تربيتي

رد عليه من بين أسنانه المضغوطة بإهانة لاذعة:

-تربية "....."!

شعرت "رغد" بأن ابن عمها على وشك الإقدام على فعل خطير أهوج، توسلته باستعطاف:

- "أوس" بليز تعالى، ماينفعش كده، الناس هتتفرج عليكم

دفعها من جديد بعيداً عنه وهو ينهرها بقوة لتكف عن الالتصاق به:

حاسبي يا "رغد"

لم يزلها رفضه إلا إصراراً على عدم تركه، انسحب مندفعاً بعيداً عن "ممدوح" وهو بالكاد يسيطر على أعصابه المتأججة، هرولت "رغد" خلفه محاولة اللحاق به، أعاقها عن الوصول إليه كعبها العالي، تحملت الآلام حتى وصلت إليه، ثم سألته بأناقيس لاهثة:

-استنى رايح فين؟

نظر لها شزراً من عينيه المظلمتين قبل أن يرد بعنف وهو يفتح باب سيارته المصفوفة في الجراج:

ملكيش فيه

تقبلت معاملته الخشنة معها مبررة تصرفه العدائي نحوها بصدامها مع صديق العائلة، راقبته بنظرات فضولية ورغبة بداخلها تحثها على عدم تركه، استقل "أوس" سيارته معيذاً ظهره للخلف وقد أصبحت كل خلية فيه تهدد بالانفجار غضباً، وبدون أي مقدمات فتحت "رغد" الباب الأمامي لتجلس بجواره على المقعد وكلها عزيمة على البقاء معه، ردت بثقة وهي تنظر له بحدقتين جادتين:

-وأنا مش هاسيبك في الحالة دي يا "أوس"

مجرد صوتها المزج ضاعف من حنقه، ضرب بقبضتيه على المقود زافراً بصوتٍ مسموعٍ أمراً
إياها بغلظة دون أن ينظر نحوها:

-انزلي يا "رغد"

هزت رأسها بالنفي وقد شبكت ساعديها أمام صدرها:

-لا-

ثم أضافت بثقة متحدية أمره:

-ولو طردتني برا العربية همشي وراك بعريتي، فخليني معاك أحسن

أدرك "أوس" أنه لن يتخلص منها بسهولة، فهي كالعلقة إن التصقت بالظهر ستحتاج إلى جهد مضاعف لإزالتها، وهو لم يكن في حالة مزاجية تسمح بالجدال معها، كل ما أراد فقط هو الابتعاد عن ذلك المكان الذي يخنقه ويطبق على أنفاسه، تجاهل مضطراً وجودها، صم ضغط على دواسرة البنزين منطلقاً بسيارته بسرعة عالية، شهقت "رغد" بخوفٍ وقد رأت بعينيها المجردتين إقدامه على المخاطر دون إظهار ذرة ضعف أو خوف، لم تتجرأ على التفوه بكلمة، ليس خشية منه ولكن ربما أضاعت فرصة ذهبية استفردت بها معه لتعرف عالمه الغامض الذي أخفاه عن الجميع، تشبثت جيداً بمقبض الباب، ثم اختلست النظرات نحو، كان وجهه كصفحة من الجليد، فقط عينان تشعان غضباً عظيماً، توترت أنظارها مع اتجاهه لتلك المناطق التي لم تعتد على رؤيتها، بالطبع لم تكن بحاجة لتخمين هويتها، هي أقرب للملاهي الليلية مع فارق المستوى المتدني الذي ظهر بوضوح على الواجحات الإعلانية.

أوقف "أوس" السيارة بالقرب من ذاك الملهى المضيء بالإضاءات الحمراء، ثم ترجل منها، لم يكثر بدعوتها للذهاب معه، كانت نكرة بالنسبة له، وكأن وجودها والعدم سواء، تبعته "رغد" في صمت وهي تلقي نظرات شاملة على تفاصيل ذلك المكان الوضع، انعكس اشتمزازها وتأففها على لمحات وجهها، أبدت نفورها من هيئة السكارى والفتيات المائعات اللاتي يتمايلن بخلاعة لجذب أعين الرجال نحو أجسادهن الممتلئة والعارية، انكششت على نفسها وأسرعت

في خطواتها لتقترب منه، جلست إلى جواره عند البار الرئيسي، رآته يتجرع بضعة كؤوس واحدًا تلو الآخر، حذرته بقلبي وهي تتأمل تعابيرهِ الواجمة:

ـ مش كفاية شرب

لم يصغ لها فشعرت بالضيق، ومع ذلك لم تنبس بكلمة اعتراض، تأملت جسده الرياضي بنظرات مطولة مراقبة كل حركة عصبية أو متشنجة تصدر عنه، استغرقت نفسها من ميلها نحوه بتلك الصورة المريبة، لكنها كانت تشعر بالانجذاب نحوه، لم تدبر متى نما ذلك الإحساس بداخلها، لكنها تزايد مع الوقت، تخيلت وجودها بجوار رجل مثله قادرًا على الفتك بمن يتجرأ عليه دون إظهار لمحة خوف أو ندم، عضت "رغد" على شفها السفلى مخرجة تهيدة بطيئة من صدرها، كانت نظراتها نحوه تحمل رغبة فيه، رآته يسند يده على السطح الزجاجي للبار، لم تتردد في وضع كفها على ظهر يده لتستشعر ملمس بشرته عليها، أجفلها ذلك الشعور المثير الذي حفز أحلامها بالظفر به، نظر لها "أوس" بطرف عينه بجمود رغم الثمالة التي بدأت تظهر عليه، بينما طالعتة بنظرة مطولة عكست شيئًا أرادت الإفصاح عنه، مالت نحوه ملصقة وجنتها بكفته وهامسة له بأنفاس شبه حارة لفحت صدغه:

ـ عشان خاطري كفاية

أزججه محاولتها للتحكم به وفرض رغباتها عليه أكثر من محاولتها الصريحة للتودد إليه، أزاح يده من أسفل كفها ثم أبعدا عنه بقسوة محدجًا إياها بنظرات قوية مشتعلة، ألقى بالكأس الزجاجي فجأة ليتهمش إلى أجزاء متناثرة صارخًا بها بانفعال:

ـ محدش يقولي كفاية!

انفضت من فعلته المباغته وحملت فيه بتوتر، تراجعت للخلف متوقعة فعلة متهورة لكنه عاد إلى سكونه مثلما انفجر فجأة، ابتلعت ريقها متوجسة خيفة من ردة فعله وهي ترد بنعومة آملة في إذابة الحاجز الجليدي الصلب بينهما:

ـ سوري، أنا مش قصدي، إنت غالي عندي يا "أوس"

وبحذر تام وضعت يدها على كتفه فشعرت بتصلب عضلاته القوية، انتشت من ذلك الإحساس الرجولي القوي الذي يتمتع به والمتمتع بالسلطة والسيطرة، رغبت في مشاركته ما يملك بشدة، حاذرت في التماهي معه كي لا تثير غضبته فيعاملها بجفاء وربما يطردها، لذا أردفت قائلة بنبرة رقيقة عله ينتبه لها:

بس أنا خايفة عليك أوي، فوق ما تتخيل

لم يُد "أوس" تأثراً بما تقول، وكأنه في عالم خاص به، شردت عيناه القاتمتان في نقطة بالفارغ مردداً بكلمات غير مفهومة:

فكره إنه بكلامه ده هيسيطر عليا

انتبهت لكلماته الغامضة، راقبته بفضول مضاعف حينما تابع بلا إدراك:

-أنا أكثر واحد فاهمه كويس، وفي لحظة ممكن أمحيه

سألته مستهفمة وقد تعقدت تعبيراتها:

-إنت بتكلم عن د. "ممدوح"؟

كز على أسنانه لاعتنا:

-الكلب ال.....!

شعرت بعروقه تشتد في عنقه، بتشنجه بجوارها، انتابها إحساساً عميقاً بأن الأمر يتعدى ما تفكر فيه، أبعدت أنظارها عنه لتركز بصرها على وجه ذلك المتطفل الذي ظهر فجأة ليقول بترحيب مبالغ فيه:

باشا، منور المكان كله، طلباتك إيه؟ احنا كلنا خدامينك!

لم ينظر نحوه "أوس"، ورد عليه بفتور:

مش طالبة معايا حاجة

كان ذلك المتطفل المزج ذو بدلة زهيدة الثمن- يعلم جيدًا الحالة التي عليها سيده، انسحب معلنًا بانصياع خانع:

-الي يريحك يا باشا، أي أوامر شاور بس بصوباعك، وهتلاقي كل الي هنا تحت رجلك
أنفت "رغد" من هيئته الرخيصة التي أوحى لها بأي نوع من أشباه الرجال هو، سألت
"أوس" فور أن ابتعد عنها:

-هو إنت تعرف الأشكال دي؟

حذرهما من استجوابه هادرًا:

- "رغد"

بررت قائلة:

-سوري، بس المكان بيئة أوي والناس الي فيه شكلهم كده .. يعني مش من مستواك!

زفر هاتقًا بنفاذ صبر:

-أنا حر، ومن الأول قولتلك ماتجيش معايا

-مش ق...

قاطعها بجدّة:

-ولا كلمة

ثم نهض عن مقعده ليسير بترنح، حاولت إسناده لكنه دفعها رافضًا أي محاولة منها للتقرب إليه، زادها رفضه عزيمة على التمسك به، لحقت به حتى وصل إلى سيارته، سدت بجسدها الطريق عليه لتقول بجديّة:

-أنا الي هاسوق، من فضلك هات المفاتيح

رد محتجًا بغلظة:

-بعدي يا "رغد"

أصرت على موقفها مرددة:

مش هاسيك تسوق وانت في الحالة دي يا "أوس"

صاح بعصبية:

- "رغد" ابعدي عني، أنا محدش يتحكم فيا

رفضت هاتفة بالحاح أشد عندًا منه:

-لا يا "أوس"، دي مش تحكيمات، بس لمصلحتك، بليز، ده طلبي الوحيد، وهترتاح مني بعدها

لم يكن أمامه إلا الموافقة ليتخلص من ملاصقتها له، شعرت بالارتياح لكونه قد استجاب لطلبها بعد ضغط متواصل منها، ظنت في ذلك أن السبيل لإجباره على فعل ما تريد هو اللعب معه بذلك وإحترافية دون تعصب أو إظهار، جلست خلف موقد السيارة وقبل أن تدير المحرك أمرها بنبرة شبه ثقيلة:

-اطلعي على شقتي

بدت عبارته الآمرة غريبة للغاية ومثيرة للفضول في نفس الوقت، رفعت حاجبها للأعلى مرددة بصدمة:

-شقتك؟

أجابها باقتضاب:

-أيوه

رددت مع نفسها باستغراب حائر:

-أول مرة أعرف إن عندك بيت ثاني يا "أوس"

ادعت الابتسام لتقول له بنعومة مصطنعة:

قولي العنوان فين بالضبط!

بعد برهة، وصلت إلى العنوان الذي أخبرها به، ساعدته على الصعود إلى منزله بعد أن صفت السيارة أمام المدخل، تناولت منه مفتاح المنزل ودسته في القفل الخاص به بالباب لتتمكن من فتحه، لفت ذراعه حول كتفها ليتمكن من إسناد جسده عليها، سارت به ببطء متمهل للداخل، بحثت عن مفتاح الإنارة لتضيء الصالة، تفاجأت بكون المكان أنيقاً للغاية رغم كونه غير مرتب، التفت عن "أوس" للحظات لتتبع حدسها الأنثوي بمعرفة ما يخبئه عنها، استطاعت أن تفسر ما تراه عيناها وتربطه بنوعية المملكات التي ينغمس فيها ابن عمها في مكانٍ منعزل عن حوله، استدارت بجسدها للجانب فلم تجده، بحثت عنه في أرجاء المنزل فوجدته مستلقياً على الفراش، سألته بهدوءٍ كاظمة في نفسها ما يعترها من غضبٍ أنثوي عارم لكونه يعاشر اللاهيات من النساء:

-إنت بتعمل هنا إيه يا "أوس"؟

أجابها بنبرة ثقيلة ويغموضٍ باعث على الفضول الشديد وقد أغمض جفنيه:

هنا مملكتي، مفكر باللي عمله قضى عليا ودمرني، ومش عارف إني نسخة منهم، ويمكن أسوأ بكثير، مافيش واحدة قالتلي لأ، كلهم بيركعوا تحت رجلي!

استرعت كلماته رغبتها في معرفة المزيد عما يخفيه عنها، جلست إلى جواره على الفراش تسأله بتمهل هامس:

-إزاي، مش فاهمة!

بلا وعي منه استرسل في الإفصاح عن جزء بسيط من أفعاله الماجنة فيما يختص بإخضاع العابثات من النساء لتلبين نزواته المريضة باحثاً بينهن عن ضالته المنشودة التي تشبع حاجته للشعور بالقوة والسيطرة، تفاجأت بما باح به وصدمت بالحقائق التي أذهلتها، ارتجفت من فداحة الأمر ومع ذلك بدا مثيراً لها، فشخص مثل "أوس" يتمتع بكل الصفات المثالية من وجهة نظرها لرجل قادرٍ على فرض هيمنته على من يشاء، وبالتالي بقليل من إظهار ذلك لن تُستعصي عليه امرأة مهما كانت، تأملته وهو مُسجى على الفراش بنظرات طويلة تداعبها أفكار متهورة، أغرتها معايشة التجربة معه، أن تكون الأخيرة في حياته، فكرت في استدراجه بطريقتها الأنثوية

لتدفعه نحو التودد لها، خاصة أنه في حالة غير واعية، سيكون من السهل إيقاعه، ومع ذلك حينما شرعت في خطتها العابثة نبذها بقسوة رافضاً ما قد يقبل به أي رجل في لحظة ضعف لتشعر آنذاك بالحقارة والدنو، انتفض واقفاً صائحاً بها:

-برا!

نظرت له "رغد" برعب، وقبل أن تحرك شفتها لتتطرق كانت يده قابضة على ذراعها، شعرت بأصابعه تغرز في لحمها تكاد تمزقه من قسوة قبضته، جذبها "أوس" بشراسة إلى الخارج لاعتنا نفسه لغفوته في لحظة، لم تتوقع ذلك منه، أن يعاملها كوضيعة نكرة، ألقاها خارج منزله وهو يهدر بها:

-انسي إنك جيتي هنا

صفق الباب بقوة أمام وجهها ليركها في حالة صدمة وهي لا تستوعب ما فعله حقاً، تأججت بداخلها رغبة انتقامية لرد اعتبارها، لذا قررت حينذاك أن تستغل زلات لسانه لتساومه، ومع هذا لم يخضع لها، بدا صعب المنال، تحدياً من نوع مختلف استفزها وأوهما أنه من المحال أن يكون لقمة سائغها تلوكها مهما بذلت من جهد لإيقاعه، ومع الوقت بات هوسها كلما أصر على معاملتها بجفاء وبدون أكثرات لتهديداته، تداعت مخططاتها مع لقائها بـ "أكرم" الذي زكاه والدها ليكون خطيباً مناسباً، وافقت عليه معتقدة أنها بذلك ستدفع "أوس" للغيرة، لكنها كانت واهمة، لم يعرف الحب مُطلقاً، فعلى ما يبدو كان أحد قراراتها المتعجلة التي ندمت عليها فيما بعد، عند تلك الجزئية أفاقت "رغد" من شرودها وعيناها تلمعان بشرر مخيف، خاصة وهي تتذكر وجه "تقي" تلك الغبية الساذجة التي أوقعته فتزوج بها لتصير إلى جواره بدلاً منها، كزت على أسنانها هامسة بوعيد:

-لنت من الأول كنت ليا يا "أوس"، وهاترجعلي !!

.....

الفصل الثامن عشر

أسندت كأسها بجوارها بعد تفكير عميق لا تعرف إلى متى استمر، لكن هدوء الأجواء من حولها ساعدها كثيراً على التفكير بذهنٍ صافٍ وترتيب أفكارها، تقوس فيها ببسمة مخيفة تُنبئ عن شر لاحق، خاصة أن ما يردّها من معلومات جراء مراقبتها الحثيثة لـ "أوس" قد أتت بثمارها، مدت يدها لتلتقط هاتفها المحمول الذي تركته بإهمالٍ على الأرضية الصلبة، عبثت "رغد" بالأرقام المسجلة عليه حتى وصلت إلى الرقم الخاص بمحامي والدها، هاتفته لتبلغه بما هداها إليه تفكيرها الشيطاني، كذلك أضاء عقلها بفكرة متهورة ستحول حياة فرد آخر من عائلة "الجندي" لجحيم مستعر، حركت شفيتها لتتطرق بكلمة مقتضبة:

- "ليان"

صمت بعدها وقد أظلمت عيناها على الأخير لتضيف بتمهلٍ مُرعب:

- عاززة حد يراقبها ويتأكد من معلومة إنها حامل، ده هيخدمنا في اللي جاي!

لم تكن تستشري المحامي بل كانت تخبره بكلمات ملتوية بما ترغب في تنفيذه مستقبلاً، اتسعت ابتسامتها الشيطانية قبل أن تكمل بجدية:

- وعاززة رقم مرات "أوس" يكون عندي النهاردة!

أملت عليه أوامرها بدقة ثم أنهت معه المكالمة شاعرة بانتشاء عجيب، لفت هاتفها بين أصابعها محدثة نفسها بثقة تامة:

- كده اللعب بقي على المكشوف، وهانشوف مين هايكسب في الآخر

أطلقت ضحكة شيطانية جلجل صداها في أركان الحمام، ألقت بهاتفها من جديد ثم سحبت نفسًا عميقًا حبسته في صدرها لتتخفّض بعدها بجسدها للأسفل ليغمره الماء بالكامل مستكملة استجاءها بداخل المغطس.

.....

تمنت لو كان وهما أو حتى كابوسًا مزعجًا سينتهي بإفاتها، لكن مع عودتها لوعيتها على إثر تلك الرائحة النفّاذة التي أزججت أنفها تأكدت أنها لم تكن تتوهم رؤيته أو حتى ما شعرت به، هو متواجدٌ بجوارها يرمقها بابتسامته التي تبغضها، ونظراته اللثيمة تؤكد لها أنه تجرأ على اقتحام خصوصيتها باستباحة ما ليس له حتى وإن كانت في ضلالتها إلا أن ذلك الشعور المقيت نحوه لم يفارقها، حاولت "هالة" الاعتدال من رقتها على الأريكة وهي توزع نظراتها بينه وبين والدتها التي تنفست الصعداء لإفاتها، هتفت الأخيرة بامتنان غير مبرر:

-والله ما كنت هاعرف حاجة من غيرك يا سي "منسي"

رد عليها بتفاخرٍ لم يخفه:

-أنا قولتلك من الأول، أنا بأفهم في الحاجات دي

ريّت على كتفه تشجعه:

-تعيش يا سيد الناس

بدا صوته كالضجيج الذي يزيد من ألم رأسها، وضعت "هالة" يدها على طرف جبينها تفكره بحركة خفيفة لكنها ثابتة، مالت عليها والدتها تسألها:

-حاملة إيه دلوقتي؟

أجابتها بوهن:

-كويسة

تساءل "منسي" بفضولٍ ونظراته المريية مُسلطة على وجه "هالة":

هي كانت فين للسعادي برا البيت؟

تخشب جسدها من سؤاله الفظ، فهو لا شأن له بالتدخل في أمورها الشخصية بتلك الطريقة
السافرة، رmqته بنظرة حاققة من عينيها المجهدتين، وقبل أن ترد بقسوة كانت والدتها الأسبق
في إجابته بعفوية:

كانت مع أختها

اغتاظت "هالة" من استرسال أمها في الحديث معه ومنحه الحق دون داع، عبست ملامحها
وهي تقول بجمود:

أنا عاوزة أخش الأوضة

مررت "أم بطة" ذراعها خلف ظهر ابنتها قائلة لها:

تعالى اتسندى عليا

بادر "منسى" قائلاً بوقاحة وقد اقترب منها مسافة خطيرة:

أنا ممكن أشيلك!

صرخت به بنفور أقلق والدتها:

متقربش منى!

استاءت "أم بطة" من فظاظتها غير اللبقة مع ضيفها، ضمت شفيتها هامسة لها بعتاب:

يا بت اتلمي، خلي لسانك حلو، الراجل في بيتنا، يقول عننا إيه؟

ردت بجفاء:

ماليش دعوة بيه

كان "منسى" سمجاً بطريقة لا تتحمل، لم يهتم بمعاملة "هالة" الجافة له، بل ظن أنها وسيلة أنثوية
منها لتدل عليه، التوى ثغره ببسمة سخيفة معلقاً ببرود:

خلي العروسة تدلع علينا!

حدجته "هالة" بنظرة نارية كارهة له، تحاملت على نفسها لتسير بتعجلٍ غير عابئة بالصداع الرهيب الذي عصف برأسها، المهم أن تنجو بنفسها من حضوره غير المرغوب فيه، همست لوالدتها بإصرارٍ رغم تعبها الواضح:

-أنا هاعرف أمشي لوحدي، خليكي إتي

انسلت من ذراعها مكملة سيرها نحو الداخل وهي تشعر بغليان يحتاجها من كل ما له صلة به، في حين التفتت "أم بطة" نحوه لتقول بابتسامة متسعة:

-تسلم يا سي "منسي" من كل شر

رد ببساطة وهو يفرك طرف ذقنه:

-هو أنا عملت حاجة، أشوفكم على خير

ثم لوح بذراعه واستدار متجهًا نحو باب المنزل، تبعته مودعة إياه:

-في رعاية الله يا خويا، ربنا يحفظك!

.....

على مدار عدة أيام عانت من حالة أقرب إلى الشعور بانعدام الثقة في نفسها، وقفت أمام المرأة تتطلع بجزنٍ إلى ملامحها الباهتة رغم جمالها الطبيعي الذي يحسدها عليه الكثيرون، خبت تلك الإشرقة النضرة التي كانت تعكس وهجًا بالحب من تعابيرها الرقيقة ليحل الوجوم والشرود المختلط بالخوف من المجهول، ما ضاعف من إحساسها بالنقص هي تلك الرسائل الغامضة التي كانت تصل إليها لتشعرها بأنها لن ترقى أبدًا إلى تطلعاته، هي مجرد وعاء لإفراغ رغبات مكبوتة كنوع من الترضية لها، خطتها الوحيد أنها أخفت عن زوجها أمرهم لتعاني بمفردها من قسوة الكلمات التي تنهش من علاقتها معه وتهدد بإنهائها، كان رنين رسائل الهاتف يعني عذابًا جديدًا، وإحساسها بالخذلان دفعها للتكتم على الأمر، مسحت "تقي" بيدها عبارتها المنسابة على وجنتيها معتقدة بذلك أنها ستبدو طبيعية أمامه.

راقبها "أوس" بنظرات مزعوجة دارسة لأدنى تغيير يطرأ على تعابيرها الذابلة، زفر باستياء وهو يسير ببطء في اتجاهها، فمنذ ليلة الصدام مع "رغد" وأحوالها لا تبشر بخير، أغلب الأوقات هي شاردة، نظراتها منكسرة حزينة، تنفر منه بصورة مقلقة، حتى حضورها كان بالجسد فقط وليس بالروح والعقل والمشاركة، لم يغفل عن تجنبها للمساته وحتى محاولاته للتودد إليها بحميمية عشقتها منه، تغلغل بداخله شعورًا قويًا بأنها بعيدة عنه رغم قربها منه، وقف خلفها ليطالعهما عن قرب، بدت وكأنها لم تشعر بوجوده من الأساس، استمرت في سرحانها المثير للشكوك مما ضاعف من ريبته، رفع يديه ليضعهما على كتفيها فانتفضت مرتعشة من حضوره المباغت، تأمل انعكاس وجهها الباهت بالمرآة متسائلًا بجديّة:

هتفضلي كده لحد امتي يا "تقي"؟

ضغطت على شفتيها رافضة الإجابة عليه ليزداد ضيقًا من صمتها الطويل، شدد من ضغطه على كتفيها متابعًا بنفاذ صبر:

أنا ما بقتش عارف أعمل إيه

ازدردت "تقي" ريقها بخوف لم تنجح في إخفائه، شعرت بدقات قلبها تتلاحق بداخلها، إحساسها بالنفور منه ازداد مع تخيل ما يمكن أن يفعله مع العابثات ليكرر الأمر معها دون ذرة ندم، أخفض "أوس" كفيه ليديرها ناحيته لتصير في مواجهته دون أن يزيح قبضتيه عن ذراعيها، رأى ذلك الحزن الكاسح في حدقتها، سألها بحدة:

قوليلي إيه اللي يريحك وأنا أعمله؟

هزها بقوة طفيفة هادرًا بعصبية لم يستطع السيطرة عليها:

ما تفضيلش ساكتة كده، ده بيخنقني!

ابتلعت ريقها وهي محدقة فيه بنظرات حائرة، خائفة، مترددة، نطقت أخيرًا بعد أن يؤس من ردها عليه:

أنا محتاجة أعيد حساباتي من الأول

سألها على الفور:

ليه؟

نكست رأسها لتجنب نظراته التي تحاصرها وتكاد تكشف تهريها منه، أجابته بغموض ضايقة:

عندي أسبابي

صاح بها وقد زاد من هزه العنيف لجسدها:

صارحيني بيها

شهقت مذعورة من عصبيته الواضحة، كانت مدركة أنها أحد أسباب انفعاله، ومع ذلك لم تستطع البوح بما يقلقها وبما يحدث معها مؤخرًا، وكأن ذلك الدخيل الغامض قد نجح في إحداث فجوة في علاقتهما، وبناء حاجز بينهما، تنفس "أوس" بعمق ليسيطر على غضبته قبل أن تندلع من جديد، فالتهور والاندفاع والجنون ليسوا بالخيارات المحمودة في ذلك الموقف الحرج، أخرج زفيرًا ثقيلًا من صدره قاصدًا به تهدئة نفسه قبل أن يطلب منها باستعطاف:

جربي يا "تقى"، اتكلمي وقولي إيه اللي مضايكك ومخليكي متغيرة الفترة اللي فاتت

لجأ إلى عتابها برفق ربما تتخلى عن عنادها غير المفهوم:

إنتي مش حاسة إنك بقيتي بعيدة عني؟

كان محققًا في ذلك، فقلما تحدثت إليه أو أبدت اهتمامًا على ما يخبرها به، هي التهمت عنه كثيرًا وكذلك عن رضيعتها، أهملتها بلا أسباب مقنعة متخذة السكوت رفيقًا جديدًا لها، وتلك الحالة المستجدة عليه أخافته كثيرًا، بل إنها ذكرته بفترة لم تكن بعيدة عليه، حينما اعتزلته مجبرة لتضاعف من إحساسه بالذنب نحوها، أرخى "أوس" قبضته عن ذراعها ليحاطط جانب عنقها، اقشعر بدنهما من لمساته الحنون، تلمس بشرتها برفق ليستشعر دفئها على جلده، ركز عينيه على وجهها الناعم مكملاً حديثه بنبرته المعاتبة:

أه بتنامي جمبي، بس في عالم ثاني خالص، مابقيتش زي الأول

رأى ترقق العبرات في مقلتيها مما ألمه بدرجة كبيرة، حاوط وجهها بكفيه ماسحاً ما انساب من دموعها بأصابعه، شعور جثم على صدره بالضيق لكونه عاجزاً عن فهمها، تنهد مضيقاً باستسلام:

-أنا مش هاضغط عليكى دلوقتي، هاسيبك على راحتك لحد ما أرجع بالليل، وتكلم!

بدت كلمته الأخيرة جادة للغاية خاصة حينما تابع موضحاً بحزم:

-لأني مش ناوي أسيب الوضع معلق بالشكل ده بينا

ثم مال نحو أذنها لتشعر بأنفاسه تداعبها، انخفضت نبرته ليهمس:

-بأحبك!

تراجع برأسه نحو وجنتها ليطلع قبلة مطولة عليه، توقع أن تستجيب لتأثيرها العميق الصادق، لكن لم يشعر بتجاوبها مطلقاً، وكأنه يتحدث إلى روح خالية من المشاعر، فتورها المريب أصابه بالضيق والخوف، تجاوز عن ذلك لينظر لها من جديد بعينين حائرتين، كانت مشاعرها متجمدة، ووجهها غير مقروء، أدرك أنه لن يصل معها حالياً إلى شيء، ولن يجدي الضغط النفسي سوى المزيد من التعاسة والشقاء، تركها مدعيًا الابتسام لتشيعه "تقى" بنظراتها الحزينة.

شعرت بالخواء والعجز بعد انصرافه، تملكها ذلك الإحساس الذي عرفته مسبقاً بقلّة الحيلة وهي تستعيد في ذاكرتها فحوى الرسائل النصية التي أشارت وبطريقة ملتوية إلى كونها نزوة مؤقتة سيمل منها عما قريب لتنتهي حياتهما الواهية بتأسيس أسرة سعيدة، فالفوارق التعليمية والطبقية والاجتماعية جليلة للعيان حتى وإن كان يربطهما ميثاق الزواج وصلة الدم، ناهيك عن إشارة صريحة لكونه لم يتخل بعد عن أسوأ عاداته المريضة، ممارسة الفحش مع أكثر الفتيات مجوناً لأن زوجته لا تستطيع إشباع رغباته الذكورية، قراءة مثل تلك الكلمات في رسائل منفصلة أنعش ذكرياتها المأساوية معه، لم تستطع قدماها حملها لمجرد استعادة مشاهد اختبرت فيها قسوته اللا محدودة وعنفه المفرط، تراجعت بقدمين متخاذلتين وبذهن مشتت للوراء لتجلس على الفراش وهي تبكي بأعين، دفنت وجهها بين كفيها وقد ارتفع نحيبها، نعم تزعزع

بداخلها كل ما سعت لبنائه معه من جديد ليحل الشك والخوف من مستقبل مخيف
ستكشف عن بواده الأيام القادمة.

.....

لم تكن لتفوت تلك الفرصة دون التطفل عليه وإفساد ليلته، فما تنفقه من أموال تلقاء مراقبته
كان كفيلاً بإشعارها بأن ما تفعله من تخطيط انتقامي مدروس لن يذهب سدى، تأنقت "رغد"
وارتدت ثوبها الأسود القصير الكاشف عن مفاتها لتبدو أكثر إغراءً وأنوثة وهي تسير بخيلاء
نحو طاولة الطعام المحجوزة باسمها في نفس المكان المتواجد به "أوس"، انزوت عن الأنظار
حتى ظهر برفقة بعض الأشخاص، ارتسم على ثغرها بسمه وضيعة، فلتكتمل أركان خطتها
أعادت تفحص هاتفها المحمول لتبحث عن تلك الصور الفوتوغرافية القديمة التي مازالت محتفظة
بها، كان الوقت مناسباً لإرسالها لزوجته، فإن كان حديثها بلا دليل ستؤكد قطعاً تلك الصور،
ضغطت على زر الإرسال متوقعة بشغف ردة فعلها، أعادت وضع الهاتف في حقيبتها ثم نهضت
متجهة إليه بغرور وكبرياء، وقفت "رغد" قبالة واضعة يدها أعلى منتصف خصرها، ابتسمت
قائلة ببرود:

هاي، مش معقول الصدف دي!

رمقته بنظرة مطولة متحدية إياه بجراءة وشجاعة، تحولت تعابير "أوس" للقسوة ونظراته للكراهية
حينما أبصرها أمامه، لم ينقصه إلا حضورها ليتكدر يومه، تجاهلها عن عمد وكأنها نكرة لا وجود
لها ليقول لضيوفه بنبرة رسمية:

-العقود معاكو، والشرط الجزائي واضح!

توترت نظراتها من ازدرائه الوق لها أمام هؤلاء الغرباء، تصنعت الابتسام رغم ملامحها الممتعضة
معلقة بلطافة متكلفة:

-شكلك مشغول، نتكلم بعدين يا "أوس"

لم يرفع الأخير عينيه نحوها فتابعته مؤكدة بنبرة غامضة أثارت فيه نفسه الريبة:

-وصدقي ده ها يحصل قريب

تحركت من أمامه لتقف بعد خطوتين، التفتت صائحة بنبرة عالية متعمدة أن يصل صوتها لكل من يجلس حوله بالمطعم:

آه ماتنساش تسلملي على المدام يا "أوس"

استشاطت نظراته وتحول وجهه نحوها لينذر بغضب محتدم، رفعت حاجبها للأعلى متسائلة بمكر:

مش هي بنت خالتك برضوه ولا أنا غلطانة؟!

أرادت "رغد" بجملتها تلك أن تشير له بأنها على معرفة تامة بكل ما يخصه من أمور عامة أو شئون عائلية حتى وإن كان بينهما ما صنع الحداد، لوحته له بأصابعها تودعه قائلة بسماجة مستفزة:

أوه، ماتقولش حاجة، باي!

بذل جهدًا كبيرًا ليبدو كالصخر أمامها وكأن ما تلقيه على مسامعه لم يهز فيه شعرة واحدة، منحها نظرة احتقارية قبل أن يعاود الحديث مع ضيوفه، ومع هذا كان يحترق بداخله، فتدخلها السافر في شئونه الحياتية أقلقه بشكل كبير، أكمل بصعوبة ما تبقى من المناقشات لينهي بعدها اجتماعه تاركًا المسائل القانونية للمختصين، انصرف "أوس" من المطعم ملقيًا نظرة عابرة على رواد المكان، لم يجدها بينهم، فتأكد من هاجسه أن حضورها إليه اليوم لإرباكه وزرع الشكوك بداخله، وهذا ما لن يقبله على الإطلاق.

.....

استندت براحتها على حافة الشرفة وهي تتطلع بنظرات فارغة للفضاء أمامها، أخفضت نظراتها للأسفل حينما رأت سيارته تخترق البوابة الأمامية للفيلا تتبعه سيارة الحراسة الخاصة، أخرجت "تقي" زفيرًا مشحونًا من جوفها وقد اشتدت قبضتها على السور الحديدي، بدت آثار غضبها معكوسة على لمحاتها المتصلبة، احتدت نظراتها نحو "أوس" وهو يترجل من السيارة معلقًا سترته على ذراعه، مقتت ذلك الشعور الحاقق الذي سيطر عليها وتضاعف أكثر مع عودته، فمنذ أن رأت صورته مع إحدى العابثات وهي تتطوق عنقه وقد باتت واحدة أخرى، أعمتها

غيرتها ووضعت غشاوة على عقلها فلم تتحقق من صحة ما رأت، وأنها صورة تعود لزمن قد مضى، ظلت متيبسة في مكانها، كاظمة ما يعترها من مشاعر متأججة في صدرها، غمغت متسائلة مع نفسها:

ليه عملت فيا كده؟

شعرت "تقى" بوجوده في الغرفة، وما ذلك لم تتحرك قيد أنملة، لكنها كانت أكثر تحفظاً عن ذي قبل، تعجب "أوس" من بقائها في الشرفة بمفردها بعد أن ولج إلى الغرفة، ألقى سترته على الفراش ورمقها بنظرات مطولة، لكن لم يمنع استغرابه من تأمله للقميص الحريري ذي اللون الأزرق الذي ارتدته، تشكل على شفثيه بسمة ساحرة، اعتقد أنها تنتظره بشغف لتعوضه عن فترة الجفاء بينهما، وأن حديثه في الباكر معها قد أحدث تأثيره عليه، دار بعينين تواقيتين ببطء متمهل على تفاصيلها المخبأة من أسفله، زادت رغبته فيها، تمنى قضاء ليلة حاملة في أحضانها يتذوق من أنهر الغرام ويروي ظمأ اشتياقه لها، اقترب بخطوات حذرة منها حتى وقف خلفها، امتلأ صدره بعبق رائحة عطرها الناعم الذي أشعل جذوة مشاعر الحب، مرر نظراته على شعرها المنساب على ظهرها، احتضنها من الخلف بذراعيه، وأخفض رأسه على كتفها ليقبلها من جانب عنقها هامساً لها بعدوبة:

-وحشتيني!

تصلبت مع شعورها بقبضتيه تلامسان جسدها وتطوقاها، وتأففت من ملمس شفثيه على بشرتها، أصابها إحساس قوي بالنفور والاشمئزاز من وجودها في أحضانها، خاصة وأن فحوى الرسالة الأخيرة لا يزال حاضراً في ذهنها لتتدفق الذكريات المؤلمة بسرعة متواترة إلى عقلها فتشحنها أكثر ضده، قاومت بقوة استجمعتها من مشاعرها الناقمة على أفعاله الماجنة ما حاول منحه لها من مشاعر دافئة، كانت على أهبة الاستعداد للاشتباك معه، حاولت أن تضبط إيقاع تنفسها وهي ترد متسائلة بجمود:

-كنت فين يا "أوس"؟

استغرب من سؤالها المريب، ومع ذلك أجابها ببساطة دون أن يحررها من حصار ذراعيه:

ما أنا قايلك، كان عندي اجتماع و...

دفعته بغتة بقوة بقبضتها في صدره بعيداً عنها قبل أن تقاطعه بشكلٍ غير متوقع:

-إنت كذاب

ثم تراجعت خطوتين للخلف لتبقي على مسافة آمنة بينهما، اندهش "أوس" من ردها الصادم المستفز له، ما أشعل جذوة غضبه من جديد هو اتهامها المتكرر والصريح له بالكذب ليعود الصدام بينهما مثلما حدث في المرة السابقة قبل أن يتحول الأمر إلى مأساة، رد مدافعاً عن نفسه ومحدراً في نفس الوقت وهو يشير بسبابته:

-أنا مش محتاج أكذب عليك يا "تقي"، وخدي بالك من كلامك معايا!

ردت بتهكم وهي ترمقه بنظراتٍ تزدريه:

طبعاً لازم أخذ بالي من كل حاجة، لكن إنت زي ما إنت عمرك ما هتتغير

كاد أن يفقد أعصابه من تطاولها عليه، صاح بها متسائلاً:

-في إيه مالك؟

اقترب منها ليمسك بها من معصمه لكنها جذبت يدها بشراسة من بين أصابعه صارخة به:

-ماتلمسينيش!

تجمد في مكانه مدهوشاً من ردة فعلها، وما زاد الطين بلة صياحها المحدث للفضى:

-أنا بأقرف منك!

شخصت نظراته وقست تعابيرها على الأخير من هول وصفها، كور قبضة يده ضاغظاً على أصابعه، كز على أسنانه متسائلاً:

-إنتي بتقولي إيه؟

بدت باردة للغاية وهي تواصل إلقاء تهمها جزافاً عليه:

ليه وجعتك الكلمة ؟ ما هي دي الحقيقة، كل لمسة منك بتخليني مش طيقاك، بتكرهني في جسمي بزيادة!

نزلت كلماتها كالصاعقة على رأسه، أصابته في مقتل وأوقظت فيه ما حاول كبحه بشراسة، استمرت "تقى" في الضغط على الوتر الحساس هادرة دون أكتراث بتبعات تهورها الأهوج:
-عمرك ما هتنضف أبدًا

رمقته بنظرة ساخطة وهي تكمل إهانة أشد قسوة:

هتفضل تجري ورايا أي واحدة تقولك لأ طالما حطيتها في دماغك!

بلغت الأمور ذروتها في ثوانٍ معدودة، تحطم ما سعى لبنائه برعونة عباراتها، هتف بها بنبرة متعصبة وقد برزت عروقه النابضة بقوة لتشير إلى انفجاره الوشيك:

- "تقى"، إتي اتجننتي!

وقفت قبالة تحدجه بنظرات خلت من العطف والحب، نظرات بدت خاوية من أي لمحة إنسانية، اندفعت الكلمات من حلقها لتهاجمه مكتسحة ما تبقى من ذرات عقلانية:

-ده طبع ومش هايتغير فيك، إنت زي ما إنت.. حيوان !!

.....

الفصل التاسع عشر

أطلقت بكلمتها الأخيرة الوحش الكامن بداخله وحررته من قيده الإجباري الذي منعه من الانفلات من قيده المحكم منذ تلك الليلة المشؤومة حينما نال غرضه منها، تجسدت معاني الشر في حدقته، وتراقص شبح شخص مخيف في طرفيه، توحشت نظراته بدرجة مخيفة، بدت ملامحه مختلفة عن المعتاد منه، كان "أوس" كالبركان المهدد بالانفجار في لحظة مباغتة، ركز أنظاره المشتعلة على وجهها المحترق، رأت "نقى" بأم عينها ما أحدثته كلمتها المهينة من تأثير جلل عليه، هوى قلبها في قدميها خوفاً من ردة فعله القوية، استجمعت جأشها لتفر من أمامه قبل أن يفعل ما لا يمكن توقعه، أولته ظهرها متجهة إلى الباب لتتركه بمفرده، لحق بها "أوس" فأمسك بمعصمها ليجبرها على الوقوف عند أعتاب الغرفة، شهقت مصدومة من مسكته المباغتة، التفتت برأسها نحوها ترمقه بنظرات قلقة، دق قلبها بقوة حينما صفق الباب بعنف بيده الأخرى لتبقى معه بالداخل، توترت أنظارها من وجهه المخيف الذي تجسد عليه تعابير قاسية، كز على أسنانه متسائلاً بنبرة قائمة:

-رايحة فين؟

تجمدت عيناها المرتاعة على وجهه المتصلب، قست تعبيراته متابعاً بلهجة متشنجة:

-أنا مخلصتش كلامي معاك!

لم يبال بما قد يظنه الخدم أو الحراس من شجار أسري يدور بالأعلى، فالأمر بلغت المحك، أخافها نبرة صوته، وأدركت أنها تجاوزت معه ياهاتها المتهورة، حاولت إفلات رسغها من أصابعه القابضة عليها بقوة، لم تنجح في ذلك، جذبها "أوس" عائداً بها لمنتصف الغرفة دون عناء يذكر، كانت مقاومتها واهية للغاية، خاصة مع توتر أطرافها، توقف عن السير ليستدير نحوها، ثبت حدقته على وجهها دون أن يرف له جفن، ارتعدت كثيراً من طريقته في التعامل معها، شعرت

ببرودة تسري في أوصالها من منظره المهدد بعنف وشيك، ولما لا تخاف وهي المتسببة في تأزم الموقف بالهجوم المهيمن عليه؟ شدد من إمساكه بمعصمها لتتأوه متألة من قوة ضغطه على عظامها، صرخت به:

سيب إيدي

جاهدت لتتملص منه رافضة التطلع إلى وجهه المشحون بدموية غاضبة، قبض "أوس" على كومة من شعرها المنسدل ليجذبها منه للأعلى مجبراً عينها على النظر إليه، لعقت شفيتها المرتجفتين بخوف، هتف بخشونة قاصداً الضغط على حروف كل كلمة يتلفظ بها:

مش لازم تسمعي الحيوان اللي اتجوزتيه الأول قبل ما تسبيه وتمشي!

هربت الدماء من وجهها ليحل شعوب مرتعد على ملامحها وهي تستمع إليه ينطق بنفس الكلمة التي ربما ستفتح عليها أبواباً من الجحيم، رفع يده عالياً في الهواء بعد أن تركت خصلاتها مهدداً بصفعها، اتسعت مقلتاها رعباً وهي تتوقع الصفعة في أي لحظة، كور قبضته بعنف وهو يخفضها ليمسك بفكها، تأوهت بأنة موجوعة، نظر في حدقتها دون أن يطرف جفناه ومزيداً في نفس الوقت من ضغطه على عظام وجهها، لو كان كالسابق لما كانت تلك ردة فعله، سيطر "أوس" بدرجة لا تتخيلها "تقي" على أعصابه حتى لا يخرج عن سكونه الزائف فيذيقها ألواناً من العنف جراء تهورها الأحق لتختبر المعنى الحرفي لمرادف كلمتها الهوجاء، النظرة التي رمقها بها كانت كافية لإسكات قلبها من فرط الفزع، تمسك "أوس" ببقايا أعصابه ليتابع بقسوة جافية:

مليون مرة قولتلك أنا اتغيرت، بقيت واحد ثاني، ليه مش عاوزة تصدقي ده؟

ارتجفت وهي بين برائنه، عجزت عن النطق أو حتى تبرير اندفاعها في الإساءة إليه، صرخ منفعلاً وقد بدت أنفاسه حارقة لبشرتها المرتجفة:

أنا عمري ما أنكرت إني كنت حيوان زي ما قولتي، بس إتي ليه حطاني في القالب ده؟
مش عاوزة تنسي اللي فات مع إني ساحت أكثر حد أذاني!

اختنقت الكلمات في جوفها وهي تعلق:

أنا .. مش ..

هدر مقاطعاً:

-إنتي مع أي مشكلة تقابلك بتنسي كل حاجة حلوة عملتها عشانك وتفتكري بس الوحش مني
رفض "أوس" تمرير الأمر هكذا دون عقابٍ حتى لو كان معنوياً، تشنج صوته وهو يضيف
مهدداً:

لو كنت حيوان زي ما بتقولي يا "تقي"، كنت عرفتك الحيوانات بتعمل إيه
حل أصابعه عن فكها ليحني نفسه عليها مروراً ذراعه أسفل ركبتيها ليحملها، صرخت متوقعة
تنفيذ تهديده الصريح باختبار تجربة لم تكن بالبعيدة عنها، ركلت بساقها في الهواء وحاولت
ضربه في صدره ليتوقف، لكنه تسلم بجموده المفرع للأبدان، ألقاها على الفراش دون أن
يحررها، جثا فوقها مثبتاً رسغها أعلى رأسها، نظر لها بعينين خاليتان من الحياة قائلاً لها
بشراسة:

-الحيوان اللي اتجوزتيه عمره ما ندم في حياته إنه ذل واحدة ولا خلاها تركع عند رجله
انتفضت بجسدها مع حقيقة ما يردده، قاومته لتتحرر من قيده الإجباري لكنه ازداد في ضغطه
على يديها، حملت نظراته رغم القسوة التي تغلفها لمحة من العتاب، اختنقت نبرته المتشنجة
وهو يضيف:

-إلا إنتي يا "تقي"

تدريجياً خبت حدة انفعاله ليكمل بنبرة تحمل الألم:

من وقت ما عرفتك والقدر ربطني بيكي، اتغيرت وندمت وعرفت يعني إيه أنسى وأسامح
وأغفر لغيري، وده كانت حاجة مستبعدة عني!

اغرورقت عيناها الزرقاوتان بالعبرات الكثيفة، انتحبت بنشيج خافت باحثة عن المناسب
من الكلمات لتبرر موقفها، عاد "أوس" ليقسو عليها مكملاً بعدائية أخفت تلك اللمحة المتألمة
من عينيه:

لو كنت لسه زي ما أنا كنت أذيتك فوق ما عقلك يصورك، وده مش صعب عليا، أنا أقدر أعمل أضعاف اللي عاوزاه معاك، ومحدث هيمنعني

حملت فيه بنظرات ضائعة مرتعدة خاصة حينما نطق عن قصد:

-وخصوصًا إنك مراقي!

أحس بتلك الرجفة القوية التي أصابت بدننا، وبخوفها المضاعف لمجرد توهم الأمر في مخيلتها، تراجع بثقل جسده مبتعدًا عنها ومرخيًا قبضتيه عن رسغها، وقف على قدميه موليًا إياها ظهره قائلاً بجمود مليء بالجفاء:

بس للأسف ماينفعش، لأنني بأذي روعي مش بس هأذيكي

زحفت "تقي" متكومة على نفسها دون أن تبعد نظراتها المرتاعة عنه، التفت برأسه ناحيتها ليطالعهها بغرابة، ورغم قسوة ما ييوح به إلا أنه تعمد أن تكون نبرته خالية من أي ذرة إشفاق وهو يكمل:

-وعلى أد ما أنا بأحبك يا "تقي" بس ليا لي طاقة استحمال

تشجعت للنطق أخيرًا مرددة بتلعثم:

-إنت.. مش فاهم حاجة، أنا ...

هدر بقوة خشنة أخرستها:

-ومش عاوز أفهم

ضمت ركبتيها إلى صدرها وقد تضاعفت رجفتها من تعسفه القاسي، لم يقترب "أوس" منها، ظل متيسرًا في مكانه يحدجها بنظراته النارية وكاظمًا ما يخالجه من نزعات تحته على تأديبها، لولا شغفه الصادق بها وتغيره الحقيقي لما سكت أبدًا عن ذلك وارتكب أبشع التصرفات، أشار بسبابته معنًا بغلظة:

-إنتي اللي اختارتي تظلميني وتحكي عليا زي تلمي، واعتبرتي إن حبي ليكي مالوش قيمة ولا لازمة!

أجهشت "تقى" بالبكاء وارتفع نحيبها بسبب عنف كلماته، بدا وجهه متحجراً لا يكسوه سوى القسوة والجمود، استدار متحاشياً النظر إليها فألمها ذلك كثيراً، همست باسمه من بين بكائها:
- "أوس"

أحس بغليان يفتك برأسه مع نبرتها التي تسترق قلبه، بسخونة حارقة تلهب جلده وتحته على التراجع، لكنه لن يلين تلك المرة، هي بحاجة لإدراك خطئها وتقييم الأمور بمنظور أوسع عن ذلك المنظور الضيق المحدود الذي تحدد به علاقتهما، كان بحاجة للخروج من الغرفة ليبعد عن تلك التوترات المشحونة والمهددة بتحطيم كل شيء، خلت نبرته من العطف وهو يفرض عليها قانونه الجديد:

- من النهاردة معاملتي ليكي زي الأغراب، مش هتزيد عن كونك أم بنتي وبس!
انكوت من قسوة حديثه اللاذع فاحترق قلبها كمداً، لو فقط تريثت للحظة وحكمت عقلها لأدركت أنها خسرت الكثير تلك الليلة حينما أقدمت على مجاہتته بالإهانة والنكران لشغفه الصادق، استعطفته بنهضة واضحة:

- اسمعني بس

رفع كفه للأعلى دون أن يستدير نحوها هادراً بحزم:
- خلاص الكلام!

اتجه "أوس" نحو الشرفة ضارباً بقبضته بعنف على النافذة الزجاجية حتى ظنت أن الزجاج سيتحطم من شراسة الضربة، انتفضت باكية وهي تلوم نفسها بشدة على طيشها، دارت بعينها في الغرفة وكأنها تبحث عن وسيلة تسعفها في إنقاذ الموقف، توقف بؤبؤاها عند هاتفها المحمول، لا بد أن يعلم بالرسائل التي زرعت الشك بينهما وأوصلت الأمور إلى تلك النقطة المؤسفة، فلولا ذلك لما جرت المشاكل على نفسها، حركت جسدها ببطء على الفراش حتى وصلت إلى حافته، التقطت هاتفها بيدها من على الكومود ومسحت باليد الأخرى دمعتها الملتببة، سارت "تقى" صوب الشرفة ووقفت خلفه مترددة في الاقتراب منه، شعرت بتصلب جسده، بتشنج عضلاته وصوت أنفاسه يكاد يكون مسموعاً، هو لم يلمسها أو يتناول باللفظ أو

الفعل عليها، لكن كلماته كانت كافية لتنهش من روحه قبل روحها، بل وأحدثت شرخاً عميقاً في حبها أكثر من أضرار الإيذاء البدني، ما أقسى التجاهل من تحب وكأن أمره لا يعني لك شيئاً!

قدمت قدماً وأخرت الأخرى وهي تدنو منه، فرت عبارات طلب المغفرة من رأسها، كان عقلها خاوياً إلا من مشاعر الأسف والندم، خجلت من غبائها الذي جعلها تنسى ما عايشته معه على فترات بذل أقصى ما يستطيع لتنعم بترف الحياة معه، غفلت عن توبته وندمه وسعيه الدؤوب ليظهر بذرة الخير الكامنة فيه، أطرقت رأسها بخزي وهي تلوم نفسها عن حق، شعر بها "أوس" تقترب منه، ومع ذلك لم يلتفت نحوها، أحس بقبضتها الناعمة تلامس ذراعه، نبذا متحرراً للجانب ليبقي على مسافة بينها وكأن الأمور انعكست لتتحول هي إلى الجانية وليس المجني عليها، أضناها فعلته العفوية والمبررة، اهتزت شفتاها قائلة بندم:

غضب عني أظلمك، أنا .. أسفة

وكانها تحدث الفراغ، لم يظهر تأثيره بعبارات الاعتذار، تابعت بصوتها الباكي:

-بس إنت لو كنت مكاني وقريت وعرفت اللي بيتقال عنك.. كنت هتشك حتى لو واحد في الـ 100 إن في حاجة بتحصل

التفت بغتة ليرمقها بنظرة قائمة قائلاً لها:

-أنا غيرك يا "تقي"، ثقتي بيكي وبجبنا مالهاش حدود، بس خلاص إنتي اختارتني، وأنا قررت!

توسلته بنحنة واضحة في نبرتها:

-ادينني فرصة أدافع عن نفسي

أشاح بوجهه ليحديق في الفراغ المظلم أمامه مردداً بعدم مبالاة:

-مالوش لازمة، سيبي لوحدي

انهمرت عبارتها بغزارة وهي ترجوه:

- "أوس"

أمرها بجمود قايس برع في إظهاره:

-أمشي يا "تقي"

ابتلعت تلك المرارة اللاذعة في حلقها لتقول بخفوتٍ قبل أن تنسحب من جواره:

-أنا .. أسفة!

أسندت هاتفها على الطاولة القصيرة من خلفه وهرولت خارجة من الشرفة كاتمة بيدها شهقة موجوعة، استندت بظهرها بجوار نافذة الشرفة لتسمع صوته يقول:

ليه ضيعتي كل حاجة حلوة بينا يا "تقي"

ازداد إحساسها بالخذلان والأسف، هزت رأسها بهيسترية نادمة على رعوتها، اتجهت إلى الحمام لتبكي بداخله، لكن انزلقت قدمها فلم تستطع التحكم في خطواتها أو الحفاظ على اتزانها، حبست صرختها في جوفها وهي تحاول منع نفسها من السقوط، ولأن رؤيتها كانت مشوشة بسبب دمعاتها الكثيفة فأمسكت بالفراغ لتزل قدمها وتطرح أرضًا، حدث كل شيء في أقل من لحظة؛ حيث ارتطم جانب رأسها بالبلاط الصلب فأصابته بعنفٍ مما أفقدها الوعي.

ظن أن ذلك الصوت الذي وصل إلى أذنيه ما هو إلا مزهرية قذفت بها لتفرغ عن إحساسها المتألم، وماذا عنه ألا يحق له أن يغضب؟ تقوس فيه بتكشيرة مزعوجة وهو يجاهد لتجاوز شعوره الحانق نحوها، استدار بجسده ناويًا النوم في غرفة أخرى ليشعرها بفداحة ظلمها له، رأى هاتفها على الطاولة، كان على وشك تجاهله لولا رنين الرسائل الذي آثار فضوله، انحنى ليمسك به، فتح الرسالة الموجهة إليها ليقراً ما فيها، تناطح كل شيء في رأسه، وأطلت شرارات الغضب بقوة من حدقتيه وهو يتابع الكلمات المستفزة والمرفقة بصور تخصه والتي كانت كفيلة بإحراق الأرض ومن عليها، إذاً اتهام زوجته بكونه يخونها ويرتكب الفواحش المريضة مع غيرها لم يكن من فراغ، هناك من استغل جموحه السابق ليعبث بعقلها ويفسد حياتها، لم يحتاج إلى فطنة وذكاء ليدرك من يقف وراء ذلك الأمر، ربط أطراف الخيوط معًا وتمم بغيط مستشاط:

-"رغد"

ضغط "أوس" بأصابعه المتصلبة على الهاتف وقد شحذ حنقه المتقد بداخلة ليهدر عاليًا بصوت رن صدها بقوة في أرجاء المكان:

- "تقى"!

اندفع إلى خارج الشرفة ليتلاشى في لحظة غضبه المحتدم مع رؤيتها ملاقة عند أعتاب الباب وبركة صغيرة من الدماء تحاوط رأسها، جزع قلبه وشعر بأن روحه تقتلع من صدره، أخذ ما حدث لها على محمل الخطورة والجد، تحولت نبرته من الشراسة للخوف الشديد وهو يناديها:

- "تقى"!

ركض نحوها ليجثو على إحدى ركبتيه بجوارها، لم يفهم ما الذي أصابها، لكن المشهد المفزع أخافه كثيرًا وذكره بنفس الحالة التي رآها عليها قبل أشهر حينما نهش إنسانيتها وتركها في حالة بين الحياة والموت، احتضن "أوس" وجهها بين كفيه ليتفقد هاتقًا بصوتٍ مرتجف:

- ردي عليا، "تقى"!

ضمها إلى صدره ثم مد ذراعيه ليحملها، استقام واقفًا وسار بها بخطوات أقرب للركض ليضعها على الفراش، ضرب وجنتيها بقوة طفيفة صائحًا بتوجيس زائد:

- "تقى"، فوقي يا "تقى"، حصلك إيه؟ ردي عليا!

تركها راقدة في مكانها وانتفض باحثًا عن هاتفه المحمول في جيب سترته، أخرجه سريعًا ليعبث بأزراره، وضعه على أذنه قائلاً بتلهف مذعور ونظراته الخائفة مركزة على وجهها النازف:

-د. "مؤنس"، تعالالي بسرعة!

.....

ذرع الرواق جيئةً وذهابًا وهو ينتظر بالخارج بجوار مدبرته التي رفضت الرحيل دون الاطمئنان على من تعدها ابنتها، خاصة أن صراخها المحتدم قبل برهة أزعجها للغاية، طالعت "عفاف" سيدها بنظرات قلقة حملت الإشفاق أيضًا، فإن كان محنًا في إظهار جانبه القاسي، إلا أن

خوفه على أحبته يفوق بكثير ما يظهره للآخرين من قلب متحجر ومشاعر لا تعرف الرحمة، دنت منه محاولة إزالة توتره وهي تستطرد قائلة:

إن شاء الله هاتبقى كويسة!

لم يعلق عليها "أوس"، ظلت عيناه مثبتة على باب الغرفة الموصد، انتصب في وقفته حينما رآه يفتح، اقترب من طبيبه المخلص متسائلاً بتلهف:

مالها يا "تقى"

رسم "مؤنس" ابتسامة هادئة على ثغره وهو يحببه بارتياح:

كل خير يا "أوس" باشا، مافيش داعي للقلق ده كله

سأله بعينين قلقتين:

هي كويسة؟

أوما برأسه مؤكداً بسلاسة:

أيوه، وفاقك كمان

اندفع "أوس" بلا تفكير دافعاً إياه من كتفه ليتأكد مما يقول، توقف أمام فراشها ليتأملها عن قرب، تنفس الصعداء لكونها قد عادت إلى وعيها، تبعه كلاً من "مؤنس" و"عفاف" ليضيف الأول بجدية:

الهانم محتاجة ترتاح الفترة الجاية وتبعد عن أي ضغوط نفسية، وخصوصاً إن الفترة الأولى من الحمل

قاطعته مصدوماً وقد تركت الكلمة الأخيرة وقعها على قلبه قبل أذنيه:

حمل!

رد موضحاً ببساطة:

أيوه، "تقى" هانم حامل، والي حصلها من حالة إغماء أعراض عادية ومعروفة

انفجرت أسارير "عفاف" عن فرحة كبيرة لذلك الخبر السار الذي حتماً سيبدد أي خلاف بين الزوجين المتشاحنين، صدق حدسها ورأت بقلبيها الحاني تبدل حال "أوس"، حيث تبخر في لحظة ما وضعه من قواعد صارمة لتحديد العلاقة بينهما، وكأن جدالها المثير للفرع لم يكن له أساس، سعادة لا توصف غمرته من رأسه لأخص قدميه، فحيبته التي عشقها بجنون تحمل في أحشائها بذرة وليد آخر له، استوى بجوارها على الفراش ممسكاً بكف يدها، رفعه إلى فمه ليقبله هامساً بنبرة جمعت بين الفرحة والبكاء المكتوم:

- "نقى"

ردت بنبرة منكسرة وقد تجنبت النظر إليه بسبب خزيها:

- أنا أسفة.. مكانش لازم أشكك في حبك ليا

تخرجت "عفاف" من وجودها في ذلك التوقيت الحرج الذي يتطلب لحظة من الخصوصية يعبر فيها الزوجان عن سعادتهما دون متابعة أو مراقبة من أحد، أشارت للطبيب "مؤنس" بيدها ليتفهم الأخير الموقف دون التفوه بكلمة، تحرك في اتجاه الباب وتبعته مغلقة إياه فور خروجها، تأملها ملياً وهو يكاد لا يصدق ما سمعه، أزعجه انحناء رأسها لتمنعه من رؤية وجهها كاملاً، وضع "أوس" إصبعيه أسفل ذقنها ليديرها إليه، رمقها بنظراتٍ حنون حملت أسمى معاني الحب والإخلاص معلقاً عليها بصوته العذب الذي فقد قسوته:

- انسي اللي فات

ترقرقت الدمعات في طرفيها لتحجب عنه التطلع إلى زرقة عينيها، مال عليها ليقبلها من جبينها ثم تراجع لبضعة سنتيمترات عنها لتظل أنفاسه قريبة منها، ردد متوعداً بلهجته الصارمة:

- والي عمل كده أنا عارف هحاسبه إزاي

سألته مستفهماً وقد تلاحقت دقائقها:

قصدك إيه؟

أجابها بهدوءٍ وهو يطوق جانب عنقها براحته:

أنا عرفت باللي موجود في موبايلك
شعرت بدفء لمستته عليها فهمست بارتباك:

-يعني ...

قاطعها مشددًا بابتسامة مغتررة لا تظهر على جانب شفثيه إلا عند ثقته التامة في التعامل مع
الأمر بشكل لا يشكك أبدًا في قدراته:

-يعني هاتصرف بطريقة "أوس الجندي" !!

.....

الفصل العشرون

كان بحاجة للجوء إليه للأخذ بمشورته في التعامل معها بعد تأزم الموقف وتكرار الصدام بينهما فمن المحتمل أن يؤدي ذلك لتطور الأمور نحو طريق لا يجذبه، ربما استطاع بمرور الوقت أن يتعلم كيف يضبط أعصابه في أصعب المواقف هوجائية ويقوم من انحرافات السلوكية، بل ويسيطر على جموحه العنيف ويكبحه إن لزم الأمر إن ظهر على السطح مهددًا بإحراق الأرض ومن عليها، لكنه لا ينكر أنه في بعض الأوقات يصل لحافة الانهيار ويكاد يفتك ويطيح بمن يقف أمامه، جلس "أوس" متصلبًا في المقعد المواجه لمكتب طبيبه النفسي د. "فهيم" محفوظ"، سرد له بإيجاز ما دار مؤخرًا من مشادات كلامية وافتعالات ثائرة لزوجته، أصغى إليه الأخير باهتمام كبير مدونًا بعد الملاحظات في الورقة البيضاء الموضوعة أمامه، تطلع إليه "أوس" بنظرة غامضة وهو يسأله باقتضاب:

-المفروض أنا اعمل إيه؟

أسند "فهيم" قلمه على الورقة لينظر إليه بابتسامة هادئة قبل أن يجيبه بجياذية:

طبيعي بعد الظروف اللي إنتو مريتوا بيها يحصل ده بينكم

رمقه بنظرة حادة غير مقتنعة بتبريره ليسأله بتهكم:

طب وأنا استفدت إيه بكلامك ده؟

رد الطبيب بحذر:

-أنا هاحلل الموقف من منظوري الخاص، وأنا واثق إن حضرتك هتفهم قصدي إيه

علق باقتضاب:

يا ريت

أخرج "فهيم" زفيرًا بطيئًا من صدره قبل أن يتابع موضحة بنبرة عملية هادئة:

-كل واحد منكم ماضيه ماثر على تصرفاته، إنت بطبيعتك الميالة للعنف واللي كان تقريبًا حاجة أساسية في نمط حياتك، وهي بتجربتها السيئة معاك، وقت ما بيحصل خلاف بينكم وبتعجز

عن إنك تحتوي عصبيتها بتهدها بالي قادر عمله حتى لو يتمنع نفسك عنها، وهي بتشوف فيك الصورة القديمة بكل مساوئها

لم يقاطعه "أوس" واستمر في الإنصات إليه وهو يكمل بنفس الهدوء الجاد:

ده غير إن من كلامك استشفيت إنها بتعاني من فقدان الثقة بنفسها، بمعنى إنها حاسة إنها أقل منك بكثير، سواء كان على المستوى التعليمي أو الاجتماعي أو حتى الثقافة اللي اترى كل واحد منكم عليها، وده بيخليها حاطة نفسها في موضع مقارنة مع أي واحدة تانية حتى لو كنت بتحسسها إنها محور الاهتمام، هيفضل شعورها جواها ويزيد مع الوقت سألها مهتمًا وقد بدا تفسيره مقنعًا إلى حد كبير:

طب وايه الحل؟

أجابه ببساطة:

قدملها الفرص المناسبة اللي تحسسها إنها قربت منك سواء فكريًا أو ثقافيًا زوى ما بين حاجبيه مرددًا:

قصداك تكمل تعليمها؟ على فكرة أنا معنديش مانع في ده

رد عليه مقترحًا:

مش بس كده، تقدر تشوف هي حابة تتعلم إيه وتساعدها فيه وتشجعها تستمر وتكمل وتحفزها على النجاح وإنك معاها خطوة بخطوة، ده هي فرق معاها

شرد ليفكر في اقتراحاته العملية والتي ربما ستأتي بنتائج المرجوة إن استطاع تنفيذها حقًا، حلق فيه "أوس" من جديد وهو يؤكد عليه:

-كمان المتابعة النفسية لتعزيز الثقة بالنفس وبناء جسر التواصل مع الآخرين مهمة جدًا، ضروري تكون إنت حريص أكثر منها على حضورها للجلسات دي، صدقي هيرفع من معنوياتها كثير ويفيدها زي ما هيفيدك!

لم يجادله في شيء بل رحب قائلاً برحابة صدر:

-تمام يا دكتور، وأنا موافق!

ابتسم "فهيم" لتجاوبه معه، وشعر في قرارة نفسه أنه استطاع إنجاز الكثير وإحراز تقدماً ملموساً مع حالة مرضية مستعصية كحالة مريضه الجالس أمامه، تفاعل كثيراً بما يمكن أن يفعله "أوس" مستقبلاً لتحقيق الاستقرار النفسي والأسري ليس فقط لنفسه بل وللأقرب إليه .. زوجته.

.....

تململت ببطء وهي تحرك ذراعها على الملاءة الناعمة باحثة عن الوسادة لتغطي بها رأسها بعد أن أزعجها صوت الدقات على باب غرفتها بالفندق، أرادت أن تستسلم لسلطان النوم لتخفف من حدة الصداع الذي يفتك بها جراء إفراطها في تناول الخمر ليلة أمس، نفخت بضيق وقد زاد الدق الحاد على الباب حتى بات وكأنه يدق في رأسها، اعتدلت "رغد" في نومها مسلطة أنظارها الناعسة على الباب، حركت جسدها لتنهض عن الفراش وهي تفرك خصلات شعرها المبعثرة بصورة فوضوية، لم تهتم بارتداء روباها الحريري لتغطي قميص نومها الأسود القصير الذي يصل إلى فوق ركبتيها بمسافة كبيرة يزينها قطعة من قماش الدانتيل، كما برز كتفها ومفاتها بشكل مُلفت للأنظار، ظنت في نفسها أن إحدى عاملات خدمة الغرف قد أتت في تلك الساعة المبكرة للقيام بعملها، كرت على أسنانها تتوعدها بحقن:

-ده مابقاش فندق، يشغلوا عندهم عالم أغبياء، مش يفهموا، وأنا هاعرف الغيبة دي مقامها فتحت الباب وقد أفاقت سريعاً من نعاسها ليتلاشى أيضاً غضبها مع رؤيتها لابن عمها واقفاً عند أعتاب الغرفة بكامل هيئته وقوته، رفعت حاجبها للأعلى مبدية اندهاشها من حضوره الغريب، لم تتوقع على الإطلاق أن يعرف مكان إقامتها الحالي، بل ويأتي بقدميه إليها، خاصة أنه كان نافراً من حضورها، رمقها "أوس" بنظرات احتقارية كارهة لها، وزدات نظراته ازدرائية حينما أطلت عليه بذلك المنظر المستفز والمشين في نفس الوقت وكأنها لا تبالي بتطلع الغرباء لجسدها، رفع يده للأعلى قليلاً ليشير بإصبعيه لحراسته التي تبعته بالابتعاد، نفذوا أمره

صاغرين، لم يكن ليجرؤ أحدهم على التطلع إليها في حضرته، تشكل على زاوية فم "رغد"
ابتسامة مستمتعة وهي تدعي الترحيب به:

مش معقول، "أوس الجندي" بنفسه هنا عندي!

مدت ذراعها لتستند على الباب وباليد الأخرى عبثت بخصلات شعرها مرددة بغرور ومتعمدة
التغنج بجسدها أمامه:

ده أنا لازم أنغر في نفسي!

أومات له بحاجبها كتعبير عن ثقها بنفسها وتلك البسمة المستفزة ما زالت تلوح على ثغرها،
دفعها "أوس" بجمود وبوقاحة من ذراعها بعد أن نظر لها شزراً ليتمكن من المرور للداخل،
تاوهت بألم طفيف من إثر خبطته لتلحق به بنظراتها المزعوجة، اشتد كتفاه انتصاباً وهو يعلق
قائلاً ببرود متعمداً استفزازها بقسوة:

متعمليش لنفسك قيمة أوي!

في لحظة واحدة هاجت دماؤها التي تحمست لرؤيته ليتحول الأمر في ثوانٍ معدودات إلى
كراهية صريحة، تابع مكلاً باستهجان:

-لأنك رخيصة!

استشاطت عيناها على الأخير وتحولت ضحكاتها اللعوب لعبوس مُضاعف بسبب كلماته
اللاذعة التي جرحت من كرامتها وانتقصت من أنوثتها الزائدة، سارت خلفه لتمسك به من
ذراعه، استدارت لتواجهه هاتفة بجدة:

-إنت فآكر نفسك مين؟ جاي لحد عندي عشان

قاطعها بصيغة أمرة نافضاً قبضتها عن ذراعه:

-اسكتي واسمعي للآخر

أرادت إشعاره بنفس ما تشعر به من غلٍ وغيظ لذا لوحت له بسبابتها هادرة:

جاي تأمرني هنا، اتفضل اطلع برا

ورغم طردها المتعمد له إلا أن ملامح "أوس" بدت هادئة للغاية أقرب إلى الجمود عن أي شيء آخر، فرك طرف ذقنه ليرد ببساطة قاصداً الاستخفاف بأمرها:
-لا-

احمر وجهها غضباً وبدت نبضات قلبها مسموعة بقوة في أذنيها من فرط الانفعال، ضغطت "رغد" على شفتيها كاظمة ضيقها مؤقتاً بداخلها لأ فضولها يحثها على معرفة سبب زيارته لها، وضعت كفها أعلى منتصف خصرتها، بدت في وضعية متعصبة بسبب اهتزازات جسدها المتواترة بصورة ملحوظة، بالإضافة إلى ذلك الصداع المؤلم الذي يضرب برأسها ويكاد يفتك بها لعدم حصولها على قسط وافر من النوم، تجاهل "أوس" التطلع إلى ملامحها المتشنجة ليلقي نظرة شاملة على الغرفة، وقعت عيناه مصادفة على كأس الخمر والزجاجة الفارغة بجواره، أيقن أنها كانت تحتسيه حتى ساعة متأخرة، دنا من الطاولة القصيرة ليمسك بالزجاجة رافعاً إياها في مواجهتها قائلاً بنبرة متهمكة:

-شكلك لسه مفوقتيش من

لم تتحمل المزيد من سخافات المستفزة لها، قاطعته بنبرة حادة وهي تنتزع الزجاجة من بين أصابعه لتلقي بها على الأرضية بعصبية:

-ملكش دعوة باللي بأعمله، أنا حرة!

رمقته بنظرات متحدية تحمل الغضب الجهم، وبادلها نظرات جامدة خالية من الإشفاق أو حتى الاهتمام، نكست "رغد" رأسها قليلاً حينما تمكن منها الصداع، كانت تود العودة لسباتها أو لتناول بعض الأقراص القاتلة للألم، تابعها "أوس" بعينين مراقبتين لتصرفها المفهوم، شيعها بنظراته وهي تتجه للكومود لتبحث بداخله عما يسكن الوجع، كان هادئاً حتى أبعد الحدود في التعامل معها، لاح شبح ابتسامة باهتة على طرف شفتيه وهو يرد:

-رأي لازم تصححي في الكلمتين اللي هاقولهم ليكي

باغتها بالقبض على ذراعها، شهقت عفويًا من إمساكه لها بتلك الطريقة التي أشعرتها بفارق القوى الجسدية بينهما، حملت فيه بعينين متسعيتين، أحست بتوتر رهيب يحتاجها، وفي نفس الوقت أيقظ فيها مشاعرها الكامنة نحوه بحبها لطريقة فرضه سطوته وسيطرته على الآخرين، دق قلبها بعنف وشعر هو بحالة التخبط التي انتابتها لمجرد تقريبها منه، أفاقت من شرودها السريع حينما قال:

-ماتعشميش نفسك أوي

صاحت بتذمر:

-إنت بتعمل إيه؟

لم يجبها وسحبها خلفه نحو الحمام، كان "أوس" بحاجة لجعلها في كامل وعيها لتستوعب جيدًا ما سيمليه عليها، فهو أكثر الأشخاص درايةً بتأثير الخمر على شاربيه، والطريقة الأمثل لإفاتها كانت بجعل الماء البارد ينهمر أعلى رأسها ليحفز خلاياها، صرخت "رغد" محتجة على إمساكه بعنقها ودفع رأسها أسفل صنوبر المياه لتغمرها بالكامل، شهقت وسعلت وقاومت، لكن دون جدوى، لم يكثر بحركاتها العشوائية لتتخلص من قبضته، كان مسيطرًا عليها حتى تأكد أنها صارت واعية بشكل أفضل، تركها للحظة لتتنفس بعمق حتى يهدأ سعالها، نفضت الماء عن عينيها ووجهها صارخة به بغيط:

-إنت اتجننت

بدت تعابيره أكثر قسوة وهو يطوق عنقها بقبضة يده ليضمن عدم إفلاتها منه، كور كومة من خصلاتها المبتلة حول يده ليجذبها منه فأجبرها على رفع رأسها للأعلى لتتطلع إلى انعكاس ملامحه في المرأة، كان "أوس" يقف خلفها، يبدو أكثر طولاً، هبية، مهابة، خشونة عن ذي قبل، استطرد قائلاً بجفافٍ من بين أسنانه:

-بصي كويس أوي للوش ده

ردت ساخرة وبغورٍ محاولة استفزازه وفي نفس الوقت التقليل من شأن زوجته:

-إيه؟ شكلنا لايقين على بعض؟ طبعًا أحسن من اللي متجوزها، صح؟

هتف بخشونة وقد تصلبت أصابعه على عنقها لتشعر بقوة قبضته:

-بلاش تخشيلي من السكة دي أحسنلك؟

سألته بمكر وهي تشير له بعينين عابثتين:

-أومال جاي هنا ليه؟

صمت للحظة لكنها بادرت بالإجابة لتفسد عليه أي إجابة مناسبة يحاول الرد بها عليها:

-أكيد عشان تحس بقوتك معايا، أنا فاهمة طباعك كويس

أظهرت شفتاه ابتسامة ساخرة من محاولاتها اليائسة للتودد إليه بشتى الطرق لتلفت أنظاره ولتحظى منه على القليل من الاهتمام، أظلمت نظراته مؤكداً عن ثقة كاملة:

-غلطانة يا "رغد"، مش إتي اللي هابصلك!

إهانة أخرى جارحة ضربتها في مقتل، وقبل أن تتحرك شفتها لتتلق تابع بنبرة جليدية جمعت بين القسوة والعدائية:

-عاوزك تبصي للوش ده كويس، لأنى عمري ما بأسامح في حق مراتي!

حاولت "رغد" التحرر من قبضتيه اللاتين تسيطران عليها بشحذ غضبها ضده، أفلتها عن عمد بعد أن استثار مشاعرها الحقودة نحوه وبدد آمالها في الحصول عليه، فركت عنقها بيدها لتخفف من وطأة الألم عليه، ثم نظرت له قائلة باستخفاف:

-بلاش الجو الرومانسي ده لأنه مش شكلك

لم يعبأ بالحقاقت التي تتفوه بها، رد محذراً بلهجة قوية:

خليكي فاكرة كلامي ده كويس، لأنى هاندملك على كل لحظة أذيتي فيها "تقى" بكلامك ولو كان فيها موتي!

مجرد ذكر اسمها والتشديد على حمايته لها حتى وإن كلفه الأمر حياته أغاظها على الأخير، وأشعرها بالغيرة الشديدة، فهي التي تكاد تموت كمداً من الحسرة على عدم زواجها منه، وتتوق

فقط ليشعر ولو بقدر قليل بما تكنه له منذ سنوات، ورغم علمه بمشاعرها إلا أنه نبذ أي محاولة لها لخلق بذرة حبٍ بينهما، لم تتحمل تباهيه بمقدرته على الدفاع عن زوجته فسأله بحنق: أنت ليه متمسك بالبتاعة دي؟ قولي، فيها إيه زيادة عن أي واحدة تانية دخلت حياتك؟ اشمعني هي بالذات؟ تفرق إيه عن ...

قاطعها بخشون لتبتلع باقي أسئلتها المتتابعة في جوفها:

-ولا كلمة زيادة عنها! متخصصكيش!

باتت يائسة حد الموت لتحصل منه على لحظة يظهر فيها اهتمامه بها، وإن كان زائفاً، اقتربت منه لتتلمس صدغه بأناملها، رقت من نبرتها لتسأله بتنهيده محبطة:

-أنا بنت عمك يا "أوس"، فيها إيه مميز عني؟ ليه مش قادر تحس بيا؟

رد بجفاء:

-ممتقارنيش نفسك بـ "تقي"، لأنك صفر على الشمال جميعها

لم تلق بالآ لجلسته المهيمنة لها، كانت أكثر حماسة لتلمس بشرته الرجولية، وضعت "رغد" يدها الأخرى على كتفه لتقول بأنفاس حارة وبصوتٍ خفيض:

- "أوس"، أنا.. بأحبك وعاوزاك، عمري ما حييت "أكرم"، هو جيبك ولا حاجة، و..

تقزز من أسلوبها الرخيص في الاقتراب منه، تراجع مبتعداً خطوة للخلف وكأن عقرباً ساماً قد لدغه، صاح بإهانة أشد قسوة:

-راعي اللي متجوزاه، هو مش مالي عينك؟ سايبك هنا تدوري على حل شعرك

صرخت بعفوية معبرة عن مشاعرها الناقمة نحو زوجها:

مش بأحبه ولا بأطيقه

علق ساخراً بابتسامة باهتة:

-وأنا زيه!

ضمت شفاتها لتضغط عليها بعد أن هاجت دماؤها من نفوره الواضح ورفضه الصريح لها، وما زاد من غضبتها قوله المتفاخر بأصل زوجته المتواضع:

-بس الفرق بينا إني بأعشق مراقي، وقبل ما نكون أنا وهي لبعض فهي بنت خالتي!
هتفت بتهم قاصدة تحقيرها:

-قصداك الجانب الكحيان في عيلتك

لم يتردد أو يندم في منحها صفقة مؤلمة لتفريق من أوهامها وأحلامها الرومانسية الواهية، تدلى فكها عن اندهاشة مصدومة وقد تألمت من قسوتها:

آآآ

تحولت لمحاته لعدائية أشد شراسة وهو يتابع مهدداً:

-مش هاسمطك

كزت على أسنانها متممة:

-إنت...

قاطعها بصلاية وبنظرات تحقيرها:

-أنا قولت اللي عندي!

أولاهها ظهره متجهاً إلى الخارج لتتبه مهرولة وهي تصيح به:

-استنى يا "أوس"، رايح فين؟ أنا مخلصتش كلامي

لم يلتفت نحوها أو حتى يرد عليها، فحديثه معها بات هراء لا يُحتمل، أكمل سيره حتى بلغ الباب، فتحه وقبل أن يخرج من الغرفة منحها نظرة أخيرة عكست مدى تأفقه منها، صفق الباب خلفه لتتجمد في مكانها وهي تشتعل غيظاً وحنقاً، كورت "رغد" قبضتها تتوعده:

-ماشى يا "أوس"

إليه اللي أخرك يا حلوة؟

غمغم "منسي" بتلك العبارة لنفسه وهو يتحسس شعيرات صدره مراقبًا حركة المارة من بقعة منزوية في الزقاق في تلك الساعة المبكرة من النهار حيث يتوجه الطلبة وبعض الموظفين الحكوميين إلى أعمالهم، لفظ دخان سيجارته -الملفوفة يدويًا- ليحبسه في صدره المتأجج بمشاعر مكبوتة يريد إفراغها، تابع حديث نفسه الموسوس:

صباحنا عناي، ما هو اللي ما يجيش بالرضا، يجي بالغصب!

لمح طيفها من على بعد فتأهبت حواسه لرؤيتها تمشي بخجل، ألقى "منسي" عقب سيجارته أسفل قدمه ليدعسه قبل أن يتخذ موضعه، فرك كفيه معًا، وانتظرها كذئب متربص بفريسته، لم تتوقع أبدًا أن يياغتها من تمقته حتى النخاع في ذلك التوقيت الحرج وهي في طريقها إلى مدرستها، اعتادت أن تنزل مبكرًا لتلحق مكانها في وسائل المواصلات قبل أن تعج بالزحام، شعرت بيد تضغط على فمها بقوة وهي تنحرف عند الناصية، انحبست أنفاسها مع صراحتها وتلوت مقاومة بغريزة طبيعية، شعرت بقبضة أخرى أشد قسوة تضغط على صدرها وتسحبها نحو ظلام ما، تضاعف خوفها ودار برأسها الهواجس، ظل ذلك الصوت المرعب الملامس لأذنها يردد بخفوت:

-ششش، اهدي!

شحب وجهها كليًا وقد أوشكت على تخمين هوية الفاعل دون الحاجة للتطلع إلى وجهه، أدخلها "منسي" إلى ورشته مغلقًا الباب الحديدي ليقلل من فرصها في الهروب إن حاولت ذلك، أفلتها من بين قبضتيه لتندفع لا إراديًا بعيدًا عن الجسد الذي التصق بها، استدارت لتنظر إليه بعينين متسعيتين في فزع، خرج صوتها مهتزًا مرتعدًا وهي تسأله:

-إنت بتعمل إيه؟

حك مؤخرة عنقه بلزمة اعتيادية وهو يدور بنظراتها على تفاصيل جسدها متخيلاً إياها بدون ثيابها المدرسية التي تحجب عنه الكثير، ارتاعت من نظراته الجريئة نحوها واستمرت في تراجعها للخلف تتوسله باستعطاف:

سييني أمشي لو سمحت، وأنا مش هاقول ...

قاطعها بزفير ثقيل:

مش هاتمشي يا قطة

ارتجفت "هالة" من طريقته في الحديث وأيقنت أنها حتما وقعت في بئر الهلاك، ظلت أنظار "منسي" مسلطة عليها تتفرس كل تفصيلة فيها برغبة جنونية، ابتلع ريقه في حلقه الجاف متابعًا:

ده أنا عاوز أقولك كلمتين

ارتعشت شفتاها هاتفة:

سييني أمشي!

تراجعت بخطوات أقرب للتعثر مبتعدة عنه كلما تقدم خطوة نحوها، بدا غير طبيعي وهو يقول بإصرار:

مش قبل ما أعبرك عن حبي

حاولت تهديده عله يرتدع فصاحت بشجاعة زائفة:

لو ماسبتنيش أمشي هاصوت و...

كركر ضاحكًا ليجبرها على قطع عبارتها قبل إتمامها ليضيف بعدها بعدم مبالاة:

محدث فاضيلنا السعادي، وبعدين دول كلمتين حب وغرام

شهقت بخوفٍ حينما تعثرت قدماها وسقطت على الأريكة البالية، وقبل أن تعتدل لتنهض من عليها طرح "منسي" ثقل جسده عليها ليحول دون حدوث ذلك، صرخت بخوفٍ وقد باتت محاصرة منه ومهددة بتلويث سمعتها وشرفها، ضربته بأقصى ما تستطيع بقبضتها في صدره عليها ترحزحه هاتفة بهلع:

أبعد عني

زادته مقاومتها إصرارًا ورغبة في الحصول عليها، استمتع بمقاومتها متسائلًا ببرودٍ وابتسامة سمجة متشكلة على وجهه:

ليه بس؟ ده احنا بنتعرف!

انحنى عليها لينال قبلة منها تشبع به أشواقه وربما تدفعه للحصول على المزيد مما تتمتع به عليه، ورغم حالة الخوف المتملكة منها إلا أنها صدته بأقصى طاقاتها، أبعدت "هالة" وجهه المقيت ذي الأنفاس الكريهة عنها، وأشاحت بوجهها للجانب ل تمنعه من الاقتراب منها، بكت بهيسترية تستغيث بمن بالخارج وقد أوشكت على فقدان مقاومتها أمام خشونته العنيفة وكلماته المهددة التي أكدت لها أنها لن تنجو بيدنها منه:

ساعدوني

لم يعبأ بصوتها الذي اختنق مع بكائها وردد غير مكترثٍ بتبعات فعلته الهوجاء:

صوتي للصبح، مش فارق معايا، وهاقول إنك جاية هنا برجليكي

أشعرتها كلماته الأخيرة أنه لا مناص لها منه، سينال منها حتمًا وقد بدأت قواها تنجو مع نشاطه العنفواني المتزايد، توسلته ببكاء:

حرام عليك، أنا عملتك إيه؟

استمر في محاولته المستميتة لتقبلها مرددًا بصوت لاهث:

أنا عاوزك

وبنظرات زائفة وعشوائية حاولت البحث عما يمكن أن يساعدها في إنقاذ نفسها منه، التفتت عيناها الباكيتان ذلك الثقل المعدي الذي يشبه ما يستخدم في حساب الأوزان والمُلْتقى بإهمال على الأرضية، أرخت "هالة" إحدى قبضتيها مضطرة لتتمكن من الإمساك بها، بالطبع استغل "منسي" الفرصة ليقترّب أكثر منها وتلمس شفتاه جانب وجنتها، قبلها عنوة منه بعشرات القبلات، وزاد تقززها من اقترابه المهلك، تحاملت على نفسها حتى تمد ذراعها لتمسك بالثقل، كادت أصابعها تلامسه، بكت وجزعت وانتفضت وهو يزداد عبثية معها وهي شبه عاجزة

عن صده، وما إن بلغته حتى قبضت بكامل راحته عليه لترفعه دون تردد للأعلى قاصدة ضرب رأسه به، صرخ "منسي" متألماً من خبطتها المفاجئة، اعتدل متراجعاً عنها واضعاً يده على رأسه، ضربته "هالة" مجدداً بشراسة وكل ذرة في جسدها تلتفتض بخوف، فقد اتزان مع الضربة الثانية فدفعته بيديها ليميل على جانبه وي طرح أرضاً، شهقت باكية وهي تتأمل الدماء النازفة بغزارة من رأسه والتي لطخت وجهه، كتمت صرخة مفزوعة أوشكت على الخروج من حلقها، استجمعت نفسها لتنظر له بهلع مرددة لنفسها بذهول مرتاع:

أنا عملت إيه؟ أنا قتلته!

نهضت عن الأريكة لتعتدل في وقفتها، شعرت أن قدميها عاجزتين عن حملها، بحثت عن مهرب لها من ذلك المكان وهي تكاد لا تصدق ما أقدمت عليه، نظرت إلى ثيابها التي أفسدها بلمساته المحرمة فحاولت ضبطها، لكن ماذا عن الدماء التي تناثرت قطراتها على قميصها الأبيض؟ شل تفكيرها للحظات، حدقت فيه بنظرات متجمدة رغم انهيار عبراتها بكثافة، أصبحت "هالة" شبه متيقنة بعد أن استوعب ما اقترفته يداها بأنها خسرت كل شيء في لحظة، أحلامها، فرصتها في إكمال تعليمها، مستقبلها، سعادتها، وأخيراً حريتها، لقد حولها "منسي" الوضع في لحظة مجونه العبثية إلى قاتلة مذنب.

زادت رجفتها ومنطقية بسيطة قررت الفرار قبل كشف جرميتها، أطلت برأسها أولاً للتأكد من عدم متابعة أحد المارة لها، كان ذلك الحقير محققاً، فورشته تقع في الجزء الهادئ من منطقهم الشعبية، وقلما يمر أحدهم من هنا في تلك الساعة المبكرة، تماكنت أعصابها وخطت للخارج وهي تتلفت حولها، بات خيار العودة إلى منزلها واللجوء إلى والدتها مستبعداً من تفكيرها، لن تقدم لها العون بأي حال من الأحوال، بل ربما تفضح أمرها بعويلها وصراخها المصحوب باللطم، تجسد في مخيلتها فجأة صورته، وكأن عقلها لا إرادياً يبحث لها عن الحل المناسب لمأزقها العويص، همست مرددة عليها تبث الطمأنينة لنفسها:

ما فيش غيره اللي ممكن يساعدني، أيوه، هو وبس .. "أوس الجندي"
!!

.....

الفصل الحادي والعشرون

لا تعرف كيف سيطرت على انقلات أعصابها بعد التجربة المريعة التي مرت بها وانتهت بكارثة محطمة كل آمالها بسببه هو فقط، هرولت فارة من ورشته متلفتة حولها بنظرات مرتعدة، من يتطلع إلى وجهها عن قرب ويدقق النظر سيكتشف حجم الهول المعكوس على ملامحها الباهتة، استخدمت "هالة" حقيبتها المدرسية في تغطية قميصها من الأمام لتحجبه عن الأعين المتطفلة التي ربما ستكشف ما فعلته عن عمدٍ، مجرد التفكير في افتضاح جرميتها ألبكها على

الأخير وجعلها تتخبط في مشيتها، وما إن وصلت للناصية حتى أشارت بيدها لأول حافلة صغيرة الحجم مرت أمامها، لم تكثر بوجهتها الحالية، المهم أن تباعد عن المكان وعن الجميع، ارتجف بدنها وهي جالسة في المقعد الأخير بالخلف، كافت لتبدو طبيعية فلا تثير الشكوك حولها، ولكن كيف تتمكن من ذلك وهي اقترفت جريمة بشعة للدفاع عن شرفها الذي كاد أن يدنس على يد شخص بغض كـ "منسي"؟ بدأت بعد برهة في استعادة هدوئها لترتب أفكارها في رأسها، فالأولوية الآن هي البحث عن حل قانوني لمشكلتها.

لم تكن راغبة في إشراك "تقي" في مصيبتها، فمن المحتمل أن تعجز عن مساعدتها، ستتوجه إلى صاحب النفوذ والسلطة لترجوه مباشرة، لذا كان عليها الذهاب إلى مقر مؤسسته، وبعون بسيط من السائق أرشدها إلى كيفية التنقل بين وسائل المواصلات للوصول إلى عنوانه، توترت أنفاس "هالة" وهي تجوب بنظراتها المذعورة ذلك الصرح الضخم الذي برز اسم "الجندي" بوضوح على واجهته وكذلك على الجانبين، ابتلعت ريقها المرير في حلقها الجاف محفزة نفسها على مواصلة السير، مرت بخوف بجوار حراس الأمن الذين رمقوها بنظرات فضولية متفحصة، أوقفها أحدهم مشيراً بيده ليسألها بجمود:

رايحة فين؟

ازدردت ريقها وهي تجيبه بتلعثم محاولة أن تبدو كذبتها مقنعة:

عازرة أقابل "أوس الجندي"، أنا بنت خالة مراته وهو عارفي

رد متسائلاً بخشونة:

في ميعاد سابق؟

خشيت من قول الحقيقة فيمنعها من الدخول وبالتالي تتعقد الأمور أكثر معها، لذا دون تفكير أو تأخير ادعت كذباً:

-أيوه، هو قالي أقابله هنا، وتقدر تكلمه وتتأكد من ده!

اضطر أن يتنحى للجانب ليسمح لها بالمرور، تصنعت "هالة" الابتسام وهي تكمل خطواتها المتباطئة نحو الداخل، رهبة عظيمة اعترتها وهي تطلّ بقدميها البهو المفضي إلى الاستقبال،

تجولت بعينها سريعًا في أرجاء المكان لتبحث عن مساعدتها، اقتربت من أحد المكاتب الرخامية لتطلب من الموظف الم رابط خلفه السماح لها برؤية صاحب المؤسسة، اعترض الأخير قائلاً بهدوء رغم صرامة نبرته:

يا فندم ما ينفعش!

شعرت أن فرصتها في لقائه قد باتت مهددة بالضيق، آمالها بالكامل معقودة على رؤيته، أدمعت عينها وهي تتوسله بنبرة أقرب للبكاء:

أنا واقعة في عرضك، الموضوع حياة أو موت

هز رأسه بإيماءة رافضة معلقًا عليها بعملية:

صعب يا آنسة

توترت "هالة" من إصراره الرافض لتقول باستعطافٍ عله يتراجع عن رأيه ويرق قلبه نحوها:

أرجوك يا أستاذ، أنا لازم أقابله ضروري

رد عليها بنبرة خالية من التعاطف:

صدقيني لو كان ينفع كنت خلتيك تقابليه، لازم يكون في ميعاد سابق، ده غير إن الباشا "أوس" لسه مجاش! وهو

قاطعته بالحاح وقد باتت على وشك الانهيار:

أنا محتاجه جدًا، عشان خاطري خليني أشوفه

تخرج من طريقها المتوسلة ليقول بدبلوماسية علها تتوقف عن استخدام ذلك الأسلوب المبتز عاطفيًا:

إنتي تقدري تقابليه برا يا آنسة

هتفت بنبرتها المحتنقة وهي تكفكف عبراتها التي خانتها وانسابت من طرفيها:

صعب، الموضوع ما يستناش، والله هو عارفيني، أنا مش بأدعي ده

زفر قائلاً باستياء:

مش عارف أقولك إيه يا آنسة، الحكاية مش سهلة زي ما إيتي مفكرة
ردت عليه برجاء أكبر وقد استشعرت وجود بارقة أمل في جملته الأخيرة:
حضرتك بس عرفه بأن "هالة" صاحبة مراته عاوزاه في حاجة مستعجلة، ولو هو رفض
يقابلني أنا هامشي على طول، مش هاعترض
فكر للحظات في طلبها الراجي، خاصة أن حالتها توحى فعليًا بوجود أزمة ما، تنحج قائلاً
بامتعاض وهو يشير بذراعه نحو الأرائك الجلدية الموضوعة في الزاوية:
هابلغ السكرتارية وهاشوف هيردوا يقولوا إيه، اتفضلي استني هناك يا آنسة
أثلجت عبارته صدرها وأشعرتها بالارتياح قليلاً، لاحت ابتسامة باهتة على ثغرها خففت من
وطأة مُصاها لترد بامتنان:

أنا متشكرة جداً

أولته ظهرها لتتجه إلى حيث أشار، جلست "هالة" على الأريكة الفردية منكمشة على نفسها
وفي نفس الوقت مراقبة بنظرات متوترة ولوج الموظفين لداخل المؤسسة، آملت أن تلمحه أو
تراه فور وصوله لتذهب إليه دون انتظار الروتينية المملة التي قد تحول دون مقابلتها له.

.....

منحها قبلة صادقة نابغة من قلب عرف الحب أضعافاً مضاعفة مع أول مرة حملها فيها بين
ذراعيه، هدهد رضيعته بحنو كبير وهو يسير بها بتؤدة من غرفتها إلى غرفته، داعبت الصغيرة
"حياة" أذنه وأنفه وكأنها تتفحصه وتستكشفه بطريقها الخاصة، ابتسم لها "أوس" وادعى
محاولته التهام أناملها الضئيلة فضحكت غاليته بعبث، همس لها قائلاً:

قريب هايكون عندك بيبي صغير تلعب معاه

غمغمت الرضيعة بكلمات مبهمه وهي تחדشه في صدغه، أحنى رأسه للخلف ليتجنب محاولاتها
للعبث معه دون أن تختفي ابتسامته، توقف عند عتبة الغرفة ليلقي نظرة متأمله على زوجته

النائمة، تحولت تعابيرها المسترخية للجدية قليلاً وهو يتذكر نصائح طبيبه النفسي بشأن التعامل مع "تقى" خلال المرحلة القادمة، زفر بثقلٍ ثم خطا إلى الداخل مقترّباً من الفراش، وضع رضيعته عليه بجوار والدتها لتبدأ الصغيرة في اللعب مع وجه أمها لتجبرها على الاستيقاظ، فتحت "تقى" عينيها الناعستين ببطءٍ لترسم ابتسامة صغيرة على محياها وهي تحديق في وجه طفلتها، شعرت بيدٍ تلامس كتفها فأدارت رأسها للجانب لتجد "أوس" جالساً على طرف الفراش بجوارها، ألقت عليه التحية هامسة بنبرة لم تفق بعد:

صباح الخير

رد مبتسماً:

صباح النور، عاملة إيه النهاردة؟

استندت على مرفقيها لترجع بجسدها للخلف، ثم اعتدلت في نومتها قبل أن تجيبه بنبرة شبه مرهقة:

الحمد لله

سألها مهتماً:

عندك دوخة أو حاجة؟

هزت رأسها بالنفي وهي تجيبه:

-لا، عادي، أنا كويسة

ابتسم لها بلطف فسألته بجدية وهي تحمل صغيرتها لتضعها في حجرها:

-إنت رايح شغلك؟

أجابها "أوس" بزفير مل:

-أيوه، في مصالح كثير لازم أعملها بنفسني

ثم صمت للحظة قبل أن يتابع بحماس:

بس ده ماينعش إني محضرك مفاجأة حلوة هتتعجبك، أو نقول أكثر من حاجة
نظرت له متسائلة باستغرابٍ طفيف:

-مناسبة إيه؟

رد ببساطة:

من غير مناسبة يا حبيبتى

مد ذراعه ليمسك براحتها، خلل أصابعه بين أناملها ثم حدق في عينيها قائلاً بنبرة اتسمت
بالجدية:

-"تقى" أنا عاوزك تكوني مبسوفة ومرتاحة في حياتك معايا، مش عاوز شيء يضايقتك أو
يحسبك يأنك مش مناسبة أو أقل مني، الفترة اللي فاتت كانت صعبة علينا احنا الاثنين،
ومش حابب ده يتكرر ثاني

نكست رأسها شاعرة بالحر من عتابه المتواري، وضع "أوس" يده أسفل ذقنها ليرفع برفق
وجهاً إليه، تهد قائلاً بصيغة أمرة رغم هدوء نبرته:

-بصيلي يا "تقى"

رمشت بعينيها وقد اكتسى وجهها بحمرة طفيفة، لا تعرف إن كان سببها شعورها بالخزي لكونها
المتسبب الرئيسي في أغلب الخلافات الفكرية بينهما والتي تنتهي بكارثة مؤلمة كليهما، أم لحاجتها
إلى حنانه وعاطفته التي ملأت الكثير بداخلها وعوضتها عما تحاول تخطيه، استأنف "أوس"
حديثه مردداً بروية:

-إنتي عمرك ما كنتي قليلة في نظري، بالعكس أنا كنت جمبك ولا حاجة

أراد أن يثبت في كلماته المحفزة إحساساً بدعمها، بتعزيز قدراتها وإن كانت بسيطة، لاح على
شفتيه بسمة صغيرة وهو يكمل بتفاخر:

-إنتي اللي عرفتي تطلي أحسن حاجة فيا، خلطيني أكتشف نفسي من أول وجديد

لمعت حدقتها بوهج مشرق وعادت نضرة بشرتها لتسطع بدموية لطيفة، مسح على بشرتها بنعومة متابعًا بنبرة عازمة:

-وزي ما عملي ده معايا، جه الدور عليا عشان أقف جمبك وأطلع أحسن حاجة فيكي تخبطت أفكارها من أسلوبه الغامض في الإفصاح عما يريد، رمقته بنظرات حائرة وهي تسأله بعدم فهم:

قصديك إيه؟

سحب شهيقًا عميقًا لفظه دفعة واحدة قبل أن يجيبها بتريث:
-أنا كنت قولتلك من فترة إن مافيش مانع عندي تكلمي معهدك علقت عليه مؤكدة:

-أيوه، وكنت بأفكر أجيب الكتب وأنظم وقتي وأذاكر أضاف قائلاً بحماس ملحوظ في صوته ولمحاته:

-مش بس كده، في كذا مكان كويس بيقدمو كورسات تنمية بشرية ويعملوا لغات وحاجات مفيدة، أنا واثق إنه هيفرق معاك كثير

شعرت "تقي" بالحرص لعدم قدرتها على فهم المصطلحات الأخيرة، ومع ذلك لم تتردد في سؤاله، فإن كان عليها أن تخرج من الحيز الضيق الموضوعية فيه ستفعل ذلك، ظهر الاهتمام على نظراتها نحوه وهي تقول:

-يعني إيه تنمية بشرية؟

ظلت ملامحه مسترخية عندما أوضح لها:

-ده طريقة علمية بتعرفك إزاي تطوري مهاراتك بشكل معين وتكتشفي ذاتك وقدراتك اللي مش عارفها، وكم إن تلاقي نقاط قوتك، وتستغلي عليها وتبقي أفضل، فأنا شايف إن النوعية دي من الكورسات هتفيدك

صمتت "تقى" لتفكر يامعان في حديثه الجاد، ربما هي بحاجة لتجربة ذلك لتتعرف أكثر على ما تمتلكه من قدرات هي ما زالت عاجزة عن تحديدها، أفاقت من شرودها السريع على قوله الجاد:

ده غير إني كمان عاوز أطلب منك طلب

سألته بتوتر لم تنجح في إخفائه:

إيه هو؟

جمد عيناه على وجهها ليقول بحذر:

يا ريت ترجعي تواظبي مع الدكتور بتاعك

بهتت ملامحها قليلاً من طلبه المريب، فقد انقطعت منذ برهة عن متابعة جلسات العلاج النفسي والتي شكلت فارقاً معها لتتجاوز أهم أزمة في حياتها وجعلتها ما هي عليه الآن، لاحظت "أوس" صمتها فاستشعر ترددها، لذا أردف محاولاً إقناعها بعقلانية:

إنتي أكيد محتاجة تفضفضي مع حد غيري عن اللي بتحسي بيه ويضايقك، تعبري عن مشاعرك من غير ما تكوني خايفة من ردة فعلي أو إن تحصل مشاكل بينا، وجود الدكتور ومتابعتك معاه هيساعدك زي ما ساعدني!

ردت معترضة:

بس..

قاطعها بإصرار واضح:

صديقي ده مهم عشاننا يا "تقى" وعشان ولادنا، أنا حابب ننسى الماضي باللي فيه ومانفضلش نقف لبعض على الواحدة كل ما أزمة أو مشكلة تحصل بينا!

كان محقاً في ذلك، فحينما يطفو الماضي على السطح تتعقد الأمور بشكل مثير ومزعج، أومأت برأسها موافقة:

حاضر

شعر "أوس" بالارتياح لاستجابتها له، مال نحوها ليحتضنها ويستشعر دفء جسدها، أسندت "تقى" رأسها على كتفه، مسح بقوة على ظهرها هامساً لها بعذوبة:

-بأحبك

تراجع قليلاً ليتمكن من رؤية وجهها، قرأت في نظراتها المتطلعة إليها حباً صافياً لم ينتقص من قدره شيئاً، بل إنه يتضاعف مع مرور الأيام، احتضن وجهها بين كفيه، داعب بشرتها وأخفض نظراته على شفيتها ليتسم بعبثية وهو يشعر بحاجتها إليه، اقترب منها ومنحها قبلة طويلة احتوت على مشاعره المتيمة بها، تجاوزت مع أحاسيسه العميقة وبادلته نفس المشاعر الوالهة، تجاهل الاثنان وجود الرضيعة للحظات حتى بدأت تن بضجيج لتعلن عن تواجدها، توقفت "تقى" عن تقييله لتقول بأنفاس لاهثة وقد أدركت حضورها:

-البنت يا "أوس"

علق بمكر:

-هارجعها أوضتها، مافيش مشكلة عندي!

توردت أكثر مع تعبيره المتواري عن رغبته في بث بعض الأشواق المتأججة، والاستمتاع بتلاحم الوجدان مع لغة الجسد لتعويض الفترة الفائتة، دفعته برفق من كتفه مدعية الجدية وهي تقول:

-مش هارينفع، روح شغلك، كده هتتأخر

تصنع العبوس قائلاً بتوعد:

-براحتك، بس لينا كلام سوا!

زوت ما بين حاجبها متسائلة:

-هو الكلام اللي من النوع ده مايخلصش؟

ابتسم قائلاً بثقة:

-لا، ده بيتدي!

باغتها بقبلة أخرى على شفيتها لتروي القليل من ظمأه لأحضانها، ثم انحنى على جبين صغيرته ليقبلها بحب قبل أن ينهض عن الفراش، وقبل أن يرتدي سترته ويخرج من الغرفة نادته "تقى" بنعومة:

- "أوس"

استدار نحوها قائلاً:

نعم

انعكس في نظراتها المجددة به وميضاً مرحاً استطاع ترجمته قبل أن تبوح بنبرة ربما تجعله يغير من خططه الصباحية:

-وأنا كمان بأحبك!

.....

انفضت في جلستها مع كل من تلمحه يرتدي زياً حكومياً يرق إلى الاستقبال متوهمة أن أفراد الشرطة قد عرفوا الطريق إليها وسيلقون القبض عليها بعد أن أكتشفت جرميتها، مر الوقت بطيئاً عليها، تكاد دقائق الساعة لا تسير وهي جالسة تنتظر ضالتها المنشودة، استنزفت أعصابها واحترقت عشرات المرات وهي تتخيل عشرات النهايات المأساوية لها، افتقرت "هالة" إلى الثبات الانفعالي وأوشكت على الانهيار بين لحظة وأخرى، تخللها هاجساً عظيماً أنها باتت مقروءة للجميع رغم صمتها، عادت لتشرذ في تأمل الوجوه المغلفة بقناع العمل لتغفل عن متابعة ذلك القادم من الواجهة الأمامية، انتزع "يامن" نظارته الشمسية وهو يلج للداخل، طواها ليضعها في جيب سترته ملقياً نظرة عابرة على المتواجدين بالمكان، توقف في مكانه مدهوشاً حينما لمح صاحبة الوجه المألوف تجلس في الزاوية بثيابها المدرسية، نظر لها في تركيز شديد ليتأكد من صحة ما رأى، لم يخطئ في معرفتها، استدار متجهاً نحو الموظف الواقف خلف

مكتب الاستقبال، وما إن وجده الأخير مقبلاً عليه حتى استقام في وقفته الرسمية مرحباً
بابتسامة لبقة:

صباح الخير يا فندم

رد "يامن" باقتضاب:

صباح النور

ثم أشار بعينه نحو "هالة" متسائلاً بنبرة جافة:

إليه اللي جاب البنت دي هنا؟!!

استشعر الموظف مشكلة ما تلوح في الأفق ربما تهدد بفقدانه لوظيفته لذا برر على الفور سبب
وجودها قبل أن يقع في مأزق خطير:

كانت عازية تقابل "أوس" باشا لمسألة مهمة وبتقول إنه عارفها، بس أنا منعتهأ وهاطلب الأمن
يطردوها

حثة فضوله على معرفة سبب مجيئها لمقابلة ابن عمه تحديداً، تذكر لقائه المثير معها ودفعه ذلك
أكثر لتفسير تواجدها، خاصة أنه لم ينس مظهرها البسيط ولا المنطقة المتواضعة التي أوصلها
إليه، رفع يده معترضاً بصوتٍ جاد:

مافيش داعي، أنا هتعامل معاها

تنفس الموظف الصعداء لتجاوزه مرحلة الخطر، هز رأسه في امتثال وهو يرد:

أوامر حضرتك

سار "يامن" في اتجاهها مسلطاً أنظاره عليها، وقف قبالتها يطالعها بنظراتٍ دقيقة جمعت بين
التسلية والفضول وهو يستطرد مرحباً بها:

أهلاً يا آنسة

تفاجأت "هالة" بوجود آخر من قد يأتي ببالها واقفًا أمامها، تدلى فكها في اندهاش غطى نسيبًا على رجفتها الملازمة لها، توقع أن ترد التحية لكن جمود تعابيرها ونظراتها المصدومة استفزه ليسألها بنبرة جافة دون أي مقدمات تمهيدية:

-خير كنتي عاوزة "أوس" في إيه؟

هبت واقفة على قدميها لتطالعه بنظرات متوترة خائفة قبل أن ترد على تساؤله بسؤال قلق:

-هو مش جاي؟

أجابها نافيًا بوجه جامد التعبيرات:

-لا، بس أنا موجود، في إيه؟

أصيبت "هالة" بالإحباط الشديد، شعرت بأن هلاكها قد أصبح وشيكًا، رغمًا عنها تسالت الدمعات إلى طرفيها لتلمع ببريق منكسر ومرتعِد، اهتزت نبرتها وهي تقول:

-يعني مش هainenفَع أقابله أبدًا

لاحظ التبدل المثير للريبة في ملامحها، شعورًا غريزيًا بداخله حفزه على الاهتمام بشكواها، تنحنح مُعقبًا عليها بمجدية:

-أنا أقدر أساعدك، تعالي معايا مكنتي تتكلم هناك على راحتنا

تلفتت حولها معترضة بتوترٍ:

-بس.. أنا..

قاطعها ليقنعها بالمنطق وهو يشير بيده موضحًا:

-شوفي محدش من الموظفين هنا ممكن يساعدك، آخرهم هيسبوكي هنا لحد ما ترهقي وتمشي بنفسك، أو بيعتوا الأمن يمشوكي ودي شكلها مش لطيف، أنا زي ابن عمي، ممكن أساعدك، يعني بالنسبالك فرصة حلوة، تقدري تستفيدي من وجودي على الأقل

لم يكن أمامها بديلاً عن الموافقة، فبعد مدة لا بأس بها من الانتظار كانت مستعدة للقبول بأي مقترح يساعدها في مصيبتها، ابتلعت ريقها هامسة باستسلام مرتبك:

ط.. طيب

لوح بذراعه ليشير لها بالتقدم أمامه وهو يتسم قائلاً:

-تفضلي

اضطربت "هالة" في مشيتها وزادت من ضمها لحقيبتها المدرسية، في حين خطا "يامن" خلفها ليتأمل تفاصيلها المشوقة باهتمام سيطر على عقله.

.....

ولجت إلى داخل المصعد لتزوي في أقصى ركن فيه، تعجب "يامن" من احترازها الملحوظ منه، وكأنه على وشك الاعتداء عليها، ربما الانطباع السابق لحملها قسراً لتركب سيارته بالإجبار أثر عليها قليلاً، تجاهل ردة فعلها المذعورة والتي لم تكن بحاجة لمحك ليفهم ذلك ليعرف فقط سبب إصرارها على الالتقاء بابن عمه، أشار لها بيده لتتبعه نحو مكتبه، كانت "هالة" مع كل خطوة تتقدما تشعر بالارتباك والحيرة، تخبطت في قراراتها وشعرت للحظة أنها تسرعت بالموافقة على إشراك ذلك الغريب في شئونها، خوفها جعلها تتراجع عن البوح بما تريد، تسمرت قدماها عند عتبة غرفة مكتبه ممتنعة عن الإبراح من مكانها، نظر لها "يامن" باستغراب متعجباً من جمودها، حثها على الدخول قائلاً بلهجة جادة:

-تفضلي جوا، أكيد مش هنتكلم على الباب!

شعرت بمرارة العلقم تسيطر على جوفها، بحاجتها لشرب جرعة كبيرة من الماء لتخفف من حدته القاسية، جلست باستحياء على المقعد المواجه لمكتبه ضاغطة بأصابعها بقوة على حقيبتها حتى ابيضت مفاصلها، التف "يامن" حول مكتبه الخشبي الكبير ليجلس على مقعده الذي يتوسطه، ركز بصره عليها متسائلاً دون مقدمات:

ها خير إيه الموضوع؟

بدأت أعصابها هشة للغاية وهي تكافح لاختلاق أعذار واهية لتقولها له، خرج صوتها متعلما حينما نطقت:

٢.. كان .. أصل .. يعني ...

حاول أن يبدو لطيفا ولبقا وهو يستدرجها لإفراغ ما في جعبتها قائلاً:

قولي، أنا سامعك

تحرك بؤبؤاها بحركة عصبية، عقدت "هالة" العزم على إخباره بنصف الحقيقة فقط، وإخفاء الجزء السيء منها لتتأى بنفسها عن مصيبة أخرى، استجمعت جأشها لتضيف:

أهلي كانوا عاوزين يجوزوني

أشار بعينه إليها معلقاً بذكاءٍ ليعرف المزيد عن تفاصيلها الشخصية:

بس إتي شكلك صغيرة، لبسك يقول كده، إنك في مدرسة، صح؟

أجابته عفويًا على ذلك يخفف من الضغوط العظيمة التي تنهش في بقايا أعصابها المتلفة مسبقًا:

أيوه، أنا 17 سنة وفي تانية ثانوي

أضاف بوجه بارد التعبيرات:

القانون على ما اعتقد يمنع الجواز قبل 18 سنة، فتقديري تقولي لأ، والقانون في صفك

ردت بتهكم:

ألي زي أهلي مايفرقش معاهم قانون أو غيره، المهم عندهم يجوزوني النهاردة قبل بكرة

حاول استفزازها ليعرف إن كانت راغبة في الزواج حقًا أم أنها تدعي ذلك، فالمراهقات أمثالها يتعلقن بأنماط معينة من الشباب ممن يثرن إعجابهن، وربما كانت هي إحدى تلك الفتيات، استوى على مقعده ل يبدو مسترخيًا في جلسته ثم أضاف ساخراً:

شكلك عاوزة تتجوزي، طريقتك بتقول إن في حد معين تعرفيه وبتتحججي بأي كلام

وخلاص

تفاجأت من تصريحه غير الصحيح وحكمه المسبق على شخصيتها وكأنها فتاة تتسلى بمشاعرها مع من لا يستحق، هبت واقفة لتصيح به بعصبية:

-ماسمحلکش

وقف "يامن" هو الآخر لينظر لها ببرود معقباً بلهجة غير نادمة على إصداره الأحكام:

-ماتخديش الأمور على أعصابك، أنا بأتكلم معاك، وجايز أكون غلطان في رأيي، محصلش حاجة

ورغم حالة انقلاط الأعصاب التي تعيشها منذ الصباح الباكر إلا أن أسلوبه المستفز والمستهين بشخصها جعل الدماء تثور وبقوة في عروقها، رمقته بنظرة حادة قاتلة له بوجه عابس ونبرة متجهمه:

-أنا اللي غلطانة، مكانش المفروض أقولك حاجة، عن إذنك

تحرك صوبها لينعها من الذهاب، أوقفها رغماً عنها بالإمساك بها من ذراعها هاتفاً بها:

-استني بس!

شهقت "هالة" من قبضته التي جذبتها من ذراعها، ذكرت لها على الفور بنفس القبضة التي سحبها عنوة لبئر مظلم لن تخرج منه إلا بمعجزة، انتفضت بتشنج مرتعد لترجح يده وهي تقول له بعينين عكست رعبها الحقيقي:

-بعد إيدك

وقبل أن يبدي اعتذاره عن تجاوزه معها أو حتى يبرر موقفه تجمد في مكانه متوتراً حينما سمع الصوت المألوف يقتحم غرفته ليناديه بقوة وخشونة:

- "يامن"

التفت كالمسلوع نحو ابن عمه الذي أطل بجسده الشامخ قائلاً:

- "أوس"

استغلت "هالة" الموقف لتنتزع ذراعها من بين أصابعه القابضة عليها، استدارت هي الأخرى لتواجهه بنظرات حملت الرجاء والخوف، استغرب "أوس" من وجود تلك الفتاة في مؤسسته، هو لم يلتقي بها إلا مرتين ولم يجرِ معها أي حوار، فقط كلمات مقتضبة حينما أخذها من سخافة المقيت "منسي"، تعقدت ملامحه بدرجة كبيرة وهو يردد:

إتني؟!

الفصل الثاني والعشرون

توسمت في حضوره المباغت ودون المتوقع خيرًا لها، فجيئه إلى ذلك المكتب قبل انصرافها المتحسر بعد جدال لا يسمن ولا يغني من جوع مع من ظنت أنه سيمنحها المساعدة يعني مكسبًا عظيمًا لها وإشارة قوية على احتمالية نجاحها، فلطلته مهابةً واضحة تفرض نفسها على المتواجدين وكأنها صممت خصيصًا له وحده، بلا وعي سحبت "هالة" ذراعها من بين أصابع "يامن" المرتخية لتخطو في اتجاه "أوس الجندي" الذي كان مدهوشًا من تواجدها في مقر مؤسسته وعند "يامن" تحديدًا، فمنذ متى هي تعرفه لتكون على اتصال مباشر به؟ وقبل أن يترك لأفكاره مساحتها للتحليل والاستنباط، وقفت "هالة" قبالة تطالعه بعينين راجيتين لتستجدي عطفه قائلة بنبرتها المختنقة:

أنا واقعة في عرضك يا باشا!

ضاقت نظرات "أوس" نحوها، رمقها بنظرات دقيقة دون أن يظهر وجهه الصارم أي تغيير في تعبيراته، بينما تابعت توسلها المرتعد:

إنت الوحيد اللي هاتقدر تساعدني في مشكلتي، بالله عليك تديني فرصة وتسمعي!
ذكره حالها المرتعد وارتجافتها البائنة بموقف مشابه عايشه مع زوجته حينما التقى بها هنا في مؤسسته لترجوه أن يعفو عن والدتها البريئة، عاد "أوس" إلى أرض الواقع نافضاً تلك الذكريات ليركز تفكيره مع الفتاة المألوفة، تعجب "يامن" من تلهفها لمقابلته واستعطافها له بتلك الطريقة المبتذلة من وجهة نظره، ضم شفثيه مبدياً سخطه وسخريته مما يتابعه، توقع أن يرفض ابن عمه الصارم مد يد العون لها، فقلما ساعد أحدهم أو تقبل ذلك الأسلوب الرخيص في استجداء إحسانه، بل على العكس كان يقابله بحدة وقسوة، تبخرت اعتقاداته القديمة حينما نطق "أوس" أمراً باقتضاب:

تعالى مكتبي!

شعوراً كبيراً بالراحة تغلغل في صدرها وجعل أعصابها الهشة تستكين نسبياً، أشار لها "أوس" بإصبعيه لتتبعه، أومأت برأسها في خنوع وسارت خلفه وكأنها أسلمته طوعاً زمام أمرها ليفعل ما يشاء، احتقنت نظرات "يامن" وشعر بالضيق وهو يتابع كالمترشح ما يدور بينهما، ألم تثر قبل لحظات لظنه أنها على علاقة بشاب ما يجعلها ترفض الزواج من غيره؟ وكانت على وشك الانصراف، وها هي بكل بساطة تعاود سرد ظروفها لابن عمه الذي بدا مهتماً بأمرها، زفر "يامن" مطولاً وهو يستدير عائداً إلى مقعده، ألقي بثقل جسده عليه ناظراً بأصابعه على سطح المكتب، تشتت أفكاره فلم يعد قادراً على التركيز في الملفات الموضوعة أمامه، ولأول مرة يسيطر عليه إحساساً غريباً لم يعهده مسبقاً مع أي أنثى تعامل معها؛ الغيرة.

.....

اصطحبها إلى داخل مكتبه أمراً سكرتيرته الخاصة بعدم مقاطعته لأي سبب ريثما ينتهي من مقابلته مع ضيفته المراهقة، اتخذت "هالة" موضعها على الأريكة الجلدية مطأطأة رأسها في خجل خائف، ركزت نظرها على قدميها المرتعشتين معصرة عقلها لتبحث عن الكلمات المناسبة

لتبدأ حديثها معه، ظلت تفرك بأصابعها حقيبتها المشدودة إلى صدرها، جلس "أوس" في مواجهتها واضعاً ساقه فوق الأخرى، تأملها ملياً بنظراتٍ جابت ثيابها المدرسية مرجحاً بقوة أنها لم تذهب إليها وأتت مباشرة إليه، الكثير من الأسئلة الحائرة دارت في رأسه، لكنه لم يتعجل الحصول على إجابات شافية، تركها صامتة لبعض الوقت لتستعيد ثباتها وتستطرد حديثها، لكنها لم تقطع ذلك الحاجز الوهمي، لذا بادر متسائلاً بجديّة وهو يراقب عصبيتها الظاهرة: -ليه الموضوع؟

تضاعفت رجفتها وتوترت أنفاسها وهي تجيبه بترددٍ مثير للريبة والخاوف: -أنا .. قتلته!

تصلب جسده مع كلماتها الغامضة التي أشارت بوضوح إلى كارثة خطيرة، ثبت عيناه الثاقبتان على ملامحها المذعورة ليفهم منها ما الذي فعلته تحديداً لتقدم على ذلك، سألها مجدداً بكلمات محددة:

-مين؟ وليه؟!

ضغطت بأناملها أكثر على حقيبتها رافضة التطلع إلى عينيه، ردت باضطرابٍ مضاعف: -هو.. كان عاوز ي..

انهارت باكية لتعجز عن إكمال جملتها، تعالت شهقاتها التي فشلت في ضبطها، أخفض ساقه وانتصب في جلسته لينظر لها بتمعن، قرب علبة المناشف الورقية منها لتستخدمها ثم علق عليها قائلاً بجديّة:

-اهدي كده وقوليلي بالضبط على اللي حصل، لأنني مش فاهم منك حاجة

أقدمت "هالة" على رفع رأسها للأعلى لتحقق فيه بعينين مليئتين بالعبرات الكثيفة، سحبت بضعة مناشف لتجفف بهم دموعها المنسابة، تنفست بعمق لتكبح نوبة بكائها ثم أردفت قائلة بمنطقية قليلة:

-أنا كنت بأدافع عن نفسي، وعن شرفي

بدا مهمتها للغاية من جملتها الوحيدة المرتبة، سألها مباشرة:

مين اللي عمل كده؟

اهتزت شفتاها مُجيبة بصعوبة:

- "م... منسي!"

لم يكن الأمر بحاجة لفطنة بديهية لتفسير الأمر كاملاً، فذلك المقيت الحقير شرع في الاعتداء عليها رغماً عنها ليشبع نهم رغباته الحيوانية، وهي ببساطة حاولت النود بنفسها من برائنه، أصغى باهتمام لباقي حكايتها معه دون مقاطعة، وتلك سمة جديدة اكتسبها خلال طريق علاجه النفسي، ازدادت عروقه انتفاخاً من كم الدماء الحارقة التي اندفعت فيها لتثير فيه غضباً مهولاً، لم يعتقد "أوس" أنه سيتأثر هكذا باسترسالها العفوي في الحديث، ضحية جديدة لذنب أراد افتراسها وتركها محطة وبقايا فتاة، هب واقفاً ليقول لها بنبرة جادة لكنها حملت الطمأنينة في طياتها:

-أنا هاتصرف معاه!

سألته بتلهف مذعور وقد شحب وجهها كلياً:

-يعني هتساعدني يا باشا؟

أجابها بكلمة واحدة عنت لها الكثير:

-أيوه

تنفست الصعداء وبكت فرحاً تلك المرة، لكن عادت مخاوفها لتطفو على السطح فبددت كل بارقة أمل لتقول بهلع:

بس أنا خايفة أرجع البيت يا باشا

نظر لها بغموض فبررت معللة:

-البوليس هايكون مستنيني هناك عشان يقبضوا عليا

سألها مستفهماً:

-في حد شافك؟

ردت بعينين تائهتين:

-مش عارفة

هز رأسه بإيماءة صغيرة قائلاً لها:

-تمام، هاشوف هاعمل إيه، متقلقيش

اتجه نحو مكتبه ليمسك بساعة الهاتف الأرضي، وضعها على أذنه بعد أن ضغط على أحد الأزرار ليقول بلهجته الآمرة:

-اتصلي بالمحامي وخليه يجيلي على المكتب فوراً

خمنت "هالة" أنه كان يتحدث إلى سكرتيرته الخاصة، انتفضت قليلاً حينما التفت ناحيتها ليقول بصوته الأجش بعد أن وضع الساعة في مكانها:

-إنتي هاتروحي الفيلا عندي

شخصت أبصارها وأحست بعنف دقات قلبها، لاحظ حالة الارتباك المذعور التي انعكست على حالتها فأوضح بهدوء:

ده وضع مؤقت لحد ما أعرف تفاصيل موضوعك بالضبط، وماتقلقيش هاتكون مراتي معاك لم تكن خائفة من التواجد في مكان يشمله، كان خوفها راجعاً للتطور السريع الذي شهدته حياتها في الساعات الأخيرة، انصاعت لعرضه السخي ولم ترفضه، فقد افتقرت للشجاعة لمواجهة تبعات فعلتها الخطيرة.

.....

تعلل بحجج واهية ليكث في مكتب السكرتارية التابع لـ "أوس"، فبقائه بمكتبه سيجين أفكاره المتقدة وسرحانه المتواصل في أمرها جعله يخرج عن سكونه الزائف ليرع إلى هناك مدعياً

حاجته لمقابلة ابن عمه، قاوم "يامن" ذلك الإحساس الفضولي الذي يحفزه داخليًا للولوج إلى داخل مكتبه ومعرفة ما يدور خلف الأبواب المغلقة، والتزم بتعليمات السكرتيرة بالانتظار ريثما ينتهي من اجتماعه الخاص، تتم مع نفسه مغتاطًا:

-اجتماع! ومع دي؟!

فرك جبينه متابعًا حديث نفسه:

-الموضوع أكبر من اللي هي قالتولي!

حيره مكوثها معه لمدة أطول منه، وقبل أن تتلاعب أفكاره برأسه فُتح الباب ليخرج منه المحامي الذي انصرف بخطوات متعجلة دون تعليق، ثم تبعه "أوس" ومن خلفه أطلت "هالة"، تعلقت نظرات "يامن" بوجهها الشاحب المذعور، حاد عن تحديقه بها حينما سأله ابن عمه بنبرة شديدة البأس:

-بتعمل هنا إيه؟

تنحى قائلاً بارتباك:

-كنت جاي أخذ توقيعك في كام حاجة

رد بجمود متعمدًا إحراجه:

-في سكرتيرة موجودة هنا دي وظيفتها، مش لازم تشرفني بنفسك!

ادعى "يامن" السعال قائلاً:

-أو كي، هاسيبلها الملف

تجاهله "أوس" ليلتفت نحو سكرتيته التي هبت واقفة لتستقبل أوامر رب عملها الصارمة:

-إلني اجتماعاتي النهاردة وحولها لـ "عدي"، والإيميلات الجديدة كلها تتبععلي على الميل بتاعي، مفهوم

حركت رأسها إيجابًا وهي ترد:

حاضر يا فندم

ثم التفت برأسه نحو "هالة" ليقول لها:

-تعالى معايا العربية، هاوصلك عندي

كلمات فهمت مغزاها ولم تعلق عليها، في حين أشعلت حالة من الفضول والغيظ بـ "يامن" الذي احتدت عيناه واحمر وجهه قليلاً، تساءل عفوياً:

هو إنت ماشي دلوقتي؟

نظر له "أوس" بتعالٍ قليل قبل أن يجيبه موجئاً:

-مايخصكش، ركز في شغلك أحسن!

أحرجه مرة أخرى بقسوة كلماته المخرجة خاصة أنها كانت أمام عيني "هالة" التي لم تكن منتبهة لحوارهما، فمصاها أكبر من الانشغال بأمور غيرها، تصبب عرقاً بارداً وانسحب من المكان كشعلة انطلقت فجأة وهو يركز على أسنانه في غيظ.

.....

هو إيه اللي حصل؟

تساءل "منسي" بتلك العبارة بصوته الثقيل والمتحشرح وهو يحرك جسده المتيبس شاعراً بذلك الألم الصارخ يضرب رأسه، رفع ذراعه ليتلمس مكان الجرح الغائر، شعر برطوبة لزجة تعتريه، أخفض يده ليتأمل أصابعه المملطخة بدمائه، اعتلته دهشة حائرة لبعض الوقت، لكنها تلاشت بعد لحظات حينما استعاد في ذاكرته ما حدث مع "هالة"، لعنها بكلمات نائية متذكراً جراتها ونيتها لقتله، زحف على بطنه يتمهل حذر حتى تمكن من بلوغ الأريكة، شدد من قبضته على حافتها ليستند عليها وهو ينهض، وما إن وقف على قدميه حتى غلف رأسه دواراً عظيماً، كاد أن يفقد اتزانه فأسرع بالجلوس على الأريكة.

تأوه "منسي" بأنين موجوع، ثم وضع يده من جديد على رأسه متلمساً جرحه، مسح بظهر كفه لعابه المتجمع عند زاوية فمه ليغمغم بعدها بتوعدٍ وقد توحشت نظراته الشرسة:

مش هاتخلصي مني بسهولة

حقد بجمود في الفراغ المظلم أمامه متابعًا حديث نفسه عن ثقة تامة:

-والمرادي هتوقفي بمزاجك على جوازك مني، وإلا هوديكي في داهية!

أرجع "منسي" رأسه للخلف مستمتعًا بتلك الابتسامة المنتصرة التي تشكلت على وجهه المغبر بالتراب وخيوط الدماء الناشفة ليبدو متأكدًا عن ذي قبل من موافقة "هالة" على زيجته المزعومة، فالأمور في النهاية انقلبت لصالحه بتصرفها الأخرق، وبالطبع سيستغل الموقف بدهائه الماكر لترعن لرغباته وإن كان ذلك بالإجبار !!

.....

الفصل الثالث والعشرون

ارتشفت القليل من عصير البرتقال الطازج الذي أعدته لها "عفاف" لتواصل بعدها مطالعة ذلك الكتاب الذي بيدها بحديقة الفيلا الخلفية، في البداية وجدت صعوبة في الاستدكار واستعادة المعلومات من بواطن عقلها إلى ذاكرتها القريبة، لكنها لن تستسلم وتتخلى عن أبسط طموحها، ستبذل قصارى جهدها لتحقيق شيئًا إيجابيًا لنفسها أولاً قبل أسرتها، كانت بحاجة للشعور بذاتها، بأكساب الثقة في نفسها وتعزيز إحساسها بأهميتها، أدارت "تقى" رأسها للجانب حينما سمعت صوته المألوف يُناديها من على بعدٍ، أسندت الكتاب بجوارها لتتهض من مكانها متجهة إلى الیهو، تعجبت من وجود "أوس" في تلك الساعة المبكرة من النهار، فعادةً هو يأتي متأخرًا بعد انتهاء أعماله بالمؤسسة، اعترتها دهشة أكبر حينما رأت "هالة" بصحبته، تجمدت نظراتها عليها ولاحظت بكائها وشحوبها المُرک، وزعت نظراتها الحائرة بين الاثنين وهي تتساءل باستغراب:

- "هالة"، بتعملي إيه هنا؟

ثم التفتت نحو زوجها لتسأله بجدية وقد انزوى ما بين حاجبيها:

حصل إيه يا "أوس"؟

وقبل أن يجيئها هرولت "هالة" نحوها لترتمي في أحضانها باكية بقهر، تعالت شهقاتها وامتزجت مع نحيبها المتقطع، ضمتها "تقى" بحنوٍ وقد تضاعفت حيرتها من حالتها المثيرة للشكوك، نظرت إلى "أوس" في صمتٍ وكأنها تسأله عما تخفيه، أشار لها بعينه كتعبير مباشر عن تأجيل الحديث في الأمر لوقت آخر، أومأت برأسها بتفهم ثم ربتت على ظهرها برفقٍ وهي تسألها:

إتي كويسة يا حبيبتى؟

لم تجبها "هالة"، بل شعرت بأنها بحاجة ماسة لإراحة عقلها من كم الضغوطات العصبية التي تعرضت لها واستنزفت طاقتها بالكامل، هي تحملت في ساعات قلائل ما لا يمكن أن تتحمله فتاة صغيرة في مثل عمرها، وما إن تسرب إليها ذلك الإحساس المطمئن بوجود من يدعمها حتى تخلت مؤقتًا عن وعيها ليزداد ثقل جسدها على "تقى"، شعرت الأخيرة بتراخيها في أحضانها وبعدم قدرتها على الإمساك بها فهتفت بجزع:

- "أوس"، الحقني!

أدرك سريعًا من نظراته الشاملة فقدان "هالة" لوعيها، اقترب منها هاتفًا بجدية:

حاسبي، أنا ماسكها

بحذرٍ تام لف "أوس" ذراعه حول ظهرها وانحنى قليلًا ليتمكن من حملها ثم سار بها بخطوات متعجلة نحو الدرج ليتجه للطابق العلوي، تبعته "تقى" بقلبٍ قلق على تلك الصغيرة التي أوحى ملاحظها الذابلة بوجود خطب عظيم، رددت من ورائه:

أنا هاكلّم الدكتور يحيى يشوفها

رد دون نقاش:

-يكون أحسن!

.....

تولت رعايتها بعد انصراف الطبيب وإبداء رأيه المبدي في حالتها الصحية والنفسية، لم تكن "هالة" تعاني أمرًا خطيرًا في حالتها الجسدية سوى من بضعة كدمات وخدوش سطحية نتجت

عن مقاومة غير مفهومة لأحدهم، لكن حالتها النفسية لم تبشر بخير، اقترح "مؤنس" عرضها على طبيب نفسي متخصص فما تعانیه يوحى ببوادر أزمة عصبية، أوصله "أوس" إلى خارج غرفة الضيوف ليعود من جديد إلى "تقى"، مسحت الأخيرة برفق على جبينها ونظرت إليه بحزن وهي تسأله:

-حصلها إيه؟

أجابها بخنق من بين أسنانه المضغوطة:

-الكلب اللي اسمه "منسي" اتعرضلها

شهقت "تقى" عفوياً واضعة يدها على صدرها وهي تردد بصدمة مرتعدة:

- "منسي"!

تابع مكملاً بصوت مزعوج:

على حسب كلامها هي بتقول إنها ضربته واحتمال كبير تكون قتلتته

شخصت أبصارها هاتفة بذهول:

-مش معقول

دس "أوس" يديه في جيبي بنطاله ليقول بوجه جاد التعبيرات:

-أنا متابع بنفسى كل حاجة، والمحامي زمائته هناك عندكم بيسأل عن تفاصيل موضوعها

وهايشوف إن كان في بلاغ ولا حاجة عن جريمة وقعت وهيعرفني بكل حاجة

نهضت "تقى" من على طرف الفراش لتسير نحوه، وقفت قبالتها تطالعه بوجهها البرئ قبل أن

تتوسله بنبرة راجية حملت الخوف في طياتها:

- "أوس" عشان خاطري ماتسيدهاش لوحدها، واحد زي ده ممكن يضيع مستقبلها، إنت مش

عارفه أدي و...

اغتاظ الأخير من كلماتها المُشككة في قدراته على مواجهة أمثال ذلك الوضع، احتدت نظراته وقست على الأخير وهو يرد مقاطعًا بخشونة:

- "تقى"، ماتخلقش لسه اللي يقف قصادي!

أدركت أنها أخطأت في مقارنتها به وردت معذرة على الفور:

- مقصدهش، بس هي غلبانة أوي ومغلوبة على أمرها

علق مؤكدًا بثقة تامة:

- أنا عارف كويس أتعامل إزاي مع الأشكال الضالة اللي زيه

استدارت "تقى" برأسها لتتظر بحزنٍ آسف إلى "هالة" الراقدة على الفراش متممة لنفسها بنبرة مواسية:

عيني عليك يا حبيبتي، واحد زي ده ضيعك!

أشار لها "أوس" بسبابته لتتوقف عن المهمة حينما رن هاتفه المحمول، تحرك مبتعدًا عنها ليجيب على الاتصال الهام، بدا حديثه مبهمًا للحظات حتى أنهى المكالمة ليلتفت نحوها قائلاً بهدوءٍ جاد:

- اطمنى يا "تقى"، مافيش خوف عليها

ارتسمت علامات الارتياح على وجهها وهي تسأله بعدم تصديق:

سجد؟

تابع موضحًا بامتعاض:

- المحامي أكدي إن مافيش أي بلاغ أتقدم عن وقوع جريمة قتل، والأغرب إن الكلب ده ماشي على رجليه

هللت متسائلة بابتسامة عريضة وقد لمعت نظراتها ببريقٍ من الأمل:

- يعني مامتش؟

أجابه بعبوس مقتضب:

-لا

وضعت "تقي" راحة يدها على صدرها مرددة بامتنان:

-الحمد لله يا رب، عدت على خير

وما لبث أن تحول وجهها للخوف من جديد لتهتف بارتباك مرتعد:

-بس أكيد "منسي" مش هايسيدها في حالها، هيحاول ينتقم منها أو...

قاطعها "أوس" بضيق كبير:

- "تقي"

ردت على الفور:

-أيوه

سألها بنظرات جامدة ووجه شبه متحجر:

-إنتي مش واثقة فيا ولا حاجة؟

فهمت ببساطة أن أسلوبها المسترسل في الحديث أزعج زوجها بشكلٍ أو بآخر، استندت بمرفقها على صدره لتمسح على كتفه بنعومة، رمقته بنظرة ناعمة ثم هزت رأسها بالنفي وهي ترد بدلال:

-لا طبعاً، إنت مافيش زيك، بس خوفي عليها مش مخليني عارفة أركز أنا بأقول إيه

تصنع الابتسام رغم ضيقه الداخلي من إعطاء قيمة لذلك الحقير وكأنه ذو شأن عظيم، تنفس بعمق ليزفر بعدها قائلاً بلهجة أمرة:

-عاوزك دلوقتي تكلمي حد من أهلها تكوني بتنتقي فيه وتعرفيهم إنها موجودة معاك، بدل ما الموضوع ياخذ سكة ثانية

رمشت بعينها متسائلة:

مش فاهمة، تقصد إيه؟

أجابها موضحًا بمنطقية:

هي لو مرجعتش بيتها في ميعادها زي كل يوم أهلها مش هايسكتوا وهي عملوا محضر غياب،
وده هيعمل مشاكل

أومات برأسها معلقة:

طيب، أنا معايا رقم "بطة" أختها

سألها على الفور:

واثقة فيها؟

ردت مؤكدة بنبرة حملت المواساة:

جدًا، هي غير أمها خالص بصراحة، واللي شافته خلاها تفكر أكبر من سنها
بدت كلماتها معبرة عن طبيعة التفكير السائد عند أغلب قاطني تلك المنطقة من النساء، غمغم
"أوس" مع نفسه قائلاً بتهكم وقد تشكل على وجهه علامات التأفف:

-الأمهات عندكو عينة واحدة!

انتهت "تقى" من التعليق ليضيف بعدها:

خلاص فهميها بالعقل على اللي حصل، وعرفيها إني هاتصرف وأساعد أختها، الموضوع معايا!
ابتسمت له برقة وهي تطالعه بنظرات مليئة بالثقة والمحبة:

حاضر

.....

فعلت مثلما أمرها وهاتف أخت "هالة" الكبرى لتقص عليها بإيجاز ما حدث من محاولة فعلية
للاعتداء على تلك المراهقة الليل من شرفها، بالإضافة إلى دفاع الأخيرة عن عرضها ثم لجوئها
إليها لتساعدها في مصيبتها، صُدمت "بطة" من كم الكوارث الهابط على رأسها، وما زاد من

فجعة الأمر أن المتسبب في إيذاء أختها وتلوّث سمعتها هو ذلك الحقير الوضيع "منسي" الذي أباح لنفسه ما لا يخصه أبداً، احمر وجهها وانتفخت عروقها وهي تسبه بقسوة وتتوعده بشراسة:

- ابن ال! والله ما هاسيه

حاولت "تقي" تهدّتها قائلة بحذر:

- اسمعيني بس

اهتاجت أكثر لتصرخ بانفعال:

- أنا هانزل هافضحه في الحتة كلها، وأجيب حق أختي منه، هو مفكرها ملهاش أهل

ردت عليها "تقي" بتهمّل لتمنعها من التصرف بهور:

- متقلّيش، جوزي هاي تعامل معاه، وهايبعده عن طريقها، وانتي عارفاه أد كلامه!

لم تكن "بطة" بحاجة لمثل تلك العبارات المشيرة إلى نفوذ وسلطة شخص معروف في الأوساط الاجتماعية كـ "أوس الجندي" لتتأكد من قدرته على تنفيذ ما وعد به وردع من يتجرأ عليه بل والانتقام بقسوة ممن يتجاوز الخطوط الحمراء معه، حطت دماؤها الثائرة قليلاً لترد بامتنان شاكر:

- تعيشي ياختي، ده العشم بردك، كتر خيركم على اللي بتعملوه

- متقوليش كده

ساد صمت لحظي قبل أن تقطعه "بطة" متسائلة:

- بس كده البت "هالة" هتفضل معاكي؟

أجابتها "تقي" معللة سبب بقائها:

- أيوه، صعب أسيبها تمشي وهي في حالتها دي، "هالة" مرعوبة من اللي حصل، ده غير إنها

مش عارفة إن كان لسه الزفت ده حي ولا ميت

كزت على أسنانها متممة بحنق:

عندك حق، الواطي الخسيس!

سألته "تقي" بعتاب لطيف:

-ويعدين إتي مش مطمئة عليها وهي معايا؟ والله أنا بأعتبرها أختي الصغيرة

نفت على الفور:

-لا، ماتقوليش كده، ده احنا ننشرف ياختي بيكي، هي تطول أصلاً تفضل معاكي، أنا مش

عاوزاها تتعبكم ولا تضايقكم

ردت مجاملة قبل أن تسألها بجدية:

-لا يا ستي، ولا تعب ولا حاجة، المهم إتي هاتقولي لأمك إيه؟

حكّت "بطة" مقدمة رأسها قائلة بحيرة:

-والله ما عارفة، هي هتقلب الدنيا ومش هتتفاهم، خدي مني، أنا مجرباها

تذكرت "تقي" معاملة جارتها لابنتها الجافة، خاصة فيما يتعلق بمسائل الزواج، فهي لا تعبأ

بالصالح العام لبناتها، المهم عندها أن تجد من يزيح ذلك الثقل المتعب عن كاهليها حتى وإن

كان يعني ذلك التعاسة والشقاء لفلذات أكبادها، تهتدت متسائلة بحزن:

حطب والعمل؟

صمتت لتفكر ملياً ثم هتفت فجأة وكأن أمر ما قد طرأ في عقلها وأزال الغشاوة عنه:

-أنا ممكن أقولها إن البت "هالة" هتتعد معايا يومين كده تونسني

ردت متسائلة بتوجس:

-وتفتكري هتصدق ده؟

أجابته مبررة لتقتنع بخطتها البسيطة في إخفاء تلك المسألة عن والدتها:

-ما هو "عبده" جوزي مسافر يومين بيقتضي كام مصلحة، دي فرصة حلوة، وبيتهيا لي مش

هتشك فينا

سألته بتوترٍ لم تخفه:

-إنتي متأكدة من ده؟

زفرت قائلة بقلّة حيلة:

-سببها على الله، مقدميش غير كده

ردت باقتضاب:

-اتفقنا

لم تجد "بطة" من الكلمات المناسبة ما تعبر به عن امتنانها لمعروف جارتها الوفية وزوجها،
فقالت بحرج:

-أنا مش عارفة أقولك إيه ولا أشكرك لإزاي إنتي وجوزك على معروفكم معانا

عابتها "تقى" بلباقة:

-ده إنتو إخواني، متقوليش كده

شكرتها قائلة:

-تعيشي يا غالية!

ثم أنهت معها المكالمة وهي تغلي من الغيظ، ازدادت بشرتها اشتعالاً كلما تخيلت الموقف
وجسدت تفاصيله في عقلها متوهمة يديه النجستين تتلذذان بتلمس جسد أختها من أجل
نزوة لحظية لكسرها، عادت دماؤها لتثور من جديد وهي تضغط على شفيتها قائلة:

-والله لأدفعك تمن ده غالي!

بدأت بعدها في ترتيب أفكارها لتتمكن من إقناع والدتها بكذبتها حتى لا تحاصرها بأسئلتها
فينكشف كل شيء قبل أن يلقي ذلك المجرم جزائه.

.....

يا نصيبيتي؟ وعملت إيه بعد كده؟

تساءلت "أم بطة" بتلك العبارة المرتعدة وهي تلطم على صدرها بعد أن ادعى "منسي" كذباً توريطه في مشاجرة حامية بين بعض العاطلين والخارجين عن القانون ليبرر سبب تضييد رأسه بذلك الشاش الطبي، انطلت عليها أكنوبته، ودعمها بالمزيد من الأحداث الحماسية لبدو كالبلبل الهمام في أنظارها، شجعه على ذلك هو جملها بمحاولته المشينة للاعتداء على ابنتها، فتوهم أن تلك الساذجة قد ارتعدت ولاذت بالفرار بعد أن ظنت أنها تخلصت منه، شعر بالارتياح وبتجاوزه مرحلة الخطر، بل وبإمكانية الابتزاز والمساومة لتحقيق مطامعه والظفر بها، ارتشف ما تبقى من شايه الساخن ليسند الكوب الزجاجي في الصينية الموضوعة أمامه متابعاً بغطرسة مصطنعة:

جبت اللي خلفهم الأرض، هو في عاركة تستعصى عليا!

عادت الابتسامة لتلوح على ثغرها مبدية إعجابها برجولته التي يدعيها أمامها، مدت يدها لترت على ذراعه قائلة بتفاخر:

-أبو الرجولة كلها يا سي "منسي"

دار الأخير السمج بعينه في أرجاء المنزل محاولاً اختلاس النظرات لبحث عن ضحيته المختبئة، لم ير سوى أختيها الصغيرتين فتساءل بمكر:

-أومال عروستنا فين؟

أجابته "أم بطة" عفويًا:

راحت يومين عند أختها، أصل الواد ابنها بعافية شوية وهي قالت تراعيها معاها

فرك ذقنه النابتة بغير تهذيب معقباً بوجه ممتعض التعبيرات:

-أه وماله، مش هي بخير

ردت مبتسمة بسخافة:

-الحمد لله، في فضل ونعمة

اعتدل "منسي" في جلسته لبدو أكثر جدية وهو يقول:

-أنا كنت عاوز أأخذ رأيك يا ست الكل في مسألة تهمك

نظرت له "أم بطة" باهتمام مرددة:

-اتفضل ياخويا

تنحنح بحشجة واضحة قبل أن يستطرد مضيقًا:

-أنا كنت كلمت "عبد الحق" في موضوع كده

ظهرت علامات الحيرة على قسماتها، حملت فيه بنظرات فضولية وهي تسأله:

-خير؟

ارتسم على فمه بسمة باهتة قائلاً بغموض:

-إن شاء الله خير

عبست "أم بطة" بملامحها قائلة:

-وغوشتني يا سي "منسي"، هي حاجة خطيرة و...

قاطعها مسترسلًا في الحديث وبنباتٍ واثق:

-بصي يا ست الكل، من غير لف ولا دوران، أنا عاوز أتجوز بنتك "هالة"

تصنعت الاندهاش لتبدو مقنعة رغم الظواهر البائنة منذ فترة لتشير نحو ميله نحوها، وضعت

إصبعيها أسفل ثغرها هاتفة::

- "هالة"!

هز رأسه بالإيجاب متابعًا عرضه بالزواج:

-أيوه، بصراحة ملاقتكش أحسن منكم أنا سبكم، وكلمت "عبد" وهو معندوش مانع

ضاقت نظراتها هامسة بغيظٍ من إخفاء زوج ابنتها لذلك الأمر المشوق عنها:

-شوف الواد، مقاليش، بس أما أشوفه

أضاف "منسي" قائلاً بمدحٍ ليستميل رأسها إن كانت تفكر في رفضه رغم يقينه بالعكس:
-أنا قلت أفتحك طالما محدتش رد منه، ما إتي الخير والبركة، وفي النهاية دي كلمتك يا ست الكل

ردت بابتسامة متسعة وقد توهجت نظراتها:

-ده يحصلنا الشرف يا سيد الناس

ظهرت أسنانه الصفراء جراء ابتسامته الزائفة وهو يقول:

-تسلمي يا أم العروسة، وأنا مش هاكلفكم حاجة، هاجييلها كافة شيء، وأحلى فرح هيتعملها،
ده غير إن شقتي فركة كعب منكم!

نبح ببساطة في إغرائها بما يمتلكه لترد مرعبة:

-أه طبعا، ده الباب في الباب، هو حد طایل بنته تتجوز جمبه

مال للأمام قليلاً مركزاً نظره على وجهها، ثم سألها بهدوء مريب:

ها رأيك إيه؟

أجابته بحذرٍ وهي تضرب كفها على الآخر المسنود في حجرها:

-أنا معنديش مانع يا سي "منسي"، بس إنت عارف الأصول، لازم اخد رأي العروسة

تراجع في جلسته ليعلق بعدم أكثرات وكأنه فهم ما تحاول فعله من مماطلة زائفة:

-وماله، حتها طبعا

غمزت له قائلة بثقة لتبدد أي شكوك قد تساوره:

-اطمن، بناقي تحت طوعي!

عادت ابتسامته لتطفو على ملامحه المقيتة وهو يقول بارتياح كبير:

-على خيرة الله، نقرى الفاتحة بقي!

حدقت بنظرات تائهة في سقفة الغرفة الغربية التي مكثت بها ليومين، كانت تشعر بالحركة من حولها، ومع ذلك لم تبدِ "هالة" أي مؤشر على تجاوزها، ظلت قابعة في بئر مخاوفها، ترتجف من أقل صوت، وترتعد مع لمحا لأي طيف يمر على مقربة منها، ضمت ركبتيها إلى صدرها متكومة على نفسها، منعسة في إحساسها المذعور منه، حتى وإن كانت قد نجت من شره المستطير إلا أن خلايا ذاكرتها قد خزنت ما حدث لها لتستعيده بين لحظة وأخرى فتتهار باكية في صمت.

راقبتها "تقى" من على بعد وهي تهز رأسها بحزن واضح عليها، فما أصعب المرور بتجربة قاسية كذلك! هي اختبرتها من قبل وتعلم مدى صعوبتها وتأثيرها النفسي والسلبي على حياة من يعايشها بجوارحه قبل عقله، أخرجت زفيراً مهموماً من صدرها، ورسمت على شفتيها بسمة رقيقة لتخفي ملامح ضيقها، مرقت إلى داخل الغرفة، ثم جلست بجوارها على طرف الفراش، حاوطت كتفيها بذراعيها فاستندت الأخيرة برأسها على كتفها، رددت على مسامعها من الكلمات المهدئة ما قد يريحها قليلاً، لكن ما جعل خوفها يخبو بدرجة كبيرة حينما أخبرتها بآخر المستجدات بشأن "منسي" وبقائه على قيد الحياة لتشعر أنها تخلصت من كارثة كادت تقضي عليها كلياً، تراجعت "هالة" للخلف لتنظر لها بعينين متسعيتين في صدمة وهي تسألها بتلهف:

-يعني هو مامتش؟

هزت "تقى" رأسها بالنفي موضحة:

-لا، وما فيش أي ضرر عليك، متخافيش

تنفست الصعداء واضعة كفيها على صدرها لتشعر بضربات قلبها المتلاحقة وهي تتراقص بداخلها، رددت بامتنان سعيد:

-الحمد لله يا رب

أضافت "تقى" مؤكدة:

-أنا مش عاوزاكي تشيلي هم أي حاجة طالما "أوس" اتدخل في الموضوع

نظرت "هالة" إلى صديقتها بخزي ممتزج بالحرج للزج بزوجها في مشكلة لا تخصه، أخفضت نظراتها لتحقق في أصابع يدها التي تفرّكها بتوترٍ قبل أن تقول بتلعثم مرتبك:
-أنا أسفة مكانش لازم أشغلكم بمشاكلي، بس والله غصب عني، أنا معرفتش أعمل إيه لما
وضعت "نقي" يدها على كتفها لتشعر بحنو لمستها ورفقها عليها، ثم قاطعتها بجديّة لتخفف من وطأة توترها:

-متفكريش في اللي حصل، وإن شاء الله هياخد جزائه قريب
تطلعت إليها "هالة" بنظرات متعشمة غير فاقدة للأمل وهي تهمس بتضرع:
يا رب يخلصني منه!

.....

تلقي اتصالاً هاتفياً من أحد أتباعه والذي يعمل كمرشد سري لقسم الشرطة التابع لمنطقتهم الشعبية ليبلغه بضرورة الالتقاء به في أقرب وقت لأمر هام، تأكد "منسي" أن للمال مفعول السحر مع أمثال هؤلاء ممن يغدق عليهم به ليأتوا إليه بالهام من الأخبار ليتخذ حذره إن استرق أحدهم السمع وعرف أنه في وضع مريب، قابله بعيداً عن أعين المتلصصين وفي مكان منزوٍ شبه مظلم ليسأله بقلبي:

خير يا كبير؟

أجابه "شعبان" بصوته المتحشرح ويغموض ملبك للأبدان:

-معمول فيك مهموز إنما إيه محترم!

لم ينكر "منسي" شعوره بتلك الرعشة الخفية المرعبة التي تسربت إليه لينتابه إحساساً كبيراً بالقلق، ابتلع ريقه الجاف شاعراً بمرارته اللاذعة ليسأله بتوترٍ وقد اضطربت نظراته:

ليه كده؟ ده أنا حتى بقالي مدة ماشي جنب الحيط

بصق "شعبان" على جانبه ليلتفت نحوه قائلاً ببرود:

-الظاهر متوصي عليك من جماعة كبرات أوي، حاجة عليوي
شرد "منسي" ليفكر بحيرة فيمن يقف وراء ذلك متسائلاً بتوجيس:
مين ده يا ترى؟

بينما علق عليه "شعبان" بنبرة ذات مغزى ليشير إلى مجهوده الزائف في تقصي المعلومات:
أنا حاولت أشمشم كده وأعرف مين، بس موصلتش لحاجة، وربنا المعبود الحكاية دي كلفتني
كثير، بس كله بثوابه، وعشان خاطرك بس يا عمنا
تنح "منسي" قائلاً بابتسامة باهتة:

تشكر يا أبو الكرم، جميلك ده مش هنساه
ثم دس يده في الجيب الخلفي لبنطاله الجينز ليخرج منه لفافة صغيرة من السلوفان، طواها في
راحته قبل أن يضعها بالإجبار في يد "شعبان" قائلاً له بإصرار:
-النبي قبل الهدية، دي حاجة بسيطة لزوم الدماغ المضبوطة
لم يتردد الأخير في أخذها، بل بدا منتشياً للغاية وهو يفكر كيف يستغل تلك المادة في إضفاء
سعادة وهمية على عقله، رد بحرج مفتعل:
-مكانش ليه لازمة، هو أنا عملت حاجة، ده واجب عليا
يا سيدي خليها عليا المرادي

سار "شعبان" خطوتين للأمام ملقياً نظرة عامة على المارة وكأنه يتأكد من عدم رؤية أحدهم لما
تناوله في الخفاء، استدار برأسه نحو "منسي" ليحذره بجدية:
خذ بالك من نفسك، ولو في حاجة كده ولا كده مدارية في الورشة ولا بيتك تاويها،
سامعني؟

هز رأسه قائلاً بتجهم مقتضب:

ماشى

سلام

قالها "شعبان" وهو يلوح بذراعه في الهواء ليسير بعدها نحو الزقاق ليختفي من أمام أنظاره،
تجمد "منسي" في مكانه مشدوهاً لبعض الوقت، تحسس ذقنه بلزمة ثابتة متسائلاً مع نفسه:
مين ده اللي حاططني في دماغه!؟

.....

الفصل الرابع والعشرون (الجزء الأول)

استلقى أمام شاشة التلفاز متابعًا بشرود ما يعرض عليها، لم يكن به أي رغبة للخروج أو التنزه أو حتى قضاء سهرته المسائية بالخارج، وكأنه قد ضجر فجأة من حياته الفارغة، أشعل "يامن" سيجارة أخرى نالًا دخانها في الهواء، أدار رأسه للجانب حينما سمع قرع الجرس، نهض بثقل من على الأريكة العريضة متجهًا بخطوات بطيئة إلى الباب، بدت ملامحه مدهوشة حينما رأى "رغد" تقف بالخارج، دفعته دون ترحيب منه لتلج للداخل وهي تلقي نظرة شاملة على أرجاء المكان، التفتت نحوه لتسأله بتهكم ساخط:

مش مخبي واحدة جوا؟

نظر لها شزرًا ثم اقترب منها لينحني نحو منفضة السجائر الموضوعة على الطاولة القصيرة ليطنفئ بقايا خاصته، اعتدل في وقفته واضعًا كفيه في جيبي بنطاله ليرد ببرود:

-لا بطلت

جلست على الأريكة واضعة ساقها فوق الأخرى، رمقته بنظرات مستخفة وهي تعلق ساخرة:

مع إني مش مصدقك

جلس في مواجهتها قائلًا بصوتٍ شبه متشنج:

مش مهم تصدقي، مش هيفرق معايا رأيك

سألته بفضول وهي تطالعه بعينين دارستين لردود فعله:

وده من إيه التغيير ده؟

أجابها ببساطة دون تفكير:

قرفت من نفسي ومن كل حاجة

هزت "رغد" ساقها بحركة ثابتة مبدية استهتارها بتصريحه الأخير، ثم عقت عليه بجدية:

-كل مرة بتعمل كده، وهما يومين بس، وبترجع أسوأ من الأول

لم يرغب "يامن" في الجدل معها أو مناقشة تصرفاته وتبريرها لها، انتصب في جلسته وتصلبت عروقه متسائلاً بخشونة طفيفة:

-إنتي جاية ليه؟

داعبت وجنتها بسبابتها وهي تجيبه بابتسامة غير مريحة:

عشان أشوفك، مش معقول نكون في بلد واحدة ومانشوفش بعض

بدا غير مقتنع بزيف اهتمامها فرد قائلاً:

-سيبك من جو الحنين الأسري ده وقوليلي إيه اللي في دماغك؟

أخفضت "رغد" ساقها لتجلس باسترخاء أكبر وهي تجيبه:

-ولا حاجة، أنا حابة أقضي السهرة معاك

استشعر بجدية أنها تخطط لأمر ما، فهدوء أعصابها المريب يوحي بشر مستطير على وشك

الحدوث، انتزعتته من تفكيره الشارد على سؤالها الجاد:

-مش ناوي تروح تشوف بابا؟

أجابها بعد زفير ثقيل:

طلبت زيارته ورفض

علقت بتوبيخ:

-ماهو لو إنت تحت طوعه مكانش عاملك بالشكل ده

هاجت دماثة من طريقته المستفزة لاستثارة أعصابه فرد بانفعال ملحوظ وقد هب واقفاً على قدميه:

هو لازم أعمل كوارث عشان أعجب؟

نهضت هي الأخرى لتبدو في مواجهته، ثم ردت عليه ببرود قاصدة استفزاز أعصابه والتلميح الصريح برعوثته الطائشة:

ما إنت طول عمرك في المصايب، إيه اللي جد عليك؟

صاح مدافعاً عن نفسه:

-اللي جد عليا إني عاوز أتغير وأكون أحسن، مش هاستنى لما أدخل السجن وأعفن جواه عشان أعرف إني غلطت

أطلقت ضحكة ساخرة مستهجنة زادت من اشتعاله، مالت نحوه لتهمس له وهي تحاول السيطرة على ضحكتها المستفزة:

-ولا خايف منه

تجمدت حدقتاه على وجهها متسائلاً:

قصداك مين

أشارت بحاجبها ليفهم المغزى من وراء حديثها المتواري والذي قصدت به شخصاً بعينه، لم يترك الفرصة لعقله ليخمن هويته بل حذرهما بلهجة حادة:

- "رغد" نصيحتي ليكي بلاش تعادي "أوس الجندي"

ضربت أخته على كتفه بيدها قائلة باستخفاف:

خلي المواعظ دي لنفسك، أنا عارفة كويس أوي بأعمل إيه

سارت خطوتين للأمام مبتعدة عنه ثم استدارت نحوه لتضيف عن ثقة:

-وقريب هاتشوفه مكسور

قبض "يامن" على ذراعها ليجذبها منه نحوه، نظر في عينيها بنظرات حادة وهو يسألها بخشونة:
-إنتي ناوية على إيه؟

نفضت أصابعه القابضة عليها بقوة لتتحرر منه، منحته نظرة مخيفة قبل أن ترد هامسة بسملة
شيطانية تدب الرعب في الأبدان:
-كل شر يا حبيبي!

ثم ضحكت عاليًا لتزيد من شعوره الحانق، تضاعفت شكوكه بكونها تحيك مؤامرة دينئة ستلحق
الأذى بابن عمه وربما عائلته، لوحث له "رغد" بأناملها مودعة إياه قبل أن تفتح الباب وتخرج
من منزله، صفقه "يامن" خلفها بعصية مغمغمًا من بين أسنانه:
-مش هترتاحي إلا لما تخربها وتضيعي نفسك يا "رغد"!

.....

لم يكن بحاجة لامتلاك ذكاء خارق ليفطن إلى أن وراء تلك الفوضى التي عمت بمنزله وبعدها
ورشته شخصية هامة قد دعس دون وعي منه على قدمها ليتلقى جزائه، جاب "منسي"
بنظراته المتحسرة زوايا ورشته بعد أن فتشها أفراد الشرطة جيدًا، تنفس الصعداء لكونه قد
تلقى ذلك التحذير الجاد من "شعبان" في الوقت المناسب ليتمكن من إخفاء ما قد يثير
الشبهات حوله أو يضعه تحت طائلة القانون، فلو تركه هكذا لذهب في مهب الريح، ابتلع
ريقه ووضع قناع البراءة ليقول بتشنج المظلوم:

حرام يا جدعان اللي بيحصل، عشان إيه البهدة دي؟ احنا غلبة وفي حالنا وبنقول يا حيطة
دارينا!

حذره الضابط المكلف بتلك المهمة هادرًا بتهديد شديد اللهجة:

-أسكت وإلا هاحطك في البوكس

ضرب "منسي" كفاً بالآخر قائلاً بانكسار زائف:

-أديني هاحط الجزمة في بؤي وأسكت، بس مايرضيش ربنا خراب البيوت المستعجل ده

اقترب أحدهم من الضابط ليؤدي له التحية العسكرية قبل أن ينطق برسمية:

-ملقناش حاجة يا باشا

مط الضابط فمه وهو يجوب بنظراته المتفحصة أرجاء المكان من جديد ليقول بعدها بنبرته الصارمة:

-تعالوا ورايا

اقترب "منسي" من أحد المخبرين الذين تربطهم به صلة خفية، مسح وجهه المتعرق بعرق بارد وهو يميل نحوه ليسأله بنبرة أقرب للهمس:

-أنا بس عاوز أعرف مين اللي عامل فيا المغرزد

تلقت المخبر حوله ليتأكد من عدم متابعة الضابط له، ثم أجابه بحذر:

-بيقولوا واحد ثقيل أوي من عيلة "الجندي"، إنت تعرف حد من العيلة دي؟

ردد "منسي" مصدومًا وقد ضاقت عيناه:

-"الجندي"!

-شوف إنت زعلت مين ووصى عليك جامد

قالها المخبر بغموض قبل أن يتركه وينصرف ليتبع باقي أفراد رجال الشرطة، تسمر "منسي" في مكانه محققًا في الفراغ أمامه بنظرات قائمة، على الفور لمع اسم "أوس الجندي" في ذاكرته لتظهر الأمور بوضوح وتتكامل أطرافها في ذهنه، تتم مع نفسه قائلاً بحنق كبير:

-بقى الحكاية كده، هو مافيش غيره!

.....

-"عبده"!

قالتها "بطة" بوجه مصدوم ونظرات متفاجئة وقد أطل زوجها من خلف باب المنزل، ظهر الارتباك جليًا على تعبيراتها الباهتة، لم تتوقع مجيئه قبل عدة أيام بسبب انشغاله بنقل بعض

المواد الغذائية المستوردة من أحد الموانئ المصرية وإيصالها لمستودعاتها، فماذا عن كذبة وجود أختها معها؟ ستنكشف بسهولة وستوضع في موقف حرج مع والدتها التي لن تصمت عن ذلك الأمر مطلقاً، تخبط أفكارها وتماوجت معاً، ألقت "عبد الحق" بحقيبتها الصغيرة على الأرضية ليحتضنها باشتياق وتلهف قائلاً لها:

-وحشتيني يا بت!

شعرت بضمته القوية على جسدها، ابتلعت ريقها في حلقها الجاف لتسأله بتوتر:
-إنت لحقت خلصت شغلك؟ مش كنت قايل هتقعد

قاطعها قائلاً يارهاق وهو يتراجع عنها لينظر إلى وجهها:

-البضاعة لسه ورقها مخلصش، قدامها كام يوم، إيه اللي هيخليني بايت هناك، قولت أرجعك إنتي والواد

ادعت الابتسام قائلة:

-وماله ياخويا، نورت بيتك

بذلت "بطة" الكثير من الجهد لتبدو طبيعية في تصرفاتها رغم الارتباك المتواتر الذي يزداد بداخلها، قفز قلبها بين قدميها حينما سألها بفتور:

-أومال أمك وأخواتك عاملين إيه

أجابته باقتضاب وهي ترمش بعينيها:

-كويسين

تشاءب "عبد الحق" هاتفاً يارهاق:

-حضري لي لقمة أكلها لأحسن واقع من الجوع

أومأت برأسها قائلة:

عينيا

تحركت صوب المطبخ الصغير لكنها توقفت عن السير واستدارت لتنظر بعينين مدهولتين في صدمة واضحة عندما أضاف زوجها بفتور:

ـالحق، مش "منسي" كان فاتحني في موضوع الجواز من أختك "هالة" شهقت مستنكرة:

ـإيه ؟ يتجوز مين ؟!

تابع موضحًا وهو يثني ساقه ليستند برفقه على ركبته:

ـكلمني من فترة في الحكاية دي، بس أنا انشغلت ونسيت أقولك

هدرت به "بطة" بعصية وقد عاد إلى ذاكرتها ما فعله ذلك الخسيس النجس بأختها:

ـنسيت ؟ وبعدين مافيش إلا الواطي ده عشان أجوزه أختي ؟!

نظر لها "عبد الحق" بتعجب وهو يسألها مستغربًا:

ـماله الراجل ؟

احمر وجهها غضبًا من برود زوجها وتقبله لمسألة الزواج برحابة صدر، صاحت مهاجمة إياه بشراسة:

ـده بلطجي وصايع ورد سجون، و"هالة" أختي أحسن منه مليون مرة، إزاي توافق على كلامه ده ؟

رد مستنكرًا بفتور بائن على قسماته:

ـهو كفر لما طلب السفارة "عزيزة" ؟

أجابته بحني مغتاظ:

ـده سمعته الزفت معروفة بين الناس كلها، بقى عاوزنا نوافق على اللومنجي ده ؟

حك "عبد الحق" رأسه الحليقة بملل، ثم طالعها بنظرات غير مكترثة معلقًا عليها:

-أنا ماليش فيه، اصرفوا مع بعض، هو الراجل كلمني وأنا ماطلت معاه، إئتو أحرار!
كزت "بطة" على أسنانها هامسة بنبرة مغلولة:

مش هايحصل، معدتش إلا الكلب الجبان ده، يا مين يناولني رقبتة أدوسها تحت رجلي!
لم يلقي لها زوجها بالاً واستلقى على الأريكة ليريح جسده المتعب من عناء السفر والمجهود
المواصل، بينما ظلت هي تغلي على موقدٍ مشتعل تفكر في طريقة للخلاص من ذلك الدنيء
وحماية أختها من مكائده الخبيثة.

.....

انحنت بحذر نحو صنوبر المغطس محاولة إغلاقه لكنه لم يطاوعها، نفخت "ليان" بضيق لعجزها
عن التعامل معه، همست بسبة مزعوجة ثم سارت تتهمل على الأرضية المبللة مكلمة تجفيف
جسدها وشعرها، ارتدت روها الحريري لتمشي بعدها في اتجاه باب الحمام، وقفت عند أعتابه
صائحة بصوت مرتفع:

- "عدي" بليز تعالى بسرعة!

هزت ساقها بعصبية طفيفة وهي مستندة بيدها الأخرى على حافة الباب منتظرة قدومه،
أقبل عليها الأخير متسائلاً بحيرة:

-في إيه يا "ليو"؟

أجابته بضيق مستخدمة يدها في التوضيح:

مش عارفة أقفل الحنفية، لازم تشوفلنا سباك، أنا زهقت بجد

رد مبتسماً وهو يداعب وجنتها برفق:

طب ليه النرفة دي على الصبح يا حبييتي؟ الموضوع مش مستاهل كل ده

كتفت "ليان" ساعديها أمام صدرها بعد أن تنحت للجانب لتفسح له المجال ليمر قائلة له بتبرم:

-أوكي، أنا هادية، وريني شطارتك

رد بثقة تامة وبتباه واضح:

-لأتي جيتي في جمل!

خطا "عدي" نحو الداخل دون أن يترك ملف الأوراق الذي بيده، أحنى جزعه للأمام ليتمكن من غلق الصنبور بحرص كي لا يبتل، وقفت "ليان" خلفه تتابعه بنظرات جمعت بين الفضول والاستخفاف، لاحظت فشله في إحكام غلقه فسألتته بهكم بائن في نبرتها:

-ها عرفت تقفلها؟

التفت للجانب ليقول لها بامتعاض:

-بأشوف أهوو

أخفت ضحكة عبثية تراقصت على شفيتها وهي تعلق ساخرة:

-ده الجمل اللي بتقول عليه؟

حذرها بعبوس:

-بلاش تريقة

ردت عليه بيأس:

قولتلك هي بايظة وعاززة تتصلح، وإنك مكبر دماغك

اعتدل في وقفته لينظر لها بغيطٍ قبل أن يصيح متذمراً:

-ماهو أنا مش هاسيب الشغل اللي ورايا عشان أصلح حنفيات؟

نفخت متسائلة بنفاذ صبر:

-يعني إيه الحل دلوقتي؟

انحنى مجدداً ليغلق الصنبور قائلاً بنرفزة ظاهرة عليه:

-أنا هاحاول أقفل ال.....

بتر عبارته مجبراً حينما انتزع الصنبور في يده بسبب إفراطه في استخدام قوته مما جعل الماء يندفع بغزارة مغرقاً المكان، صرخت "ليان" بفرع وتراجعت للخلف صائحة فيه:

-إيه اللي عملته ده يا "عدي"؟

حاول إيقاف تدفق المياه قائلاً بتوتر:

-الحنفية طلعت في أيدي

أسرعت "ليان" بغلق المحبس الرئيسي لوقف اندفاع المياه، ثم سحبت منشفة جافة لتمسح به وجهها، رددت بغضب:

-بهذلني

نفض "عدي" المياه العالقة بذراعيه لينظر بعينين مصدومتين للملف الذي أغرق بالكامل، ازدرد ريقه قائلاً بتوجس قلق:

-ده مش هايجي حاجة جمب البهدة اللي هاخدها من أخوكي، الورق باظ، طب أقوله إيه؟ هزت كتفها في عدم اهتمام قائلة له:

-ماليش دعوة، وابقى شوف سباك بيغهم!

رمقها بنظرة مغتاضة من برودها، تركته في مكانه وانصرفت من الحمام ليخفض عينيه متأملاً ثيابه المبتلة، ضغط على شفتيه مواسياً نفسه برثاء:

-بتخلي منها، كده اليوم بان من أوله، استعد أنا بقى للبهدة اللي هاخدها على دماغي!

.....

قابله مصادفةً على المقهى ليسأله عن أخت زوجته فأخبره "عبد الحق" ببساطة أنه لم يرها منذ فترة وبالتالي لم يعرف ردها بعد عن رأيها في الزواج منه، كانت محاولة ساذجة منه للتملص من مشاركته في ذلك الأمر، لم ير شرارات الغضب التي أطلت من حدقتي "منسي" فقد استشاط الأخير حنقاً وغلّت الدماء في عروقه لسبب آخر، شعر في قرارة نفسه أنه بات أضحوكة لفتاة

صغيرة تتلاعب به كيفما تشاء، لم يُرهبها محاولته الاعتداء عليها، بل إنها أقدمت على قتله بكل قسوة ولجأت إلى من يدمره، وها هو الآن ينكوي بنيران حقه، توعدها في نفسه ألا يمرر الأمر على خير، سيقلب الطاولة على رأسها وستكون له رغباً عن إرادتها مهما فعلت، اتجه إلى منزل والدتها مُصرّاً على معرفة الرأي النهائي لابنتها في عرضه بالزواج، بدت "أم بطة" جاهلة بالمستجدات من الأمور فتخرجت منه، وقد ظهر ذلك بوضوح على ردودها، لذا فكر ببراعة في استغلال الموقف ومعرفة مكان "هالة" من خلال استدراج أختها اللثيمة التي حتماً لها ضلع في إخفائها عن عينيه، ألح عليها لتسمح له -وهي بصحبته- بالذهاب إلى منزل "عبد الحق" والحديث مع العروس الصغير، لم تجد "أم بطة" بداً من الرفض فامتثلت لطلبه واتجهت معه إلى ابنتها الكبرى.

مزيج من القلق والكراهية انعكس على لمحات وجهها وهي تفتح الباب لتجد والدتها ومن خلفها "منسي" يطالعها بنظرات غامضة تطوي شراً دفيناً، عادت "بطة" لتحملق في وجه أمها قائلة ببسمة مهزوزة:

إزيك يامه، مش تقولي إنك جاية

ردت عليها بامتعاظٍ ساخط:

حببت أعملهالك مفاجأة يا حيلة أمك

حاولت ابنتها أن تبدو أكثر استرخاءً وهدوءاً وهي ترد:

ده البيت بيتك يامه تشرفي في أي وقت

ثم ألقت نظرة مستهجنة على "منسي" المرابط في الخلف متسائلة:

بس إيه اللي جاب ده معاك؟

أجابتها أمها بجمود وهي تطالعها بنظرات غامضة لم تشعرها بالارتياح:

سي "منسي" مش غريب، وأنا قاصدة أجيبه معايا النهاردة

تنحى الأخير قائلاً بصوته الأجش:

سلامو عليكم

تجاهلت "بطة" عن عمد رد التحية لثمهم قائلة:

-استغفر الله العظيم

لكرتها والدتها في كتفها وهي تسألها بجدّة:

-أومال فين جوزك؟

أجابها مشيرة بيدها نحو باب الغرفة المغلق:

نايم جوا

انتبه ثلاثتهم إلى صوت فتح الباب ليظهر بعدها "عبد الحق" وهو يجذب جلبابه المنزلي
الرمادي للأسفل، رد قائلاً بابتسامة فاترة:

سلامو عليكم، منورين يا جماعة، ده أنا مستنيكم من بدري

عبست ملامح "بطة" على الأخير عقب جملته تلك التي أثارت الهواجس في نفسها، اقتربت
منه لتسأله بصوتٍ خفيض:

هو إنت كنت عارف إنيهم جاينين

أجابها بعدم مبالاة:

-أيوه، "منسي" كلمني قبل ما يجي يستأذني!

كبتت غيظها من إخفائه ذلك الأمر عنها داعية الله أن يمر النهار على خير، فالبدايات غير
مبشرة على الإطلاق، ووجود "منسي" يعني كارثة وشيكة، هوى قلبها في قدميها مجدداً بتوترٍ
مضاعف حينما سألتها والدتها بصوت قائم ونظراتها المريبة مركزة على وجهها:

-أومال البت "هالة" فين؟ مش باينة يعني!

اختفى جمود "بطة" الزائف ليحل الشحوب على ملامحها، تدلت شفتها السفلى للأسفل في
بلاهة واضحة عليها، اضطربت نظراتها واكتست تعبيراتها بارتباكٍ مقروء للعيان، رددت بتلعثم
وقد لوحظ تسارع أنفاسها:

- "ه... هالة" !!

.....

الفصل الرابع والعشرون (الجزء الثاني)

فرت الدماء من بشرتها ليبدو وجهها باهتًا متوترًا بعد أن سألتها والدتها عن أختها الأصغر، اضطربت نظراتها وشعرت بدقات قلبها المتسارعة تتقاذف بداخل صدرها، شُل تفكير "بطة" مؤقتًا وتشتت ذهنها وهي تعتصر عقلها ليعمل بكامل طاقته لتجد الرد المناسب، تساءل "عبد الحق" باستغراب وهو يوزع نظراته بين الثلاثة:

هي "هالة" مش معاكو؟

تضاعف ارتباك "بطة" وأدركت أنها باتت في مأزق كبير، بينما أكمل زوجها قائلاً بنبرة عادية:

-أنا مشوفناش أديلنا زمن!

وكأنه انتزع فتيل قبلة موقوتة لتنفجر "أم بطة" نائرة في وجه ابنتها:

-ليه الكلام اللي بيقوله جوزك ده يا "بطة"؟

لم تعرف بماذا تُجيبها، فالطاولة انقلبت رأسًا على عقب، هزتها أمها بعنف من ذراعها الذي قبضت عليه صارخة بها:

-ردى عليا، البت أختك فين؟

بدا "عبد الحق" كالأبله وهو ينظر بحيرة إلى زوجته المضطربة وإلى والدتها المتعصبة، تساءل باندھاش حائر:

هو في حاجة إنتو مخينها عليا؟

كورت "أم بطة" قبضتها لتلكزها بقسوة في كتفها مكلمة صياحها الغاضب وقد ازداد حنقها منها:

-انطقي يا مزغودة!

تأوهت "بطة" من الألم وحاولت على قدر المستطاع تحاشي ضرباتها الموجهة، اعتدلت في وقتها محببة بأنين:

-متقلقيش عليا يامه، هي بخير!

صرخت بها:

هي فين؟

بينما علق "منسي" بنبرة ذات مغزى وبكلمات ونظرات موحية ليزيد من الطين بلة:
قلبي كان حاسس إن الحكاية فيها إن، شوفي يا ست "أم بطة"، أنا دخلت البيت من بابه
وغرضي أستر بنتكم، مش أتجوز واحدة ماشية على حل شعرها!

هنا انفجرت فيه "بطة" لترد بهياج غير مفهوم لمن حولها وهي تشير بسبابتها أمام وجهه:

-أنت آخر واحد يتكلم عن الشرف

ثم رمقته بنظرة احتقارية قبل أن تضيف بإهانة قاسية:

-معدتش إلا واحد واطي زيك يتهم أختي في شرفها!

كبت "منسي" غضبه المندلح بداخله ل يبدو كالملاك البريء في حضرة عائلتها معلقاً عليها بعتاب:

-أنا مش هارد عليك!

نهرها "عبد الحق" بحرج كبير:

عيب كده يا "بطة"

وكان والدتها تهيم في وادٍ خاص بها، استثارت صائحة بتشنج وهي تطاول باليد على ابنتها
الكبرى:

-بصيلي هنا، أختك فين؟ أنا مش هاسيبك النهاردة إلا لما أعرف مكانها

أصرت "بطة" على موقفها الرافض قائلة بتحدٍ سافر:

-لا مش هاقول على مكانها حتى لو فيها موتي

تعجبت أمها من حالة الإصرار العنيدة المسيطرة عليها، في حين تابعت "بطة" مدافعة عن

موقفها العدائي تجاه "منسي":

ليه عاوزين تضيعوها وتجاوزوها لواحد زي ده؟ مش هايحصل أبدًا
اختنقت نبرتها أكثر وبدت أكثر انفعالية وهي تكمل:

يامه ده حاول يعتدي على شرف بنتك، إزاي تأمني عليه؟

هنا تدخل "منسي" في الحوار بعد أن بقي للحظات على الحياد ليصيح نافيًا بصوته الخشن:
-كذابة، محصلش، شايف الافتراء يا "عبده"؟ أنا مش عاوز أرد على مراتك عشان إنت
موجود، اتصرف بقي معاها

نظرت له "بطة" شرًا وباستنكارٍ معكوسٍ على تعبيراتها المتعصبة، فكيف يجرو ذلك النجس
على ارتداء قناع البراءة وهو ذئب حقير؟ شعرت بألم قوي يضرب كتفها وبأظافرٍ حادة تغرز
في لحمها لتخرج شهقة متألمة من جوفها، جمدت عينيها المحققتين على وجه والدتها التي صرخت
تهدهدها بعنف:

قسماً برب العزة لو مقولتيش البت فين لأجيب رقبتك تحت رجلي، هو أنا حيلتي حاجة غير
الشرف، انطقي يا!

توسلها زوجها برجاءٍ وقد تدخل بجسده ليحول بينهما ليخفف من حدة الاشتباك بالأذرع:
-ما تقولي هي فين يا "بطة"؟

لم تعبأ بما تتلقاه من أذى وردت بوجع:

-لأ مش هاقف أتفرج على أختي وهي بتضيع

استشاط "منسي" من حامية "بطة" لأختها باستماتة فأراد زعزعة ما تظن أنها تملكه بالتلميح
عن عمد:

-كفاية يا ست "أم بطة"، هي تلاقيها مسنودة على حد تقيل وواصل فمش همها حد!

ارتعدت "بطة" قليلاً وتوترت نظراتها من احتمالية كشف مخبئها، التفتت أمها نحوه لتسأله:

-تقصد مين يعني؟

أجايها بغموض وهو يومئ بعينه:

-شوفي إنتو تعرفوا مين من الأكابر!

علق "عبد الحق" متسائلاً بنزق وكأنه يفكر بصوتٍ مسموع:

-تكونش راحت عند "تقى"؟

اتسعت حدقتا "بطة" في فزع بعد جملة زوجها الأخيرة والتي كشفت المستور، ردت عليه أمها مؤكدة وقد ضاقت نظراتها المحتدة:

-أيوه، مافيش إلا هي، ما إنتو متعرفوش حد غيرها برا الحتة الفقر دي يقدر يساعدكم

التوى ثغر "منسي" ببسمة مكرة وهو يرد باقتضاب:

-وهو في غيرها!

أرادت "بطة" الفتك بذلك المخلوق الشيطاني الذي يزيد وجوده من احتقان النفوس وخراب البيوت، منعها عنه هجوم والدتها عليها بشراسة أكبر ممسكة بحجاب رأسها وبكومة من شعرها:

-انطقي بيت "تقى" فين؟!

قاومت قدر المستطاع وابل الشتائم والضربات الموجعة التي تلقاها جسدها لتحمي أختها الأصغر، أبت أن يكون مصيرها مثلها مع شخص تمقته ويحول حياتها إلى جحيم مستعر، هي تستحق الأفضل، أن تحظى بحياة طيبة سوية تحقق فيها تطلعاتها وأحلامها الفتية، تدخل زوجها لإيقاظها فتمتم بتردد:

-بيتهيا لي أنا فاكرا العنوان!

برقت عينا "بطة" بارتعاد حقيقي، فكل محاولاتها لإبعاد المخاطر عنها قد باءت بالفشل، توسلته بهلع ظهر عليها:

-لا يا "عبد"!

استدارت أمها نحوه لتسأله بعينين متوحشتين:

قول يا جوز بنتي!

.....

تجددت مشاعره المتحمسة وتضاعف شوقه مع سماعه لتلك النبضات السريعة المتلاحقة عبر الجهاز الطبي الحديث، شعر "أوس" بكم الأدرينالين المنفعل يتدفق في عروقه ليزيد من حالته المتوترة والمترقبة لمولود جديد سيأتي للحياة بعد أشهر معدودة سيحمله بين ذراعيه ويختبر مجددًا الشعور الأبوي العظيم، التفت نحو زوجته ليطلعها بنظراته الحاملة رغم الإضاءة المحدودة، تسارعت دقات قلبه واختلجت مع أنفاسه المنتظمة لتزيد من تلاحقها، فقد رزقه الله بجنين آخر ينمو في أحشائها، عاد ليحدق بدقة في الشاشة الموضوعة أمامه ليتأمل الشكل المبهم للجنين النامي، ابتسمت الطبيبة "بارسينيا" معلقة:

عظيم، النبض كويس، وحجم الكيس مناسب

سألته "تقى" بفضول وقد تعلق أنظارها بالشاشة المضئية:

-بيان نوعه إيه يا دكتورة؟

أجابته الأخيرة نافية وبنبرة علمية:

-لا طبعًا، احنا لسه في البداية، الكلام ده على نهاية الشهر الرابع عشان نكون متأكدين من نوعه

رد عليها "أوس" بهدوء ملحوظ في نبرته:

-أنا مش فارق معايا، المهم إنها والبيبي يكونوا بخير

أومأت "بارسينيا" برأسها بإيماءة خفيفة ثم أضافت محذرة بجديّة:

ضروري الراحة الفترة الجاية بحيث يعدي أول 3 شهور على خير ونظمن إن المرحلة الخطرة عدت

هز رأسه قائلًا دون تردد في التفكير:

شوفي المطلوب وأنا هنفذه

رسمت ابتسامة منمقة على شفثيها وهي تكمل بكلمات منتقاة بحذر:

ويا ريت يكون في تقنين للعلاقة الزوجية، وده لمصلحة الأم والجنين!

نجلت "تقى" من تلميحها المتواري وتورد وجهها بجمرة مشتعلة شعرت بها، في حين ابتسم "أوس" قائلاً باقتضاب وقد فهم مقصدها دون أن يبدو متأثراً:

-تمام

نهضت الطيبية "بارسينيا" من على مقعدها لتقول بلطف وهي تعيد إضاءة الغرفة المعتمة:

-تقدري حضرتك تلبسي هدومك، وأنا هنتظرك في مكنتي برا

ردت بخفوت وهي تسحب الغطاء على بطنها المكشوف:

-شكرا يا دكتورة

-العفو

قالت الطيبية قبل أن تترك الاثنين بمفردهما في الغرفة لتعتدل "تقى" في جلستها على الفراش، أخفضت كنزتها المطوية لتغطي ما كشف من جسدها ثم نظرت بعينين متقدتين بوجه الحب إلى زوجها قبل أن تسأله:

فرحان يا "أوس"؟

أجابها بتنهيدة عاشقة:

-أنا طائر من السعادة

ثم مد كفه ليمسك بأناملها، رفع يدها إلى فمه ليقبله بحنو، جلس إلى جوارها لينظر لها عن قرب، حملت فيه متسائلة بتوتر:

هتزعل لو جبت بنت ثاني؟

قطب جبينه معلقاً باستغرابٍ مُعاتب:

-أزعل؟ يبقى إتي مش عرفاني كويس يا "تقي"

ردت موضحة:

-أنا بس خيفة

وشع إصبعه على شفتيها ليمنعها من التبرير قائلاً:

-ربنا يراضينا بالأحسن

أشرق وجهها أكثر مع تلك الهالة السمحة التي غلفت ملامحه الجادة لبدو شخصاً آخرًا استطاعت ببراءتها إيجاد بذرة الطيبة لتطفو على السطح، تنفست بعمق لترد بعدها بنبرة متفائلة خيرًا:

-يا رب أمين

سألها "أوس" بحماس ظهر في نظراته نحوها:

-ليه رأيك أنا عازمك على الأكل برا في أشيك مطعم هنا؟

لم تعارضه قائلة:

-معنديش مانع، بس إنت مش وراك شغل

رد بعدم مبالاة:

-أنا معاك اليوم كله

تذكرت وجود ضيفتها بالمنزل فتشددت قائلة:

-أحنا نسينا "هالة"، هي

قاطعها بهدوء:

-ماتشغلش بالك بيها، "عفاف" معاها وواحدة بالها منها، وبعدين عاوز أكون معاك لوحدا

شوية، مش من حقي ولا إيه؟

عادت الدموية الدافئة لتغزو بشرتها من جديد فهمست بنعومة:

-اللي تحبه يا حبيبي

رفع حاجبه للأعلى مازحًا:

-ليه الرقة دي ؟ مش واخد على كده منك!

سألته بعبوس مصطنع:

-هو أنا نكدية

رد مبتسمًا وهو يكبت ضحكة توشك على الانفلات منه:

-على حسب!

تحولت ملاحظها للجدية وهي تدفعه برفق من كتفه لتقول له:

حطب يالا بينا لأحسن الدكتور تفتكر إننا بنعمل حاجة كده ولا كده

غمز لها قائلًا بعبثية وقد بدت الفكرة مغرية:

-وماله، مش مراقي!

عضت على شفتها السفلى محدرة:

-عيب يا "أوس"!

قهقهه ضاحكًا من نخجلها المحبب له، فنكست رأسها بجرح لطيف، رملتها بنظرة بشوشة ثم نهض

من جوارها ليعتدل في وقفته قائلًا لها:

-حاضر، وكله عشان خاطر الباشا اللي جوا !!

.....

الفصل الرابع والعشرون (الجزء الثالث)

ساعدتها النسيمات العليلة على الاسترخاء وإراحة عقلها المشحون مؤقتًا من الضغوط المتواصلة عليه، استلقت "هالة" على الأريكة الموجودة بالحديقة الغناء قاصدة استذكار دروسها، لكن مع ذلك الهدوء المغري بدأ سلطان النوم يتسلل رويدًا رويدًا إلى خلاياها ويصيبها بالخدر

فاستسلمت لتلك الغفوة القصيرة تاركة كتابها ملقى على صدرها، في تلك الأثناء، وصل "يامن" بسيارته إلى الباحة الخلفية للفيلا ليصف سيارته، ترجل منها واستدار متجهاً إلى الباب الرئيسي، دار بنظرات فاترة في أرجاء الحديقة، استوقفه لمح لإحداهن تتمدد بأريحية على الأريكة، ضيق عينيه ليتأملها عن كثب، لم يدع لفضوله الفرصة ليحيره، بل غير وجهته وسار في اتجاهها، تباطأت خطواته مع رؤيته لوجهها مألوف الملامح، تفاجأ من وجودها رغم حديث "أوس" السابق عن بقائها معه، ردد لنفسه باندعاش متحمس:

مش معقول، واضح إن حظي حلو المرادي

لم يشعر بتلك الابتسامة العذبة التي تشكلت على ثغره وقد طالت نظراته نحوها، تنحى "يامن" بخفوت ثم داعب طرف أنفه بإصبعه بلزمة عفوية معتقداً أنها ستنتبه لوجوده، لكن حدث العكس، بدت مستكينة تماماً مما شجعه على الجلوس، وقبل أن يقدم على ذلك تلفت حوله ليتأكد من عدم متابعة أحد له، خاصة ابن عمه الكبير الذي لن يسلم من إحراجه أو توبيخه إن اكتشف قربه منها، تسلل بحذر ثم جلس في مواجهتها ليطالعها بنظرات فضولية متشوقة، اتسعت ابتسامته قليلاً وهو يراها هادئة كصفحة من المياه، فهي في حالة سبات واضحة، قرر أن يراقبها في صمت، فلقاءتهما القليلة دوماً تكون مخوفة بالمفاجآت المثيرة، لم تحرك "هالة" ساكنها، فقط تلملت عدة مرات وهي تحرك رأسها للجانبين مما منحه الفرصة لدراسة تفاصيل وجهها باستمتاع، أعجبه مداعبة الهواء لخصلات شعرها الهاربة من أسفل حجاب رأسها زهري اللون، تركز بصره على حركة جفניה البسيطة، أخفض نظراته ليحدق في كتابها الموضوع عليها، استرعى انتباهه عنوانه فمال نحوها ليمد يده إليه، سحبه بحذر شديد دون أن يوقظها، عاد ليجلس باستقامة على أريكته، قلب صفحاته بفتور، لم يكن سوى أحد المواد الدراسية، ابتسم بهكم ورفع عينيه لينظر لها من جديد، تحفز حيناً لاحظ أنها قد بدأت تفريق من غفلتها، ادعى انشغاله بقراءة فحواه، انتفضت "هالة" فزعة حيناً وجدت أحدهم جالساً قبالتها، بل وينظر لها بتفحص أخرجها، أنزلت ساقها معتدلة في نومتها غير المريحة وهي تنظر له بعينين متوترتين هاتفة فيه باندعاش مصدوم:

إنت!

سألها بابتسامة صغيرة وقد بدا وجهه بلامح ثابتة:

-حاملة إيه؟

لم تجبه بل هبت واقفة على قدميها محاولة لملمة شتات نفسها، سألتها بأنفاس غير منتظمة:

-إنت جاي هنا ليه؟

ثم رأت كتابها بين يديه فانحنت نحوه لتلتقطه عنوة منه مكلمة صياحها المزعوج:

-وهات كتابي!

رفع كفيه أمام نظراتها الحادة كتعبير عن عدم اعتراضه على تصرفها، ظلت ابتسامته مرسومة على جانبي شفثيه دون أن يعلق بحرف، ضمت "هالة" كتابها إلى صدرها ونظرت حولها باحثة عن "عفاف" أو أحد الخدم، لكنها لم تجد أيًا منهم، وكأن الوضع بات مهيئًا للقاء شاعري، عادت لتحقق في وجه "يامن" الذي وضع ساقه فوق الأخرى ممعًا النظر فيها، سألتها بنفزة طفيفة:

-بتعمل إيه هنا؟

أجابها متسائلًا بقليل من الذكاء وابتسامته الخطيرة مازالت مرسومة على جانب فمه:

-مش غريبة إنك تسألني السؤال ده وإنتي موجودة عند ابن عمي؟!

تخرجت من رده المنطقي وانتشر ببشرتها حمرة نخلة ضاعفت من ريكتها المتوترة أمامه، ردت بخفوت متلعثم:

عندك حق

ازدردت "هالة" ريقها ثم جمعت باقي كتبها المبعثرة مستعدة للرحيل، أوقفها "يامن" قبل أن تتركه وتنصرف يامساكها من ذراعها، شهقت حينما رأت قبضته عليها، أبعد يده معتذرًا:

-سوري!

احتدت نظراتها نحوه فبادر موضحًا:

كل الحكاية إني عاوز أطمئن عليك

سألته بجمود وقد قست تعبيرات وجهها:

عشان إيه؟

تخرج من إجابتها مباشرة وأطرق رأسه قليلاً ليرد متعللاً:

عادي يعني، من غير سبب!

رمقته بنظرة حادة قائلة له باقتضاب:

-أنا كويسة

أوشكت على التحرك لكنه اعترض طريقها بجسده لتراجع خطوة للخلف، لا يعرف ما الذي يحثه للحديث إليها أو حتى مشاكستها، لكنه يجد متعة غير مسبقة في استدراجها في الكلام والتمتع بردود فعلها المختلفة في نفس التوقيت، تهدد قائلاً لها برجاء:

-استني بس

رمقته بجدية وهي ترد متسائلة بتجهم:

-في إيه ثاني؟

ابتسم متسائلاً باهتمام:

-عملي إيه في مشكلتك؟

أجابته دون تفكير لتمنعه من التدخل في شئونها الخاصة:

-والله دي حاجة تخصني

للمرة الثانية أخرجته مباشرة فأخفى ارتباكاه من جفافها معه ليبرر بلباقة:

-أكيد، أنا فاهم ده، بس كنت عاوز أطمئن عليك!

استغريت للغاية من اهتمامه المريب وغير المقنع لها، كانت ملاحظتها أقرب للجمود عنها
للاندهاش، ضغطت على شفيتها لتقول ببرود:

-شكرا، عن إذنك

.....

في تلك الأثناء، نجح "منسي" في معرفة عنوان الفيلا المتواجدة بها "هالة"، ترجل مع أفراد
عائلتها من سيارة الأجرة ليقفوا أمام المدخل الرئيسي لهذا المجمع السكني الراقى والمتحفظ،
بالطبع حال مظهرهم الشعبي دون السماح لهم بالولوج إلى الداخل، ومع ذلك وأمام إصرارهم
الشديد وافتعالهم للمشكلات التي ربما قد توتر الأجواء وتثير الفضائح، ودّت "بطة" لو
استطاعت تحذير أختها، لكن سُحب هاتفها المحمول منها قسراً فمنعت من ذلك وبالتالي حرمت
من فرصة ثمينة للفرار قبل أن يصلوا إليها، تركت في منزلها تضرب كفاً بالآخر متضرعة إلى
المولى أن يحفظ "هالة" من بطش أمها ومن معها، لم يجد "منسي" ومن معه صعوبة في بلوغ
وجهتهم، خاصة أن أحد أفراد الأمن سار بصحبتهم إلى هناك، أشار الأخير بيده نحو باب
الفيلا الحديدي قائلاً برسمية وهو يمرر نظراته المزعوجة على وجوههم:

-دي فيلا "أوس" باشا

انقرجت شفتي "أم بطة" عن دهشة مبهورة وهي تجوب بعينين متسعيتين تفاصيل المكان،
رددت مع نفسها بانبيهاً:

-إيش إيش على الهلومة والأبهة

بينما ردد "عبد الحق" لنفسه بإعجاب:

-البت "بطة" عارفة ناس عليوي!

انتبه إلى صوت "منسي" الذي ردد بخشونة وهو يلكر الحارس الأمني في كتفه بجرأة مقلقة:

حطب وسع كده يا أخ

أخفض الحارس نظراته ليحدق في موضع يد ذلك المتبجح، ثم رد عليه الأخير محدراً:

خذ بالك الباشا مش أي حد يقدر يقابله أو ...

قاطعه بعدم أكتر أث:

ملكش فيه، دي مسائل عائلية!

ثم اتجه نحو الباب الحديدي المغطى بالواح زجاجية ليطلق عليه بعنف وهو يصيح عاليًا بصوته الأجش:

-إنتوا يا اللي جوا، افتحوا الباب

دعته "أم بطة" صارخة بجدة وهي تضرب بيدها على الزجاج:

-بت يا "هالة"، ردي على أمك يا بت!

لم يستغرق الأمر سوى لحظات قليلة لتُفتح البوابة ويطل منها حارسان ضخام الجثة، سد الاثنان بجسديهما المدخل، بادر أحدهما متسائلًا بشراسةٍ ظهرت على تعابيرهِ:

-ليه الغارة دي؟ فاكّر نفسك فين!

رد عليه "منسي" بتحدٍ وقد تعمد ادعاء القوة أمامه:

-بلاش وحياة أهلك الشويتين دول، احنا مش جاين لجنابك!

رمقه الحارس الأمني بنظرات نارية مهددة، في حين صرخت فيه "أم بطة" بتشنجٍ وقد كادت تمسك بياقته:

فين بنتي اللي خاطفينها جوا؟

دفعها الأخير بخشونة طفيفة ثم لوح الحارس بذراعه صائحًا بلهجة أمرة:

-امشي من هنا يا ست، إتي مش عارفة إتي عند مين؟

أجابه "منسي" بتهديدٍ وقد بدا غير عابئٍ بتبعات ما يفعل:

-لا عارفين، والبيه بتاعك هنعمله جناية ونصوره قاتل هنا لو مجبلناش بنت حتنا

تبادل الحارس الأمني نظرات حائرة مع زميله دون أن يظهر أي تأثير على ملاحظهما، هدرت "أم بطة" منفعة:

ناديلي بنتي من جوا بدل ما أعملكم فضيحة هنا

رد عليها الحارس الأمني باستهزاء وهو يضح سترته للجانب ليظهر سلاحه الناري المرخص:

باين عليكم شاربين، اتمشوا من هنا

هتف "منسي" بتحد بعد جملته الأخيرة:

-لأ مش ماشيين

ثم أشهر مديته في الهواء ليهده بها بجني:

حتى لو فيها قطع رقاب، احنا يا قاتل يا مقتول!

ورغم ثقته الواضحة إلا أن الحارس الأمني استخف به، نظر له الحارس الآخر شزراً قبل أن ينطق بتهكم:

شيل اللعبة دي أحسنلك

تحفر الحارسان للانقضاخ عليه لكن تدخل "عبد الحق" سريعاً ليمنع تطور الأمور قائلاً بترو:

-بص يا كابتن، من غير شوشرة وقلبة دماغ، احنا جاينين ناخذ أخت مراقي من جوا، فناديلها واحنا هنمشي

أضاف "منسي" قائلاً بنبرة غاضبة وقد احتقن وجهه:

-أنا عاوز خطيبتك من جوا

سأله الحارس الأمني بسخطٍ ساخر:

-وخطيبتك هتعمل إيه هنا؟

أجابه بتهكم وقد قست عيناه:

-اسأل الباشا بتاعك، هو اللي خطفها من وسطنا

نقى الحارس الآخر مرددًا:

-محصلش، وبطلوا تخاريف

وكأنها قد فقدت آخر ذرات هدوئها لتنفجر صارخة بصوت غاضب مجلجل في المكان:

يا "هالة"، إنتي يا بنتي، تعالي في حضن أمك!

عند تلك اللحظة انتبه كلاً من "يامن" و"هالة" للضجيج الحادث على مقربة منهما، كانت الأخيرة الأسرع في التحرك نحو البوابة لترى ما يحدث، تسمرت قدمها في مكانها وقد رأت بعينين متسعيتين في فزع "منسي" ووالدتها عند أعتاب الفيلا، ارتخت أناملها عن كتبها فسقطت على الأرضية العشبية، شحب وجهها وحل الخوف على قسماها، بدت كالصنم عاجزة عن التفكير أو التحرك أو حتى الهروب والاختباء مما أتاح الفرصة لمن تبغضه أن تقع عيناه عليها، هدر "منسي" منادياً بنبرة أوقعت قلبها في قدميها:

- "هالة"

تبعها "يامن" بخطوات متمهلة، توقف بجوارها لينظر إليها باستغراب، تعجب من حالة الوجوم غير المفهومة التي تشكلت على ملامحها، التفت برأسه للأمام ليطلع أصحاب الهيئة المتواضعة بنظرات مدققة، تساءل بصوتٍ مسموع لها:

مين دول؟

أجابته بكلمة واحدة عنت الكثير ودون تفكير:

-أهلى

استدار برأسه نحوها لينظر لها بغرابة، رأى علامات الفزع جلية عليها، ردد متسائلاً:

هما دول اللي

بتر سؤاله ملتفتاً إلى صاحب الصوت الخشن الهادر بقوة:

تعالى لخطيبك يا "هالة"، أمك مش هتعرضلك

ارتجف بدنها من كلماته التي أنهت حلمًا قصيرًا بالخلاص منه، وجدت نفسها في مأزق لا مناص
منه، سمعت بين ضلالاتها صوت "يامن" وهو يسألها:

-إتي مخطوبة لده؟

أدارت رأسها ناحيته لتنظر إليه بعينين تحبسان الدمع فيهما، وجدت صعوبة في الرد عليه بالنفي
أو التأكيد، شعر "يامن" بنغصة تؤلم قلبه لمجرد رؤيتها هكذا، شهقت منتفضة بخوف وصوت
والدتها يرن مهددًا:

تعالى هنا يا بت بدل ما أعملك فضيحة، احنا معندناش غير الشرف يا حيلة أمك، جاية
تتحمي في مين هنا؟ محدش دايمك غير أهلك

تمتت "هالة" بصوت خفيض مختنق يوحى بكارثة أكيدة التقطته أذني "يامن":

-أنا ضعت!

انسابت عبارتها بكثافة على وجنتيها، كانت مدركة لحقيقة الأمر، أنها لن تستطيع تلك المرة
النجاة من مصيرها البائس، وفي نفس الوقت لن تسمح بإيذاء من مد لها يد العون بأي
شكل، لذا باستسلام وانكسار خبطت بقدميها فوق كتبها الملائقة لتسير بخنوع صاغر في اتجاه
البوابة، تبعها "يامن" بنظراتٍ جمعت بين الحيرة والضيق، وتلك المرة لم يقف في مكانه كالمتفرج
الصامت، مشى مسرعًا ليسبقها ثم سد بجسده الطريق عليها لتنفلت منها شهقة مصدومة
لتصرفه الصادم لها، انتصب في وقفته فبدأ أكثر طولاً وتحفزاً وهو يتساءل بصلافة:

-عاوزين إيه منها؟ هي مش هتخرج من هنا!!

كانت "هالة" على وشك الاعتراض عليه لكنه رفع سبابته أمام وجهها آمرًا:

-ما تكلميش!

ابتلعت ريقها وهي تكاد لا تصدق ما يحدث، أيتدخل ذلك الغريب للدفاع عنها هكذا ببساطة؟ بل وهل سيرضخ أهلها لأوامره إن أملاها عليهم؟ تحرك بؤبؤها بتوترٍ خائف نحو وجه "منسي" الغاضب والذي هتف متسائلاً من بين أسنانه المضغوطة:

-وانت مين إن شاءالله؟

وكان ذلك العرق المتفطرس قد نبض بقوة في جميع خلاياه ليرد عليه "يامن" بغرور وثقة:

- "يامن الجندي"!

تأهب "منسي" بمجرد سماع اسمه، فذلك اللقب دومًا مصحوبٌ بقوة معلومة وخفية، بنفوذ مسيطر وتحكمات جليلة، ادعى الثبات معلقًا باستخفافٍ ساخر:

حصلنا الخضة

ثم أضاف بابتسامة متهمكة متعمداً التحقير من شأنه وموجهاً الحديث لـ "عبد الحق":

قابل يا عم، دلول جديد للبيه!

إهانة غير متوقعة من وقع سليلط اللسان لا يعرف متى يتحكم في لسانه أو أفعاله، استشاط "يامن" غاضبًا يتوعده:

هدفك تمن غلطك ده!

رد "منسي" بتحدٍ:

-وريني يا سبع الرجال!

كتمت "هالة" شهقة مذعورة وهي ترى الاشتباك الوشيك بين الطرفين، أدركت بجدسها أن الصدام لن يكون في صالح عائلتها، بل سيطل الأذى الجميع، و"تقي" وزوجها لا يستحقان أن يزج بهما في مشاكل لا تخصهما، لذا صرخت بهيستيرية رافضة تأزم الموقف أو تدهوره للأسوأ:

-كفاية بقي

ثم دفعت "يامن" بعصية من كتفه لتتمكن من المرور، تفاجأ بفعلتها ونظر لها مذهولاً، طالتها قبضتي واليتها فجذبتها إليها، ثم أحاطتها بذراعيها لتضمن عدم انقلاتها منها، ورغم يقين "هالة" بأن ذلك الاهتمام الزائف والخوف المبالغ فيه ليسا إلا غلاًفاً لمصير أسود ينتظرها إلا أنها استسلمت لمقدماته، ففي النهاية هي صغيرة مراهقة لن تجابه العالم بأشراره بمفردها، رددت "أم بطة" على مسامعها بجنو مصطنع:

تعالى لحضن أمك يا حبيبتي، أخيراً رجعتيلي

ردت "هالة" بهمسٍ بالك:

خلينا نمشي، مش عاوزة فضايح يا ماما، أنا تعبت

أومات برأسها هاتفية:

حاضر يا عين أمك، المهم إنك كويسة

شدت من ضمها لها ثم وجهت حديثها إلى "منسي" قائلة:

-بيننا ياخويا، مالوش لازمة وجودنا، بنتي بقت معايا وفي حضني

هز رأسه موافقاً وهو يرد:

ماشى يا ست الكل

تأكد من ابتعادها بـ "هالة" ليكز على أسنانه كابئاً حنقه المشتعل بداخله لحظياً، ثم حانت منه

التفاتة نحو "يامن" يتوعده فيها بنظرات مظلمة:

هنتقابل تاني، و"منسي" هيعلم عليك !!

.....

رمقه بنظرة مستخفة عكست تشفيًا واضحًا في حدقتيه، فالكلمات تصيب في مقتل إن اختيرت بعناية، استشاط "يامن" على الأخير من أسلوبه المستفز والمثير للزعة القتالية وحثه على الاشتباك معه، تجاوز أفراد الحراسة ليندفع نحو "منسي" قاصدًا الإمساك به من تلايبه، جذبه بعنف من ياقته وقد أطبقت أصابعه على عنقه ليضغط على عروقه، كز على أسنانه هادرًا به:

-إنت اتجننت، ده أنا أخذ روحك قبل ما ده يحصل

تقوس فم "منسي" بابتسامة جانبية متهمكة مقللة من قدرات خصمه، تحداه بثباته الجلي، ثم رمقه بنظرة غامضة حملت خبثًا لثيمًا، وفي لحظة مباغتة استخدم مديته في إحداث جرحًا مؤلمًا في ذراع "يامن" الذي تأوه من الألم الصارخ، انقلبت يده عن عنقه ليضعها على جرحه النازف فتحرر الأخير منه وتراجع خطوتين للخلف، رفع "منسي" مديته عاليًا مهددًا بها:

-إنت مش أد الغلابة اللي زينا، احنا معندناش اللي نخاف عليه، وده تذكّر صغير مني!

ثم وزع نظراته الساخرة على فردي الحراسة الأمنية متابعًا:

-وبلاش تتحامي في شوية الهفأ دول، مش هاينفعوك مع الرجالة اللي بجدا!

أوقف "يامن" بإشارة من يده تقدم رجلي الحراسة للاقتضاض عليه، ثم رد عليه بغيظٍ تاركًا دماثة تسيل:

-أنا راجل غصب عنك

أطلق "منسي" ضحكة ساخرة معلقًا عليه ببرود:

ما هو باين، سلام يا ابن الأكبر، أنا خدت اللي عاوزه

اشتعل وجهه كليًا بحمرة مضاعفة تنذر بانفجار عاصف وهو يراقب ابتعاده عنه، لقد تم تصعيد الأمور بينهما لمستوى أكثر خطورة، فلم تقف المسألة عند إهانة رجولية أو إبراز قوة عضلية وتفوق جسدي، بل لمس الأمر بقوة ليتحول لثأر شخصي، دنا أحد أفراد الحراسة منه مرددًا بحذر:

- "يامن" بيه

صرخ به بعصبية متشنجة:

محدث يتدخل

تعلقت نظراته بالفراغ متوعدًا إياه:

هاتشوف يا!!

.....

دارت بعينين تعكسان وهجًا مشرقًا زوايا ذلك المطعم الفاخر الذي يعلو إحدى ناطحات السحاب متأملة المنظر الخلاب من الأعلى، دق قلب "تقى" بقوة متحمسة وهي ترى عن كثب روعة المشهد من تلك البقعة الفريدة، لم تكن لتحلم برؤية مكان كهذا أو حتى الولوج إليه ولو حتى في أحلامها، لف "أوس" ذراعه حول خصرها لتنظر إليه بوجهها النضر وبابتسامتها الرقيقة، همس لها بصوته الجاد:

- احنا هنقعد هناك

أومأت برأسها موافقة تاركة له حرية توجيهها فدفعها برفق دون أن يتركها نحو الطاولة القاصية الخاصة بهما، ولباقة مهذبة سحب المقعد لها لتجلس كالملكة المتوجة عليه، جلس "أوس" في مواجهتها لتبقى أنظاره مركزة عليها هي فقط دون غيرها، أراد صنع لحظة خاصة بهما تُضاف إلى ذكرياتهما السعيدة، غلف المكان صوتًا ناعمًا لموسيقى هادئة أضفت لمسة سحرية على الأجواء، استندت "تقى" بكفيها على الطاولة وهي تدير رأسها في كافة الاتجاهات متأملة بنظرات خاطفة المتواجدين بالمطعم، ثم عادت لتحديق في باقة الورد الحمراء التي تملأ المزهريّة الصغيرة مبتسمة بسعادة، مالت للأمام قليلًا لتهمس بخجل:

- تقريبًا ما فيش حد إلا احنا

رد بنصف ابتسامة لاحت على جانب ثغره:

- وماله!

تأملت من جديد الحياة في الأسفل بصخبها المكتوم مؤقتًا عن مسامعها من خلال الحائط
الزجاجي المجاور لها، شعرت بتلك اللمسة الحنون على يدها فانتشلتها من تحديقها لتتضرع ببسمة
ناعمة إلى أنامله الموضوعة عليها، ارتفعت عيناها لتتضرع إليه بحب، أردف "أوس" متسائلًا:
عجبك المكان؟

أجابته معلقة بحماس ودون تفكير:

-أوي، أنا أول مرة أشوف حاجة زي كده

داعب أناملها بإبهامه ليقشع بدنًا من طريقته الناعمة معها، رد مؤكدًا بتنهيدة عكست حبه
العميق لها:

-كل أحلامك أوامر بالنسبالي

ابتسمت قائمة بامتنان:

-ربنا يخليك ليا

سحبت "تقى" يدها في خجل وهي تختلس النظرات حولها لتتأكد من عدم مراقبة القلة القليلة
للمساتها العاشقة، تفهم "أوس" موقفها الحذر وجلس باسترخاء في مقعده ليستطرد بعدها
بغموض مثير للفضول:

عندي ليكي خبر حلو

قطبت جبينها متسائلة:

-ليه هو؟

أجابها موضحًا:

خلاص جت التأشيرات والموافقة عشان سفر مامتك لبرا

تهللت أساريرها وازدادت عيناها إشراقًا مع ذلك الخبر المطرب للأذان، رددت بصدمة فرحة:

بجد؟

هز رأسه بإيماءة صغيرة متابعًا حديثه الجاد:

-أيوه، أنا تقريبًا خلصت كل حاجة، المستشفى والإقامة، والفندق، يعني مش ناقص إلا حجز تذاكر الطيران

تسارعت دقات قلبها بتلقيها لتلك الأخبار المبهجة، همست شاكرة بوجه تلاًلاً بدموية متحمسة:

-الله، أنا مش عارفة أقولك إيه يا حبيبي

رد عليها مبتسمًا:

-متقوليش حاجة، المهم تكوني مبسوفة عندي

-أه أوي

ثم صمتت للحظة لتضيف بعبوس طفيف لم تستطع إخفائه عنه:

-بس كده أنا مش هاعرف أسافر معاها

توقع تطرقها لتلك النقطة تحديدًا، لذا حرص على تجهيز كل شيء كي يضمن توفير الرعاية والاهتمام لوالدتها، بدت ملامحه جادة للغاية وهو يرد عليها:

-هيتقى صعب يا "تقى"، ظروف الحمل معاكي، ما إيتي عارفة كلام الدكتورة

ضغطت على شفيتها متسائلة بتبرم:

-أيوه، طب والعمل إيه؟ بابا راجل كبير ومش هيقدر ياخد باله منها لوحدها، ده غير إنك بتقول إنها في بلد أجنبي، يعني الموضوع مش سهل، هما هيتعاملوا لإزاي و.....

قاطعها "أوس" مؤكدًا عن ثقة بائلة:

-مش عاوزك تقلقي، مش معقول خاسيهم كده لوحدهم، أنا هابت معاهم حد ثقة يتصرف في كل حاجة تخصهم، وهانكون على إطلاع أول بأول بالي بيحصل هناك كإننا معاهم، يعني ببساطة مافيش أي مشكلة

وكأنه أراح تفكيرها قبل أن يزداد قلقًا وحيرة بحلوله القاطعة للشك، بلا وعي هتفت:

-أنا بأحبك أوي

تفاجأ "أوس" من بوحها بمشاعرها هكذا في سابقة لا تتكرر إلا نادراً وفي ظروف خاصة، أدركت "تقى" ما نطق به لسانها فتورد وجهها بقوة وشعرت بتلك السخونة الملهبة المنبعثة من وجنتيها، رمشت بعينيها متحاشية نظراته التي تدرسها باستمتاع وهو يقول لها:

-أنا مش واخد على كده

ردت بارتباك كبير:

-متكسفينيش بقي

أطلق ضحكة صغيرة ليضيف بعدها بتسليية ضاعفت من توقه الشغوف لمشاعرها المتيمة:

-يا حبيتي قولي ومايمكيش، أنا مابصدق أسمع منك الكلام الحلو ده!

قطع خلوتها المميزة قدوم أحد الأشخاص مرتدياً بدلة سوداء لينحني في احترام أمام "أوس"، تنحني بخفوت قبل أن يتسائل بنبرة رسمية:

-تنزل الأوردري يا باشا؟

أجابه باقتضاب:

-أيوه

حرك النادل رأسه قائلاً:

-تمام يا فندم

ثم انصرف ليأمر تابعيه بإعداد وجبة الطعام الخاصة للضيفين المميزين، حاولت "تقى" تخطي تلك النقطة من الحديث الخجل لتهدئ من سخونة بشرتها قائلة بتلعثم:

-زمانت "حياة" مدوخة "عفاف"

علق عليها "أوس" بهدوء وهو يتأمل ارتباكها الملحوظ بنظرات ثابتة:

هي هتعرف تتعامل معاها، خيلنا نكمل كلامنا ...

قاطعته بجديّة زائفة:

-أنا بس مش عاوزة نتأخر عليها

هتف "أوس" قائلاً:

- "تقى" ماتفكرش في حاجة وإنتي معايا

طالعته بنظراتها الخجلة مرددة بانصياع:

حاضر

استطاعت أن تقرأ شفّتيه وهو يهمس لها:

-بأحبك

عادت حمرتها المربكة تطفو على بشرتها لتوترها أكثر، وبقليل من المجهود سيطر "أوس" على ضحكاته المتسلية، دس يده في جيب سترته ليخرج منها علبة رفيعة سوداء من القطيفة مغلفة بشريط أحمر رقيق، مد يده بها نحوها قائلاً:

-تفضلي!

تناولته منه وعلى وجهها علامات الحيرة والاستغراب، نظرت إليه متسائلة:

-ليه ده؟

أجابها مبتسماً:

-افتحيا وإنتي هتعرفي!

أزاحت "تقى" الشريط لتنظر إلى داخل العلبة، انفرجت شفّتها عن دهشة مبهورة وهي ترى ذلك القلم الذهبي الذي يتوسط العلبة، انتزعته من مكانه لتلمسه بأصابع مرتعشة قليلاً وهي تردد متسائلة بصدمة:

ده عشاني؟

شعر "أوس" بالرضا لكون هديته قد نالت استحسانها، أضاف بترتيب ليراقب ردة فعلها:

-وعليه اسمك، عشان تفتكريني وإنتي بتذاكري

أشرقت ملامحها وبرقت حدقتها بلمعان مثير وهي تجوب بعينين متحمسين الحروف المنقوشة بعناية فائقة على جانب القلم، بالفعل حُفر اسمها بالخط الكوفي ليعطي تميزًا واختلافًا لهذا القلم ليؤكد لها أنه صُنع من أجلها فقط، لم يكن "أوس" بحاجة لتخمين إحساسها الداخلي، فوجدها قد بات مقروءًا بالنسبة له، وكل إيماءة من لمحاتها تمنحه سعادة لا توصف، عضت "تقي" على شفها السفلى ممزحة برقّة:

-كده مافيش حاجة هتثبت في دماغي

رد عليها معزّزا من ثقته بنفسها:

- "تقي" أنا عاوزك تحققي كل اللي حلمتي بيه زمان، تحسي بقيمتك، وتكوني سعيدة في حياتك معايا، ومافيش حد يآثر عليك

رمشت بجفניה لتستوعب ذلك الأسلوب العميق الذي يتحدث به معها، وكأنها تخاطب شخصًا لم تعهده من قبل، يختلف عن ذاك الذي اتخذ العنف وسيلة لتنفيذ أوامره دون أكتراثٍ بتبعات جرائره، هتفت معلقة باندھاش بدا واضحًا في نظراتها إليه:

-إنت اتغيرت خالص يا "أوس"، بقيت واحد ثاني

ظلت ابتسامته الصافية مرسومة على فمه وهو يقول:

-على إيدك يا حبيبتى

اتسعت ابتسامتها أكثر وهي تتأمل القلم من جديد، راقبها "أوس" يتمعن حتى قطع نظراته رنين هاتفه المتواصل، لم يهتم بالمتصل أو بأي شيء آخر سوى تلك اللحظات الفريدة مع حبيبته، سألته "تقي" مستفهمة حينما لاحظت تجاهله الكلي للاتصالات المتلاحقة:

-مش هاترد على تليفونك؟

رد عليها بتنهيذة مطولة:

-لا، أنا النهاردة ليكي ويس

هزت كتفها هامسة بدلالٍ وهي تضم العلبة إلى صدرها:

-بأحبك

حذرها بعبثيةٍ وهو يشير بحاجبه:

-كده هاتهور وهخالف تعليقات الدكتور

كتمت ضحكها بصعوبة وهي تعيد رأسها للخلف، لم يرَ كلاهما تلك الحقودة الحارقة التي تغلي في مكانها وهي تراقب بغيظٍ همساتها الرومانسية، كرت على أسنانها بغضبٍ، ثم تنفست بعمق لتسيطر على هياجها الثائر بداخلها، ارتدت قناع البرود ورسمت تلك الابتسامة السخيفة على محياها، وبرشاقتها المعهودة طرقت الأرضية بجذائها العالي لتقف قبالتها، استندت "رغد" بكفها على الطاولة موزعة نظراتها الساخرة بين الاثنين وهي تعلق بتهكم:

-أوه، جوز كناريا يهبلوا، So Romantic ..

رفع "أوس" أنظاره ليحدق في صاحبة الوجه السمج التي أطلت عليها، دومًا تتعمد الظهور بالثياب الفجة والفاضحة لتثير الغرائز والشهوات في نفوس من يتطلع إليها، وتلك المرة تأكدت أن ترتدي ثوبًا زيتي اللون ليظهر بشرتها البضة، ومع ذلك تحولت عيناه للقساوة وهو يرد عليها بوقاحةٍ قاصدًا إهانتها علما ترتدع عن أساليبها الرخيصة في محاولة لإغرائه:

-مش هاتبطلي حركاتك القذرة دي، مش ناوية تتوني؟

أطلقت "رغد" ضحكة رقيقة عالية لتثير الانتباه بها قبل أن تصمت فجأة، مالت نحوه بجسدها متعمدة أن يرى مفاتها قائلة له:

-وأضيع فرصة إني أكون جمبك، وبعدين أنا قولتلك يا بيبي مافيش حد شاغل بالي إلا إنت

فرجت "تقى" شفيتها مصدومة بقوة من جرائتها الزائدة عن الحد وتجاوزها لكل ما هو معروف من قيم وأخلاقيات، كذلك شخصت أبصارها وهي تشاهد بذهولٍ ما تفعله من محاولات توصف بكلمات نائية لتستدرج زوجها نحو فخها، تحركت عينها نحو "أوس" وهو يرد بشراسة:

-رخيصة!

هزت كتفها في عدم مبالاة لسبه إياها، ثم ركزت نظراتها المتعالية على "تقى" لتقول بتهكم:
مش بطل جو الخمسينات ده؟ ورد ومطعم وموسيقى و.....

لم تكمل عبارتها الساخرة للنهاية حيث أمسكت "تقى" بكأس المشروب الموضوع أمامها لتقذف ما به في وجه "رغد" لتفسد مساحيقها، وبشرتها، وثوبها، شهقت الأخيرة مصدومة من تصرفها غير المتوقع، تحولت ملاحظها للذهول الغاضب وقبل أن تصرخ باستنكار هدرت بها "تقى" بانفعالٍ مدافعة عن زوجها وحياتها الأسرية بعد أن هبت واقفة وضاربة بقبضتها بعصبية الطاوله:
-بعدي عننا بقى، ماتسينا في حالنا

اشتعلت "رغد" غضبًا لتصرخ بها بجنون:

-إنتي اتجننتي، معدتش إلا واحدة بيئة وواطية زيك تهدلني بالشكل ده!
وبقوة مشحونة من مواقف سابقة رفعت "تقى" يدها للأعلى لتهوي بها على صدغ تلك الوقعة قاصدة صفعها بقسوة وهي تقول:

-اخرسي

شهقت مجددًا في عدم تصديق من ذلك التحول العجيب لتلك الشخصية البائسة التي التقتها مسبقًا وظنت أنها فريسة سهل تدميرها بالكلمات وبعوض الإيحاءات والحركات الموحية، بدت واقفة أمام امرأة مستعدة للفتك بمن يجرؤ على المساس بمن يخصها، ردت "رغد" بقليل من الكرامة محاولة الحفاظ على ماء وجهها:

-إنتي اتهبلتي؟ حته حشرة زيك بتتجرأ على أسيادها!

لوحث "تقى" بسبابتها مهددة بعدائية أذهلت "أوس" الذي تفاجأ هو الآخر من ردة فعلها غير المسبوقة:

-أنا مش هاسكت عن أي إهانة بعد كده، والمجنونة تبقى إنتي اللي مش عاوزة تسبب واحد متجاوز ولا مراته في حالهم، شوفي حد تاني اتسلي عليه، وإلا هادوس عليكي زي الحشرة!

مسحت "رغد" بقايا المشروب عن وجهها بيدها لتنظر بصدمة إليها، لم تترك "تقى" الفرصة لها لترد أو تستفزها من جديد، رسمت ابتسامة متدللة على ثغرها وهي تدير رأسها نحو زوجها لتقول له بنعومة:

-يا لا بينا يا حبيبي، المكان بقي يقرف

تنحني قائلاً بصوت رخيم:

-تمام يا حبيبي

تعمدت "تقى" دفع غريمها بقسوة من كنفها لتتجاوزها فتأوهت الأخيرة من الألم والغیظ، في حين ألقى "أوس" نظرة ساخرة متشفية عليها قبل أن تلتف ذراعه حول خصر زوجته، ثم فرقع بأصابعه في الهواء هاتفاً:

-الحساب عند المدام يا متر!

ورغم شعوره بالرجفة التي اعترت جسد زوجته إلا أنه كان معجباً بدفاعها عن أنوثتها وكرامتها التي انتهكت من قبل، طالعها "أوس" بعينين مغرمتين بها، همس لها بانهار أراد أن تراه وتشعر به:

-أنا مش مصدقك

همست بتلعثم مرتجف:

-ولا أنا، أنا حاسة إن قلبي بيدق جامد، وهاقع من طولي

أحاطها "أوس" بذراعه جيداً لتستمد منه الصلابة والثبات وهو يسير بها نحو مخرج المطعم قائلاً لها:

-اثبتني، ولا تنهزلك شعرة

ابتلعت ريقها قائلة بأنفاس متهدجة:

حاضر!

تجمدت عينا "رغد" المحتقتين على كليهما، بدت عروقها المشحونة بدمائها المغلية نافرة من كل أوصالها، خابت توقعاتها وفسدت خطتها لإزعاج الزوجين، ورغم هذا تضاعف شعورها الانتقامي أكثر تجاه "تقى" عن "أوس"، خاصة أن الإهانة تلك المرة كانت من جهتها، كرت على أسنانها قائلة:

هتدفعي تين ده يا قدرة!

شعرت "رغد" بإصبع يطرق كتفها فاستدارت للجانب لتجد النادل ممسكًا بكتيبٍ جلدي صغير، نظرت له بغرابة فأردف قائلاً بلهجة رسمية:

الحساب يا هانم

ثم رسم ابتسامة سخيفة وهو يمد يده بالكتيب الذي يحوي فاتورة الطعام، استنشأت غضبًا وكورت قبضتها في غيظ متأجج لتصرخ بعدها بهيسترية هائجة، علق النادل على تصرفها قائلاً ببرود وكأنه كان يتوقع ردة فعلها:

برضوه هتدفعي يا فندم !!

.....

الفصل السادس والعشرون

لل كلمات المحفزة تأثيرًا معنويًا كبيرًا يدفع الشخصية المهتزة لتغير أنماط حياتها وتجربة ما لم تعد عليه بجراءة غير مسبوقة، وهذا ما حدث معها، لم تتخيل "تقى" أن تخرج عن ذلك الحيز الضيق الذي تحجز نفسها فيه وتحيد عن منطقة الأمان الخاص بها لتدافع ببسالة عن كرامتها الأنثوية، بل ولتثبت لنفسها أن بداخلها شخصية قوية تريد الظهور على السطح، ظلت تلك الحماسة معكوسة عليها وظاهرة في تعبيراتها رغم الرجفة المستمرة التي تعترها، لم يختلف حال "أوس" عنها، فقد دُهل هو الآخر بما كانت قادرة على فعله، أبهرته شجاعته في أول المواجهات الشرسة مع خصم لا يُستهان به مما سيسهم لاحقًا بدور كبير في تعزيز شخصيتها الجديدة، شدد من ضمه لها ليمنحها الدعم والقوة قائلاً لها بتفاخر:

حقيقي أنا مهور بيكي

ردت عليه بارتباك وبنظرات متوترة:

-أنا لحد دلوقتي مش مصدقة اللي عملته

تقوس فيه للجانب بابتسامة ساخرة متابعًا حديثه لها:

هي تستاهل ده

وضعت "تقي" يدها على صدرها لتتحس قلبها النابض، استشعرت عنف دقاته وتلاحقها،

التفت برأسها نحو "أوس" لتقول له بنبرة أقرب للهات:

قلبي بيدق جامد

مد "أوس" يده ليمسك بكفها، تخللت أصابعه أناملها ثم قرب يدها إلى صدره، ألصقه به

لتشعر بنبضاته، ارتعشت من حركته تلك، ورفعت عينيها إليه لتجده يطالعها بنظراتٍ والهة،

تحركت شفته قائلاً بسمته التي تسحر العقول وتأسر القلوب:

-وأنا قلبي بيعشقك

لاح على ثغرها ابتسامة رقيقة ناعمة، سحبها "أوس" برفق نحو سيارته ثم فصح لها الباب الأمامي

لتجلس بجواره في حركة مهدبة منه، هزت رأسها بامتنان، رمقها بنظرة حانية مطولة أخلجتها،

سألته بجياء:

-إنت بتبصلي كده ليه؟

أجابها بتنهيدة رومانسية وهو مركز حديقته عليها فقط:

-مش عاوز أشوف غيرك وبس

تخرجت من طريقة تطلعه لها، وازداد وجهها تورداً، همست له بارتباك بعد أن عضت على

شفتها السفلى:

طب اركب، الناس بتبص علينا

كركر ضاحكاً من خوفها ليرد بعدها بثقة وغرور:

ولا حد يستجري، إنتي مرات "أوس الجندي"!

توردت أكثر من منحه حبًا عذبًا ينعش قلبها دومًا، رمشت بعينها وهي تراه يشير بيده نحو
تابلوه السيارة، سألته مستفهمة:

-في إيه؟

أجابه بصيغة آمرة:

-افتحيه

لم تجادله وفذت أمره على الفور لتخرج منه علبة حمراء اللون متوسطة الحجم مصنوعة من
القطيفة، التقطتها بيدها لتتظر بفضولٍ إلى ما بداخلها، تحولت تعبيراتها للذهول الفرح بمجرد
أن فتحتها وتطلعت إلى محتوياتها الثمينة، عادت لتحدق في وجهه الواثق متسائلة:

-إيه دي؟

ابتسم وهو يحببها:

-دي عشانك يا حبيبتى!

تأملت بجدقتها الزرقاوتين تلك السلسلة الذهبية الرقيقة التي يتدلى منها اسمها، تحسستها
بأناملها وهي تكاد لا تصدق ما أهداها لها، أخفضت نظراتها لتمعن النظر في ذلك السوار
الآخر المثبت بالعلبة، رددت بتهيدة متحمسة:

-الله، دول حلوين أوي

لم يعلق عليها "أوس" بل انحنى للأمام بعد أن سحب السلسلة من العلبة ليلبسها إياها، اعتدل
في وقفته لينظر بإمعان إلى هيئتها بعد أن ارتدتها، بدت لائقة بها ثم هتف مشددًا رغم هدوء
صوته:

-متقلعيهاش من رقبتك

أومات برأسها في خنوع ليتابع بعدها وضع السوار الذهبي في رسغها، تأملت ما نقش عليه بالخط الكوفي باسم ابنتها واسمه لتزداد سعادة، همس لها وهو يقرب كفها من فمه ليقبله قائلاً:

-وعقبال ما نكتب اسم النونو عليه

أغمضت عينيها مستسلمة لذلك الإحساس المطمئن الذي غمرها، ثم عاودت فتحها لتحسس من جديد سوارها البراق، أردفت قائلة بتلعثم وقد توهجت نظراتها:

-أنا مش عارفة أوصفك اللي جوايا

رد عليها مبتسماً:

-كفاية إني شايف ده في عينيكي

همست له بنعومة:

-ربنا يخليك ليا

داعب وجتها قائلاً:

-معنديش أغلى منك يا حبيبتي!

ارتعش بدنهما من لمسته الخيرة وزاد ارتباكها، تلفتت حولها هامسة بخجل وقد شعرت بسخونة أكبر تنبعث من بشرتها:

-الناس يا "أوس"

رد بعدم اكتراث:

-ولا يفرقوا معايا

علقت عليه بنفس النبرة المهتزة:

-عارفة والله، بس كده عيب، خيلنا نمشي، ممكن

هز رأسه موافقاً وهو يعتدل في وقفته:

ماشى

ثم أغلق الباب ليلتف حول مقدمة سيارته، جلس "أوس" خلف المقود لينطلق بعدها عائداً إلى فيلته حيث تنتظره كارثة خطيرة.

.....

-اتنيلي اطلعي قصادي

قالتها "أم بطة" بحنق وهي تدفع ابنتها بقسوة خارج سيارة الأجرة لتتأوه الأخيرة بألم موجه، استمرت في لكزها بقبضتها في ظهرها وكتفها حتى وصلت بها مدخل البناية، أشفق عليها "عبد الحق" وهو يتذكر كيف كانت تُعامل زوجته بنفس المعاملة الجافة القاسية الخالية من العطف والرحمة، فرك طرف ذقنه قائلاً بصوته الأجش عليها تكف عن إيذاها بدنياً:

-بالراحة يا حماقي

ردت عليه بزمجرة دون أن تفلت ذراع ابنتها من بين أصابعها:

-دي بت عاوزة قطع رقبتها، مش كفاية الجرس والفضايح اللي عملتها

علق عليها بزفير منزعج:

-محصلش حاجة لكل ده، أهي رجعت معانا و...

قاطعته بتشنج وقد أظلمت نظراتها:

-سييني أربي بنتي بالطريقة اللي تعجبني

ثم عادت لتدفع "هالة" بعنف فصرخت الأخيرة من شدة الضربات الموجهة التي لازمتها منذ لحظة خروجها من فيلا "الجندي"، بكت بمرارة وحرقة وهي تصعد الدرجات متحملة كماً قاسياً من الإهانات والسباب المخجل، على عكسها كان "منسي" منتشياً للغاية، غمره إحساساً كبيراً بالتشفي وهو يتأمل ضحيته تُهان بتلك الصورة لينكسر كبرياؤها، حك طرف ذقنه معلقاً على ما يراه:

والله الست "أم بطة" عندها حق

نظر له "عبد الحق" بتأفف وهو يرد:

خليك محضر خير يا "منسي"

عاتبه بصوته الخشن:

-يعني عاوزنا نسكت على الغلط؟

هتف بتذمر:

-لا، بس الأمور ماتتحلش كده

ريت "منسي" على كتف "عبد الحق" مضيئًا بهكم وقد صارت نظراته منذرة بشرٍ مستطير:

-إنت اتغيرت أوي يا "عبد"، مكوتتش كده أيام الحاجة الله يرحمها، ما تنشف يا راجل

لكز الأخير يده ليبعده عنه هاتفًا بحلق بعد أن استشعر تلميحًا بالإساءة:

هو لازم أكون مفترى وظالم عشان أعجب؟

رد نافيًا ومؤكداً:

-لا، بس أكسر للبت ضلع يطلعها أربع وعشرين!

زفر متمتماً:

-استغفر الله العظيم!

تركه ليلحق بـ "أم بطة" لينعها من التماذي في أذية ابنتها في غمرة غضبها الأعمى، كان "منسي"

هادئًا للغاية، بل الأجدر أن يُقال مستمتعًا بما يدور، همس لنفسه بعبثية:

-لا ولسه، أنا هولعها على الآخر!

.....

انزوت أختها الصغيرتان عند الزاوية وهما تتابعان بخوفٍ مرتعد ما يحدث لـ "هالة" من تطاول باليد وباللفظ كنوع من التأديب العنيف لهما، لم تجرؤ إحداهما على التدخل أو الدفاع عنها وحمايتهما، فوالدتهما لن تتوقف عما تفعل حتى تهدأ ثورتها، صرخت الأخيرة ببكاءٍ وقد انكفأت على وجهها لتحمية من الضربات المتلاحقة عليه والتي أصابته بالتورم، ثم صرخت تتوسلها علها ترفق بها:

-كفاية بقي

ردت والدتها بقسوةٍ شرسة متوعدة إياها بالمزيد:

هو إتي لسه شوفتي حاجة؟

هتفت مدافعة عن نفسها:

حرام عليكي، أنا معملتش جريمة

وكأنها تحدث نفسها فواصلت تأديبها صائحة بانفعال:

وليكي عين يا فاجرة، الله أعلم مخبية إيه عليا!

آآآ

صرخت "هالة" بتلك الكلمة من أعماق قلبها ولم تجد لصرخاتها المستغيثة أي صدى، حاول "عبد الحق" التدخل لإيقافها عندما ولج إلى داخل الصلاة ليجدها تكيل من الضربات واللكمات ما لا يتحمله بشر، أمسك بها من ذراعيها يدفعها للخلف وهو يجرؤها:

-كفاية يا حماتي

شحذت الأخيرة قواها لتتملص من قبضتيه وهي ترد بغيط:

ملكش دعوة يا "عبد"، سبني عليها

مش كده بردك!

لكرته بعنف لتحرر منه قبل أن تدير رأسها نحوه لتحذره:

محدث يتدخل في اللي بأعمله فيها، هستنى لما تحط شرفنا في الوحل!

ردت عليها "هالة" من بين بكائها المرير:

-وأنا عملت إيه لكل ده؟

وقف "منسي" عند أعتاب باب المنزل يشاهد بتشيف ما يدور، كتف ساعديه وهو يتأمل العذاب الذي تقاسيه "هالة"، بل دار في خلدّه أن يضاعف من آلامها، لذا أرخى ذراعيه ليضع يده على حزامه الجلدي، استله من بنطاله ثم اقترب من "أم بطة" رافعاً إياه أمام وجهها وهو يقول لها بنجبت:

خدي يا حماتي

برقت عينا الأخيرة بوجه شرير، سحبته من يده لتستدير في اتجاه ابنتها ثم انهالت عليها تضربها في مناطق متفرقة من جسدها ليتضاعف عذابها ويزداد صراخها المستغيث:

-كفاية!

استعطفتها إحدى الأختين برجاء آملة أن تكف والدتها عن ضرب أختها الأكبر:

-كفاية يا ماما

أشاحت "أم بطة" بيدها تعنفها:

-امشي يا بت لتي وهي جوا، مش عاوزة أشوف خلقة واحدة فيكم

لم يتحمل "عبد الحق" المزيد من الظلم الواقع على أخت زوجته، لذا انتزع بقوة الحزام الجلدي من يد حماته وهو يهتف بغضب:

-كفاية بقي

ثم انحنى بجذعه قليلاً ليتمكن من الإمساك بـ "هالة" من ذراعها ليساعدها على النهوض قائلاً لها:

خشي جوا يا "هالة"

منحها بجسده الفرصة لتهرب من حجيم والدتها، فقد شكل عائقًا منع أمها من الوصول إليها لتتمكن من الاختباء في غرفتها بالداخل، تحول وجه "عبد الحق" للعبوس الشديد وهو يلقي بالحزام في وجه "منسي" ليقول بعدها له:

-مالهاش لازمة وقفك دي، شوف وراك إيه!

انحنى الأخير للأسفل ليتلقط حزامه الواقع عند قدميه، اعتدل في وقفته مرددًا بفتور:

-وماله يا أبو نسب!

ثم لوح له بيده كنوع من التوديع قبل أن يخرج من المنزل صافقًا الباب خلفه، كورت "أم بطة" يدها قائلة بعتاب:

-بقى كده يا "عبد"؟ بتحامي لمقصوفة الرقبة، ده بدل ما تكسر عضمها معايا؟

رد عليها بعقلانية بسيطة:

-عاوزين نفهم الأول هي عملت كده ليه، وبعد كده نبقى نشوف هنكسر رقبة مين!

مصممت شفيتها قائلة بازدراء:

-بلاش طيبة قلبك دي

بدت تعبيراته أكثر جدية وهو يعلق عليها بخشونة استشعرتها في صوته:

طيبة قلبي دي يا حماتي هي اللي خلتنى أسامح مراتي زمان بعد اللي حصل مع أمي الله يرحمها، وهي اللي خلتنى أعوضها عن كل أذية شافتها معايا، مش هنعیده تاني، وأكيد إنتي فهمني يا حماتي!

زفرت قائلة بضيق:

-استغفر الله العظيم!

-اهدي كده يا حماتي، وأهي بنتك في حضنك صاغ سليم، مافيش فيها حاجة!

ضغطت على شفيتها مرددة:

ماشى يا "عبد"، عشان خاطرك بس

تصنع الابتسام قائلاً:

تُشكري!

جلس "عبد الحق" معها لبعض الوقت ليتأكد من كونها قد هدأت تمامًا ولن تجتر أي مشكلة مع ابنتها، وما إن اطمئن من خبو انفعالاتها حتى استأذن بالانصراف ليعود إلى زوجته التي كانت تحترق لمعرفة ما صار مع أختها.

.....

كانت نظراته موزعة بين الطريق وتأمل وجهها المفعم بحيوية مشرقة، لم ينكر سعادته التي لا توصف لكونها قد جابهت خصمًا شرسًا، ضغط "أوس" على بوق السيارة لينبه الحرس المتواجد بالداخل لفتح البوابة الرئيسية، صفها عند المدخل ثم ترجل منها لتلحق به "تقى"، وما إن اقتربت منه حتى أحاطها من خصرها، كان على وشك التعبير عن حبه الشغوف لها حينما ألجمت المفاجأة غير المتوقعة لسانه، حيث أبصر "يامن" جالسًا بتحضر في الحديقة، أرخى ذراعه عن زوجته واقترب منه يرمقه بنظراته الجامدة، وقف الأخير قبالة وقد بدا متوترًا للغاية، باغته "أوس" متسائلًا باستغرابٍ رغم قسوة نبرته:

-بتعمل إيه هنا؟

أجابه بصوتٍ مشحون وهو يزدري ريقه:

-في مصيبة حصلت!

زوى "أوس" ما بين حاجبيه متسائلًا باهتمام:

-مصيبة إيه دي؟

رمشت "تقى" بعينها وهي تتابع بفضولٍ مهتم ما يوشك "يامن" على البوح به، تحولت تعبيراتها الهادئة للتوتر والخوف حينما سرد ابن عم زوجها ما حدث قبل برهة، كتمت شهقة مفزوعة مما

يمكن أن يصير لتلك المسكينة البائسة على يد أهلها، أمسك به "أوس" من تلايه منقضا عليه صارخا به:

إنت غبي!

دافع "يامن" عن موقفه موضحا:

ما إنت اتصلت بيك و....

قاطعته بجدّة وانفعالي:

ده مش مبرر

ثم التفت برأسه للخلف ليسلط أنظاره المستشطرة على أفراد حراسته متابعًا بصراخ متشنج:

-والحراسة كانت فين؟ وأمن الكومبوند؟ الكل هيتحاسب على تقصيره!!

حاول "يامن" انتزاع قبضة ابن عمه الغاضب عنه ليقول:

هي مش غلطتهم، أنا...

صاح به مقاطعا بعصبية أشد:

-ولا كلمة

كر "أوس" على أسنانه متابعًا بغيطٍ مضاعف:

إنت مش فاهم ممكن الأغبية دول يعملوا فيها إيه؟!

وضعت "تقي" يدها المرتجفة على ذراع زوجها، ضغطت بأصابعها عليه تتوسله بنبرة شبه باكية:

- "أوس" اتصرف، ماتسيديهاش لوحدها

اختنق صوتها أكثر وهي ترجوه وكأنها تستعيد نفس المشهد الذي مرت به بوقت ليس بعيد عنها:

أحما مش سهلة، وهي مش هاتسكت بعد اللي حصل، ده.. ده مش بعيد تقتلها

استدار "أوس" ناحيتها واضعًا قبضتيه المتصلبتين على كتفيها مستشعرًا ما تمر به من معاناة
كان هو طرفها الرئيسي، زفر قائلًا بثبات:

-اهدي، أنا هاعرف أتعامل معاهم

بكت باختناق:

-بعدها عن شرهم، ماتسيدهاش

رد بكلمة واحدة دون أن تطرف عيناه:

متخافيش

تركها في مكانها وهول ركضًا في اتجاه سيارته، لحق به "يامن" متسائلًا:

ئاوي على إيه؟

تجاهل الإجابة عليه، فسأله مجددًا بالحاح:

رد عليها يا "أوس"، هاتعمل إيه؟

أجابه بعبوس مزعوج وهو ينظر له شزرًا:

-مايخصكش!

زم فمه ليرد بامتعاض:

-حقك تعاملني كده، بس أنا جاي معاك

رفع "أوس" كفه عاليًا ليصيح به بلهجة أمرة:

-خليك هنا، مش عاوزك معايا

رد عليه بإصرار وهو يفتح باب السيارة ليستقل المقعد المجاور له:

-لا، مش هاسيبك، هي غلطي من الأول

حدجه بنظرة نارية تحمل مقتًا صريحًا وهو يعلق عليه:

-كويس إنك عارف ده

كظم "يامن" ضيقه الشديد في نفسه مضطراً ومتحماً أي تويخ لاذع فقط من أجل المساعدة في إنقاذ تلك الفتاة من مأساتها.

.....

ألقت بجسدها المستنزف على الفراش وضمتها أختها الصغيرتان كنوع من المواساة والدعم المعنوي لها، بكت "هالة" بقهرٍ لعجزها عن منع أمثال أشباه ذلك الحقيق "منسي" من استغلال رغبة والدتها المُلحة في الحصول على زوج مناسب لابنتها ليطوع الأمور لصالحه بمكرٍ لئيم، وفي نفس الوقت لم يسمح لها بالبوح بتجاوزة الدينء معها ليرجح كفة الميزان لصالحه، انتفضت من تفكيرها المحتقن على فتح باب الغرفة فجأة لتجد وجه والدتها العابس مسلطاً عليها بنظراتٍ لا تبشر بخير، انكمشت على نفسها وشعرت بارتجافة أختها أيضاً، طالعتها بنظرات خائفة متوترة مما هو قادم، وضعت "أم بطة" يدها على منتصف خصرتها لتقول بوعيدٍ غير قابل للشك:

فكرك أنا هاعدي اللي عملتيه بالساهل، تبقي غلطانة يا عين أمك!

اغرورقت عينها بالعبرات حتى بدت الرؤية مشوشة، تآهب عقلها حينما هدرت صائحة:

مش دي الكتب بتاعتك؟

انقبض قلبها بقوة وشعرت به يكاد يقتلع من ضلوعه خاصة وهي تراها مندفعة نحو مكتبها القديم لتمسك بكتبها الدراسية، انقلبت منها شهقة مذعورة وهي تراها تمزق أول كتاب طالته يدها، أبعدت "هالة" أختها عنها لتنهض عن الفراش لتتجه نحوها، حاولت منعها من تمزيق أوراق استذكارها وهي تتوسلها ببكاءٍ أشد حرقه عن ذي قبل:

سيبيهم يا ماما، بلاش دول، عشان خاطري

ضربتها "أم بطة" بقسوة في جانبها واستمرت في تمزيق الكتب بغلٍ مفرغة طاقتها الغاضبة فيهم، عجزت أختها عن الوقوف بجوارها، شاهدتها الموقف في صمتٍ مقهور، انهمرت عبرات "هالة" بغزارة على ضياع آخر بارقة أمل كانت متمسكة بها، انهارت على ركبتيها تلطم صدغيها وهي تمسك بالبقايا الممزقة للأوراق:

-لا، ليه كده؟

بصقت والدتها عليها مرددة بابتسامة متشفية:

-وريني بقى هتذاكري إزاي

حاولت "هالة" لملمة تلك البقايا لكن انتزعتها والدتها من يدها لتلقي بها من نافذة غرفتها وهي تصيح:

-ياللا في داهية

تعالت صرخات ابنتها المتحسرة وزاد عويلها، في حين أضافت أمها بنبرة صارمة وهي تشير بسبابتها نحوها حاسمة أمرها:

-واعلمي حسابك يا بنت بطني رجلك مش هاتخطي من هنا إلا على بيت جوزك .. "منسي"!

.....

قاد بعصية ملحوظة سيارته في اتجاه المنطقة التي يحفظها جيداً عن ظهر قلب متذكراً وبقوة صراعاً خاضه مع زوجته لإذلالها وتشويه سمعتها قبل أن يُوصم بحبها الأبدي ويتغير جذرياً على يدها، وها هي الكرة تعاد من جديد مع فتاة كانت تقاربها في العمر، تعاني من نفس الظروف الأسرية والعقليات المتحجرة، راقبه "يامن" بنظرات حذرة دون أن يجرؤ على سؤاله، تأمل الطرق التي لم يعتدها بنظرات جمعت بين الاشمئزاز والحيرة متسائلاً مع نفسه وكأن صوتاً داخلياً انبعث من مكنونات عقله ليقول:

من أين لابن عمه أن يعرف تلك المناطق النائية؟

استجمع شجاعته ليستدير برأسه نحوه متسائلاً:

هنعمل إيه؟

ران الصمت ولم يقطعه سوى صوت أبواق السيارات، فهم بديهيته أنه يرفض الإجابة عليه، التفت ناحيته من جديد حينما سمعه يُحدث أحدهم في هاتفه المحمول ليأمره:

خليكو جاهزين لإشارتي!

أدرك "يامن" أنه يملئ أوامره على أفراد حراسته ليكونوا على أهبة الاستعداد لاشتباك حتمي، اندفع الأدرينالين المتحضر في عروقه هو الآخر، وجلس بعدم أريحية على مقعده متابعًا حركة السير، أوقف "أوس" السيارة على مدخل المنطقة الشعبية، ترجل منها صافقًا الباب بعنف خلفه، بالطبع أثار حضوره المريب والمصحوب بتلك القوة الظاهرة فضول سكان المنطقة، ومع هذا لم يحاول أحدهم اعتراض طريقه، بل تجمعوا في تكتلات بشرية صغيرة عند الزوايا ليشهدوا ما سيحدث، تبعه "يامن" في فضول حذر وهو يجوب بنظراته تفاصيل ذلك المكان المتدني في كل شيء، تلاشى استغرابه السابق من زواجه بـ "نقى" المختلفة عنه كليًا في أغلب الصفات، ناهيك عن الفوارق الطبقية والاجتماعية، مع حدسه الداخلي بأنها من أهالي ذلك المكان المتواضع بالإضافة لصلة القرابة بينهما وجذوره التي ربما تعود إلى هذا المكان أيضًا بطريقة ما يجهلها، أفاق من شروده السريع على صوته الجمهوري المنادي:

- "منسي"!

حالة من البلبلة المصحوبة بالهرج والمرج انتشرت في الأجواء مع هتافه باسم ابن منطقتهم، ردد "أوس" هادرًا:

- انت فين يا ابن ال !!

سبة علنية مسيئة تعمد التلفظ بها ليهز رجولته الزائفة أمام أهله وأصدقائه فيستفز حميته الذكورية ليهب مدافعًا عن كرامته المهانة ويستردها، وبالفعل حدث ما توقعه، لمح "أوس" يقف عند ذلك المقهى ووجه مشتعلًا بجمرة نارية، أدرك "منسي" أن المواجهة ليست في صالحه، ومع ذلك سيفتعل الكثير ويختلق الأكاذيب ليشوه الحقائق ويرتدي قناع البراءة، لوح بذراعه في الهواء مرددًا بوقاحة جريئة:

- شاهدين يا أهل الحطة، جوز الست جاي يفرد عضلاته هنا عليا، ملقاش إلا "منسي" الغلبان عشان يعمل عليه نمره قصادكم ويكسب بونط قصادكم

رد عليه "أوس" بقوة بعد أن استثارت أعصابه من كلماته المتطاولة:

إنت لسه مشوفتش مني حاجة يا!

هدر به الأخير بتشنج وهو يسحب مقعدًا خشبيًا ليقذفه في وجهه:

عندك، مش "منسي" اللي يتشتم زي النسوان، ويسكت عن حقه

تفادى "أوس" المقعد بإمالة رأسه للجانب ليندلع بذلك التلاحم الجسدي بينهما، افترشت حراسته المكان لتمنع أهالي المنطقة من التدخل، بينما وقف "يامن" حائرًا يتابع هو الآخر اشتباكهما بتردد مزعوج، فقد كان يود المشاركة لكن حال دون حدوث ذلك هيمنة ابن عمه الواضحة والتي يعجز أب فرد عادي على مجابهتها، أفسح رواد المقهي الطريق لـ "منسي" ليندفع في اتجاه غريمه، سدّد لكمة مشحونة بغضبٍ كبير في وجه "أوس" الذي أخنى رأسه للجهة المعاكسة لتقابل قبضته الهواء، ثم بمهارة احترافية لكزه بقبضة أشد عنفًا أسفل فكه ليطرحه أرضًا، ولكون "منسي" على دراية واسعة بقدرات خصمه فلجأ للادعاء كذبًا:

أضربني عشان تداري على الفضيحة، بس أنا مش هاسكت، وخلي الكل يعرف وساختك وكأنه انتزع فتيل قنبلة غضبته الهوجاء فانفجر فيه "أوس" مسددًا اللكمات والضربات القاسية والفتاكة وسط ذهول وصدمة الجميع، جثا فوقه ليشل حركته تمامًا مستغلًا قوته الجسدية في إفراغ ما استثير بداخله من مشاعر محتاجة ثائرة متمتًا بتوعدٍ من بين أسنانه المضغوطة بشراسة:

هادفك هنا

صرخ "منسي" بأقصى ما يستطيع متعمدًا جذب الأعين كلها إليه رغم الألم المبرح الذي عصف به:

أشهدوا يا ناس، ابن الأكبر جاي يعيد تاني اللي عمله زمان مع بنت "فردوس"، بس المرادي مع البت "هالة" اللي خطبتها من أمها

صاح "يامن" بغتة من الخلف:

إنت كداب، ده محصلش!

علق عليه "منسي" بسخرية:

-دافع عنه ياخويا، ما هو واخذ بنات الحمة ونسوانها مقاوله، واللي يعترض يتهم عليه!
أخرسه "أوس" بضربة مؤلمة أطاحت بفكه وجعلت الدماء تتدفق من فتحات وجهه، ثم هدر بعدها:

-هتدفع تمن ده!

.....

على الجانب الآخر، لطمت "أم بطة" على وجنتيها بقوة وهي تولول، فتلك الفضيحة القاسمة للأظهر قضت بلا شك على سمعة ابنتها وأعادت على مسامع الجميع نفس الذكرى المشؤومة التي لحقت بـ "تقي" وعائلتها، انسحبت سريعاً من الشرفة لتهرول إلى غرفة "هالة"، اقتحمها دون انتظار لتصرخ بها:

-عاجبك الفضايح دي يا بنت !.....!

هبت واقفة من على الفراش لتنظر لها بخوف وهي تكابد لإثبات براءتها:
والله ما عملت حاجة

لطمت والدتها على صدرها وهي تضيف بحسرة:

-ومين هيصدق دلوقتي؟

تشجعت "هالة" لتقف قبالتها، وضعت يدها على ذراع أمها قائلة بصوتٍ مختنق:

-اقسملك يا ماما إني مظلومة والجبان ده بيفتري عليا!

بدت "أم بطة" شاردة في عالم آخر، زاغت نظراتها وتوترت ملامحها للغاية، هتفت بحيرة واضحة:

-هاعمل إيه بس؟ آل وأنا اللي كنت بأتريق على "فردوس" وبنتها، معدش حد أحسن من حد

أدركت "هالة" أن والدتها لم تصغ إلى كلمة واحدة مما قالتها، فضغطت بأصابعها على ذراعها وهي تهزها قائلة بتأكيد:

-والله أنا زي الفل وما فيش حاجة تعينني!

هنا تجمدت نظرات أمها عليها لتقول بصرامة وقد بدت مبهوثة التعابير:

-أحنا مالناش قعاد هنا بعد اللي حصل

-بتقولي إيه؟

انفجرت فيها لتمسك بكومة من شعرها المبعثر تجذبها منه بشراسة وهي تلومها بقسوة:

منك لله يا شيخة، هاجوزك إتي ولا إخوانك إزاي بعد الجرس دي؟

لم تنجح "هالة" في الإفلات من قبضتها المحكمة على شعرها، بل وما زاد الطين بلة صفعاتها المتتالية على وجهها لتضاعف من ألمها وهي لم تشف بعد من تورمات وجهها السابقة، صرخت "أم بطة" بجنون:

-إتي السبب في البهدة اللي هتجرلنا هنا في الحتة، ده بقليله إن ما طردونا الناس وكسروا ورانا قتل!

شهقت ابنتها تتوسلها:

-آه، شعري، كفاية بقي، أنا ماليش ذنب

أرخت والدتها قبضتها عن خصلاتها لتتهال بالضرب على ظهرها حتى أسقطتها أرضاً عند قدميها، ركلتها في أسفل معدتها ثم تركتها متكومة على نفسها لتخرج من الغرفة وهي تنوح بقلّة حيلة:

هاعمل إيه يا ربي في النصايب اللي نازلة على راسي دي؟!

.....

الفصل السابع والعشرون

موجة من الغضب المحتدم عصفت بآخر ذرات عقلانيته مع تطاوله المسيء وكلماته المسيئة، كان "أوس" بحاجة لإفراغ ثورته العارمة التي انفجرت بداخله في شخص ذلك الوضع من أجل الدفاع عن كرامة وكبرياء زوجته أولاً، واستعادة حق الضحية المظلومة التي لجأت إليه ليحميها من براثن ذئب كاد أن يفترس براءتها وتبرئة ساحتها، تحولت قبضته لأداة لكم متلاحقة تطيح بعظام وجه "منسي"، لم يتحمل الأخير قساوة ضرباته ولا شراسة ردود فعله، تحول وجهه لكتلة نازفة من الدماء، لم يعبأ "أوس" بالجراح التي أصابت مفاصل أصابعه، المهم ألا يترك هذا الدنيء يعيش في الأرض الفساد، ورغم قسوة المشهد وعنفه إلا أن جموع المشاهدين من أهالي المنطقة لم يتحركوا للتدخل أو حتى الدفاع عن ابن حارتهم، ظلوا يتابعوا في جمود وصمت ما يحدث بينهما، وتركوا "منسي" لمصيره المحتوم مع خصم لا يُستهان به.

أفرغ "أوس" غضبه بالكامل فيه حتى خبت ثورته، تأكد من تلقينه درسًا قاسيًا على طريقته التي لا تُنسى، تركه كخرقة بالية ثم نهض عنه ليتمكن من الاعتدال في وقفته، نظر له مطولاً

بنظرات نارية لا تقبل بالصفح أو الغفران، شعر بقبضة توضع على كتفه، نظر بطرف عينه إلى صاحب اليد فوجد "يامن" الذي استطرد قائلاً:

-إنت قضيت عليه!

تجمدت عينا "أوس" على ذلك الجسمان المسجي على الأرضية الأسفلتية، مسح عرقه المتصبب بغزارة من على جبينه ليرد بصوت أقرب للهاث وصدره ينهج بقوة بسبب المجهود العنيف الذي بذله:

-ناري ما بردتش لسه!

كلمات مقتضبة أثارت الريبة في نفس ابن عمه الذي طالعه بفضول غريب، فلأول مرة يختبر الحماية الذكورية والدفاع المستमित عن العرض والشرف، شعوراً لم يعايشه من قبل ولم يحاول حتى تجربة حماية أحدهم، نظر له بتفاخر بالرغم من صعوبة الموقف، حاول زحزحة ابن عمه ليبعده عن "منسي" لكنه لم يستطع، فالأخير كان عاقد العزم، بل وحاسم أمره، على إنهاء ذلك الشخص نهائياً ومسحه من الوجود، وكأنه لم يوجد هنا يوماً، لم يستطع أن يخمن بماذا يفكر أو بماذا يريد أن يفعل لاحقاً، تحرك "أوس" خطوتين للأمام متلفتاً حوله بنظرات شمولية وكأنه يبحث عن شيء ما، استدار عائداً إلى "منسي" لينحني نحوه، أمسك به من قدمه ليبدأ بعدها في سحله بلا رحمة وسط شهقات وهجمات الجميع، جرده حتى تلك البركة الراكدة من مياه الصرف الصحي عند إحدى الزوايا، والتي تركت هكذا لسوء الخدمات في المنطقة وعدم اهتمام أحدهم بأمر تراكم المياه ذات الرائحة الكريهة والعطنة، جذبه "أوس" من ذراعه وخصرته ليلقي به فيها، توقع نظرات الاستنكار وغمغات بالاعتراض على ما فعله، لكن يستحق أمثال ذلك الحقير أن يعاملوا هكذا دون إظهار أي شفقة أو تعاطف معهم.

أوقفه عن ممارسة المزيد من العنف معه تدخل الشيخ "أحمد" حيث رجاه قائلاً:

-كفاية يا ابني، هو خد جزاته، و...

قاطع "أوس" قائلاً بتشنج:

-الي زي ده ما يستهلش إلا كده وزيادة

ريت على جانب ذراعه متابعًا استعطافه ولكن بحذر شديد:

طب اهدى يا ابني، وتعالى معايا

رد رافضًا بإصرارٍ وقد أظلمت حدقتاه:

-لا يا شيخ، مش قبل ما أنصف الحتة دي منه!

قطب الشيخ "أحمد" جبينه متسائلًا:

-مش فاهمك، تقصد إيه؟

تقوس فمه للجانب ليرز بسمه باهتة متهمكة لكنها عكست نية رافضة للتسامح وهو يقول:

-هتعرف دلوقتي

تحرك بعدها عدة خطوات نحو سيارته حيث وصل محاميه الخاص إلى المنطقة، استقام الأخير

في وقفته ليظهر استعداداه لتلقي أوامر رب عمله الذي استدعاه على عجلة، وقف "أوس"

قبالته يسأله بصرامة:

-فين ورشة الكلب ده؟

أجابه دون تفكير وهو يشير بيده نحو إحدى المحال:

-هناك يا باشا

التف برأسه للجانب لتتجمد عيناه على باب ورشته المغلق والمليء بالصدأ، تحرك بثبات

صوب المكان فتبعه "يامن" متسائلًا بجديّة:

-هتعمل إيه يا "أوس"؟

وكالعادة تركه دون إجابة شافية لفضوله المتزايد ليفرقع بإصبعيه كإشارة صريحة لرجال حراسته

بالتحرك نحوه فورًا، رفع سبابته أمام وجوههم أمرًا بلهجة لا تقبل المراجعة:

-حاوزها تكون فاضية من اللي فيها في عشر دقائق

رد عليه أحدهم بامثال تام:

-أوامر معاليك

ثم وقف يتابع بعينين جامدتين تحطيم باب الورشة وإخراج ما بداخلها من أدوات، وعدة معدنية، ومفروشات قديمة عَمِد أفراد الحراسة إلى تخريبها حتى لا تصلح في شيء لتتكوم بعدها فوق بعضها البعض مُكونة كومة كبيرة، استدار "أوس" برأسه للجانب موجهاً حديثه للمحامي وهاتفاً بنبرة الناهي الأمر:

-والشقة اللي بيتمنظر بيها عقدها يتفسخ فوراً، سامع!

علق الأخير دون نقاش:

-اعتبره حصل يا باشا!

التفت بعدها "أوس" مواجهًا الجموع المرابطة في أغلب الأماكن، هتف صائحاً بنبرة مسموعة للجميع:

-كلكم شوفتم اللي حصل مع ال..... ده، وأي حد نفسه تسوله إن بس يتكلم في اللي حصل ولا اللي اتقال يبقى بيعادينني شخصيًا، وأنا مش بأقبل بالغلط ولا بأسامح في اللي يخصني!

ارتفع ذراعه ليشير بإصبعه نحو "منسي" المبتل بالمياه النجسة مكملاً:

-والحشرة ده يتمسح من الذاكرة، ولا كأنه عاش بينكم في يوم، مفهوم!

ورغم الأوجه المتدمرة، والنظرات المتهمرة إلا أن الصمت والهمهمة الخافتة كانتا السمة السائدة بين المتواجدين، أخرج بعدها "أوس" منشفته القطنية من جيب سترته ليمسح بها بقايا الدماء وما علق في أصابعه، ضبط ياقته وجذب أكمام قميصه ليسيير بعدها في اتجاه البناية المواجهة لبناية والدته، حيث تتواجد "هالة"، فقد أراد الاطمئنان على أوضاعها تنفيذًا لوعده الذي قطعه لزوجته "تقى"، تبعه "يامن" بفضول أكبر ليعرف ما سيقوم به، سألَه بنزقٍ وكأنه للحظة يشك في قدراته:

-تفتكر الناس هنا هتسمع كلامك؟

توقف "أوس" عن السير فجأة ليستدير نحوه ونظراته مليئة بغضبٍ متعاضم، كز على أسنانه قائلاً بثقة تامة:

محدث يجرؤ يعترض عليا

علق بتساؤلٍ آخر:

ليه هو قانون؟

استشعر لحة من السخرية المتهكمة في سؤاله فرد مؤكداً دون أن يرتد له طرف:

-أيوه، قانون "أوس الجندي"!

.....

لطمات وولولة متواترة سيطرت عليها بعد تلك الفضيحة المدوية التي نهشت علناً من سمعة ابنتها في ذلك المكان الذي يرفع شعار "الشرف أولاً"، حسرة ما بعدها حسرة تمكنت منها لتشعرها بأن عالمها البسيط قد انهار من حولها، فلم تكذ تفيق مما حدث لابتها البكرية لتلحق بها الثانية بمصيبة ستوصمها حتى القبر، توقفت "أم بطة" مؤقتاً عن عويلها حينما سمعت الدقات الثابتة على باب منزلها، استجمعت نفسها المنهارة لتنهض من جلستها متجهة إليه، اتسعت عينها في صدمة مرعوبة وهي ترى آخر من تتوقع تواجده عند عتبة بيتها، شعرت بجفافٍ شديد في حلقها، أحست بدقات قلبها تتسابق في صدرها، حركت شفيتها لتنطق فخرج صوتها مصدوماً وهي تقول:

-انت!

نظر لها "أوس" بجمودٍ وهو يتفحص تعبيرات وجهها المبهوتة لرؤيته، تابعت متسائلة بضيق بعد أن تداركت نفسها ولملمت شتات أمرها:

-جاي ليه يا بيه؟ ما خلاص اللي حصل حصل، والعار طالنا!

سألها بخشونة وقد بدت حدقتاه تعكسان وهجاً حائفاً:

-بنتك فين؟

ابتلعت ريقها لتجيبه بثبات زائف:

موجودة، بتسأل عليها ليه؟

رمقها بنظرة مطولة تحمل تحذيرًا صريحًا وهو يضيف بصرامة:

- اسمعيني كويس، لأنني مش هاعيد كلامي مرتين!

انفجرت شفتاها عن دهشة متوترة من أسلوبه الجاف الصارم الذي يلبك الجسد ويث الرعب في القلوب، أكمل "أوس" قائلاً بلهجته الحادة:

- بنتك مسئولة مني لحد ما تخلص تعليمها، كل مصاريها عليا

حاولت أن تدعي عدم حاجتها لمساعدته أو مساعدة غيره ليزيح عن كاهلها ذلك الثقل المهلك فردت بكبرياء مصطنع:

- إحنا مش بنشحت ولا عاوزين حاجة من حد

نظر لها شزرًا قبل أن ينطق:

- أنا مش باخد رأيك، ده كلام نهائي ما فيش نقاش فيه

أبدى "يامن" الواقف خلفه إعجابه بطريقته التي تفرض سيطرته وهيمنته على الأمور، نظر له بتفاخر لم ينكره وتابع حوارهم مع والدته "هالة" باهتمام ليتعلم منه، تحولت قسما وجه "أم بطة" للامتناع والعبوس حينما قالت كذبًا:

يا بيه إنت جاي غلط، أنا فقيرة بس عندي كرامة و..

قاطعها بتهم قاصدًا تعريتها أمام نفسها:

- بلاش الدخلة دي عليا، وخلينا نتكلم على المكشوف من غير لف ولا دوران، إنتي بتدوري على اللي يشيل عنك، وأنا موجود وهاشيل، ومهياش أول مرة، عملتها قبل كده مع بنتك الكبيرة، بس المرادي أنا واقفلك!

بدت كالفرخ المبتل أمامه وهو يكشف نواياها هكذا ببساطة، فردت عليه بانكسار زائف:

-بتستقوى علينا عشان احنا غلابة!

أشار لها بسبابته محذراً بخشونة:

-الأسطوانة المشروخة دي مابتخلش عليا، سامعة

وقبل أن تضيف المزيد تحركت عينها نحو الصوت المألوف الذي صرخ بهلع من الخلف:

-فين "هالة" يامه؟

استدار كلاً من "أوس" و"يامن" نحو "بطة" التي أتت مهرولة لنجدة أختها مما قد يصيبها من بطش والدتها الأهوج، زاد توتر أمها لرؤيتها، فجيئها سيزيد من الطين بلة، وربما سيزيح الغطاء عن عنفها معها، اندفعت "بطة" بلا تفكير نحوها غير مكترثة بمن يسد عنها المدخل أو من يعوق طريقها لتسأل بتلهف وأنفاسها شبه متقطعة:

-عملي فيها إيه؟

أجابتها الأخيرة بارتباك وقد شعبت تعبيراتها:

-و.. ولا حاجة

صرخت "بطة" عاليًا:

-يا "هالة"

أمسكت بها والدتها من ذراعها لتوقفها قائلة بغیظ وهي تركز على أسنانها:

-أختك جوا، اسكتي بقي

نظرت لها بعينين حانتين قبل أن تصيح بها بعصبية:

-هي فين؟ أنا عاوزة أشوفها يامه

هنا فتحت "هالة" باب غرفتها لتقف عند عتبه متسمة في مكانها، وبقايا محطة وقوى

مستنزفة همست بقوة قليلة:

-أنا أهوو

فزعت "بطة" لرؤيتها متورمة، منتفخة الوجه، الكدمات تشكل لوحة صريحة على ملامحها الذابلة، ناهيك عن الخدوش والعلامات التي لم تكشف عنها ثيابها بعد، شهقت لاطمة على صدرها:

ليه ده؟!!

رغمًا عنها انسابت عبرات "هالة" المنكسرة على وجنتيها متأثرة بكل ما خاضته مؤخرًا، وما ضاعف من ذلك الإحساس بالخذلان والضعف بداخلها هو وجود "يامن" الذي لمحتة مركزًا بصره عليها، نجلت منه وانهار ما ظنت أنه شجاعة متسلحة بها، ركضت "بطة" في اتجاه أختها لتضمها إلى أحضانها وشددت من قوة ضمها لتشعرها بدعمها لها، وما إن ارتمت الأخيرة في صدرها حتى انفجرت بأكية بحرقة، لم تهتم بمن يشاهدها أو من يظنها ضعيفة، فما مرت به ليس بالهين، استشاط "أوس" غضبًا لرؤيتها على تلك الحالة السيئة، مشى خطوة للأمام ليقص المسافة بينه وبين أمها القاسية هامسًا لها من بين أسنانه:

لو إيدك اتمدت عليها تاني هزعلك، وأنا زعلي وحش أوي، فأحسنك متجربيهوش!

كانت "أم بطة" متأكدة كليًا من شراسة تحذيره، فردت بتلعثم خانع داعية الله في نفسها ألا يخرج عن طور هدوئه:

ط.. طيب!

وخزة قوية ونغصة مؤلمة أصابت صدره مع انسياب دمعاتها التي بدت كالمياه الحارقة لروحه، لا يعرف ما الذي أصابه ليشعر بذلك الاختناق والحنق، ربما الشعور بالذنب أو تأنيب الضمير، لكنه كان على يقين كامل بأن لتراجع مضطربًا عن حمايتها السبب الرئيسي فيما أصابها لاحقًا من إهانات قاسية وإيذاء بدني، بل واستخفافه منذ البداية بفضاعة مشكلتها التي انتهت بما يراه الآن من نتائج مأساوية، بدأت الدماء الساخنة تتدفق في عروق "يامن" لتهيج من مشاعره الغاضبة، انعكس ذلك بصورة ملحوظة على بشرته التي اصطبغت بحمرة جليلة، كور أصابعه ضاغظًا عليها بعصبية حتى ابيضت مفاصل يده، وجد صعوبة في الاستجابة لأمر "أوس" حينما هتف به:

-يا لا بينا

تجمدت قدماه ورفضتا الانصياع له والتحرك، صاح به ابن عمه بصوته الأجش:

- "يامن"، تعالى ورايا!

ويزفير ثقيل وخطوات متباطئة اضطر أن يتحرك صاعراً ليتبع "أوس"، وبقي ذلك الشعور المزعج الحائق متأججاً بقوة في صدره ليجعله يعيد النظر إلى الأمور التي تخص غيره من منظور مختلف كثيراً عما اعتاد عليه !!

.....

الفصل الثامن والعشرون

ربما كان من الأسهل لو أجبره على الاعتراف علناً بجريمتة النكراء وما اقترفه من ذنب لا يُغتفر في حق ضحيته المظلومة أمام الجموع المرباطة عند النواصي، لكنه فضل أن يتجاوز فضيحة ستتناقلها الألسن وتضيف عليها من الزوائد ما يشوه سمعتها بالباطل، لذا اكتفى بتلقين ذلك البغيض الحقير ما يستحقه ليظل ما حدث له هو آخر ما يتحدث عنه الجميع مكتفين بالاعتقاد أن هناك ثأراً شخصياً بين صاحب السلطة وبين ذلك العاقل لتتطاوله على زوجة الأول، عاد "أوس" إلى سيارته بعد أن أشار لأفراد حراسته باتباع أوامره واللاحق به، سار خلفه "يامن" دون أن ينبس بكلمة، وكأن الطير قد حل فوق رأسه، استقل المقعد المجاور لابن عمه مكتئباً بالتحديق بشرود في الزجاج الملاصق له، لم يطلب أي تفسير ولم يبادر بالحديث، تعجب "أوس" من صمته المريب، فهو لا يكف عن الشكوى أو التذمر أو دس أنفه فيما لا يعنيه وإزعاجه بأسئلته المتلاحقة، وها هو الآن يجلس في حالة سكون غريبة لا تلائم شخصه الفضولي، التفت نحوه نصف التفاتة ليسأله بجديّة:

-ساكت ليه؟

زفر "يامن" زفيراً مطولاً قبل أن يجيبه بفتور:

-عادي، مافيش حاجة

التوى جانب ثغره ليظهر بسمه باهتة متهمكة وهو يعلق عليه:

مش مصدقك

استند "يامن" برفقه على حافة النافذة قائلاً بنادم:

عندك حق، أنا نفسي مش مصدق اللي عملته لأني من الأول غلطان

رمقه "أوس" بنظرة سريعة فاحصة للملامح وجهه الممتعضة، في حين أضاف الأخير معبراً عما يجيش به صدره مستحضراً طيف "هالة" في مخيلته بوجهها الذابل المتورم:

-كنت السبب في اللي حصل للبننت دي، لو كنت دافعت عنها ومنعتهم ياخدوها مكنش ده حصلها ولا مامتها بهدلتها زي ما

قاطعه "أوس" مؤكداً:

طبيعة الناس دي كده، ردة فعلهم بتكون عنيفة

ثم كز على أسنانه متمتماً:

-لدرجة إن كلب زي اللي شوفته يوسخ سمعة بنت بريئة عشان يطلع مظلوم

وافقه "يامن" الرأي مردداً:

-أنا مش غايظني إلا ال ده، كان نفسي أموته يايدي

بدا "أوس" في حالة استرخاء وهو يضيف:

هو خد اللي يستحقه وزيادة

بس تفتكر الناس هتنسى اللي حصل؟

-يومين وكل حاجة هاترجع لطبيعتها، محدش فاضي لحد

عاد ليسأله "يامن" باهتمام متلهف وقد تجمدت حدقاته القلقتان على وجهه:

حطب إيه اللي أقدر أعمله عشان أعوضها عن اللي حصلها بسببي؟

أجابه ببساطة:

-ولا حاجة

ضايقه رده العائم فهتف محتجاً:

يا "أوس" أنا حاسس بتأنيب الضمير، في حاجة وجعاني من جوا

وكأنه يوصف له ما يشعر به نحو تلك المسكينة التي تسبب في إيذاؤها دون قصدٍ منه، حاول تهوين الأمر عليه فأردف معقّباً:

-متقلقش، وأكيد سمعت بنفسك أنا هاتصرف إزاي معاها

بدا غير مقتنع بما قاله، مازال ذلك الشعور المنغص يزعجه بل ويتضاعف مع إحساسه بعجزه عن تقديم المساعدة لها، أوما برأسه في استسلام قبل أن يشيح برأسه لينظر بعينين فارغتين في الطريق أمامه، لم يضيف "أوس" المزيد وتابع قيادة السيارة في هدوءٍ حذر.

.....

كانت تحترق على جمرات ملتهبة وهي تجوب غرفة نومها بتوترٍ ملحوظ، وقفت "نقى" بالشرفة تتابع بنظرات حائرة حديقة الفيلا متوقعة قدوم زوجها بين لحظة وأخرى، كاد قلبها يخفق لأكثر من مرة من فرط الخوف القلق متذكّرة ما مرت به من تجربة قاسية تمس سمعتها فكانت نهايتها بالظعن وتطور الأمور وتصعيدها إلى مستوى آخر لم تتوقعه لتتغير حياتها بالكامل، خشيت أن تمر "هالة" بنفس الظروف، وتتعامل معها والدتها بقسوة فتفتك بها في لحظة طيش، حاولت أن تنفض تلك الأفكار السوداوية عن عقلها لتفكر بتروٍ فيما يمكن أن يفعله زوجها ليحد من تصاعد الأوضاع، توقفت عن التفكير بصورة تشاؤمية مع استماعها لصوت بوق السيارة المميز، ركزت بصرها وهي تشب على قدميها على البوابة الرئيسية للفيلا، لمحت "أوس" قادمًا، لم تنتظر صعوده ليخبر بالمستجدات، بل ركضت من الشرقة لتقابله بالأسفل، خرج صوتها لاهثًا وهي تسأله بتلهف أثناء هبوطها المتعجل على الدرج:

-عملت إيه يا "أوس"؟

نظر لها بعتابٍ حاد مستنكراً عدم أكثرائها بتبعات تصرفها الأحق ذلك مما قد ينعكس بالسلب على حياة الجنين الذي يتشكل الآن في رحمها، اقترب من الدرج محذراً:
بالراحة يا "تقي"، أنا هاقولك على كل حاجة، بس خدي بالك
توقفت قبالة واضعة كفيها على ذراعيه فشعر بارتجافها، حاولت أن تلتقط أنفاسها وهي تسأله
بتوتر:

طمني بس الأول، عملت إيه؟
أجابها بثقة واضحة على قسماته:
متقلقيش، "هالة" كويسة!
سألته ونظراتها تتلاحق بتوتر أكبر:
إنت شوفتها؟
رد بهدوء ليسعها بالاطمئنان:

أيوه، ونهت على أمها متقربش منها، يعني من الآخر هي مسئولة مني!
أخرجت "تقي" تهيدة عميقة من صدرها كتعبير عن ارتياحها الشديد، ثم رددت مبتسمة:
الحمد لله

عاد القلق ليغزو ملامحها فتساءلت بحيرة وقد وقعت نظراتها على يده الجريحة:
حصلك إيه

أمسكت بكفه بين أصابعه فسحبه بهدوء منها قائلاً لها:
دي حاجة بسيطة، متشغليش بالك
مسحت بأناملها على جروحه وهي تطالعه بنظرات حانية، ثم سأله بجدية:
طب و"منسي"؟ عملت معاه إيه؟ ده واحد جبان ومحدث يقدر عليه

ورغم بساطتها في البوح بما يزعجها إلا أن كلماتها كانت مشككة في قدرات زوجها على التعامل مع أشخاص بغضاء كذلك الحقير النجس، وضع "أوس" إصبعيه على طرف ذقتها ضاغظاً عليه برفق وهو يقول لها بغطرسةٍ وعنجهية:

حبيبتى اللي واقف قصادك ده "أوس الجندي" مش حد تاني، بلاش تقللي مني شعرت بالتوبيخ المتواري في جملته الأخيرة فاعتذرت على الفور:

-أنا أسفة

بادل ردها المعتذر ابتسامة عذبة، رmqته "تقى" بنظرة حنون وهي تسأله:

-أومال فين "يامن"؟

أجابه قائلاً:

-رجع الشركة، ورانا شغل متعطل هناك

أومأت برأسها في تفهم:

-أها، ماشي

رفع بصره للأعلى متسائلاً باهتمام:

-فين "حياة"؟ أنا مش شايفها

أجابته برقة:

-بتلعب في أوضتها ومعاها "ماريا"، تحب أناديها و...

قاطعها بجدية:

خليها براحتها، أنا هاشوفها لما أرجع، المهم اطلعي إتني ارتاحي يا حبيبتى وأنا هاروح الشركة

أخلص اللي ورايا

هزت رأسها في طاعة وهي ترد:

حاضر

انحنى "أوس" عليها لينحها قبلة صغيرة على وجنتها مودعًا إياها، أوشك على الاستدارة والسير
فهمست له بدلال:

- "أوس"

حلق بها مرددًا:

نعم

أسبلت عينها هامسة برقة شديدة وهي تداعب رابطة عنقه:

- بأحبك

حاوط جانب وجهها بكفه مستشعرًا ملمسه الناعم على جلده وهو يرد بجنى

- وأنا بأعشقك يا أغلى من حياتي

أغمضت عينها مستسلمة لإحساس قربها منها الذي يحفز وجدانها وينقلها سريعًا لعالم وردي
مليء بالأحلام العاشقة، ردت بعدها بتهيدة خافتة:

- ربنا يخليك لينا

تأهبت حواسها كليًا مع تلك القبلة المباحثة التي لم تتوقعها منه على شفيتها، شعرت بعمق
أشواقه، بثه لمشاعر توقظ الرغبة في القرب والتلاحم بين الأرواح، تراجع "أوس" عنها لتلتقط
أنفاسها متأملًا بشرتها النضرة بحمرتها المغرية، وصدرها النابض بحبه العاصف، داعب طرف
أنفها مشددًا:

- خدي بالك من نفسك لحد ما أرجعلك بالليل، مفهوم؟

ورغم صرامته إلا أنها أحببت ذلك منه فردت بخضوع:

طيب يا حبيبي

ودعها بابتسامة مشرقة قبل أن يسير في اتجاه باب الفيلا، ظلت مقلتها تتبعه حتى اختفى من أمام أنظارها فاستدارت صاعدة الدرج لتذهب إلى غرفة ابنتها لتجالسها.

.....

لم يفارقه طيف وجهها المتألم رغم انقطاع أخبارها عنه لعدة أيام متلاحقة، كانت تزوره ليلاً في أحلامه لتعاقبه بصمتٍ أرق مضطجعه فينتفض من نومته مزعوجاً وهو يتصبب عرقاً غزيراً ليخاصم بعدها جفنيه النوم فيظل متيقظاً حتى يحين موعد ذهابه لعمله، حاول "يامن" إنباه عقله في متابعة ما يكلفه ابن عمه من أعمال ليظل مشغولاً عن التفكير عنها، لكن بقيت "هالة" تفتح خلوته، تغزو شروده، لذا قرر في الأخير أن يتقصى عنها بنفسه ليشبع رغبته في الاطمئنان عليها، أعد لذلك الأمر جيداً، حيث تواجد عند الناصية منتظراً بداخل سيارته ومراقباً عن كثب المارة الذين يعبرون الطريق للجانب الآخر، كاد أن ييأس من حضورها حتى لمحها تسير الهويناء وهي تحمل حقيبتها على كتفها، لم يرغب "يامن" في إفزاعها وإثارة القلائل بظهوره المباغت أمامها، لذلك تبعها بسيارته بحذرٍ شديد حتى تأكد من ابتعادها عن منطقتها السكنية ليزيد قليلاً من السرعة السيارة قاطعاً عليها الطريق، شهقت "هالة" بفرعٍ حينما رأت سيارة غريبة تسد عليها الطريق، تلاشى خوفها قليلاً وقد رأت صاحب الوجه المألوف أمامها، عبست ملامحها ورمقته بنظرة جادة ضاغطة على شفثيها بقوة، ترجل "يامن" من سيارته متسائلاً باهتمام:

-أخبارك إيه؟

ردت بجمودٍ وكأنها تعنفه:

-جاي لي؟

ضاقت نظراته وهو يجيبها:

-أنا عاوز أطمئن عليك

بدت جادة التعبيرات للغاية حينما نظرت باقتضابٍ عابس:

-وأنا كويسة

ثم رمقته بنظرة مزعوجة قبل أن تتنحى للجانب لتتجاوزها، اعترض طريقها متسائلاً بغرابة:
-استني بس، رايحة فين؟ أنا ملحقتش ...

قاطعته بعصبية ملحوظة في نبرتها وردة فعلها:
-لو سمحت ملكش دعوة بيا، كفاية اللي شوفته واللي حصلي
سألها بضيق وقد وصله إحساسها المنزعج:

-وأنا ذنبي إيه؟

زفرت دون أن تجيبه فأضاف مبتسماً عل بابتسامته البسيطة يخفف من حدة الأجواء:
-على فكرة أنا مقصدش أضايك، بس كنت عاوز أطمئن عليكي
زمت شفيتها معلقة:

-وقولتلك أنا كويسة

لوح بذراعه متسائلاً بنبرة عادية:

حطب تحبي أوصلك لمدرستك؟

ارتفع حاجبها للأعلى في استنكار واضح لعرضه الذي لا يلائمها، ثم ردت نافية بصرامة:
-لا، شكراً

أوشكت على التحرك وتركه لكنه اعترض طريقها بجسده رافعاً يده في الهواء للأعلى راجياً:
-ثانية واحدة بعد إذنك

سألته بنفاد صبر وهي تشد من قبضتها على حقيبة ظهرها:
-في إيه ثاني؟

أراد "يامن" تقديم يد المساعدة لها بشكلٍ أو بآخرِ عليه بذلك يستريح من عذاب الضمير الذي لازمه لليالٍ طوال، بدون تفكير متأنٍ منه دس يده في جيبه ليخرج منه حفنة من النقود معتقداً بذلك أنه سيسعدها حينما تشتري ما تحتاجه، مد كفه إليهما قائلاً:

خدي دول

نظرت للنقود شزراً قبل أن ترفع عينيها الضجرتين إلى وجهه وهي تسأله:

إيه دول؟

رسم بسمه بسيطة على ثغره وهو يجيبها:

-يعني حاجة بسيطة عشان لو ناقصك حاجة، أو حاجة تشتري

شعرت "هالة" ياهانة صريحة من طريقته، وبانتقاص كبير في كرامتها بسبب تصرفه الذي أشعرها بالحقارة والدنو، تجهم وجهها كلياً وقست نظراتها على الأخير ثم ردت بصلاية وقد ظهر لمحة من الاختناق في صوتها:

شكرا يا بيه، خلي فلوسك معاك، أنا مش شحاتة، عن إذنك!

لم تنتظر تبريره بل دفعته من كتفه لتمر من جواره متجاوزة إياه ومسرعة في نفس الوقت في خطواتها كي لا يرى دموع الحزن والقهر المتشكلة في مقلتيها، ربما هي فقيرة، شبه معدمة الموارد، تعاني من ظروف اقتصادية واجتماعية سيئة، ورغم ذلك تحاول الصمود وإظهار تفوقها وبراعتها في الاستذكار والدراسة، مسحت بظهر كفها عبراتها المنكسرة التي انسابت على وجهها، تبعها "يامن" بنظراته متسائلاً باستغراب:

هي اتضايقت؟!

.....

بدا مشغولاً بالرد على بعض الرسائل الإلكترونية لإنهاء أعماله العالقة وهو مستلقي بجوارها على الفراش فلم ينتبه إلى توترها الظاهر على جسدها، فقد كان معظم تركيزه على المعروض

على شاشة حاسوبه المحمول، ومع ذلك شعر بلمسة حانية على ذراعه من أناملها الرقيقة وصوتها الناعم يناديه:

- "أوس"

رفع نظراته إليها مرددًا باقتضاب:

نعم

أجابته بخجلٍ وهي تعض على شفها السفلى بجرح:

- أنا شامة ريحة مانجة

زوى ما بين حاجبيه بتعجبٍ شديد وهو يقول مستغربًا:

- مانجة؟!!

هزت رأسها بالإيجاب موضحة له:

- أيوه، الريحة جامدة أوي في مناخيري، هو إنت مش شام ده؟!!

رد عليها متسائلًا:

- هو احنا عندنا مانجة أصلاً؟

أجابته نافية:

- لا، ما فيش هنا

ثم تحولت نبرتها للركة ونظراتها للحنو وهي تضيف بخجلٍ لطيف:

- بس أنا نفسي فيها

ترك "أوس" حاسوبه لينظر لها بجدية قبل أن يسألها مستفهمًا:

- إتي بتتوحي ولا إيه يا "تقى"؟

هزت كتفها هامسة:

-الظاهر كده

أضاف مؤكداً:

-بكرة الصبح هاتكون عندك

عبس وجهها قليلاً وضمت شفثيها قائلة بضيق:

-مش قادرة استنى للصبح!

هب "أوس" واقفاً ليقول لها بنبرة حاسمة وقد بدا عليه الجدية:

-خلاص هاجيها لك

طالعتة بغرابة وهي تسأله:

-هاتعمل إيه؟

رد عليها بغموض أصابها بالفضول:

-هاتصرف، ارتاحي إتي

مدت "تقى" يدها لتمسك بكفه، جذبتة منه قائلة له بعينين لامعتين:

-أنا أسفة هاتبعك

احتضن أناملها بأصابعه ثم أحنى رأسه على كفها ليقبله، رمقها بنظرة رومانسية تعكس شغفه

الدائم بكل ما يتعلق بها وهو يرد:

-يا حبيبتى مافيش حاجة تغلى عليكي

تركها "أوس" بمفردها في الغرفة بعد أن ارتدى ثيابه على عجلة ليحضر لها ما رغبت فيه،

انتظرتة بحماس لوقت ليس بالقليل حتى عاد إليها وهو يحمل في يده لأول مرة في حياته أكياس

الفاكهة، كتبت بصعوبة ضحكة عابثة تقاتل للظهور على شفثيها، فصاحب السلطة والهيمنة

والنفوذ ذو البدل السوداء والوجه الصارم يبدو كالمواطن العادي وهو يعود لمنزله حاملاً أكياس

الطعام، شيء رفض عقلها استيعابه للحظات، حلق فيها "أوس" بغرابة وهو يرى نظراتها الشقية نحوه، لم يدع الأمر يحيره فسألها مستفهماً:

-بتبصلي كده ليه؟

حاولت "تقى" التنفس بعمق لتسيطر على ضحكتها العابثة قبل أن تنفلت منها، ثم ردت بمرح:
-مش عارفة أقولك إيه، أنا مبسوطة إنك جبتلي اللي نفسي فيه

حرك رأسه بإيماءة خفيفة وهو يقول:

-وماله يا حبيبتى، أنا هاخذ شاور

تناولت منه الأكياس ثم ضمتها إلى صدرها مرددة بحماس وقد زاد لمعان نظراتها:

-ماشي، خد راحتك

راقبته وهو يلج إلى الحمام فأسرعت بالجلوس القرفصاء على الفراش واضعة أكياس المانجو في حجرها بعد أن أحضرت طبقاً صغيراً وسكينة الطعام، بدأت "تقى" في تقطيع الثمار وتناولها بشراهة متلذذة بمذاقها الشهى الذي حمسها لأكل المزيد، رددت بتأوهة مستمتعة:

-الله، طعمها حلو

استمرت على ذلك النحو حتى فرغت من تناول أغلب الثمار غير عابئة بالفوضى ولا البقع الصفراء المتناثرة على قميصها الأبيض والتي لطخته بشكل ملحوظ، خرج "أوس" من الحمام وهو يضع المنشفة على رأسه ليجفف بها شعره المبتل، أزاحه عنه لينظر لها بغرابة، انعقد حاجباه بشدة من حالة الشره التي انتابها، وقف قبالتها مدققاً النظر فيما تفعله وهو يسألها باندهاش عجيب:

-إنتي خلصتي المانجة كلها

أجابته بضم ممتلئ بالطعام:

-دي حلوة أوي

ألقى "أوس" المنشقة بإهمال على طرف الفراش ثم ثبت عينيه عليها محذراً:

-بالراحة يا "تقي"، كترهم مش حلو

-اعترضت قائلة بوجه شبه عابس:

-اطمن، دول ...

لم يمهلها الفرصة لتختلق له الأعذار، فما أحضره لها من ثمار المانجو لم يكن بالكمية القليلة، جذب منها الأكياس والطبق المليء بالبقايا رغمًا عنها فهتفت معترضة وهي تحاول النهوض:

-استنى بس

أولاهها ظهره ليمنعها من الوصول إلى غايتها قائلاً بإصرار:

-كده ماينفعش

نهضت من جلستها مقاومة بشدة إحساس التميل الذي أصاب ساقها وجعلها عاجزة عن الوقوف بثبات، تغلبت عليه بصعوبة وحاولت الوصول إلى الأكياس، لكنه حال بجسده دون حدوث ذلك، التفت حوله لتصل إليهم فاستدار معترضًا طريقها، ضربت بقدمها الأرض مرددة بتذمر:

-يا "أوس" فاضل حبة صغيرين، يعني يرضيك النونو يطلع عنده وحة عشان أنا مكلكش مانجة؟!!

أبعد الأكياس عنها قدر المستطاع ليقول مازحًا وهو يكاد ينهار ضحكًا من هيئتها المضحكة:

-كده مش هيطلعه وحة، ده احنا هنلاقي شجرة مانجة إن مكاش جنية بحالها

!!!

.....

الفصل التاسع والعشرون

انسابت عبراتها عفويًا وهي تشدد من ضميتها الحنون لوالدتها الجالسة على المقعد المتحرك ليسهل دفعها حتى مهبط الطائرة، ظلت "تقي" منحنية عليها رافضة تركها محاولة استيعاب أنها ستسافر خارج البلاد بدون وجودها معها، اعتدلت في وقتها مكفكة دمعاتها بظهر كفها، تحولت نظراتها نحو والدها ذو الوجه البشوش، رسمت ابتسامة باهتة على محياها وهي تراه يُطالعها بنظراته الحنون التي تهون دومًا عليها الكثير، تحركت خطوة واحدة لتغدو قبالة، ثم أردفت قائلة بصوتها المنتحب:

بابا

فتح "عوض" ذراعه كإشارة ضمنية لرغبته في استقبالها في أحضانه، ارتمت "تقي" على صدره تبكي بحرقة أشد، ربت والدها على ظهرها برفق وهو يعايتها برفق:

ماينفعش كده يا بنتي

استندت برأسها على كتفه بعد أن قبلته قائلة له:

غضب عني والله، أنا مش قادرة أصدق إنكم هتسافروا من غيري و...

قاطعها موضحًا بصوته الرزين:

للضرورة أحكام، وكله عشان خاطر أمك

تابع "أوس" الموقف العائلي في صمتٍ دون أن يبادر بأي تعليقٍ مكثفًا يملأء تابعه المتواجد خلفه بأوامره الصارمة بشأن الملازمة الدائمة للعائلة في كل المواقف حتى تنتهي الرحلة العلاجية، انسلت "تقي" من حضن أبيها لتنظر إليه بعينها الباكيتين ثم أضافت بنشيج:

كان نفسي أكون معاكو

رد مبتسمًا:

سببها على الله، احنا قاصدين وجه كريم، وربك عليه جبر الخواطر

علقت عليها "تهاني" الواقعة بجوار أختها:

يا "تقي" إنتي ظروفك تمنعك من السفر، ربنا يكملك على خير ويقومك بالسلامة

التفتت نحوها لترد:

بس يا خالتي ...

قاطعتها مؤكدة:

أنا موجودة معاهم، ورجلي على رجلهم، مش هايكونوا لواحدهم أبدًا، وبعدين "فردوس" أختي قبل ما تكون أمك

مصمصة أختها شفتيها قائلة بتبرم وبوجهٍ خالٍ من التعبيرات:

قوليلها ياختي، بدل المناحة اللي هي عملها،

ثم أخرجت زفيرًا مهمومًا من صدرها لتكمل بعدها برجاءً:

ده أنا مستنية اليوم ده من زمان، نفسي أرجع أشوف تاني، ومحدثش كان حاسس بيا، بس نقول إيه، الحمد لله!

أثرت كلمتها الأخيرة في نفس ابنتها التي جثت على ركبتيها أمامها، مدت يديها لتمسك بكفيها وهي تقول بتفاؤل رغم صوتها الحزين:

إن شاء الله ها يحصل يا ماما

ورغم امتعاض وجه "أوس" من أسلوب "فردوس" المستفز في استجداء شفقة الآخرين وتعاطفهم باستغلال مرضها إلا أنه تمالك أعصابه وضبط انفعالاته بشكل جيد ليدو هادئًا أمام طريقتها الرخيصة، اقترب من زوجته ثم وضع قبضتيه على كتفيها ليَجبرها على النهوض من جلستها غير المريحة والتي ربما تؤذيها بشكلٍ ما ثم هتف محذرًا بلهجته الجادة:

خلاص بقى يا حبيبتى، أنا قايلك إني باعت معاهم حد ثقة هيخلص كل حاجة، ده غير إنه هيتواصل مع الدكاترة هناك ويبلغني بالجديد، فتقلقيش

أدارت رأسها في اتجاهه لتتظر في حدقتيه الحادتين، همست له بامتنان:

ربنا يخليك ليا يا "أوس"، بس صعبان عليا

قاطعها هامسًا بجديّة:

شششششش، ولا كلمة زيادة

انتبه جميعهم لصوت المذياع الداخلي الذي أعلن عن الاستعداد لاستقبال المسافرين، هنا تأهبت حواس "تقى" وبدأت أكثر حساسية لتوديع أبويها وخالتها، وضع "عوض" كفه المجدد على ذراع ابنته مشددًا:

خدي بالك من نفسك يا بنتي

أومات برأسها هاتفة:

حاضر يا بابا، وطمنوني أما توصلوا

ابتسم مرددًا:

ياذن الله!

ودعته مرة أخرى وظلت واقفة في مكانها تتابعهم وهم يتجهون نحو الداخل بنظراتها الحزينة التي امتزجت مع عبراتها حتى اختفوا وسط الزحام، تهدد "أوس" قائلاً بتجهم بسبب إصرارها على البكاء المتواصل:

-اهدي يا "تقي"، مش كده!

ردت عليه بتوجس معكوس في نبرتها:

-أنا خايفة أوي عليهم، أول مرة مكونش معاهم في حاجة خطيرة زي دي، ده غير إني المفروض أكون جنب ماما في عمليتها و...

ضجّر "أوس" من شكواها المتكررة بنفس الأسباب التي مل من سماعها طوال الفترة الماضية ليقاطعها بتذمر:

-وأنا قولتلك هما تحت عينيا ومش سايبهم للحظة

كانت على وشك الرد فأوقفها قبل أن تنطق بآمر:

-ويالا بينا من هنا، وقفنا مالهاش لازمة

كان محقًا في ذلك، فلم يعد هناك حاجة للبقاء في مكان خلى من وجود عائلتها، استدارت سائرة بخطوات بطيئة غير منتبهة إلى أين تخطو، كادت أن تتعثّر في مشيتها وتنكفئ على وجهها، لكن أسندها زوجها جيدًا من خصرها في ردة فعل تلقائية، شكرته هامسة لكن بدا وجهه عابسًا للغاية ونظراته مزعوجة على الأخير، أشار "أوس" نحو قدميها متسائلًا بصرامة:

هو مش الدكتوراة قايلة ماتلبسيش كعب؟

أخفضت نظراتها لتحقق هي الأخرى في حذاءها ثم عللت له بترديد:

ده 2 سم بس، يدوب ملامس الأرض

علق عليها بوجهه الحائق:

وده مبرر يعني؟ مش هي قايلة حاجة رياضية ومريحة

ازدردت ريقها لتقول:

أصلي كنت مستعجل....

قاطعها قبل أن تخلق عذراً لتبرر تصرفها قائلاً:

- "تقي"، دي آخر مرة أشوفك لابسة كعب لحد ما تولدي، مفهوم؟

ضغطت على شفيتها قائلة بعدم رضا:

طيب

حل الصمت بينهما طوال سيرهما إلى خارج المطار وحتى أثناء جلوسهما معاً في السيارة، لم تحاول "تقي" كسر الجمود السائد في الأجواء بسبب قلقها الواضح على عائلتها، في حين اكتفى "أوس" بالقيادة مركزاً حواسه على الطريق أمامه ليتجاوز تصرفها الطائش الذي ربما يضع جنيهما في لحظة رعونة غير مدروسة.

.....

نفخت مطولاً وهي تعيد جسدها للخلف لتستند على ظهر الفراش، أزاحت "ليان" حاسوبها المحمول عن قدميها لتفركهما بعد أن شعرت بالتميل يغزو ساقها بسبب استخدامها له لوقت طويل للالتقاء من التكاليفات الخاصة بموادها الدراسية، ثاءت يارهاق وأغمضت عينيها لتستسلم للنعاس الذي بدأ يغلف جفنيها بعد أن تملكها التعب والإرهاق من كثرة الاستذكار مؤخراً، انتفضت فجأة كاتمة شهقة عفوية انفلتت من بين شفيتها لتتحول لصرخة فزعة حينما هتف "عدي" عاليًا:

- "ليوو"

نظرت له بغيظٍ وهي تسأله:

في إيه يا "عدي"؟ خضتني أوي!

دنا من الفراش لينحني نحوها جاذباً إياها من يدها قائلاً بغموضٍ أمر:

تعالى معايا

لم تستطع مقاومة اندفاعه الحماسي فانساقط خلفه متسائلة بقلق:

حصل حاجة ؟

أجابها باقتضاب ضاعف من ربيتها:

تعالى بس

حاولت "ليان" اللحاق بخطواته الراكضة قاصدة مقاومته عله يتباطئ في هرولته وهي تحذره بنرفزة طفيفة:

يا "عدي" في إيه ؟ متجرجرينش وراك كده

أدار رأسه في اتجاهها دون أن يتوقف عن السير المهرول ليرسم على وجهه بسمة متشوقة، غمز لها قائلاً:

هتفهمني دلوقتي

تبعته مضطرة حتى أوقفها أمام تلك الحجرة المغلقة، استدار كلياً نحوها ليأمرها بجدية:

-غمضي عينيك

ارتفع حاجبها للأعلى رافضة الانصياع له، كتفت "ليان" ساعديها أمام صدرها تسأله بوجه جاد الملامح:

ليه ؟

رد بالحاح وهو يحل ذراعيها المعقودين:

-اسمعي الكلام بس وهتفهمني!

تهدت مرددة باستسلام:

-أوكي

ثم أغمضت عينيها تاركة له مهمة اقتيادها لداخل الغرفة، حذرتة بلهجة قلقة وهي تسير بخطوات مرتبكة:

-حاسب لأتكعبل

طمأنها "عدي" قائلاً عن ثقة:

-متخافيش، أنا ماسكك كويس!

سألته بنفاذ صبر بعد مرور عدة ثوان:

-ها أفتح؟

أجابها نافياً:

-لا، لحظة بس

ضغطت على شفيتها دون أن تعلق حتى هتف بحمايس كبير:

-ياللا، فتحي!

استجابت له وفتحت عينيها لتحقق بنظرات جمعت بين الاندهاش والصدمة في الغرفة التي أعدها زوجها لاستقبال مولودهما القادم، جابت بنظرات متأنية أغلب تفاصيل المكان، حيث تم تغيير الطلاء للون أكثر بهجة وراحة للأعين، وتزيين الحوائط بملصقات للأطفال، ووضع ستائر مطبوع عليها رسومات طفولية، ناهيك عن كم الألعاب المناسبة للعمر الصغير، والسجاد المرسوم عليه شخصيات كرتونية شهيرة، انفرجت شفها السفلى كتعبير عن دهشتها واستغرابها لقيامه بمثل تلك الأمور دون علم مسبق منها، تأمل "عدي" بشغف ردة فعلها متسائلاً بفضول زائد:

-ها إيه رأيك؟

ردت بتعجب ونظراته مشغولة بتأمل ما أعده:

-إيه ده؟ إنت لحقت تعمل ده امتي؟

كل يوم كنت بأعمل حاجة قبل ما ترجعي من كليتك، حبيت أفاجئك
لم تعلق عليه وظلت تدور بعينها في الغرفة، توجس "عدي" خيفة من احتمالية عدم قبولها
للتغييرات التي أحدثها فهتف بنزق:

لو مش عجباكي الألوان أو الديكورات ممكن نغيرها
ابتسمت قائلة بنبرة عادية وهي تهز كتفها:

حلوين يا حبيبي، أنا بس مستغربة إنك عملت ده كله لوحداك!
امتدت يدها نحو كفها لتلتقطها، مسح يابهاميه على جلدتها الرقيق ثم نظر مباشرة في عينيها
متابعاً بتنهيدة عبرت عن حبه لها:

-المهم إنهم عاجيينك

بادلته بسمة ناعمة وهي ترد:

-أوي

أضاف بجمايس أكبر:

-كمان أنا حاولت أخلي الألوان تمشي مع البيبي سواء كان ولد أو بنت
عادت لتأمل الغرفة من حولها معلقة عليه:

تسلم بجد

أرخی يده اليمنى عن راحتها ليشير بها وهو يضيف:

لسه ناقص السرير، بس معايا كام صورة على التاب نختار ما بينهم، يعني ده مأجله شوية
لحد ما يبان نوعه إيه

مطت فمها قائلة بإعجاب:

-إنت مخططت كويس لكل حاجة

استقام أكثر في وقفته ليتابع بتلهف لامسته بوضوح في إيماءات وجهه وحركات يديه ونظراته المشرقة:

-إنتي مش متخيلة سعادتي عاملة إزاي وأنا بأجهز بإيدي حاجة البيبي للي جاي، أنا كان ممكن أعيش عمري كله محروم من الخلفة، بس ربنا أكرمني، لأ ومن أكثر إنسانة بأحبها ردت عليه ببسمة رقيقة:

-ده إنت بقيت شاعري وبتقول كلام زي "أوس" أهوو
كركر ضاحكًا من تشبيهها الأخير ليقول من بين ضحكاته:

-أدينا بنتعلم منه شوية، ما هو الخير بتاعي!

داعبت "ليان" طرف أنفه بإصبعها مشجعة إياه:

-وماله يا بيبي

أضاف "عدي" مشددًا بمجدية:

-عاوزك الفترة الجاية تركزي بس في دراستك عشان تخلصي امتحانات وبعدها تقضى كده ونشوف هنشتري هدوم إيه للبيبي

هزت رأسها بالإيجاب قائلة:

-أوكي

تجولت معه في الغرفة مستمتعة بشرحه لكل قطعة اشتراها من أجل طفلها القادم، انتهت "ليان" فجأة لتلك الكتلة الصغيرة التي تحركت من خلف الأريكة الموضوعة عند الزاوية لتختبئ خلف كومة من الوسائد الصغيرة، اتسعت حدقتها في هلع وهتف بجزع وهي تشير بسبابتها نحوهم:

-في حاجة ماشية هناك!

حاول تركيز أنظاره على ما تشير إليه متسائلًا:

حاجة إيه ؟

صرخت بفزع:

-والله أنا شوفت حاجة، بص كويس

عادت تلك الكتلة الرمادية للركض في لمح البصر لتختبئ بين الديمي الموضوعة في الزاوية المقابلة، استطاعت "ليان" في تلك اللحظة أن تخمن ماهيتها، واصلت صراخها المرتفع وهي تلتصق به لتتعلق بذراعيها في عنقه:

-ياااي، ده mouse (فأر)

ظن "عدي" أنها تمازحه فرد ساخرًا:

-أنا اشتريت بطوط، مجبتش ميكي ماوس لسه

أدركت أنه يستخف بحالتها المذعورة فتجهمت تعبيراتها وهي توصف له ما رآته:

-بأقولك فار حقيقي من أبو ديل وشوارب

رفع حاجبه للأعلى مرددًا بتعجب:

-شوارب ؟ جبتي الكلمة دي منين ؟!

زفرت هاتفة بنفاذ صبر:

-يووووه، مش وقتك

ريت على كتفها محاولاً تخفيف حدة توترها وهو يقول لها:

-اهدي بس!

صرخت فيه بعصبية:

-اتصرف

هز رأسه مرددًا بمزاح وهو يجاهد للظهور بمظهر الجدية أمامها:

حاضر، بس إيه اللي جابه عندنا؟

استاءت من استهزائه بها فصاحت بانفعال:

-أنا مش بأهزر، أنا لمحتة معدي من هناك

عاد ليحدق في الزاوية التي تشير لها متسائلاً:

فين بالضبط؟ دي أكيد تهيؤات حمل و....

قاطعته بانفعال:

-أنا مش بأكذب، ده فار، بص كويس!

رد عليها بهدوء وهو يزيح يديها القابضة على عنقه:

حطب إديني فرصة أعرف أتحرك

ضربت بقدمها الأرض بعصبية قبل أن تستدير خارجة من الغرفة بخطوات أقرب للركض:

-لالالا، أنا مش هاستنى هنا

عبث "عدي" بخصلات شعره مردداً بامتعاض:

يا "ليوو" استني بس، يعني مش معقول هايجلنا فار

لم تستسيغ تعليقاته المستخفة بخوفها المبرر من تلك النوعية من القوارض فأكملت ركضها نحو

غرفة نومها، حذرها بجدية وهو يسير متعجلاً:

حطب بالراحة ماتجريش كده

ولجت إلى الداخل وأوصدت الباب من خلفها قاطعة على زوجها أي فرصة للحاق بها، ثم

قامت بوضع الغطاء أسفل الباب لتمنع دخول أي شيء من عتبه، تعجب "عدي" من ردة

فعلها المبالغ فيها، وما زاد من اندهاشه هو صراخها المهدد:

مش هاقعد هنا ثانية واحدة

وضع يده على المقبض ليفتحه لكنه وجده موصدًا، دق الباب بلطف وهو يجرؤها:

-اهدي بس وافتحي الباب

ردت بصراخ عنيد:

-لا، مش قبل ما تشوف صرفة مع الفار ده

زفر معقبًا بيأس:

-بلاش تاخدي الأمور بحساسية، مش هايملك حاجة يعني، ده فار صغير، حاجة كده ماتشفش!

هتفت باستنكار وقد بدا صوتها أكثر حدية:

-ليه كان من بقية عيلتنا؟

ابتسم وهو يجيبها:

-لا من القوارض

توعدته بلهجة جادة:

-أو كي يا "عدي"، خليك فإكر إنت بتعمل إيه وأنا في الحالة دي

علق سريعًا مستسلمًا لما تريد:

-حاضر، هاكلم الشركة الألمانية لإبادة القوارض، ها كده هديتي؟

ساورتها الشكوك بمحاولته الفاشلة تلك فهاجمته بتهديد شديد اللهجة:

-إنت بتاخدني على أد عقلي، من الآخر كده يا "عدي" يا أنا يا الفار هنا!

علق ساخرًا:

-هو كان ضرتك ولا اتجوزته عليكي؟

صاحت بكلمة أخافته:

- "عدي"

لم يكن بحاجة للجدال معها، فهناك شعرة رفيعة بين الجدية والهزل مع امرأة في أوج عصبيتها نادت باسمه بصراحة مطلقة، تنحني مردداً بعذوبة ليمتص غضبتها:

-أيوه يا حبيبتي

هدرت به:

-اتصرف

رد بامتعاظ وهو يفرك ذقنه:

-ماشى، ماهو كائن زي أي كائن دخل عندنا بالغلط!

تحدثه بقوة قاصدة استفزاز حميته الذكورية:

طب اتعامل بقى يا حمش، مستنية أشوف إنجازاتك العظيمة!

لوى ثغره معلقاً بهكم:

-فكرك هخاف من بتاع أد كده، معاكى أسد يا "ليوو"!

ابتعد عن الباب مبتلعاً ريقه في حلقة الجاف، حك مؤخرة عنقه متسائلاً مع نفسه بحيرة:

طب أجييله قطة ولا أعمل إيه؟!

.....

تحركت بتوتر أمام المدخل الرئيسي لمؤسسته العريقة عاقدة العزم على الالتقاء به فور أن يصطف بسيارته على مقربة منها، فبالرغم من معرفه الكبير معها إلا أن شعورها الداخلي بأنها تتلقى نوعاً من الإحساس والعطف أعجبها كثيراً وأرق لياليتها بشكل مستنفر رغم سعادة والدتها بهذا، فتلك النفحات المالية أدخلت عليها السرور وبدت كالإدمان بالنسبة لها على عكسها هي التي سعت جاهدة للتفوق في دراستها دون إرهاق كاهل والدتها بمتطلباتها الدراسية، لكن ما حدث مؤخراً مع ذلك المقيت "منسى" أربك حساباتها بالكامل وأعادها لنقطة الصفر بل

أدنى من ذلك بكثير ليغدو مستقبلها على المحك، ولولا تدخل "أوس" وشهامته لربما ضاعت أحلامها كلياً، تضاعف شعور "هالة" الراض للتناول على الغير واستسهال ما يقدم لها مع إصرار والدتها على طلب المزيد من الأموال بحجة أن ما يمنح لابنتها لا يكفي مع غلاء الحياة.

وما أجمع شعورها بالانتقاص والاختلاف هو رؤيتها لذلك الشاب الذي كان يلاحقها على فترات متقاربة ليراقبها مبتسماً في صمت، فقط كان يستند بجسده على جانب سيارته ليتابعها عن قرب ووجهه مشرق بصورة توترها، كانت ترتبك من حضوره وتشعر بخفقات قوية في قلبها، فسرت الأمر بكون وجوده يثير حفيظتها نظراً لجرحه لكرامتها بتقديمه النقود لها ليشير لكونها فقيرة معدمة، أخرجها ببساطة ودون أن يشعر أوغر صدرها بهذا الإحساس المؤلم الذي ظلت آثاره محفورة بداخلها ليؤكد لها وجود الفارق الطبقي بينهما، عادت من شرودها المبهوم على صوت بوق السيارة المميز، ضمت قبضتها على حقيبتها واستعدت للتحرك نحو "أوس الجندي"، لمحها الأخير وهو يترجل من سيارته، اتجه نحوها مدقاً النظر في ملامحها، ودون انتظار أي بادرة منها للحديث سألها باهتمام:

-بتعملي هنا إيه؟ في حاجة حصلت؟

استجمعت شجاعتها لتجيبه لكنها شعرت بالتوتر من هيئته التلقائية التي تجبر من يُحادثه على الارتباك والخوف، ناهيك عن هروب الكلمات من على طرف لسانها، تابع "أوس" ملاحظته لها بالأسئلة قائلًا:

-ردي عليا، حد اتعرضلك من تاني؟ الكلب "منسي" قرب منك ولا...؟!

قاطعتة نافية بصوتها المتلثم:

-لا، أنا كويسة يا باشا

هدأ قليلاً لكن ظلت نبرته صارمة وهو يضيف متسائلاً:

-أومال في إيه؟

أدرك "أوس" أنه ما زال واقفاً عند مدخل مؤسسته وأن حراسته تتبعه بالإضافة لتأهب موظفيه لاستقباله، أشار لـ "هالة" بيده آمراً:

تعالى معايا، هنتكلم في مكتبي

اكتفت بالإيماء برأسها لتسير خلفه بجذير مختلسة النظرات نحو تلك العين الفضولية التي تنظر إليها باستغراب، توقفت أمام المصعد منتظرة فتح بابه ذي اللون الذهبي لتستقله مع "أوس"، كان تركيزها منصباً على ذلك الأمر البسيط فلم تشعر بذلك الذي وقف خلفها ليقابلها مُصادفة معتقداً أن حظه الجيد قد خدمه تلك المرة، استدارت لتتفاجئ بـ "يامن" أمامها فور أن ولجت للداخل، توتر رهيبٌ اعترافها وقد تجمدت نظراتها عليه، همس مبتسماً:

إزيك، صدفة حلوة!

وكان بكلماته المقتضبة لمح إلى صفاء نيته في الالتقاء بها، بدا مستمتعاً للغاية بوجودها وتحولت تعابير وجهه للحيوية، أخفضت نظراتها متحاشية حملته الجريئة بها، خفق قلبها بقوة وتضاعف اضطرابها حينما وقوف شبه ملتصقٍ بها، أحست بالدماء تندفع في عروقها، وبجراحة غير مبررة تصيب جسدها، رمشت بعينها في نخل قلق، وزادت من ضمها لحقيبتها وكأنها وسيلتها الوحيدة لإفراغ تلك الشحنة الغريبة من الطاقة غير المفهومة التي انتابتها دون سابق إنذار لتضعها في ذلك الموقف المربك.

على النقيض كان يشعر "يامن" بسعادة غريبة لتواجهه معها وإحساسه بقرعها منه، شردت نظراته في تأمل ملامحها الرقيقة وكان العالم قد خلا إلا من كليهما متناسياً رغماً عنه وجود آخر من يرغب في حضوره، ما أفسد لحظته المميزة وأعادته لأرض الواقع فوراً هو قبض "أوس" على ساعده ليجذبه إليه ويجبره على الابتعاد عنها، صدم الأخير من خشونة ابن عمه معه الذي كان وجهه الصارم التعبيرات أبلغ من الحديث بعشرات المراحل، تتم باقتضابٍ حاسم:

هنا أحسن

تنح "يامن" بحرج وهو يطرق رأسه قليلاً بينما أخفت "هالة" ضحكة ساخرة كانت تتراقص على شفيتها من معاملة ابن عمه الأكبر له، ربما تصرف "أوس" الحازم جعل توترها يخف قليلاً، ومع ذلك ظلت ترتب في عقلها ما سوف تتحدث فيه معه، تحركت عيناها لتتحقق تلقائياً في وجه "يامن" حينما أمره ابن عمه قائلاً بلهجته غير القابلة للاعتراض:

ركز في شغلك، أظن إنت فاهمني!

حانت من الأخير نظرة سريعة خاطفة نحو "هالة" قبل أن يغمغم بتبرم:

حاضر، هو أنا بأعمل حاجة غير الشغل

اشتعل وجه "هالة" بحمرة جديدة لا تعرف سببها، حاولت تبرير ذلك بأنه لخرجها من اللقاء غير المرتب مع من يسبب لها الإزعاج بتواجده، تحاشت النظر نحوه وركزت أنظارها على نقطة في الفراغ آملة في نفسها أن تسيطر على اضطرابها، تصلب جسدها مع صوت "أوس" القائل:
-تعال يا "هالة"

تلفتت حولها لا إرادياً فلمحت "يامن" وهو ينصرف منزجاً، ثم حدقت في وجهه وهي تهز رأسها مستجيبة لأمره، سارت خلفه حتى غرفة مكتبه باحثة عن الجملة المناسبة التي تستطرد بها الحديث معه، صاح "أوس" في سكرتيته يأمرها بحزم:

مش عايز حط يقاطعني لحد ما أخلص مع الآنسة!

-تمام يا فندم

قالتها الأخيرة بابتسامة لبقة وهي تومئ برأسها انصياعاً له، تشجعت "هالة" للمضي قدماً وولجت إلى الداخل متخذة المقعد الموجود على يسارها لتستوي عليه، جلس "أوس" في مواجهتها مسلطاً بصره الحاد على وجهها المرتبك، أردف قائلاً بهدوئه الذي يعيث في نفسها الاضطراب:

-تكلمي، أنا سامعك

شعرت "هالة" بجفافٍ في حلقها، لكنها مضطرة للبوح بما عقدت النية عليه، لم تجرؤ على النظر إلى وجهه الذي كان مبهم التعبيرات، تنفست بعمق لتقول له وهي تضغط بقوة على مفاصل أصابعها:

-أنا مش عاوزة حضرتك تساعدني ثاني !!!

الفصل الثلاثون (الأخير)

منحها نظرات جامدة بوجه غير مقروء التعبيرات ليزداد ارتباكها من صمته المريب الذي ييث القلق والخوف في نفسها المضطربة مسبقاً، ورغم تدريبها على ما سوف تقوله لعشرات المرات إلا أن تطبيق ذلك في الواقع أصعب بكثير مما تخيلت في عقلها، ازدردت "هالة" ريقها واستجمعت شجاعته الفارة لتواصل حديثها قائلة بتلعثم:

-أنا بأشكر حضرتك على كل اللي عملته عشاني

شعرت بتلك المرارة تغزو حلقها لتزيد من مرارة العلقم وهي تكمل بصعوبة محاولة الحفاظ على ثباتها:

-أنا مقدرة ده جداً وبأعتبره دين عليا، بس مش حابة أشغل سيادتك بهمومي

رفع "أوس" حاجبه للأعلى متسائلاً بكلمة واحدة:

-خلصتي؟

أرجفتها نبرته الواثقة فردت دون تفكير وهي تضغط على أناملها:

-أيوه

استقام أكثر في جلسته ليضيف بعدها بهدوء جاد:

-اسمعي للآخر خلاصة الكلام وبدون ما تعلقني

توقعت موجة عنيفة من الهجوم الضاري على شخصها وربما تعنيفًا حادًا لنكرانها لمعروفه الكبير معها، لكنه بدد مخاوفها حينما نطق بنفس الثقة الجادة:

-الي بأعمله معاكي مش مساعدة، ده لو إتي حابة تسميه زي ما بتقولي كده!

تخرجت من رده اللبق وبررت موقفها قائلة بتردد وهي ترمش بعينها:

-أنا أقصد

أشار بسبابته مقاطعًا بلهجة آمرة:

متقاطعينش

انتفضت قليلًا من صرامته الشديدة، ثم أطرقت رأسها للأسفل لتبتلع بعدها ريقها وهي ترد بجرح كبير:

-أسفة!

واصل "أوس" حديثه قائلاً:

-تاني حاجة وده الأهم، عقلية زي أمك مش هافرق معاها تكلمي تعليمك ولا لأ، كل الي يهمها الفلوس وبس

كان محققًا في تفسيره المنطقي، فمنذ اللحظة التي أغدق فيها عليها بالمال وقد تبدلت معاملتها 180 درجة، واختلف أسلوبها معها بدرجة جعلتها تندesh للغاية، فللنقود تأثيرها السحري، ارتفعت عينها تدريجيًا لتحقق في وجهه الجاد التعبيرات بنظراتٍ شاردة، أدرك "أوس" انه أصاب لب الموضوع بكلماته الواعية، وزاد عليها موضحًا:

-يعني الي بيجيلها كل شهر مخليها مش شايلة هم ولا سائلة فيكي، بمعنى تاني إيدها اترفعت عنك

تجمدت نظراته عليه وهو يسألها:

تخلي ماسورة الفلوس دي اتقفلت، إيه الي هايحصل؟

لم ينتظر ردها بل أجاب عنها مفسراً:

-بساطة شديدة هتلاقي واحد تاني زي الكلب "منسي" بيخبط على باب بيتكم طالبك للجواز
شخصت أبصارها رعباً لمجرد استعادة صورة ذلك المقيت الوضع في عقلها وكيف تجرأ عليها
وكادت أن تخسر أعز ما تملك في لحظة هوجاء، ارتعدت أكثر وهو يزيد من تعقيد الأمور
حينما استأنف:

-وأملك هتوافق عليه على طول، وهتتري في مستنقع أسوأ بكثير من اللي كنتي فيه
أحست "هالة" بدقات قلبها تتقافز في قلبها خوفاً، تضاعفت حالتها المرتعدة مع تحذيره الخطير:
-مش بس كده، هيتكرر نفس الكلام مع إخوانك!
صرخت عفوياً:

-لا، مش هايحصل
تقوس فمه للجانب وقد نجح في استمالة رأسها، سحب نفساً عميقاً زفره على مهل ثم أردف معلقاً:
-وبلاش بقى كلام الإنشاء بتاع كرامتي ونفسي ومش عارف إيه لأنه مايكلش معايا
عادت لتنظر بنجلٍ إلى قدميها متحاشية نظراته المسلطة على وجهها المتورد نجلاً، واطب
"أوس" حديثه بنبرة عملية بجثة:

-أنا عامل زي اللي بيستثمر فلوسه في حاجة مفيدة، مع فارق إن شايف ليكي مستقبل أحسن،
ده لو فعلاً اشتغلتني على نفسك ونجحتي ودخلتي كلية كويسة
لم تجرؤ على التطلع إليه، ورغم ذلك تهتدت هامسة بارتباك:
-بس أنا مش هارتاح كده

لاحظ الحيرة الواضحة عليها وحالة التخبط التي تعايشها، سألها مستفهماً:
-إنتي عاوزة إيه؟

أجابته بترددٍ وهي مستمرة في التحديق لحذاءها القديم علها بذلك تستطيع السيطرة على تشتتها:

-يعني لو مكانش فيها إساءة أدب، ممكن أعتبر اللي حضرتك بتعمله معايا دين عليا أسدده راقب نجلها منه باهتمام، في حين تابعت "هالة" بتوتر:

-ده.. ده ممكن يخلي ضميري يرتاح و..

قاطعها دون منحها فرصة لإكمال جملتها:

-هاشوف ده بعدين

ورغم يقينها بأنه سيرفض حتى التفكير في طلبها إلا أنها لم تيأس من المحاولة، استغلت الفرصة لتفتح حقيبتها ثم أخرجت منها ورقة مطوية، تجرأت على النظر إليه ثم نهضت من جلستها لتمد بها يدها نحوه وهي تقول في ارتباك:

-أنا عملت لحضرتك ورقة بكل جنية دفعته، اتفضل

قست نظراته نحوها ولم يتحرك قيد أنملة من مكانه مما دفعها لوضع الورقة على الطاولة الخشبية التي تتوسطهما، تراجعت "هالة" سريعاً للخلف لتجلس في مكانها مواصلة استرسالها في الحديث:

-وها دور على شغل و...

حلق فيها "أوس" بنظرات مزعوجة قبل أن يرد مقاطعاً:

-إنتي سامعة نفسك كويس؟

تجمدت الكلمات على طرف لسانها ونظرت له بتوتر قلق، تشنجت ملامح وجه "أوس" حينما حرك شففيه لينطق:

-بطلي تخاريف ومثالية مش موجودة في الزمن ده

للحظة شعرت باستخفافه بمحاولتها الفاشلة لإقناعه بالقبول بعرضها العقيم لتسديد ما أسمته بمديونياتها، تفرقت العبرات بكثافة في حدقتها فزاد لمعانها، وأحست بطعم المرارة في جوفها،

رأى "أوس" الحزن العميق يكسو ملامحها فأردف موضحاً عليها تقيم الأمور من منظور آخر غير ذاك الذي تحصر نفسها فيه:

هافهمك أكثر

تخلى عن جلسته المتصلبة ليميل بجسده نحوها، ثبت عيناه على وجهها متسائلاً:

-إنتي عاززة تقنعيني إنك هتلاقي شغلك بالسهولة دي بدون مؤهل على الأقل متوسط وفي نفس الوقت هتلاحقي على مدرستك وامتحاناتك؟

ثم منحها بعض الوقت لتفكر في إجابة منطقية لسؤاله، واستغلتها بالطبع لتجيبه:

هو هيبقى صعب في الأول بس...

قاطعها دون تفكير:

صديقي ده مستحيل

شعرت بإحباط كبير يسيطر عليها، فعاد لمنطقته لتفكر في الأمور بشفافية أدق:

-يفرض عملي ده، أنهو شغلانة مرتبها هيكفيكي وفي نفس الوقت يسكت أملك ويبيدها عنك؟

ارتبكت لتعثرها في العثر على حل منطقي يتوافق مع أوضاعها، ورغم ذلك اجتهدت لتقول:

-يعني في حاجات موجودة، هادور وأشوف

أشار بيده متابعا:

ماشى، ولو فرضنا إنك اشتغلتى، ها يكون ده فين؟ آخرك هاتكوني بياعة في محل هدم أو

واقفة على كاشير في سوبر ماركت، وده أفضل الحلول

انقرجت شفتاها عن دهشة مصدومة من واقعيتها البحتة التي جعلت معتقداتها تهتز بصورة

كبيرة، باغتها "أوس" متسائلاً:

مدة الشغل أد إيه؟

أجابته بهمس متردد:

مش أقل من 6 ساعات

رد معقبًا:

ده على أقل تقدير، في أماكن الشيفت بتاعها من 8 لـ 10 ساعات، ده لو فترة مسائية كمان عجزت "هالة" عن التعليق عليه، أعاد "أوس" ظهره للخلف ليقول لها:

-ولو استحملتي يوم، نقول أسبوع، أو حتى شهر، هتواظبي إزاي وقت امتحاناتك؟
يأس مضاعف غطى ما تبقى من تعبيراتها المحبطة لتشعر بتبدد كل شيء وانهايار آمالها، تابع "أوس" مضيقًا:

-وعلى ما اعتقد فاضل حاجة بسيطة على الامتحانات، أنهو صاحب شغل هيوافق على إنك تستأذني أو حتى تغيبني وإنتي لسه مبقالكيش كام يوم عنده؟
نكست رأسها خزيًا وقد انهار كل شيء في عينيها، وسقطت في بوتقة حيرتها تساءلت بين جنبات نفسها:

-والعمل إيه؟ هاتصرف إزاي؟

ساد الصمت في الأجواء بناءً على رغبته هو، فقط ليمنحها الفرصة للتفكير وإعادة حساباتها غير المنطقية وإدراك حقيقة الأمور، لمح دمعاتها التي انسابت رغمًا عنها فحاولت مسحها بأطراف أصابعها، فرك طرف ذقنه مستطردًا فجأة:

-أنا عندي اقتراح أفضل ليكي!

وكأنه قد أعاد لها بارقة الأمل من جديد فهتفت متسائلة بتلهف:

-إيه هو؟

لاحت ابتسامة صغيرة على جانب شفثيه وهو يجيبها:

-تعال في أجازتك اتدربي هنا

تدلت شفقتها للأسفل في دهشة عجيبة من عرضه السخي الذي لم يكن ليطراً على بالها مطلقاً،
وكي لا تشعر بأنه يقدم لها مساعدة خفية فترفض اقتراحه دون تفكير متعقلٍ أوضح مقصده
قائلاً:

كل فترة في مجموعة متدربين بنجيهم هنا يتعلموا ويكتسبوا خبرة، وبأديهم نص أجر كنوع من
التحفيز، والأفضل منهم بيتعين هنا بمرتب حلو، أنا هاحط اسمك معاهم تدري، وساعتها تقدري
تدفعي الديون من مرتبك!

خفق قلبها بقوة من حديثه المفاجئ لها، عادت ملاحظها تشرق من جديد، أضاف "أوس"
مشدداً:

بس ده مش هايحصل إلا لما تخلصي امتحانات

سألته بأفانيس متسارعة:

بجد، يعني حضرتك هاتشغلني هنا؟

أوما برأسه مؤكداً:

أيوه

هبت من مكانها واقفة لتشكره بامتنان كبير:

أنا مش عارفة أقول لحضرتك إيه، حضرتك هونت عليا كثير

أحس "أوس" بالارتياح لكونه قد نجح في حل معضلتها التي اختلقها لنفسها دون عناءٍ يُذكر،
وضع ساقه فوق الأخرى قائلاً لها:

المهم تركزي دلوقتي في مذاكرتك

هزت رأسها بإيماءة قوية:

حاضر

ثم ابتسمت له وهي تعلق حقيبتها على ظهرها لتقول بمرح:

أنا أسفة إني عطلت حضرتك

أكتفى بهز رأسه بحركة بسيطة دون تعقيب، أولته ظهرها لتسير في اتجاه الباب لكنه استوقفها
منادياً:

- "هالة"

التفت برأسها نحوه بعد أن تسمرت في مكانها:

أيوه

رفع إصبعيه المسكين بالورقة المطوية للأعلى ثم بنظرة صارمة أمرها:

خدي الورقة دي

تلجلجت معترضة بخجل:

بس..

هتف بلهجة متشددة:

متعارضيش

لم تجرؤ حتى على التحدث، سارت عائدة إليه في صمت لتلتقط الورقة من بين إصبعيه، طوته
في كفها ثم همست قائلة بركة كبيرة:

عن إذن حضرتك

ظلت حالة التوتر الممزوجة بالحماسة مسيطرة عليها وهي تسير في اتجاه الباب، لم تنتبه للقادم
من الخارج الذي قرر الدخول للغرفة بعد أن دق الباب ليصطدم بها عن قصد، شهقت "هالة"
مصدومة وأحضان "يامن" تستقبلها مع ذراعيه ليلتهب وجهها وتهدج أنفاسها وترداد حرجاً
ونجلاً، رمقها الأخير بنظرات دافئة شقية، أسندها بقبضتيه هامساً من بين شفتيه:

حاسبي

انتفضت مع لمسه لها وتراجعت سريعاً للخلف وهي تكاد لا تصدق الموقف المخجل الذي تتعرض له دومًا معه، اتسعت نظراتها في حرج وشعرت بتلك النبضات العنيفة تضرب صدرها حينما تابع همسه العاثر:

-أنا حظي حلوكده معاكي

رأت ابتسامة عذبة ترسم على وجهه لكن ما لبثت أن تجمدت وتحولت للاضطراب وصوتًا صارمًا يناديه:

- "يامن"

ارتجفت "هالة" من نبرة "أوس" التي ألبكت بدنها وهربت من المكان قبل أن يزداد الموقف حرجًا بالنسبة لها، فكيف ستفسر لنفسها أو لغيرها ما حدث تَوًّا؟ تبعثها نظرات "يامن" حتى اختفت من أمامه ليعاود التحديق في ابن عمه الذي كان يرمقه بنظرات حادة نارية منذرة بتوبيخ لاذع، ورغم إفساده للحظات المميزة مع تلك الفتاة التي استحوذت على عقله مؤخرًا وشغلته كثيرًا إلا أنه توجس خيفة من ردة فعله الصارمة، تنحنح قائلًا وهو يخطو نحوه محاولاً إدعاء الثبات:

-كان في ملف شركة ...

قاطعته "أوس" بتصلب وقد بدت قسامته قاسية للغاية:

قبل ما تشوفلك حجة فارغة، ملكش دعوة بـ "هالة"، سامع!

بهتت تعايره مرددًا:

- "هالة!"

وقف ابن عمه الكبير قبالة يرمقه بنظرات غير متسامحة أو حتى متقبلة لأي تبرير واهٍ، ثم تابع محذرًا بلهجة أشد قسوة:

-إنت فاهمني كويس، ابعد عنها وشيلها من حساباتك، اسمك مايتحطش معاها في جملة مفيدة!

تذمر من تشدده فاعترض قائلًا:

ليه هو أنا هأذيها؟

عند تلك اللحظة قست نظرات "أوس" وتحول وجهه لشيء مخيف أجفل ابن عمه وهو يردد:

-متقدرش طول ما أنا موجود

ابتلع "يامن" ريقه ليرد مدافعاً عن نفسه:

-أنا مش بأتسلى معاها ولا

قاطعته بخشونة قبل أن يتكلم تبريره:

-أنا أصلاً مش هاستنى تعمل معاها أي حاجة

بهتت تعابيره للغاية وبدأ كالفرخ المبتل وهو يُجَاهِد لإظهار نواياه الحسنة:

-ومين قال كده؟ أنا حابب

رفع كفه مقاطعاً بتشنج:

-متحبش

يئس "يامن" من إفشال ابن عمه لمحاولاته المضنية لإثبات حسن نيته فردد باستياء:

-إديني فرصة أتكلم طيب

لوى ثغره معقّباً عليه:

-أنا فاهمك، وبأجييلك من الآخر، "هالة" متقربش منها، ودي الناهية!

تحولت ملامح "يامن" للعبوس الشديد ونظراته للامتعاض من تسلطه الحاد معه، بدا ما

يلقيه على مسامعه من تعليقات وتعنيفات ضوضاء مزعجة لم يصغ لأي منها، اكتفى بالإيماء

الصامت برأسه كتعبير عن إذعانه له ثم انصرف بعدها وهو منكس الرأس مشوش الأفكار،

ومع ذلك ظلت نظرات "أوس" مثبتة عليه، فهو يعي جيداً طبيعة تفكيره الطائش الذي ربما

سيؤذي فتاة بريئة كـ "هالة" تصادفت أقدارها مع من يذكره بتهوره السابق، دس كفيه في

جيبي بنطاله محدثاً نفسه بنبرة حاسمة:

مش هاسمح إن اللي حصل زمان يتكرر!

.....

-اللهم لك الحمد والشكر، ربنا يكملها على خير ويشفيها يا رب

قالتها ابنة أختها بسعادة متحمسة وهي تتلقى الأخبار السارة من خالتها عن آخر المستجدات الخاصة بتطورات الحالة الصحية لوالدتها، حيث خضعت الأخيرة لفحوصات أخيرة جادة تمهيدًا لتجهيزها لتلك العملية الحرجة والتي إن نجحت وأتت بثمارها ستمكن "فردوس" من استعادة بصرها، حدقت "تقى" أمامها وهي تضيف برجاء:

-طميني لو في جديد يا خالتي، أنا هافضل كده بالي مشغول عليكم

ردت عليها بنبرتها الحانية:

-حاضر يا حبيبتى، متقلقيش، المهم تخدي بالك من صحتك، ومن "أوس" و"حياة"، ماشي؟ ابتسمت قائلة بتنهيدة خافتة وهي تستند بمرفقها على الطاولة الخشبية التي تنتصف المطبخ الواسع والذي ظلت جالسة فيه منذ الصباح الباكر:

-دول في عينيا

-ربنا يباركك فيهم، أسيبك في رعاية الله يا "تقى"

مع السلامة يا خالتي

تمت بتلك العبارة وهي تعيد وضع الهاتف أمامها، تطلعت بشرود لنقطة في الفراغ تفكر في حال والدتها، اقترت منها "عفاف" لتسألها بلطف وهي تضع أمامها كوبًا من العصير الطازج:

-تحبي أحضرك حاجة ثانية؟

هزت رأسها بالنفي وهي تحاول الابتسام لها في ود:

-لا ماليش مزاج، أنا هاشرب العصير ده وخلاص

أشارت المدبرة برأسها وهي تعقب بنبرة عملية بحتة:

-ألف هنا، أنا هاطلع فوق أرتب الفيلا وأطمئن على "حياة"، ولو عوزتي حاجة نادي عليا
هاكون عندك على طول

ردت بامتنان:

-شكرا يا "عفاف"، أنا بأتعبك معايا طول اليوم

ريتت الأخيرة على كفها برفق قبل أن تقول تهذيب:

-الشكر لله، ده واجبي وشغلي قبل أي حاجة

تخرجت من ردها الطبيعي، فهي لا تتعامل معها كخادمة ومخدومتها بل كأمة ثانية لها تتولى
رعايتها وتهتم بشئونها وأمور صغيرتها، داعب وجهها بسملة لطيفة وهي تثني عليها:

-ربنا يخليكي ليا، أنا مش عارفة من غيرك كنت عملت إيه

مسحت "عفاف" برفق على كتفها وهي ترد:

-متقوليش كده، ربنا وحده اللي عالم معزتك عندي عاملة إزاي، عن إيدك يا بنتي

ثم تركتها ترتشف ما أعدته لها من مشروب صحي لتواصل عملها اليومي، وضعت "تقي"
الكوب في الحوض بعد أن انتهت من تناول ما فيه، لكن زك أنفها رائحة قوية وليست بالغريبة
عليها مما أثار فيها رغبة ما، جابت برأسها المكان وهي تردد بين جنبات نفسها بفضول:

-مش معقول تكون تبيؤات!

زاد فضولها وازدردت ريقها وقد بدت متحمسة لاكتشاف ذلك المثير الذي أوجج حواسها فجأة
ونهبها بطريقة غير طبيعية، تتبعت حاسة الشم الخاصة بها فأرشدتها إلى الثلاجة حيث تم وضع
بضعة برطمانات زجاجية مليئة بالمخللات الجاهزة، اتسعت ابتسامتها وتوهجت نظراتها مع وقوع
عينها على أحدهم، همست بفرحة عارمة وكأنها قد حظت بجائزة ذهبية:

-الله، بتنجان مخلل

التقطته بيدها ثم اعتدلت في وقفها لتدقق النظر فيه وهي تكمل حديث نفسها المتحمس:

ده شكله يفتح النفس

سارت به "تقى" حتى الطاولة الخشبية، سحبت المقعد للخلف وجلست عليه بأريحية منتزعة غطاء البرطمان الزجاجي لتبدأ بعدها في تناول المخللات الشهية، أغمضت عينها لتزيد من حالة الاستمتاع بما تتذوقه، عادت لتحقق في البقية الموضوعة بداخله متممة مع نفسها:

يا سلام، تحفة أوي

استمرت في تناول المزيد دون أن تعباً بتبعات الإفراط في أكل الطعام الحادق وتأثيره الضار عليها، انتفضت بفرح في جلستها حتى كاد أن يسقط البرطمان من يدها حينما سمعت صاحب الصوت المألوف يُناديها بخشونة:

- "تقى"، بتعملي إيه؟!

شحب وجهها كمن رأى شبحاً للتو وارتبكت لحضور "أوس" المباغت أمامها، أخفت سريعاً البرطمان خلف ظهرها وحاولت إدعاء الثبات وهي ترد:

- ولا حاجة، إنت أخبارك إيه؟

دنا منها زوجها متفحصاً إياها بنظرات شمولية تشك في تصرفاتها غير المبررة، تركز بصره على ذراعها المخبأ خلف ظهرها، ضاقت عيناه وهو يسألها مستفهماً:

- إيه اللي ورا ضهرك ده؟

تراجعت مبتعدة عنه مجيبة إياه كذباً:

م.. ما فيش

وقبل أن تختلق المزيد من الأعذار كانت قبضته الأقرب في الإمساك بذراعها، تأوّهت بألم خافت من أصابعه الغليظة التي استطاعت أن تكشف ما تخبئه عنه، انتزع من بين أناملها البرطمان ليحدق بعينين حانتين فيه وهو يعنفها بغلظة:

- تاني يا "تقى"!!

بررت له تهورها قائلة:

-ده أنا مكلتش إلا واحدة بس، و...

قاطعها بعصبية:

-إنتي عارفة إن ده غلط عليكي، والدكتورة محذراكي، وبرضوه مش في دماغك، بتعملي اللي
عاوزاه وبس

زمت شفيتها قليلاً لترد بامتعاض:

-نفسى راحت عليه، محصلش حاجة يعني!

اغتاظ من عدم أكثرائها فزاد من توبيخه قائلاً:

-أيوه، ولما تورى والأملاح تزيد ومتبقيش قادرة وتشتكي ساعتها بس هتعرفي إنك غلطانة؟!!

زفرت عالياً من منعه لما تحب مرددة بضيق:

خلاص يا "أوس"

ثم شبت على قدميها محاولة الوصول إلى البرلمان وهي تتابع حديثها بعبوس:

-هاته بس وأنا هارجعه مكانه

منعها من الاقتراب منه بوضع ذراعه أمام طريقها ليحول بينها وبينه قبل أن يعقب بصرامة:

-مافيش كلام من ده، وأنا بنفسى هتاكد إنه مش هابتكرر ثاني!

علقت باحتجاج كبير:

-ده ظلم

دفعها برفق من كتفها للأمام قائلاً بلهجة حادة:

-سميه زي ما تسميه، ويالا من هنا

يا "أوس" ...

هي كلمة، مفهوم!

بدت نبرته غير قابلة للتفاوض لذا لم تجد بداً من الاعتراض عليه، اضطرت أن تنصاع لأمره حتى وإن كانت كارهة لذلك، ضربت "تقي" الأرض بقدمها بتشنج، وظلت تبرطم بكلمات متبرمة أثناء خروجها من المطبخ، في حين تلوى فم "أوس" ببسمة ساخرة من أسلوبها المضحك في التذمر على تسلطه عليها، والذي يضيي القليل من المرح في حياته الجادة مما يهون عليه القليل من ضغوطات عمله المستمرة.

.....

انفجرت شفتاها بدهشة عجيبة وهي تستمع إلى ما قامت به أختها الصغرى من مآثر ربما لم تتجرأ هي على فعلها يوماً أو حتى تفكر في تنفيذها مع أشخاص كأمثال ذلك المهيب ذي السلطة، نهضت "بطة" سريعاً من على الفراش لتقترب من باب الغرفة، استرقت السمع بحذر تام ثم أطلت برأسها لتتلمص على والدتها، تنفست الصعداء لكون الأخيرة مشغولة بأعمال المنزل فلم تنتبه لما يقال بالداخل من ثثرة خطيرة، أغلقت الباب بهدوء وعادت إلى أختها تسألها بصوت خفيض:

-الباشا قالك إيه؟

أخرجت "هالة" زفيراً مهموماً من صدرها قبل أن تجيبها:

مرضاش طبعا

شعرت "بطة" بالارتياح لكون "أوس الجندي" أكثر عقلانية وحكمة عن أختها ذات التفكير الأرعن فرددت مدعمة إياه في قراره الصائب:

-كويس إنه عمل كده، راجل يفهم

اعترضت عليها "هالة" بضيق وقد ارتفعت نبرتها قليلاً:

-بأقولك أنا ...

قاطعتها محذرة بنظرات حادة وبلهجة جادة للغاية:

وطي صوتك، إتي مجنونة، أمك واقفة برا، إيه عاوزاها تعرف وتقلب الدنيا عليكي؟
احتدت نظرات "هالة" وتجهمت ملاحمها بامتعايض مقروء، لم تعقب على تحذيرات أختها القوية
التي تابعت بتأفف:

- ده احنا مصدقنا ربنا هداها ووقفك الباشا ده يساعدك ويمنع أذاها عنك، هو في حد لاتي
الراحة اليومين دول ويتأمر عليها؟ إيه عاوزة ترمي نفسك في الانكيس من ثاني؟
تجمدت عينها على وجه أختها وهي تواصل توييخها المزعوج لها باسترسالٍ لم يتوقف:
-واتي عارفاها ماهتصدق، هاتدورك على حد ثاني زي "منسي"، كفاية نصيبة واحدة!

كانت محقة فيما تقول، لكن ذلك الشعور الحائق المزعج الذي لازمها مؤخرًا كان الدافع الأساسي
للإقدام على ذلك، خاصة فيما يتعلق بتصرفات "يامن" معها في الأونة الأخيرة، والتي عمدت
إلى إخفائها كي لا تثير الفضول حول طبيعة تواجده بالقرب منها أو حتى تُوجد في رأس أختها
أفكارًا لا أساس لها من الصحة -وإن كانت تنكرها مؤقتًا- فتظن بها الظنون وتشعرها بمدى
خطئها، أسندت "هالة" ظهرها للخلف وردت بإحباطٍ ووجه ذلك الشاب متجسد في خيالها:
صعبان عليا نفسي!

لكرتها "بطة" في ذراعها وهي تقول ببرود:

-مايصعبش عليكي غالي، ركزي ياختي في مذاكرتك ومصلحتك الأول، وبعد كده ربك هيسهلها
حركت رأسها بإيماءة مستسلمة قبل أن تعلق باقتضاب:

هاشوف

حذرتها "بطة" من جديد لعلمها جيدًا بتفكيرها المعاند:

-بالله عليكي بلاش أمور الجنان دي ثاني، ماشي

-ربنا يسهل

قالتها "هالة" بعدم اقتناع وهي تشرد بنظراتها في الفراغ مستعيدة آخر مشهد جمعها بـ "يامن" حيث تلقتها أحضانه مصادفةً وحاصرتها نظراته المتأملة لها فشعرت بنفس السخونة تجتاح بشرتها من جديد، وبخفقات متلاحقة وترت دقات قلبها، اختلست النظرات نحو أختها التي كانت ملهية عنها بمداعبة رضيعها فلم تلاحظ ذلك الارتباك الذي اعتراها، أدارت جسدها للجانب لتتخاضى نظراتها، ادعت انشغالها بمطالعة أحد الكتب الدراسية كوسيلة إلهاء مؤقتة عن التفكير فيما يخصه.

.....

راجعت خطتها الماكرة لأكثر من مرة لتتأكد من عدم وجود ثغرات قد تعيق تنفيذها بالصورة الكاملة المرسومة في عقلها، هي أرادت ضرب خصمها في مقتل، ولن يتم ذلك إلا باستخدام أسلحة توظف فيها أقصى قدراتها العقلية بشكل غير متوقع لتضاهي قدراته الذكائية العالية، استغلت "رغد" المعلومات التي أمدتها بها "ناريمان" لتقسم خطتها إلى عدة أجزاء كي يتم تنفيذها بالتعاقب دون أن تثير الريية حولها ولتضمن في نفس الآن تحقيق نتائجها المرجوة بالكامل، أما عن ذلك الجزء المتعلق به، فقد كانت متلهفة للشروع فيه فوراً، حيث بات إفساد يومه وتنغيص حياته مع البلهاء التي تزوجها هوساً حقيقياً بالنسبة لها، جلست على طرف الفراش مراقبة هاتف غرفتها الفندقية بنظرات غامضة، أخفضت نظراتها نحو هاتفها المحمول لتقول باقتضابٍ آمر:

-نفذ دلوقتي!

اعتمدت خطتها ببساطة على أن يأتي أحدهم لاستقبال الفندق كمنسوب عن "أوس الجندي" الذي يطلب رؤية تلك النزيلة في التو والحال مع إثارته لبعض الجلبة بالمكان ليحجر موظفي الاستقبال على مهافتها للقاءه تجنباً للفضائح والإزعاج لرواد الفندق، ثم يأتي دورها بعد ذلك في ادعاء الذهاب إليه والتحجج برغبتها في تناول الطعام بغرفتها لتتأكد من رؤية بعض الشهود لها وهي في أوج جمالها قبل أن تختفي لبعض الوقت لتعود بعدها وهي تهوول مستغيثة بمن ينجدها بعد أن تُمزق ثيابها وتُلطخ مساحيق التجميل بوجهها ليظن المتطلع إليها أنه قد تم الاعتداء عليها بطريقة وحشية، وبالفعل نجحت في ذلك، وأقنعت الجميع بدهائها الشيطاني

أنها ضحية لأحدهم، انهارت "رغد" على الأرضية الرخامية صارخةً بهيسترية وهي تحاول تغطية جسدها المتعري بكفها:

-الحقوني، بلغوا البوليس

أسندتها إحدى الموظفات وأجلستها على الأريكة في البهو، وهرعت أخرى لإحضار الماء لها كنوع من إفاقتها، اقترب منها مدير الفندق يسألها بقلق:

-حضرتك كويسة يا فندم؟

صرخت به ببكاءٍ حاد:

-اطلب البوليس، أنا مش هاسكت

حاول تهدئتها قائلاً:

-تمام يا فندم، هنكلمه، بس ممكن نعرف في إيه؟

تقطع صوتها وهي تجيبه:

كان عاوز .. في

بترت عبارتها عمداً لتتخربط في نوبة بكاء زائفة مصحوبة بصراخ مقلق مما وتر جميع المحاطين لها، أضاف المدير مردداً باهتمام وهو يشير بيده:

-اهدي يا فندم عشان أقدر أفهم منك اللي حصل

ثم لوح بذراعه للموظف الواقف على يساره وهو يأمره:

هات fresh juice للهانم بسرعة

رد عليه بامثالٍ تام:

-حاضر يا فندم

ركز مدير الفندق أنظاره من جديد على النزيلة التي كانت في حالة يرثى لها وتشير بوضوح لمحاولة اعتداءٍ جسدية صريحة عليها، وبمخرجٍ شديد سألها:

حضرتك تعرفي اللي عمل فيكي كده؟

كفكت عبارتها المناسبة بظهر كفها ليزداد تلطخ بشرتها بمساحيق التجميل وهي ترد:

أيوه ..

بات الجميع مهتما بمعرفة هوية ذلك الحقير القدر الذي ارتكب فعلة شنيعة كتلك، اهتزت شفتا "رغد" وهي تتمم:

ابن عمي ..

نظر لها مدير الفندق بغرابة وقد انزوى ما بين حاجبيه بقوة، شهقت بأنفاس غير منتظمة لتضيف بعدها بخزي مصطنع:

- "أوس الجندي"

.....

كانت في طريق عودتها بصحبة رفيقتها المقربة بعدما انتهت من جولة صغيرة بأحد المولات الشهيرة لتبتاع ما ينقصها، أدارت "ليان" عجلة القيادة لتتحرف بالسيارة نحو الطريق الفرعي الهادئ في حركته المروية دون أن تلاحظ تلك السيارة التي تتبعها منذ برهة، انشغلت بالعبث بالمحطة الإذاعية باحثة عن أغنية مناسبة تدندن عليها، سألتها "جايدا" بحمايس وهي تنظر إلى طلاء أظافرها:

ناوية تعملي إيه في ال holiday (العطلة)؟

هزت كتفها في حيرة وهي تجهيها:

I don't know- بس محتاجة أرتاح بعد الفترة دي

وافقتها صديقتها في رأيها:

فعلاً، احنا كنا مضغوطين أوي

ثم ضحكت مازحة:

بس إتي معذورة، هاتبتي ماي كمان
توترت تعبيرات وجه "ليان" وهي ترد عليها:

-متفكريش

غمزت لها "جايدا" برقة:

-واو، ماي كيوت على الآخر

زفرت الأخيرة بضيق:

-اووف، أنا أصلاً مرعوبة من الموضوع ده أوي، حاسة إني مش هاعرف أتعامل مع البيبي
اللي جاي، بجد shocked (مصدومة) و...

قاطعتها مؤكدة لتخفف من حدة قلقها الطبيعي المصاحب لتلك الفترة من الحمل:

كلنا معاكي هنساعدك، don't worry

ظلت كلتاهما تثرثران على خططتهما المستقبلية فيما يخص الجنين القادم إلى أن قطعت إحدى
سيارات النقل الصغيرة المحملة بالنساء الطريق عليهما وكادت أن تجبرهما على الانحراف عن
مسارهما، تعالت صرخات النساء لتشتعل الأجواء توترًا وحرَجًا، تشبثت "ليان" بالمقود جيدًا
وتحكمت في عجلة القيادة بحرفية رغم ارتباكها لتتفادى أي اصطدام وشيك، أبطأت سرعة
السيارة وهي تصيح بنرفزة:

ده غبي ده ولا إيه!

ردت عليها "جايدا" بانزعاج كبير وهي تتطلع إلى السيارة الغريبة:

-مش فاهمة، هو فاكّر نفسه سايق في الشارع لوحده؟ عالم متخلفة

ظنت في البداية أنه خطأ غير مقصود منه ليزعجها، لكن ازداد توترها وتضاعف قلقها مع قيامه
بتضييق المسافات من جديد بينها ليجبرها على الضغط على مكابح السيارة، اضطرت أن
تتوقف على الجانب قبل أن تصطدم بمؤخرة سيارته فتتسبب في إحداث أضرار جسيمة،

اشتعلت الأجواء بالصراخ والعيول من النساء الراكبات في الخلفية، هربت الدماء من عروق "ليان" وشعرت بانفلات أعصابها، في حين هتفت "جايدا" بخوفٍ وقد رأت بعينها ما يفعله عن عمدٍ:

حاسبي، ده بيكسر عليكي، ده مجنون!

أوقفت "ليان" السيارة على الجانب لتهدئ من روعها، ثم أخفضت زجاج نافذتها الملاصقة لها لتطل برأسها وهي تصيح به بانفعالٍ:

في إيه؟ إنت غبي!

ظنت في البداية أن السائق سيعتذر لها، لكن ما لم تضعه في الحسبان هو قيام إحدى السيدات بالتهليل بعصبيةٍ وكأنها تنتوي الاشتباك معها بعد أن نزلت من صندوق السيارة:

جري يا بت منك ليها، هو عشان ربنا إداكم شوية فلوس تدوسوا بيها على الغلابة

ترجلت "ليان" من السيارة لتقترب منها وتواجهها بشجاعةٍ، تأملت الهيئة الشعبية لثيابها فأدركت أنها تتعامل مع طبقة اجتماعية تختلف كلياً عنها، نظرت لها بضيقٍ وهي تدافع عن نفسها:

على فكرة احنا مش غلطانين

لكرتها واحدة أخرى بقسوةٍ في كتفها لتثير انتباهها نحوها:

ما تراعوا ربنا شوية، هتفتروا علينا ولا إيه

التفتت "ليان" نحوها ثم رمقتها بنظرة محتدة وهي ترد محتجة:

إنتو اللي جاينين علينا مش احنا و...

قاطعتها المرأة صارخة بها بصوتٍ مهددٍ أجفل بدنهما ومستخدمة يدها في التلويح:

إنتي هاتعلي صوتك، لأ بقي ده إنتي متعرفيش احنا ممكن نعمل فيكي إيه

تدخلت "جايدا" على الفور في الحوار لتحول دون تأزم الوضع:

على فكرة السواق بتاعكم هو اللي كسر علينا، الغلط من الأول منه هو

سخرت منها المرأة بتهكم صارخ حمل سبة قاسية:

-اركني على جمب يا

استشاطت "ليان" غضبًا من إهاتها غير المتوقعة لرفيقتها، ورفعت سبابتها تحذرهما بتشنج:

-احترمي نفسك معانا

ردت المرأة بتحدٍ قاصدة استفزازها لاستدراجها نحو مشاجرة نسائية حتمية:

-إنتي بتشتميني؟ والله لأجيبك من شعرك

نظرت لها "ليان" شزرًا وقبل أن ترد كانت الأخيرة الأسبق في الإمساك بكومة من شعرها لتجذبها منه بشراسة قاصدة لإيلامها، صرخت بتأوؤ وهي تحاول تخليص خصلات شعرها من بين أناملها، هرعت "جايدا" لمساعدة رفيقتها ونجدتها صائحة بخوف كبير:

-إنتي بتعملي إيه؟

لكنها رغم ذلك تلقت ضربة عنيفة في كتفها أجبرتها على الانحناء، وفي أقل من ثوانٍ معدودة حاوطت النسوة الاثنتين وانهالت بالضرب المبرح عليهما، تكومت كلتاهما على الأرضية الإسفلتية وتسابقت النساء في إفراغ شحنة غضبين فيهما، فقدت "ليان" قدرتها على صد الركلات العنيفة المتلاحقة التي نالت من وجهها وبطنها وظهرها، حاولت حماية جنينها من بطشهن المباغت، لكنها فشلت أمام قسوة الضربات وعنفها، خرجت منها صرخة أخيرة حملت ألمًا قويًا جعل بدنها يرتجف بالكامل ويتشنج لتنساب بعدها خيوط الدماء من بين ساقها وتلطخ ثيابها، صاحت إحدى النساء عاليًا بعد أن تأكدت من تحقيق المطلوب منها:

-كفاية كده يا نسوان

انصاعت البقية لأمرها وابتعدت عن الاثنتين ليقترب من ذلك الرجل الجالس بجوار السائق، التقط بهاتفه المحمول صورًا عديدة ثم قام بإرسالها لأحدهم، أعقب ذلك اتصالاً هاتفيًا أردف قائلاً فيه:

كله تمام يا فندم

أنهى مكالمته الغامضة مع ذلك المجهول ثم جثا على ركبته أمام "ليان" ليدقق النظر فيها ويتفحصها عن قرب، حانت من الأخيرة نظرة مشوشة تأملت فيها ملامح وجهه وثيابه المنمقة قبل أن تحبو أنفاسها ويغلف الظلام جفניה لتفقد بعدها وعيها.. وكذلك جنينها
!!

.....
-نهاية الجزء الأول-

يتبع <<<<

الأعمال السابقة للكاتبة منال سالم:

الأعمال الالكترونية:

- دعني أحطم غرورك
- رهان ربحه الأسد
- الفريسة والصيد - الجزء الأول
- خطأ لا يمكن إصلاحه (رفقاً بالقوارير)
- فريسة غلبت الصيد - الجزء الثاني
- فراشة أعلى الفرقاطة - الجزء الأول
- دمية لعنها الحب (نوفيل قصيرة)
- كتاب الحب (وفيل قصيرة)
- سيدرا (نوفيل)
- وجه لا يصدأ أبداً (نوفيل قصيرة)
- اليوميات الرمضانية (نعمل إيه في أماني، حتى مطلع الفجر، في بيتنا بطة، خير يعودلك شر يرجعلك)
- أربعة شكلوا حياتها (رواية شرقية)
- شهد الأفاعي (رواية شرقية)
- كبرياء رجل شرقي (نوفيل قصيرة)
- راسين في الحلال
- ذئاب لا تعرف الحب (الجزء الأول)

- ذئاب لا تغفر (الجزء الثاني)
- وانحنت لأجلها الذئاب (الجزء الثالث)
- فتاة الكومبو (نوفلا قصيرة)
- ميري يتحدى ملكي (يوميات رمضان مشتركة مع ياسمين عادل)
- وبقي منها حطام أنثى (عمل روائي مشترك مع ياسمين عادل)
- دواعي أمنية .. مشددة
- الدكان
- ذو الوشم (قصة قصيرة)
- أطياف عابثة (قصة قصيرة)
- قبضة من أثرها (قصة قصيرة)
- المكتوب الأخير (قصة قصيرة)
- وسقطت ورقة التوت (قصة قصيرة)
- وليس لي غيرها حبيبة (قيد الكتابة)
- ديلارا (قصة قصيرة)
- هي والربان (الجزء الثاني من فراشة أعلى الفرقاطة)
- خطوات نحو الهاوية (قصة قصيرة)

الروايات الورقية:

- كلارا (عمل مشترك مع حنين الحسيني) عن دار إبداع

- ذئاب لا تعرف الحب (الجزء الأول) عن دار إبداع
- ذئاب لا تغفر (الجزء الثاني) عن دار إبداع
- وانحنت لأجلها الذئاب (الجزء الثالث) عن دار إبداع
- للحب شعائر خاصة عن دار إبداع